شـرح
الأصول الثلاثة

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ

شَرْح
مَعَالي الشَّيخ الدكتور
صَالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

اعتنى بنشرها والتعليق عليها
عبد السلام بن عبد الله السليمان

دار الإمام أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

شــرح

الأصول الثلاثة

الطبعة الثانية لـ :

دار الإمام أحمد
للنشر والتوزيع والصوتيات

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

١٩٨٢٩ / ٢٠٠٦م

دار الإمام أحمد

٦ شارع عزيز فانوس - منشية التحرير - جسر السويس - القاهرة

هاتف: ٠٠٢٠٢/٢٢٤١٤٢٤٨ تليفاكس: ٠٠٢٠٢/٢٦٣٦٥٦٣٨ جوال: ٠٠٢/٠١٠٦٠١٤٩٧٨

١١ (أ) درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

هاتف: ٠٠٢٠٢/٢٥١٠٢٣٩٧ جوال: ٠٠٢/٠١٠٥٢٦٤٠٢٠

E-Mail:Dar_Alemam_Ahmad@yahoo.Com
WWW. DarAlemamAhmad.Com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الشرح

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام علىٰ نبيِّنا محمدٍ وعلىٰ آله وصحبه أجمعين:

وبعد: فبين أيدينا هذه الرسالة -رسالة ثلاثة الأصول-وهي رسالة جليلة مختصرة، مؤيَّدة بالأدلَّة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وهذه الرسالة في أصل عظيم من أصول الإسلام، وهو العقيدة، وكان العلماء يهتَمُّون بهذه المختصرات، يؤلفونها، ويتعبون علىٰ اختصارها وتهذيبها، ثم يُحفِّظونها لطَلَبتِهم؛ لتبقىٰ أصولًا عندهم، وذخيرةً يستفيدون منها، ويُفيدون منها.

والبداءةَ بهذه المختصرات هي الأساس لطلبة العلم، فطالب العلم يبدأ بالتعلم شيئًا فشيئًا يأخذ من مبادئ العلم وأصوله، ويتدرج فيه.

فهذه المختصرات طريق المطوَّلات؛ فلا يُمكنُ أن تُفهَمَ المطوَّلات إلا بعد فهم المختصرات، والتدرج منها شيئًا فشيئًا؛ ولهذا قالوا في معنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩].

إن الربَّانيين هم الذين يبدءون بصغار مسائل العلم قَبْل كباره، يُربُّون أنفُسَهم وطلابهم ابتداءً من المسائل الصغيرة إلىٰ المسائل الكبيرة، وهذا شيء طبيعي؛ لأن كل الأشياء تبدأ من أصولها وأساساتها ثم تكبر وتعظم بعد ذلك.

فأما الذي يهجُمُ علىٰ العلم هجومًا من أعلاه، فهذا يتعب، ولا يحصُل علىٰ شيء، بينما الذي يبدأ من الأصول ويتدرَّج هذا هو الذي -بإذن الله- يسير مع الطريق الصحيح والاتجاه السَّليم.

قال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾ [البقرة:١٨٩].

هؤلاء سألوا عن الأهلَّة، لماذا يبدأ الهلالُ صغيرًا ثم يكبُرُ ثم يكبُرُ حتىٰ يتكاملَ ثم يصغرُ حتىٰ يعودَ هلالًا؟ فعَتَبَ الله عليهم، ووجَّهَهم إلىٰ السؤال عما ينفعُهم، وأن يأتوا بيوتَ العلم من أبوابها.

أما السؤالُ عن الهلال وأحواله وصغره وكبره، فهذا لا فائدةَ لهم فيه؛ بل الفائدة هي أن يسألوا عما يحتاجون إليه وهو معرفة فوائد الأهلَّة، ولهذا قال: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ بيَّن لهم فوائدها، وهي أن الله جعلَها مواقيتَ للناس يعرفون بها العبادات والمعاملات والآجال، وغير ذلك.

فأرشدهم إلىٰ فوائد الأهلَّة، ولم يُجِبْهُم عن سؤالهم عن حقيقة الأهلة؛ لأنه ليس لهم في ذلك فائدة وليوجههم إلىٰ ما ينبغي أن يسألوا عنه، وهو أبواب العلم لا ظهور العلم والمسائل الفُضولية التي لا يحتاجون إليها، وإن احتاجوا إليها فهي حاجة قليلة.

مقدمة المؤلف

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: بسم الله الرحمن الرحيم [١].

---

[١] ابتدأ رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الرسالة بالبسملة اقتداءً بكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، فإن أول ما يقع عليه بصرك في المصحف، وقبل كل سورة منه: «بسم الله الرحمن الرحيم».

فالبداءة بها في الرسائل، وفي الكتب، وفي المؤلفات، اقتداءً بكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، وكذلك النبي ﷺ كان يكتبها في أول رسائله حينما يكتب إلىٰ الأمراء والرؤساء، وإلىٰ من في أقطار الأرض يدعوهم إلىٰ الإسلام، يبدأ كتابته بـ:«بسم الله الرحمن الرحيم».

وكان ﷺ يفتتح أحاديثه وكلامه بـ: «بسم الله الرحمن الرحيم» مما يدلُّ علىٰ أن البداءة بـ: «بسم الله الرحمن الرحيم» سُنة الرسول ﷺ، كما كان سُليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لما كتب إلىٰ بلقيس ملكة سبأ بدأ كتابه بـ: «بسم الله الرحمن الرحيم»: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٢٩-٣١]. ينبغي البدء بـ: «بسم الله الرحمن الرحيم» في كلِّ أمرٍ له أهميَّة، وكلِّ مؤلَّف له أهمية، وله قيمة، وكل رسالة.

وعلىٰ هذا فالذين لا يبدءون مؤلفاتهم ورسائلهم بـ: «بسم الله الرحمن الرحيم» هؤلاء تركوا السنة النبوية، والاقتداء بكتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، وربما بسبب ذلك أن كتبهم

هذه ورسائلهم ليس فيها بركة، وليس فيها فائدة؛ لأنها إذا خلت من «بسم الله الرحمن الرحيم»، فإنها منزوعة الفائدة.

لماذا تركوا «بسم الله الرحمن الرحيم»؟ إنما تركوها؛ لأنها سُنَّة وهم يَنْفِرون من السنة، أو يقلدون من يَنْفِر من السنة، فينبغي التنبه لمثل هذا.

فمعنىٰ «بسم الله الرحمن الرحيم»: الاستعانة باسم الله.

فقوله: باسم الله، جارٌّ ومجرور، متعلِّق بمحذوف تقديره: أستعين باسم الله الرحمن الرحيم، أو: أبتدئ بـ: بسم الله الرحمن الرحيم تبرُّكًا بها، واستعانةً بالله عَزَّ وَجَلَّ.

فهي مَطْلَعٌ عظيمٌ للكلام وللكتب والرسائل، فالإنسان يستعين بالله في بدايتها، ويتبرَّك باسمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

الرسالة الأولى: المسائل الأربع التي تضمنتها سورة العصر - (العلم)

اعلَمْ -رحمَكَ الله- [٢].

---

[٢] قوله: «اعلم» كلمة تشير إلىٰ الاهتمام بالموضوع، فإذا قال: اعلم؛ فمعناه: أن الأمر الذي سيلقيه عليك أمرٌ مهمٌّ، فهذه الكلمة تدلُّ علىٰ أهمية الموضوع التي يبدأ بها فيه.

ومعنىٰ اعلم: فعل أمر من العِلْم، أي: تعلَّمْ، والعِلْم: هو إدراك الشيء علىٰ ما هو عليه في الواقع، أو تصور الشيء علىٰ طبق الواقع.

وإدراك الشيء علىٰ خلاف ما هو عليه في الواقع، أو تصور الشيء علىٰ خلاف الواقع هو الجهل، وهو ضدُّ العلم.

قوله: «رحمك الله» هذا دعاءٌ لطالب العلم، فالشيخ يدعو لطلبة العلم بأن يرحمهم الله، وأن يلقي عليهم رحمتَه ﷻ، فهذا فيه التلطُّف من المعلِّم بالمتعلِّم، وأنه يبدأ بالكلام الطيِّب، والدعاء الصالح، حتىٰ يؤثِّر ذلك فيه، ويُقبِل علىٰ معلِّمه، أما إذا بدأ المعلِّم بالكلام القاسي، والكلام غير المناسب، فإن هذا يُنفِّره.

فالواجبُ علىٰ المعلِّم، وعلىٰ مَنْ يدعو إلىٰ الله، وعلىٰ مَنْ يأمرُ بالمعروف، وينهىٰ عن المنكر: التلطُّف مع مَنْ يُخاطِبه بالدعاء له، والثناء عليه، والكلام الليِّن،

فإنَّ هذا أدعىٰ للقبول.

أما المعانِدُ والمكابرُ فإن هذا له خطابٌ آخر، قال الله سبحانه: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٦].

فالذين ظلموا من أهل الكتاب، وعاندوا، وكابروا هؤلاء لا يخاطَبون بالتي هي أحسن؛ بل يُخاطَبون بما يردَعُهم، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [التوبة:٧٣]. المنافقون لا يجاهدون بالسلاح، وإنما يجاهدون بالحجة والكلام والرَّدِّ عليهم بالغلظة ردعًا لهم وتنفيرًا للناس عنهم.

وقال تعالىٰ فيهم: ﴿وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴾ [النساء:٦٣]. هؤلاء لهم خطابٌ خاصٌّ؛ لأنهم أهلُ عِنادٍ ومكابرة، ولا يريدون الحقَّ؛ بل يريدون تضليل الناس؛ فهؤلاء يُخاطبون بما يَليق بهم.

أما الطالب المسترشد فهذا يُخاطب بالرفق والرحمة واللُّطف؛ لأنه يريد الحقَّ، ويريد العلم والفائدة.

أنَّه يجبُ علينا تعلُّمُ أربعِ مسائلَ [٣].

الأُولىٰ: العِلْمُ [٤].

قوله: «اعلم رحمك الله»: دعاء لك بالرحمة، فإذا رحمك الله، فإنك تكون سعيدًا بها في الدنيا والآخرة، إذا دخلت في رحمة الله، وهذا دعاء من عالم جليل، ورجل صالح يُرجَىٰ له القبولُ -إن شاء الله-.

[٣] قوله: «يجب»، الواجب: هو ما يُثابُ فاعلُه، ويعاقَبُ تاركُه، والمستحبُّ: هو ما يُثابُ فاعلُه ولا يعاقَبُ تاركُه، والمباح، لا ثواب في فعله ولا عقابَ في تركه.

فقوله: «يجب» يعني أن هذا الأمر ليس هو من المستحب، ولا من المباح؛ بل هو من الواجب العيني.

فإذا تركنا تعلُّمَ هذه المسائل فإننا نأثم؛ لأن هذا شأن الواجب، لم يقل: يُستحب لنا أو يستحسن لنا؛ بل قال: يجب علينا وجوبًا، والوجوب معناه: الحَتْم، من تَرَكه يأثم، ولأن العلم لا يُحصَلُ عليه إلا بالتعلُّم، والتعلُّم يحتاج إلىٰ عناية وجهد ووقت، ويحتاج إلىٰ فهم وإلىٰ حضور قلب، هذا هو التعلُّم.

قوله: «أربع مسائل»: يعني: مباحث، سُمِّيت مسائل؛ لأنها يجب أن يُسألَ عنها، ويُعنَىٰ بها.

[٤] قوله: «العلم»: المراد بالعلم هنا هو العلم الشرعي؛ لأنه هو الذي يجب تعلُّمه، وهذه المسائل يجب تعلُّمها علىٰ كلِّ مسلم ذكر أو أنثىٰ، حرٍّ أو عبدٍ، غنيٍّ أو فقير، مَلِكٍ أو صُعْلُوك؛ كل مسلم يجب عليه أن يتعلَّم هذه المسائل الأربع.

وهذا ما يسميه العلماء بـ: «الواجب العَيْنِيِّ»، وهو الذي يجب علىٰ كل أحد من المسلمين، فالصلوات الخمس علىٰ الرجال والنساء، وصلاة الجماعة في المساجد علىٰ الرجال، هذا واجب علىٰ كلِّ فرد من المسلمين أن يتعلَّمها، ولذلك قال: يجب علينا، ولم يقل: يجب علىٰ بعضنا، وإنما قال: يجب علينا، يعني: معشر المسلمين، فهذا من العلم الذي يجب تعلُّمه علىٰ الأعيان؛ لأن العلم علىٰ قسمين:

الأول: ما يجب تعلُّمه علىٰ الأعيان، فلا يُعذَرُ أحدٌ بجهله، وهو ما لا يستقيم الدينُ إلا به، مثل: أركان الإسلام الخمسة، التي هي: الشهادتان، وإقامُ الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصومُ رمضان، وحجُّ بيت الله الحرام، لا يجوز لمسلم أن يجهلها؛ بل لابدَّ له أن يتعلَّمها.

لأن تعلُّمَ معنىٰ الشهادتين إنما هو تعلُّم العقيدة، يتعلَّم المسلم العقيدة من أجل العمل بها، ويتعلم ما يُضادها من أجل أن يتجنبه، هذا مضمون الشهادتين.

كذلك يتعلم أركان الصلاة، وشروط الصلاة، وواجبات الصلاة، وسنن الصلاة؛ لابدَّ أن يتعلَّم بالتفصيل هذه الأمور، ليس مجرد أنه يصلي وهو لا يعرف أحكام الصلاة، كيف يعمل الإنسان عملًا وهو لا يعلم هذا العمل الذي يؤديه؟ كيف يؤدي الصلاة، وهو جاهل بأحكامها؟ فلابدَّ أن يتعلَّم أحكام الصلاة، ومُبطلات الصلاة، لابدَّ من تعلُّم هذا.

كذلك يتعلم أحكام الزكاة، ويتعلم أحكام الصيام، ويتعلم أحكام الحج، فإذا أراد أن يحج وَجَبَ عليه تعلُّمُ أحكام الحج، وأحكام العمرة، من أجل أن يؤدي هذه العبادات علىٰ الوجه المشروع.

وهذا القسم لا يُعذر أحد بجهله، وهو ما يسمىٰ بالواجب العيني علىٰ كل مسلم.

القسم الثاني من أقسام العلم: هو ما زاد عن ذلك من الأحكام الشرعية التي تحتاجها الأمةُ بمجموعها، وقد لا يحتاجه كل أحد بعينه، مثل أحكام البيع وأحكام المعاملات، وأحكام الأوقاف، والمواريث، والوصايا، وأحكام الأنكحة، وأحكام الجنايات، هذه لابدَّ منها للأمَّة؛ لكن لا يجب علىٰ كل فرد من الأمة أن يتعلَّمها؛ بل إذا تعلَّمها مَنْ يَحصُل به المقصودُ من العلماء كفَىٰ هذا؛ ليقوموا بحاجة المسلمين من قضاء وإفتاء، وتعليم وغير ذلك، هذا يسمىٰ واجب الكفاية الذي إذا قام به مَنْ يكفي سَقَطَ به الإثمُ عن الباقين، وإذا تركه الجميع أَثموا جميعًا.

فلابدَّ للأمة من أناس يتعلَّمون هذا القسمَ؛ لأنهم بحاجة إليه؛ لكن ما يقال لكل واحد: يجب عليك أن تتفقه في هذه الأبواب؛ لأنه قد لا يتأتىٰ هذا لكل أحد، وإنما يختصُّ هذا بأهل القدرة وأهل الاستطاعة من الأمة؛ ولأنه إذا تعلَّم هذا بعضُ الأمة قام بالواجب بخلاف القسم الأول فكلُّ واحدٍ مسئول عنه بنفسه؛ لأنه لا يمكن أن يعمل هذه الأعمال إلا عن علم، ولهذا قال الشيخ: يجب علينا، ولم يقل: يجب علىٰ المسلمين؟ أو: يجب علىٰ بعضهم؛ بل قال: يجب علينا، أي: علىٰ كل واحد منا وجوبًا عينيًّا.

ولنعلم أيضًا قبل الدخول في المسائل: أن المراد بالعلم الذي يجب علىٰ الأمة إما وجوبًا عينيًّا، أو كفائيًّا، أنه العلم الشرعي الذي جاء به الرسول ﷺ.

أما العلم الدنيوي كعلم الصناعات والحِرَف والحساب والرياضيات والهندسة، فهذا العلم مباح، يُباح تعلُّمه، وقد يجب إذا احتاجت الأمةُ إليه، يجب علىٰ

من يستطيع؛ لكن ليس هو العلم المقصود في القرآن والسنة، والذي أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ أهله ومَدَحَهم، والذي قال فيه النبي ﷺ: «**العلماء ورثةُ الأنبياء**»(١). المراد: العلم الشرعي.

وأما العلم الدنيويُّ فمن جهله فلا إثم عليه، ومن تعلَّمه فهو مباح له، وإذا نفع به الأمة فهو مأجور عليه ومثاب عليه، ولو مات الإنسان وهو يجهل هذا العلم لم يؤاخذ عليه يوم القيامة؛ لكن من مات وهو يجهل العلم الشرعي خصوصًا العلمَ الضروري، فإنه يُسأل عنه يومَ القيامة، لِمَ لَمْ تتعلم؟ لماذا لَمْ تسأل؟ الذي يقول: إذا وضع في قبره: ربِّي الله، والإسلام ديني، ونبيي محمدٌ ﷺ هذا ينجو، يقال له: من أين حصَّلت هذا؟ يقول: قرأت كتاب الله وتعلمته.

أما الذي أعرَضَ عن ذلك فإنه إذا سئل في قبره فإنه يقول: هاه هاه، لا أدري سمعتُ الناسَ يقولون شيئًا فقلتُه، فهذا يؤجَّج عليه قبره نارًا -والعياذُ بالله- ويضيَّقُ عليه فيه حتىٰ تختلف أضلاعُه، ويُصبح في حفرة من حُفَر النار؛ لأنه ما دَرَىٰ وما تلا، فيقال له: «**لا دَرَيْتَ، ولا تليت -أو: لا تلوت-**»(٢). فهو لم يتعلم، ولم يقتدِ بأهل العلم، وإنما هو ضائع في حياته، فهذا الذي يئول إلىٰ الشَّقاء، والعياذ بالله.

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب العلم، باب: العلم قبل القول والعمل، بإثر الحديث (٦٧)، وأبو داود (٣٦٤١)، وابن ماجه (٢٢٣)، والترمذي (٢٦٨٢) من حديث أبي الدرداء ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري مختصرًا من حديث أنس (١٣٣٨)، وأخرجه مسلم مختصرًا أيضًا من حديث أنس ﷺ (٢٨٧٠)، وأخرجه أبو داود من حديث البراء بن عازب ﷺ الطويل (٤٧٥٣).

وهو معرفةُ الله، ومعرفةُ نبيِّه [٥].

فقوله: «العلم»: هذا هو العلم الشرعي المطلوب منا جماعةً وأفرادًا، وهو معرفة الله بأسمائه وصفاته، ومعرفة حقه علينا، وهو عبادته وحدَه لا شريك له، فأولُ ما يجب علىٰ العبد هو معرفةُ ربه ﷻ وكيف يعبده.

[٥] قوله: «وهو معرفة الله» كيف يعرف العبد ربَّه؟ يعرفه بآياته، ومخلوقاته، فمن آياته: الليل والنهار، ومن مخلوقاته: الشمس والقمر، كما يأتي بيان هذا -إن شاء الله-.

يعرف الله بآياته الكونية وآياته القرآنية، إذا قرأ القرآن عرف الله ﷻ أنه هو الذي خلق السموات والأرض، وأنه هو الذي سخَّر ما في السموات والأرض، وأنه هو الذي يحيي ويُميت، وهو علىٰ كل شيء قدير، وأنه الرحمن الرحيم، فالقرآن يعرِّف بالله ﷻ، وأنه هو الذي أنعم علينا بجميع النعم، وأنه هو الذي خلقنا ورزقنا، فإذا قرأت القرآن عرفت ربك ﷻ بأسمائه وصفاته وأفعاله.

وإذا نظرت في الكون عرفت ربك ﷻ أنه هو الذي خلق هذا الخَلْق، وسَخَّر هذا الكون، وأجراه بحكمته وعلمه ﷻ، هذا هو العلم بالله ﷻ.

قوله: «ومعرفة نبيه»: هو محمد ﷺ؛ لأنه هو المبلغ عن الله ﷻ، وهو الواسطة بيننا وبين الله ﷻ في تبليغ الرسالة، لابدَّ أن تعرفه، تعرف مَنْ هو؟ وتعرف نَسَبَه، وتعرف بلده، وتعرف ما جاء به ﷺ، تعرف كيف بدأه الوحي، وكيف قام بالدَّعوة إلىٰ الله ﷻ في مكة والمدينة، تعرف سيرة الرسول ﷺ ولو باختصار.

ومعرفةُ دين الإسلام [٦] بالأدلة [٧].

الرسول ﷺ: هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف إلىٰ آخر النسب النبوي الشريف الذي ينتهي إلىٰ إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، وتعرف كيف عاش قبل البعثة، وكيف جاءه الوحي من الله ﷻ، وماذا عمل -عليه الصلاة والسلام- بعد بعثته، تعرف ذلك بدراسة سيرته ﷺ، ولا يليق بالمسلم أن يجهل الرسول ﷺ، كيف تتبع شخصًا وأنت لا تعرفه؟! هذا غير معقول.

[٦] **قوله:** «معرفة دين الإسلام»: الذي هو دين هذا الرسول ﷺ؛ بل هو دين الله ﷻ الذي أمر به عباده، والذي أمرك باتباعه وأنت مطالب به، لابد أن تعرف هذا الدين، والإسلام هو دين جميع الرسل.

كل الرسل دينهم الإسلام بالمعنىٰ العام، فكل من اتبع رسولًا من الرسل فهو مسلم لله ﷻ منقاد له، موحد له، هذا الإسلام بمعناه العام، إنه دين الرسل جميعًا، فالإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك وأهله.

أما الإسلام بمعناه الخاص فهو الذي بعث الله به نبيه محمدًا ﷺ؛ لأنه بعد بعثة الرسول ﷺ لا دين إلا دينه -عليه الصلاة والسلام-، والإسلام انحصر في اتباعه ﷺ فلا يمكن لليهودي أن يقول: أنا مسلم، أو النصراني يقول: أنا مسلم بعد بعثة النبي ﷺ وهو لا يتبعه، فالإسلام بعد بعثة النبي هو اتباعه ﷺ قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[آل عمران:٣١]. هذا هو الإسلام بمعناه العام، وبمعناه الخاص.

[٧] قوله: «بالأدلة»: لا بالتقليد؛ وإنما بالأدلة من القرآن، ومن السنة؛ هذا هو العلم.

العمل بالعلم

الثانية: العمل به [٨].

قال ابن القيم في الكافية الشافية:

العِلْمُ قال الله قال رسولُهُ قالَ الصحابةُ هُمْ أُولُو العرفان

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة بين الرسول وبين رأي فلان

هذا هو العلم، العلم هو علم الكتاب والسنة، أما أقوال العلماء فهي تشرح وتوضح فقط كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وقد يكون فيها أو في بعضها خطأ، والأدلة ليست كلام العلماء، إنما الأدلة هي الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأما كلام العلماء فهو شارح وموضح ومبين لذلك لا أنه دليل في نفسه.

هذه هي المسألة الأولىٰ، وهي الأساس، بدأ بها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأنها هي الأساس، وإنما يُبدأ بالعقيدة وبالأساس بالتعلُّم والتعليم والدعوة إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، يبدأ بالعقيدة؛ لأنها هي الأصل، وهي الأساس.

[٨] قوله: «العمل به» أي: بالعلم؛ لأنه لا يكفىٰ أن الإنسان يعلِّم ويتعلَّم؛ بل لابد أن يعمل بعلمه، فالعلم بدون عمل إنما هو حجة علىٰ الإنسان، فلا يكون العلم نافعًا إلا بالعمل، أما مَنْ عَلِمَ ولم يعمل فهذا مغضوب عليه؛ لأنه عرف الحق وتركه علىٰ بصيرة.

والناظم يقول:

وعــالِم بعلمــه لَــم يعملَــنْ معــذبٌ مــن قَــبْلِ عُــبَّادِ الــوثن

وهذا مذكورٌ في الحديث الشريف: «**إن من أول من تسعَّر بهم النار يوم القيامة، عالم لم يعمل بعلمه**»[1] العلم مقرون بالعمل، والعمل هو ثمرة العلم، فعلم بلا عمل كشجرة بلا ثمر، لا فائدة فيها، والعلم إنما أُنزل من أجل العمل.

كما أن العمل بدون علم يكون وبالًا وضلالًا علىٰ صاحبه، إذا كان الإنسان يعمل بدون علم، فإن عمله وبال وتعب علىٰ صاحبه، قال ﷺ: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[2]، ولهذا نقرأ في الفاتحة في كل ركعة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦-٧].

فسمىٰ الله الذين يعملون بدون علم: الضالين، والذين يعلمون ولا يعملون بالمغضوب عليهم، فلتتنبه لذلك، فإنه مهم جدًّا.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٢) وهو حديث طويل، وفيه: «**أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسعَّر بهم النار يوم القيامة**». من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري تعليقًا قبل الحديث (٧٣٥٠)، ومسلم (١٨)(١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرج البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧)(١٧١٨) عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد**».

الدعوة إلى العلم

الثالثة: الدَّعوة إليه [٩].

---

[٩] قوله: «الدعوة إليه» أي: لا يكفي أن يتعلم الإنسان ويعمل في نفسه، ولا يدعو إلىٰ الله ﷻ ؛ بل لابد أن يدعو غيره فيكون نافعًا لنفسه، ونافعًا لغيره، ولأن هذا العلم أمانة، ليس بملك لك تختزنه وتحرم الناس منه، والناس بحاجة إليه، فالواجب عليك التبليغ والبيان ودعوة الناس إلىٰ الخير، هذا العلم الذي حمَّلك الله إياه ليس وقفًا عليك، وإنما هو لك ولغيرك، فلا تحتكره علىٰ نفسك، وتمنع الناس من الانتفاع به؛ بل لابد من تبليغه، ولابد من بيانه للناس، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧].

هذا ميثاق أخذه الله علىٰ العلماء أن يبينوا للناس ما علَّمهم الله من أجل أن ينشروا الخير، ويخرجوا الناس من الظلمات إلىٰ النور، وهذا عمل الرسل -عليهم الصلاة والسلام- ومن اتبعهم، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف:١٠٨]. هذه طريقة الرسول ﷺ، وطريقة أتباعه، العلم والعمل والدعوة إلىٰ الله ﷻ ، فمن لم يدعُ وهو قادر علىٰ الدعوة، وعنده علم، وكتمه، فإنه يلجم بلجام من نار يوم القيامة كما في الحديث[١].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٥٨)، والترمذي (٢٦٤٩)، وابن ماجه (٢٦١ و٢٦٦) من حديث =

الصبر على الأذى فيه

الرَّابعة: الصَّبرُ علىٰ الأذىٰ فيه [١٠].

[١٠] **قوله:** «الصبر علىٰ الأذىٰ فيه»: معلوم أن من دعا الناس، وأمر بالمعروف ونهىٰ عن المنكر، فإنه سيتعرض للأذىٰ من الأشرار؛ لأن كثيرًا من الناس لا يريدون الخير؛ بل يريدون الشهوات، والمحرمات والأهواء الباطلة، فإذا جاء من يدعوهم إلىٰ الله، ويردهم عن شهواتهم، فلابد أن يكون منهم ردُّ فعل بالقول أو بالفعل.

فالواجب علىٰ من يدعو إلىٰ الله، ويريد وجه الله: أن يصبر علىٰ الأذىٰ، وأن يستمر في الدعوة إلىٰ الله، وقدوته في ذلك الرسل -عليهم الصلاة والسلام-.

وخيرتهم وخاتمهم محمد ﷺ ماذا لقي من الناس؟ وكم لقي من الأذىٰ بالقول والفعل؟ قالوا: ساحر وكذاب، وقالوا: مجنون. وقالوا فيه من الأقوال التي ذكرها الله ﷻ في القرآن، وتناولوه بالأذىٰ، قذفوه بالحجارة حتىٰ أدموا عقبه ﷺ

=

أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سُئل عن علم فكتمه؛ ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة**»، وابن ماجه (٢٦٥) من حديث أبي سعيد الخدري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كتم علمًا مما ينفع الله به في أمر الناس، أمر الدين، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار**».

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣][١١].

لما دعاهم إلىٰ الله ﷻ، وألقوا سلا جزور علىٰ ظهره وهو ساجد عند الكعبة، وتوعدوه بالقتل وهدَّدوه، وفي غزوة أُحُد جرىٰ عليه وعلىٰ أصحابه ما جرىٰ -عليه الصلاة والسلام-، كسروا رباعيته وشجوه في رأسه ﷺ، ووقع في حفرة، وهو نبي الله، كل هذا أذىٰ في الدعوة إلىٰ الله ﷻ لكنه صبر وتحمل وهو أفضل الخلق -عليه الصلاة والسلام-، فلابد للذي يقوم بهذه الدعوة أن يتعرض للأذىٰ علىٰ حسب إيمانه ودعوته؛ ولكن عليه أن يصبر، ما دام أنه علىٰ حق فإنه يصبر ويتحمل، فهو في سبيل الله وما يناله من الأذىٰ فهو في كفة حسناته؛ أجر من الله سبحانه وتعالى.

[١١] هذه المسائل الأربع يجب أن تتعلَّمها بالتفصيل، هل من دليل علىٰ ما قاله الشيخ؟ إن هذه المسائل الأربع يجب علينا تعلمها، وهو وعدنا أنه لا يقول شيئًا إلا بدليل، فأين الدليل؟

قال: الدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٣]. إلا الذين آمنوا، هذه هي المسألة الأولىٰ: العلم؛ لأن الإيمان لا يكون إلا بعلم، وهو معرفة الله ﷻ، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

المسألة الثانية: وعملوا الصالحات، هذا العمل بالعلم.

المسألة الثالثة: وتواصوا بالحق، فهذه الدعوة إلىٰ العلم والعمل.

المسألة الرابعة: وتواصوا بالصبر علىٰ الأذىٰ في سبيل الدعوة إلىٰ العلم والعمل.

فقوله سبحانه: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾.

الواو: واو القسم.

والعصر: اسم مقسم به مجرور وعلامة جره الكسرة، والمراد به: الوقت والزمان، أقسم الله تعالىٰ بالزمان والوقت وهو مخلوق، والله -جل وعلا- يقسم بما شاء من الخلق، والمخلوق لا يقسم إلا بالله، والله لا يقسم إلا بشيء له أهمية، وفيه آية من آياته ﷻ، فهذا الزمان فيه عبرة وله أهمية، ولذلك أقسم الله بالعصر، وبالليل إذا يغشىٰ، وأقسم بالضحىٰ.

أما المخلوق فإنه لا يقسم إلا بالله، ولا يجوز لنا أن نحلف بغير الله، قالﷺ: **«من حلف بغير الله، فقد كفر أو أشرك»**[١].

وقال: **«من كان حالفًا فليحلف بالله، أو ليصمت»**[٢].

فالله يقسم بما شاء، ولا يقسم إلا بما له أهمية وفيه عبرة، ما هي العبرة في هذا الزمان؟ العبر عظيمة تعاقب الليل والنهار، وتقارضهما، هذا يأخذ من هذا، وهذا يأخذ من هذا، يطول هذا، ويقصر هذا، تعاقبهما علىٰ هذا النظام العجيب الذي لا يتخلف ولا يتغير.

هذا دليل علىٰ قدرة الله ﷻ، ثم ما يجري في هذا الوقت من الحوادث والكوارث، ومن المصائب، ومن النعم ومن الخيرات، ما يجري في هذا الوقت هذا من العبر.

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠٨)، ومسلم (١٦٤٦)(٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

وكذلك فإن الليل والنهار مجال للعمل الصالح، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾؛ أي: يتعاقبان، يخلف هذا هذا: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢]. وفي بعض القراءات: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذْكُرَ﴾.

فالليل والنهار كسب عظيم لمن استغلهما في طاعة الله ﷻ، ومجال العمل هو الليل والنهار، ما عندك غير الليل والنهار، هما مجال العمل والكسب الطيب للدنيا والآخرة، في الليل والنهار عبر وفوائد لذلك أقسم الله بالعصر.

ما هو جواب القسم؟

هو قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ الإنسان جميع بني آدم لم يستثن أحدًا لا الملوك ولا الرؤساء، ولا الأغنياء، ولا الفقراء، ولا الأحرار، ولا العبيد، ولا الذكور، ولا الإناث، فـ «أل» في الإنسان للاستغراق، كل بني آدم في خسر، أي: في خسارة وهلاك إذا ضيعوا هذا الوقت الثمين، واستعملوه في معصية الله، وفيما يضرهم.

وهذا الوقت الذي هو رخيص عند كثير من الناس، يطول عليهم الوقت، يملُّون ويقولون: نريد قتل الوقت، يأتون بالملهيات، أو يسافرون للخارج لقضاء العطلة والوقت، أو يضحكون ويمزحون لقطع الوقت، فهؤلاء الذين قطعوه وضيعوه سيكون خسارة وندامة عليهم يوم القيامة، وهو مصدر سعادتهم لو حافظوا عليه.

فجميع بني آدم في خسارة وهلاك إلا من اتصف بأربع صفات هي: العلم، والعمل، والدعوة إلىٰ الله، والصبر علىٰ الأذىٰ.

فمن اتصف بهذه الصفات الأربع نَجَا من هذه الخسارة.

ولا يمكن الإيمان بالله إلا بالعلم الذي هو معرفة الله.

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي: عملوا الأعمال الصالحة من واجبات، ومستحبات فاستغلوا وقتهم بعمل الصالحات بما يفيدهم في دينهم ودنياهم، حتىٰ العمل للدنيا فيه خير وفيه أجر إذا قصد به الاستعانة علىٰ الطاعة، فكيف بالعمل للآخرة، المهم أنك لا تضيع الوقت؛ بل تستعمله في شيء يفيدك وينفعك.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ أمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، ودعوا إلىٰ الله ﷻ، وعلَّموا العلم النافع، ونشروا العلم والخير في الناس، أصبحوا دعاة إلىٰ الله ﷻ.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ صبروا علىٰ ما ينالهم، والصبر في اللغة: الحبس، والمراد به هنا: حبس النفس علىٰ طاعة الله، وهو ثلاثة أنواع:

الأول: صبر علىٰ طاعة الله.

الثاني: صبر عن محارم الله.

الثالث: صبر علىٰ أقدار الله.

فالأول: صبر علىٰ طاعة الله؛ لأن النفس تريد الكسل، وتريد الراحة، فلابد أن يصبِّرها الإنسان علىٰ الطاعة، وعلىٰ الصلاة، وعلىٰ الصيام، وعلىٰ الجهاد في سبيل الله، وإن كانت تكره هذه الأمور، يصبِّرها ويحبسها علىٰ طاعة الله.

والثاني: صبر عن محارم الله، النفس تريد المحرمات، والشهوات، إنها تميل إليها، وتنزع إليها، فلابد أن يربطها ويحبسها عن المحرمات، وهذا يحتاج إلىٰ صبر، وليس من السهل منع النفس عن الشهوات المحرمة، من ليس عنده صبر فإن نفسه تتغلب عليه، وتجنح إلىٰ المحرمات.

الثالث: الصبر علىٰ أقدار الله المؤلمة، المصائب التي تصيب الإنسان من موت قريب، أو ضياع مال، أو مرض يصيب الإنسان، لابد أن يصبر علىٰ قضاء الله وقدره؛ لا يجزع ولا يتسخط؛ بل يحبس اللسان عن النياحة والتسخط، ويحبس النفس عن الجزع، ويحبس الجوارح عن لطم الخدود، وشق الجيوب، هذا هو الصبر علىٰ المصائب.

أما المعائب فلا يصبر عليها؛ بل يتوب إلىٰ الله، وينفر منها؛ ولكن عند المصائب التي لا دخل لك فيها؛ بل هي من الله ﷻ قدَّرها عليك ابتلاءً وامتحانًا أو عقوبة لك علىٰ ذنوب فعلتها، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورىٰ:٣٠].

فإذا حصلت للمسلم مصيبة في نفسه، أو ماله، أو ولده، أو قريبه، أو أحد إخوانه من المسلمين فعليه بالصبر والاحتساب، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٦-١٥٧]. هذا هو الصبر.

ومن ذلك: الصبر علىٰ الأذىٰ في الدعوة إلىٰ الله ﷻ فإن هذا من المصائب، فعليك أن تصبر علىٰ ما تلقىٰ من الأذىٰ في سبيل الخير، ولا تنثني عن فعل الخير؛ لأن بعض الناس يريد فعل الخير لكن إذا واجهه شيء يكرهه قال: ليس من الواجب عليَّ أن أدخل نفسي في هذه الأمور، ثم يترك التعليم إن كان معلمًا، يترك الدعوة إلىٰ الله، يترك الخطابة إن كان خطيب مسجد، يترك إمامة المسجد، يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هذا لم يصبر علىٰ ما ناله من الأذىٰ.

قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: لوْ ما أنزَلَ الله حجَّةً علىٰ خلقه إلا هذه السورةَ لكفتهم[١٢].

وإذا كنت مخطئًا عليك بالرجوع إلىٰ الحق والصواب، أما إن كنت علىٰ حق ولم تخطئ فعليك بالصبر والاحتساب، واستشعر أن هذا في سبيل الله عَجَلَّ وأنك مأجور عليه، وتذكر ما حصل للأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، من الأذىٰ وكيف صبروا وجاهدوا في سبيل الله حتىٰ نصرهم الله عَجَلَّ .

[١٢] قوله: «الشافعي»: هو الإمام محمد بن إدريس الشافعي نسبه إلىٰ جده الرابع اسمه شافع، وهو من قريش، من بني المطلب، توفي سنة ٢٠٤هـ، وهو أحد الأئمة الأربعة، وقال هذه المقالة؛ لأن الله بيَّن في هذه السورة أسباب الشقاوة وأسباب السعادة.

فأسباب السعادة: أن يتصف الإنسان بهذه الصفات الأربع: العلم، والعمل، والدعوة، والصبر علىٰ الأذىٰ في سبيل الله تعالىٰ، فقامت الحجة من الله علىٰ خلقه بهذه السورة، إن الله سبحانه يقول لهم: إنِّي قد بينت لكم أسباب السعادة في هذه السورة القصيرة المختصرة.

والقرآن كله، والسنة هُما تفاصيل لهذه المسائل الأربع، لكن هذه السورة بينت أسباب السعادة مجملة، فقامت بها الحجة علىٰ الخلق، وبقية نصوص القرآن والسُّنة مفصِّلة ومبيِّنة لهذه المسائل الأربع، وليس معنىٰ كلام الشافعي أن هذه السورة تكفي الناس، لو ما أنزل الله غيرها لكنها أقامت الحجة عليهم؛ لأن الله بيَّن فيها أسباب السعادة، وأسباب الشقاوة، فلا أحد يوم القيامة يقول: أنا لا أعرف أسباب السعادة، ولا أعرف أسباب الشقاوة وهو يقرأ هذه السورة المختصرة الوجيزة.

وقال البخاري -رحمه الله تعالىٰ-: بابُ العلم قبل القول والعمل.
والدليل: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [محمد:١٩].
فبدأ بالعِلمِ قَبْلَ القولِ والعملِ [١٣].

---

[١٣] البخاري: هو الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، نسبة إلىٰ بخارىٰ بلدة في المشرق، إمام أهل الحديث وجبل الحفظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، صاحب «الصحيح» الذي هو أصح الكتب بعد كتاب الله.

قوله: «العلم قبل القول والعمل»؛ لأن العمل لا ينفع إلا إذا كان مبنيًّا علىٰ علم، أما العمل المبني علىٰ جهل فإنه لا ينفع صاحبه؛ بل يكون وبالًا وضلالًا عليه يوم القيامة، فلابد أن يقدَّم تعلُّم العلم قبل العمل.

قوله: «والدليل» أي: علىٰ هذه الترجمة قوله تعالىٰ: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ حيث بدأ بالعلم.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ﴾ هذا هو العمل، فبدأ سبحانه بالعلم قبل العمل؛ لأن العمل إذا كان علىٰ جهل فإنه لا ينفع صاحبه، فيبدأ الإنسان بالعلم أولًا ثم يعمل بما علمه، هذا هو الأساس.

الرسالة الثانية :
ثلاث مسائل يجب على المسلم تعلمها والعمل بها

اعلم -رَحِمك الله- [١].

أنَّه يَجبُ علىٰ كلِّ مسلم ومسلمة تعلُّمُ ثلاث هذه المسائل والعملُ بهنَّ [٢].

---

[١] قوله: «اعلم»: هذه الكلمة قلنا فيما سبق: إنها كلمة يؤتىٰ بها للاهتمام بما بعدها، ومعناها: تعلم وافهم وتيقن.

قوله: «رحمك الله»: هذا دعاء لك بالرحمة، وهذا أيضًا كما سبق في أن المعلِّم ينبغي أن يتلطف مع المتعلِّم، وأن يدعو له ويرغبه، فإن هذا من أعظم وسائل التعليم، ولا ينبغي له أن يقابل المتعلِّم بالقسوة والشدة والغلظة؛ لأن هذا ينفِّر عن العلم، ثم هذا أيضًا يدل علىٰ النصح من الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأنه يريد النصيحة والمنفعة والتوجيه السديد.

[٢] قوله: «أنه يجب»: الوجوب معروف عند الأصوليين، والواجب هو الشيء الذي لابد منه، وقد عرفه الأصوليون بأنه ما يثاب فاعله ويعاقب تاركه، وأصل الوجوب في اللغة: الثبوت والاستقرار، يقال: وجب كذا، أي: ثبت واستقر، قال تعالىٰ في البُدن: ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾ أي: سقطت علىٰ الأرض، واستقرت ميتة بعد تذكيتها، ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ﴾[الحج:٣٦].

فقوله: «يجب»، يدل علىٰ أن الأمر ليس من باب الاستحباب، من شاء فعل ومن شاء ترك؛ بل الأمر من باب الإلزام من الله ﷻ، ليس هذا الإيجاب من قِبَلِ الشيخ، وإنما هو من قِبَلِ الله ﷻ فيما أنزل في الكتاب والسنة من إلزام العباد بهذه المسائل.

قوله: «يجب علىٰ كل مسلم ومسلمة»، أي: يجب علىٰ كل ذكر وأنثىٰ من المسلمين سواء كانوا أحرارًا أو عبيدًا، أو ذكورًا أو إناثًا؛ لأن المرأة تشارك الرجل في كثير من الواجبات إلا ما خصَّه الدليل بالرجال، فإنه يختص بهم، مثل وجوب صلاة الجماعة في المساجد، وصلاة الجمعة، ومثل زيارة القبور فإنَّها خاصَّة بالرجال، ومثل الجهاد في سبيل الله، فإنه خاصٌّ بالرجال.

فما دل الدليل علىٰ اختصاصه بالرجال فإنه يختص بهم، وإلا فإن الأصل أن الرجال والنساء سواء في الواجبات وتجنب المحرمات، وسائر التكاليف.

ومن ذلك: أن تعلُّم العلم واجب علىٰ الرجال والنساء؛ لأنه لا يمكن عبادة الله -جل وعلا- التي خلقنا من أجلها إلا بتعلم العلم الذي نعرف به عبادة ربنا، فهذا واجب علىٰ الرجال والنساء أن يتعلموا أمور دينهم لاسيما أمور العقيدة.

قوله: «ثلاث مسائل»: التعلم هنا معناه: التلقي عن العلماء والحفظ والفهم والإدراك، هذا هو التعلم، ليس المراد مجرد قراءة أو مطالعة حرة كما يسمونها، هذا ليس تعلُّمًا إنما التعلُّم هو: التلقِّي عن أهل العلم مع حفظ ذلك وفهمه وإدراكه تمامًا، هذا هو التعلُّم الصحيح.

الإيمان بأن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملاً

الأولىٰ: أن الله خلقنا ورزقنا، ولم يتركنا هَمَلًا [٣].

أما مجرد القراءة والمطالعة فإنها لا تكفي في التعلُّم وإن كانت مطلوبة وفيها فائدة؛ لكنها لا تكفي، ولا يكفي الاقتصار عليها.

ولا يجوز التتلمذ علىٰ الكتب كما هو الواقع في هذا الوقت؛ لأن التتلمذ علىٰ الكتب خطير جدًّا يحصل منه مفاسد وتعالم أضرُّ من الجهل؛ لأن الجاهل يعرف أنه جاهل ويقف عند حدِّه، لكن المتعالم يرىٰ أنه عالم فيحلُّ ما حرَّم الله، ويحرِّم ما أحل الله، ويتكلم ويقول علىٰ الله بلا علم، فالمسألة خطيرة جدًّا.

فالعلم لا يؤخذ من الكتب مباشرة، إنما الكتب وسائل، أما حقيقة العلم فإنها تؤخذ عن العلماء جيلًا بعد جيل، والكتب إنما هي وسائل لطلب العلم.

[٣] **قوله:** «الأولىٰ: أن الله خلقنا». أي: أوجدنا من العدم، فنحن من قبل أن يخلقنا لم نكن شيئًا، كما قال تعالىٰ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان:١].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم:٩]. كان الإنسان قبل أن يخلق ليس بشيء، والذي أوجده وخلقه هو الله ﷻ قال تعالىٰ: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ [الطور:٣٥].

قوله: «ورزقنا»: لما كنا نحتاج إلىٰ الرزق إلىٰ الطعام والشراب والملابس والمساكن والمراكب والمصالح، علم سبحانه حاجتنا فسخر لنا ما في السموات والأرض كله لمصالحنا من أجل بقائنا علىٰ قيد الحياة، ومن أجل أن نستعين بذلك علىٰ ما خلقنا لأجله، وهو عبادة الله ﷻ.

قوله: «ولم يتركنا هملًا»: الهمل: هو الشيء المهمل المتروك الذي لا يُعبأ به؛ فالله خلقنا ورزقنا لحكمة، ما خلقنا عبثًا ولا سدًى، قال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[المؤمنون:١١٥].

وقال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾[القيامة:٣٦-٣٨].

وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾[ص:٢٧].

الله إنما خلقنا وخلق لنا هذه الأرزاق، والإمكانيات لحكمة عظيمة وغاية جليلة وهي أن نعبده ﷻ، ولم يخلقنا كالبهائم التي خلقت لمصالح العباد ثم تموت وتذهب؛ لأنها ليست مكلَّفة ولا مأمورة ولا منهية، إنما خلقنا لعبادته كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[الذاريات:٥٦-٥٨].

ولم يخلقنا لهذه الحياة الدنيا فقط نعيش فيها، ونسرح ونمرح، ونأكل ونشرب، ونتوسع فيها، وليس بعدها شيء، وإنما الحياة مزرعة وسوق للدار الآخرة نتزود فيها بالأعمال الصالحة، ثم نموت وننتقل منها، ثم نبعث ثم نحاسب ونجازىٰ بأعمالنا.

هذه هي الغاية من خلق الجن والإنس، والدليل علىٰ ذلك آيات كثيرة تدلُّ علىٰ البعث والنشور والجزاء والحساب، والعقل يدلُّ علىٰ هذا، فإنه لا يليق بحكمة الله ﷻ أن يخلق هذا الخلق العجيب، وأن يسخر هذا الكون لبني آدم ثم يتركهم يموتون ويذهبون بدون نتيجة، هذا عبث، فلابد أن تظهر نتائج هذه الأعمال في الدار الآخرة.

ولهذا قد يكون من الناس من يفني عمره في عبادة الله وفي طاعته، وهو في فقر وفي حاجة، وقد يكون مظلومًا مضغوطًا عليه ومضيقًا عليه ولا ينال شيئًا من جزاء عمله في هذه الدنيا، وعلىٰ العكس يكون من الناس كافر ملحد شرير يسرح ويمرح في هذه الحياة، ويتنعَّم ويُعطَىٰ ما يشتهي، ويرتكب ما حرَّم الله، ويظلم العباد ويعتدي عليهم، ويأكل أموالهم، ويقتل بغير حقٍّ ويتسلط ويتجبر ثم يموت علىٰ حاله، ما أصابه شيء من العقوبة.

هل يليق بعدل الله ﷻ وحكمته أن يترك هذا المطيع بدون جزاء، وأن يترك هذا الكافر بدون مجازاة، هذا لا يليق بعدله ﷻ؛ ولذلك جعل دارًا أخرىٰ يجازَىٰ فيها المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، فتظهر فيها ثمرات الأعمال.

فالدنيا دار عمل، وأما الآخرة فهي دار جزاء إما جنة، وإما نار، ولم يتركنا هملًا كما يظن الملاحدة والدهريون، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤]. هذه مقالة الملاحدة الذين لا يؤمنون بالبعث والنشور.

وقد أنكر الله ﷻ عليهم فقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم:٣٥-٣٦].

بل أرسلَ إلينا رسولًا[٤].

وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[الجاثية:٢١] .

وقال تعالىٰ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[ص:٢٨] . فهذا لا يمكن، ولا يكون أبدًا.

[٤] لما كانت العبادة لا يجوز أن نأخذها من استحساننا أو تقليد فلان وعلان من الناس، أرسل الله إلينا رسلًا تبين لنا كيف نعبده؛ لأن العبادات توقيفية لا يجوز أن يعبد الله بشيء إلا بما شرعه.

فالعبادات توقيفية علىٰ ما جاءت به الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، فالحكمة من إرسال الرسل أن يبيِّنوا للناس كيف يعبدون ربهم، وينهونهم عن الشرك والكفر بالله ﷻ .

هذه مهمة الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ولهذا يقول -عليه الصلاة والسلام-: **«من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»**(١) . فالعبادة توقيفية، والبدع مردودة، والخرافات مردودة، والتقليد الأعمىٰ مرفوض؛ لا تؤخذ العبادات إلا من الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ .

قوله: «بل أرسل إلينا رسولًا»: هو محمد ﷺ خاتم النبيين؛ أرسله ليبيِّن لنا لماذا خلقنا، ويبين لنا كيف نعبد الله ﷻ ، وينهانا عن الشرك والكفر والمعاصي، هذه مهمة الرسول ﷺ وقد بلغ البلاغ المبين، وأدَّىٰ الأمانة، ونصح الأمة -عليه الصلاة

---

(١) سبق تخريجه (ص١٨).

فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار [٥].

والسلام-، وبيَّن ووضَّح، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

[٥] قوله: «من أطاعه» أي: فيما أمر به؛ دخل الجنة.

وقوله: «ومن عصاه» أي: فيما نهى عنه؛ دخل النار.

وهذا مصداقه كثير في القرآن، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٦٤].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور:٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦].

فمن أطاعه اهتدى ودخل الجنة، ومن عصاه ضلَّ ودخل النار، قال ﷺ: «كلكم يدخل الجنة إلا من أبى. قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»[١].

فقوله ﷺ: «أبى». أي: أبى أن يدخل الجنة. وقال ﷺ: «لا يسمع بي يهودي، ولا نصراني، ثم لا يؤمن بالذي جئت به إلا دخل النار»[٢]. فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، وهذا هو الفارق بين المؤمن والكافر.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والدليلُ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ [المزمل:١٥-١٦][٦].

---

[٦] **قوله:** «والدليل». أي: علىٰ إرسال الرسول، قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ﴾: الضمير راجع إلىٰ الله ﷻ، وهذا ضمير المعظم نفسه؛ لأنه عظيم ﷻ.

﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾: كذلك هذا ضمير العظمة. ومعنىٰ أرسلنا: بعثناه وأوحينا إليه.

﴿إِلَيۡكُمۡ﴾: يا معشر الثقلين الجن والإنس، خطاب لجميع الناس؛ لأن رسالة هذا الرسول عامة لجميع الناس إلىٰ أن تقوم الساعة.

﴿رَسُولٗا﴾: هو محمد ﷺ.

﴿شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾: أي: عند الله ﷻ يوم القيامة بأنه بلَّغكم رسالة الله، وأقام الحجة عليكم كما قال تعالىٰ: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء:١٦٥].

فلا أحد يوم القيامة يقول: أنا لم أدْرِ أني مخلوق للعبادة، أنا لم أدر ماذا يجب عليَّ، ولم أَدْرِ ماذا يحرم عليَّ، لا يمكن أن يقول هذا؛ لأن الرسل -عليهم الصلاة والسلام- قد بلغتهم، وهذه الأمة المحمدية تشهد عليهم.

قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة:١٤٣].

فهذه الأمة تشهد علىٰ الأمم السابقة يوم القيامة أن رسلها بلغتها رسالات الله، بما يجدونه من كتاب الله ﷻ ؛ لأن الله قصَّ علينا نبأ الأمم السابقة والرسل وما قالوه لأممهم.

كل هذا عرفناه من كتاب الله ﷻ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾: وهو محمد ﷺ عليكم، يا أمة محمد شهيدًا، يشهد عليكم عند الله أنه أقام عليكم الحجة، وبلغكم الرسالة، ونصحكم في الله، فلا حجة لأحد يوم القيامة بأن يقول: ما بلغني شيء، ما جاءني من نذير، حتىٰ الكفار يعترفون عندما يلقون في النار، قال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ [الملك:٨-٩]. يقولون للرسل: أنتم في ضلال، فهم يكذِّبون الرسلَ ويضللونهم.

هذه الحكمة في إرسال الرسل؛ إقامة الحجة علىٰ العباد، وهداية من أراد الله هدايته، الرسل يهدي الله بهم من يشاء، ويقيم الحجة علىٰ من عاند وجحد وكفر.

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾: الرسول هو موسىٰ -عليه الصلاة والسلام-، وفرعون هو الملك الجبار في مصر الذي ادعىٰ الربوبية، وفرعون: لقب لكل من ملك مصر، يقال له: فرعون، والمراد به هنا فرعون الذي ادعىٰ الربوبية: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤].

....

﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾: هو موسىٰ، كفر به فرعون كما قص الله في كتابه ما جرىٰ بين موسىٰ وفرعون، وما انتهىٰ إليه أمر فرعون وقومه.

﴿فَأَخَذْنَٰهُ﴾؛ أي: أخذنا فرعون بالعقوبة، وهو أن الله أغرقه هو وقومه في البحر، ثم أدخلهم النار: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح:٢٥]. فصار في النار في البرزخ.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦]. هذا في البرزخ قبل الآخرة، يعرضون علىٰ النار صباحًا ومساءً إلىٰ أن تقوم الساعة، وهذا دليل علىٰ عذاب القبر -والعياذ بالله-: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

هذه ثلاث عقوبات:

الأولىٰ: أن الله أغرقهم ومحاهم عن آخرهم في لحظة واحدة.

الثانية: أنهم يعذبون في البرزخ إلىٰ أن تقوم الساعة.

الثالثة: أنهم إذا بعثوا يوم القيامة يدخلون أشد العذاب -والعياذ بالله-.

وكذلك من عصىٰ محمدًا ﷺ فإن مآله أشد من مآل قوم فرعون؛ لأن محمدًا هو أفضل الرسل فمن عصاه تكون عقوبته أشد.

﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي: شديدًا قويًّا لا هوادة فيه، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

فهذه الآية دليل علىٰ منَّة الله علينا بإرسال الرسول محمد ﷺ إلينا، وأن الغرض من إرساله أن يبين لنا طريق العبادة، فمن أطاعه دخل الجنة، ومن عصاه دخل النار، كما دخل آل فرعون النار، لما عصوا رسولهم موسىٰ -عليه الصلاة والسلام-.

وكذلك أعداء الرسل كلهم هذا سبيلهم وهذا طريقهم.

الله سبحانه وتعالى لا يرضى أن يشرك معه في عبادته أحد

المسألة الثانية: أنَّ الله لا يرضىٰ أن يشرك مَعَهُ أحدٌ غيرُه في عبادَته [٧].

---

[٧] هذه المسألة متعلقة بالمسألة الأولىٰ؛ لأن الأولىٰ: هي بيان وجوب عبادة الله، واتباع الرسولﷺ، وهو معنىٰ الشهادتين، معنىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله.

والمسألة الثانية: أن العبادة إذا خالطها شرك فإنها لا تقبل؛ لأنه لابد أن تكون العبادة خالصة لوجه الله عز وجل .

فمن عبد الله وعبد معه غيره فعبادته باطلة، وجودها كعدمها؛ لأن العبادة لا تنفع إلا مع الإخلاص والتوحيد، فإذا خالطها شرك فسدت؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٥].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:٨٨]. فالعبادة لا تُسمَّىٰ عبادة إلا مع التوحيد، كما أن الصلاة لا تسمَّىٰ صلاة إلا مع الطهارة، فإذا خالط الشركُ العبادةَ أفسدها، كما أن الطهارة إذا خالطها ناقض من نواقض الوضوء أفسدها وأبطلها، ولهذا يجمع الله في كثير من الآيات بين الأمر بعبادته والنهي عن الشرك.

....

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء:٣٦].

وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة:٥].

وقال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

فقوله تعالىٰ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ فيه أمران: فيه نفي الشرك، وفيه إثبات العبادة لله تعالىٰ.

وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء:٢٣]. ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]. قرن بين عبادة الله، واجتناب الطاغوت؛ لأن عبادة الله لا تكون عبادةً إلا مع اجتناب الطاغوت، وهو الشرك، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ [البقرة:٢٥٦].

فالإيمان بالله لا يكفي إلا مع الكفر بالطاغوت، وإلا فالمشركون يؤمنون بالله؛ لكنهم يشركون به، ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف:١٠٦]. بين سبحانه أن عندهم إيمان بالله؛ ولكن يفسدونه بالشرك -والعياذ بالله-.

هذا معنىٰ قول الشيخ: أن من عبد الله، وأطاع الرسول، فإنه لا يشرك بالله شيئًا؛ لأن الله لا يرضىٰ أن يُشرك معه أحد في عبادته.

قال ﷺ فيما يرويه عنه ربه ﷻ: «**قال الله تعالىٰ: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هناك قوم يصلون، ويشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويكثرون من ذلك، ويصومون، ويحجون؛ لكنهم يدعون الأضرحة، ويعبدون الحسن والحسين والبدوي وفلانًا وعلانًا، ويستغيثون بالأموات، هؤلاء عبادتهم باطلة؛ لأنهم يشركون بالله عز وجل، يخلطون العبادة بالشرك، فعملهم باطل حابط حتىٰ يوحدوا الله عز وجل ويخلصوا له العبادة ويتركوا عبادة ما سواه.

وإلا فإنهم ليسوا علىٰ شيء، فيجب التنبه لهذا؛ لأن الله لا يرضىٰ أن يُشرَك معه في عبادته أحد كائنًا من كان، لا يرضىٰ سبحانه بمشاركة أحد مهما كان؛ لئلا يقول أحد: أنا أتخذ من الأولياء والصالحين والطيبين شفعاء، أنا لا أعبد الأصنام والأوثان كما هو في الجاهلية، أنا أتَّخذ هؤلاء شفعاء، لا أعبدهم.

فنقول له: هذه مقالة الجاهلية، اتخذوهم شفعاء عند الله؛ لأنهم صالحون وأولياء من أولياء الله، والله لا يرضىٰ بهذا.

لا ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسل [٨].

---

[٨] قوله: «لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل» الملك المقرب هو أفضل الملائكة، مثل: جبريل عليه السلام، وحملة العرش ومن حوله، والملائكة المقربون من الله سبحانه وتعالى، فمع قرب المكان من الله عز وجل، وقرب العبادة والمكانة عند الله، لو أشركهم أحد مع الله في العبادة، فإن الله لا يرضىٰ بأن يُشرَك معه ملك مقرب، ولا نبي مرسل، كمحمد صلى الله عليه وسلم، وعيسىٰ، ونوح، وإبراهيم أولي العزم، لا يرضىٰ أن يُشرَك معه أحد، ولو كان من أفضل الملائكة، ولو كان من أفضل البشر.

فهو لا يرضىٰ أن يشرك معه أحد من الملائكة، ولا من الرسل، فكيف بغيرهم من الأولياء والصالحين، فغير الملائكة والرسل من باب أولىٰ ألاَّ يرضىٰ الله بإشراكهم معه في العبادة، وهذا ردٌّ علىٰ أولئك الذين يزعمون أنهم يتخذون الصالحين والأولياء شفعاء عند الله ليقربوهم عند الله زلفىٰ، كما قال أهل الجاهلية: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

وإلا فهم يعتقدون أن هؤلاء لا يخلقون، ولا يرزقون، ولا يملكون موتًا، ولا حياةً ولا نشورًا، وإنما قصدهم التوسط عند الله عز وجل؛ ولذلك صرفوا لهم شيئًا من العبادة تقربًا إليهم، ذبحوا للقبور، ونذروا للقبور، واستغاثوا وهتفوا بالأموات.

والدليلُ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨][٩].

---

[٩] لا يرضىٰ الله بمشاركة أحد كائنًا من كان، وهذا صريح في القرآن والسنة، لكن لمن يعقل ويتدبر، وينبذ التقليد الأعمىٰ، والتعلل الباطل، ويتنبه لنفسه، والدليل علىٰ أن الله لا يرضىٰ أن يُشرَك مع أحد كائنًا من كان: قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾.

المساجد هي بيوت الله، وهي المواطن المعدة للصلاة، وهي أحب البقاع إلىٰ الله، وهي بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، يجب أن تكون هذه المساجد مواطنًا لعبادة الله وحدَه، لا يحدث فيها شيء لغير الله، فلا تُبنىٰ فيها القبور والأضرحة؛ لأن النبي ﷺ لعن من فعل ذلك، وأخبر أن هذا هو فعل اليهود والنصارىٰ، ونهانا عن ذلك في آخر حياته، وهو في سكرات الموت -عليه الصلاة والسلام- بقوله: «**ألا إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد** -هذا يقوله وهو في سياق الموت- **ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**»(١).

ويقول ﷺ: «**لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(٢).

فالمساجد يجب أن تطهر من آثار الشرك والوثنية، وألا تقام علىٰ القبور، أو يدفن فيها الأموات بعد بنائها، بل تكون مواطن عبادة الله وحده، تقام فيها الصلاة، ويذكر فيها اسم الله، ويتلىٰ فيها القرآن، وتقام فيها الدروس النافعة، ويعتكف فيها للعبادة، هذه هي وظيفة المساجد.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جُنْدَب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٥، ٤٣٦)، ومسلم (٥٣١) من حديث عائشة، وابن عباس رضي الله عنهما.

....

أما أن تُقام فيها أوثانٌ تعبد من دون الله، فهذه ليست مساجد، هذه مشاهد شرك، وإن سماها أهلها مساجد؛ لأن الله يقول: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ أي: لا لغيره؛ ولأن المساجد هي محل اجتماع الناس، وتلاقيهم، فيجب أن تكون طاهرة من الشرك والبدع والخرافات؛ لأن الناس يتلقَّوْن فيها العلم والعبادة.

فإذا وجدوا في المساجد شيئًا من الشرك والخرافات تأثروا بذلك ونشروه في الأرض، فيجب أن تكون المساجد مطهرة من الشرك، وأعظمها المسجد الحرام كما أمر الله -جل وعلا- بتطهيره، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج:٢٦]. طهِّره من ماذا؟ طهره من الشرك والبدع والخرافات، كما أنه أيضًا يُطهر من النجاسات والقاذورات.

فقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟﴾ لا: ناهية، و تدعو: فعل مضارع مجزوم بـ: لا الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأن أصله تدعون، فدخل عليه الجازم، وهو لا الناهية.

فلا تدعوا أيها الناس مع الله أحدًا، لا تستغيثوا بأحد مع الله، كأن يقول: يا الله، يا محمد، يا الله، يا عبد القادر، أو يقول: يا عبد القادر، يا محمد، أو ما أشبه ذلك، فإن الله لا يرضىٰ بذلك، ولا يقبله.

وقوله تعالىٰ: ﴿أَحَدًا﴾ نكرة في سياق النهي فتعم كل أحد، لا يستثنىٰ أحد؛ لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا صنم، ولا وثن، ولا قبر، ولا شيخ، ولا ولي، ولا حي، ولا ميت، كائنًا من كان.

فهي تعم كل من دُعِي من دون الله: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ فدلت هذه الآية على أن العبادة لا تنفع إلا مع التوحيد، وأنها إذا خالطها الشرك فإنها تبطل، وتكون وبالًا على صاحبها.

ثم قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ يجب أن تبنى بنية خالصة لا يكون القصد من بنائها الرياء، والسمعة، وتخليد الذكر كما يقولون، وتكون آثارًا إسلامية، هذا كله باطل.

المساجد تبنى للعبادة، وبقصد العبادة، وتكون النية فيها خالصة لله ﷻ، وأيضًا تبنى من كسب طيب، لا تبنى من كسب حرام؛ لأنها لله ﷻ، و «**إن الله لا يقبل إلا طيبًا**»[1].

فتبنى المساجد من نفقة حلال، وتكون نية بانيها خالصة لوجه الله ﷻ لا يريد من بنائه مدحًا من الناس، أو تخليدًا لذكره، أو رياء، أو سمعة، فإن بناء المساجد عبادة، والعبادة يجب أن تكون خالصة لله ﷻ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الولاء والبراء

الثالثة: أنَّ من أطاعَ الرسول، ووحَّدَ الله، لا يجوزُ له موالاةُ من حادَّ الله ورسوله ولو كان أقرب قريب [١٠].

---

[١٠] لا يجوز لمن فعل ذلك موالاة مَنْ حادَّ الله ورسوله، ولو كان أقرب قريب.

هذه مسألة الولاء والبراء وهي تابعة للتوحيد، من حقوق التوحيد: الولاء لأولياء الله، والبراء من أعداء الله، والموالاة والولاء بمعنىٰ واحد، والولاء يراد به المحبة بالقلب، ويراد به المناصرة والمعاونة، ويراد به الإرث والعقل في الديات.

فالمسلم يوالي أولياء الله بمعنىٰ أنه يحصر محبته علىٰ أولياء الله ويناصرهم، فالمسلم يكون مع المسلمين بعضهم أولىٰ ببعض كما قال تعالىٰ: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[الأنفال:٧٥].

فالتعاقل في ديات الخطأ يكون بين المسلمين، وهو ما يسمىٰ بالتكافل، كل هذا يدخل في الولاء، فلا يكون الولاء بين مسلم وكافر، والمحبة والنصرة والميراث والعقل وولاية النكاح، وولاية القضاء إلىٰ غير ذلك.

فلا يكون ذلك بين مسلم وكافر، وإنما يكون هذا بين المسلمين؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[النساء:١٤١].

هكذا يجب أن يتميز المؤمنون عن الكفار، فلا يجوز لمن وحَّد الله وأطاع الرسولﷺ موالاةُ من حادَّ الله.

والمحادَّة معناها: أن يكون الإنسان في جانب، والله ورسوله والمؤمنون في جانب، ويكون المحاد في جانب الكفار، هذه هي المحادة.

قوله: «ولو كان أقرب قريب» أي: نسبًا، فإذا كان قريبك محادًّا لله ورسوله؛ فيجب عليك محادَّته ومقاطعته، ومن كان وليًّا لله ورسوله وجب عليك أن تحبَّه وتواليه ولو كان بعيدًا من النسب عنك، ولو كان أعجميًّا، أو أسود أو أبيض أو أحمر، يجب عليك أن تواليه وأن تحبه، سواء كان من بلدك، أو من أقصىٰ الشرق، أو من أقصىٰ الغرب، قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١]. أي: بينهم المحبة والتناصر والتعاون، وبينهم الألفة؛ هذا بين المؤمنين.

والدليلُ قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢][١١].

---

[١١] قوله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ﴾ هذا خطاب للنبيﷺ، أي: لا يقع هذا، ولا يكون موجودًا أبدًا أن يكون مؤمن بالله ورسوله يحب الكفار، فإن أحبهم فإنه ليس بمؤمن ولو كان يدَّعي ذلك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الكافية الشافية:

أتُحِبُّ أعداءَ الحبيب وتدَّعي ... حبًّا له ما ذاك في إمكان
وكذا تُعادي جاهدًا أحبابه ... أينَ المحبَّةُ يا أخا الشيطان

فهذا لا يمكن أبدًا أن يحب الكفار، يقول: أنا أحب الله ورسوله لقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[الممتحنة:١-٤].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾[التوبة:١١٤]. هذه ملة إبراهيم تبرأ من أبيه، أقرب الناس إليه لما تبين له أنه عدو الله.

ودلت الآية أيضًا علىٰ أن محبة الكافر تتنافىٰ مع الإيمان بالله واليوم الآخر، إما مع أصله أو مع كماله، لكن إن كانت محبتهم معها تأييد لمذهبهم وكفرهم فهذا خروج عن الإسلام، أما إن كان مجرد محبة من غير مناصرة لهم، فهذا يعتبر منقصًا للإيمان وفسقًا، ومضعفًا للإيمان.

قيل: إن هذه الآية نزلت في أبي عبيدة بن الجراح -رضي الله تعالىٰ عنه- لما قتل أباه يوم بدر؛ لأن أباه كان علىٰ الكفر، وكان يريد أن يقتل ابنه أبا عبيدة، فقتله أبو عبيدة رضي الله عنه لأنه عدو الله، ولم يمنعه أنه أبوه، لم يمنعه ذلك من قتله غضبًا لله سبحانه وتعالى.

قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: الذين يبتعدون عن محبة ومودة من حادَّ الله ورسوله.

قوله تعالىٰ: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾؛ أي: أثبت الله في قلوبهم، ورسخ الله في قلوبهم الإيمان.

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

التأييد: معناه التقوية، قواهم بروح منه، والروح لها عدة إطلاقات في القرآن، منها: الروح التي هي النفس التي بها الحياة، ومنها: الوحي كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحٗا مِّنْ أَمْرِنَاۚ﴾ [الشورىٰ:٥٢]. ومنها: جبريل عليه السلام أنه روح القدس، والروح الأمين.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:١٠٢].

....

وقال تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ﴾ [الشعراء:١٩٣]. ومنها: ما في هذه الآية وهي القوة.

فأيدهم بروح منه، أي: بقوة منه ﷻ، قوة إيمان في الدنيا، وفي الآخرة: ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٍ﴾ جمع جنة، والجنة في اللغة: البستان، سمي جنة لأنه مجتن بالأشجار، أي: مستتر ومغطىٰ بالأشجار الملتفة، لأن الجنة ظلال وأشجار وأنهار وقصور، وأعلاها وسقفها عرش الرحمن ﷻ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾؛ أي: باقين فيها لا يتحولون عنها، قال تعالىٰ: ﴿لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا﴾ [الكهف:١٠٨]. لا يخافون من موت ولا يخافون من أحد يخرجهم ويطردهم، مثل ما في الدنيا، قد يكون الإنسان في الدنيا في قصور لكن لا يسلم من الموت فيخرج منها، ولا يسلم من الأعداء يتسلطون عليه ويخرجونه، الإنسان في الدنيا دائمًا خائف.

قوله تعالىٰ: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾: لما أغضبوا أقرباءهم من الكفار وعادوهم منحهم الله الرضا منه ﷻ جزاءً لهم، فهم عوِّضوا بإغضابهم لأقاربهم الكفار عوضوا برضا الله ﷻ، رضي الله عنهم، ورضوا عنه.

قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِ﴾ أي: جماعة الله، وأما الكفار فهم حزب الشيطان، كما قال الله تعالىٰ عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ [المجادلة:١٩]. أي: جماعة الشيطان، وأنصار الشيطان، أما هؤلاء فهم أنصار الرب.

فهذه المسألة تتعلق بعداوة الكفار، وعدم موالاتهم، وهي لا تقتضي أننا نقاطع الكفار في الأمور والمنافع الدنيوية؛ بل يستثنىٰ من ذلك أمور:

....

الأول: أنه مع بغضنا لهم وعداوتنا لهم يجب أن ندعوهم إلىٰ الله ﷻ، يجب أن ندعوهم إلىٰ الله، ولا نتركهم ونقول: هؤلاء أعداء الله وأعداؤنا، يجب علينا أن ندعوهم إلىٰ الله لعل الله أن يهديهم، فإن لم يستجيبوا فإنا نقاتلهم مع القدرة، فإما أن يدخلوا في الإسلام، وإما أن يبذلوا الجزية إن كانوا من اليهود والنصارىٰ أو المجوس وهم صاغرون، ويخضعون لحكم الإسلام، ويُتركون علىٰ ما هم عليه.

لكن بشرط دفع الجزية وخضوعهم لحكم الإسلام، أما إن كانوا غير كتابيين وغير مجوس ففي أخذ الجزية منهم خلاف بين العلماء.

الثاني: لا مانع من مهادنة الكفار عند الحاجة، إذا احتاج المسلمون لمهادنتهم؛ لكون المسلمين لا يقدرون علىٰ قتالهم، ويخشىٰ علىٰ المسلمين من شرهم، لا بأس بالمهادنة إلىٰ أن يقوىٰ المسلمون علىٰ قتالهم، أو إذا طلبوا هم المهادنة: ﴿۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ [الأنفال:٦١]. فيهادنون؛ لكن ليس هدنة دائمة إنما هدنة مؤقتة مؤجلة إلىٰ أجل حسب رأي إمام المسلمين لما فيه من المصلحة.

الثالث: لا مانع من مكافأتهم علىٰ الإحسان إذا أحسنوا للمسلمين، لا مانع أن يكافئوا علىٰ إحسانهم، قال الله تعالىٰ: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨].

رابعًا: الوالد الكافر يجب علىٰ ولده المسلم أن يبرَّهُ، لكنه لا يطيعه في الكفر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾ [لقمان:١٤-١٥]

....

الوالد له حق، وإن كان كافرًا؛ لكن لا تحبه المحبة القلبية؛ بل تكافئه على تربيته لك، وأنه والد وله حق تكافئه على ذلك.

خامسًا: تبادل التجارة معهم والشراء منهم، شراء الحاجات منهم، واستيراد البضائع والأسلحة منهم بالثمن لا بأس بذلك، وقد كان النبي ﷺ يتعامل مع الكفار، وكذلك عامل ﷺ أهل خيبر وهم يهود على أن يزرعوا الأرض بجزء مما يخرج منها، ليس هذا من الموالاة والمحبة، وإنما هو تبادل مصالح، يجب أن نعرف هذه الأمور، وأنها لا تدخل في الموالاة وليس منهيًّا عنها.

كذلك الاستدانة منهم، النبي ﷺ استدان من اليهودي طعامًا، ورهن درعه عنده، ومات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بطعام اشتراه لأهله، لا مانع من هذا؛ لأن هذه أمور دنيوية ومصالح، ولا تدل على المحبة والمودة في القلوب، فلابد أن نفرق بين هذا وهذا؛ لأن بعض الناس إذا سمع نصوص العداوة للكفار وعدم محبتهم، قد يفهم أنه لا يتعامل معهم، ولا يتصل بهم نهائيًا، وأن تكون مقاطعة نهائية.

لا! هذا محدد بأحكام وبحدود وبشروط معروفة عند أهل العلم مأخوذة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

سادسًا: أباح الله التزوج من نساء أهل الكتاب بشرط أن يكنَّ عفيفات في أعراضهن، وأباح الله لنا أكل ذبائحهم.

سابعًا: لا بأس بإجابة دعوتهم، وأكل طعامهم المباح كما فعل النبي ﷺ.

ثامنًا: الإحسان إلى الجيران من الكفار؛ لأن لهم حق الجوار.

تاسعًا: لا يجوز ظلمهم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة:٨].

اعلم أرشدكَ الله لطاعته [١٢].

---

[١٢] قوله: «اعلم أرشدك الله» هذا كأنه بداية رسالة ثالثة؛ لأنه مضىٰ رسالتان الرسالة الأولىٰ: المسائل الأربع التي تضمنتها سورة العصر.

والرسالة الثانية: المسائل الثلاث التي سبقت.

والرسالة الثالثة: هي هذه، وستأتي الرسالة الرابعة، وهي ثلاثة الأصول.

فقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم»: تقدم الكلام علىٰ لفظها، وبيان معناها، والمقصود من الإتيان بها.

قوله: «أرشدك الله»: هذا دعاء من الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لكل من يقرأ هذه الرسالة متفهمًا لها يطلب العمل بها بأن يرشده الله، والإرشاد: هو الهداية إلىٰ الصواب والتوفيق للعلم النافع والعمل الصالح.

والرشد ضد الغي؛ قال تعالىٰ: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة:٢٥٦]. وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾ [الأعراف:١٤٦]. والرشد: هو دين الإسلام، والغي: دين أبي جهل وأمثاله.

قوله: «أرشدك الله لطاعته»: هذا دعاء عظيم، فإن المسلم إذا أرشده الله لطاعته، فقد سعد في الدنيا والآخرة.

والطاعة هي: امتثال ما أمر الله به، واجتناب ما نهىٰ الله عنه، هذه هي الطاعة، أن تطيع الله في أوامره فتفعلها، وفي نواهيه فتجتنبها امتثالًا لأمر الله، وابتغاء وجه الله عَزَّوَجَلَّ ترجو ثوابه، وتخاف عقابه، فمن وُفِّق لطاعة الله، وأُرشد لطاعة الله، فإنه يسعد في الدنيا والآخرة.

الرسالة الثالثة :
الحنيفية ملة إبراهيم

تعريف الحنيفية :

إن الحنيفيَّة ملةُ إبراهيم [١٣].

---

[١٣] قوله: «إن الحنيفية ملة إبراهيم»، أي: الذي يجب أن تعلمه وأن تعرفه أن الحنيفية ملة إبراهيم.

والحنَفُ في اللغة: الميل.

فمعنىٰ الحنيفية: هي الملة المائلة عن الشرك إلىٰ التوحيد، وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- كان حنيفًا مسلمًا، حنيفًا، أي: مائلًا عن الشرك ومعرضًا عنه إلىٰ التوحيد والإخلاص لله ﷻ ، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[النحل:١٢٠].

فالحنيف من أوصاف إبراهيم عليه السلام بمعنىٰ: أنه معرض عن الشرك، ومائل عنه بالكلية إلىٰ التوحيد، متوجه بكل وجهته إلىٰ التوحيد والإخلاص لله ﷻ ، قال الله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾[النحل:١٢٣].

وقال سبحانه: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[آل عمران:٦٧].

....

هذه أوصاف إبراهيم عليه السلام العظيمة، منها: أنه كان حنيفًا، وأن ملته الحنيفية، وهي الملة الخالصة لله عز وجل التي ليس فيها شرك، وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يتبع هذه الملة بقوله: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل:١٢٣].

وأُمرنا نحن كذلك أن نتبع ملة إبراهيم عليه السلام، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الحج:٧٨].

وهي دين جميع الرسل.

ولكن لكون إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- أفضل الأنبياء بعد نبينا محمد ﷺ لاقىٰ في سبيل الدعوة إلىٰ التوحيد من التعذيب ومن الامتحان ما لم يلقه غيره، فصبر علىٰ ذلك.

ولكونه أبا الأنبياء، فإن الأنبياء الذين جاءوا من بعده كلهم من ذريته -عليه الصلاة والسلام-، فالحنيفية ملة جميع الأنبياء، وهي الدعوة إلىٰ التوحيد، والنهي عن الشرك، هذه ملة جميع الرسل، لكن لما كان لإبراهيم مواقف خاصة نحو هذه الملة نسبت إليه، ولمن جاء بعده.

والأنبياء كلهم من بعده كانوا علىٰ ملة إبراهيم، وهي ملة التوحيد والإخلاص لله عز وجل .

ما هي هذه الملة التي أُمر نبيُّنا ﷺ باتباعها، وأُمرنا باتباعه؟ يجب علينا أن نعرفها؛ لأن المسلم يجب عليه أن يعرف ما أوجب الله عليه من أجل أن يمتثله، ومن أجل ألاَّ يخل به، لا يكفي الانتساب بدون معرفة، لا يكفي أن ينتسب للإسلام، وهو

أن تعبدَ الله وحده مخلصًا له الدين [١٤].

لا يعرفه، ولا يعرف ما هي نواقض الإسلام، وما هي شرائع الإسلام، وأحكام الإسلام، ولا يكفي الانتساب لملة إبراهيم وأنت لا تعرفها، وإذا سئلت عنها تقول: لا أدري، هذا لا يجوز، يجب أن تعرفها جيدًا من أجل أن تسير عليها علىٰ بصيرة، وألا تخل بشيء منها.

[١٤] قوله: «أن تعبد الله وحدَه مخلصًا له الدين»: هذه ملة إبراهيم، أن تعبد الله مخلصًا له الدين، تجمع بين الأمرين: العبادة والإخلاص، فمن عَبَدَ الله ولم يخلص له الدين، لم تكن عبادته شيئًا، فمن عبد الله، فصام وحج وصلَّىٰ واعتمر وتصدق وزكىٰ وفعل كثيرًا من الطاعات؛ لكنه لم يخلص لله ﷻ في ذلك، إما لأنه فعل كل ذلك رياء أو سمعة، أو أنه خلط عمله بشيء من الشرك كدعاء غير الله، والاستغاثة بغير الله، والذبح لغير الله، فإن هذا لم يكن مخلصًا في عبادته؛ بل هو مشرك، وليس علىٰ ملة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-.

كثير ممن ينتسبون إلىٰ الإسلام اليوم يقعون في الشرك الأكبر من دعاء غير الله، وعبادة القبور والأضرحة والذبح لها والنذر لها، والطوائف بها والتبرك بها، والاستغاثة بالأموات وغير ذلك، وهم يقولون: إنهم مسلمون، هؤلاء لم يعرفوا ملَّة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- التي عليها نبيُّهم محمدﷺ، لم يعرفوها، أو عرفوها وخالفوها علىٰ بصيرة -والعياذ بالله- وهذا أشد.

فملَّة إبراهيم لا تقبل الشرك بأي وجه من الوجوه، ومَنْ خلط عمله بشرك فليس علىٰ ملَّة إبراهيم، وإن كان ينتسب إليها، ويزعم أنه مسلم، فالواجب أن تعرف ملة إبراهيم، وأن تعمل بها، وأن تلتزمها بأن تعبد الله مخلصًا له الدين، لا يكون

وبذلك أمرَ الله جميع الناس، وخلقهم لها [١٥].

في عبادتك شيء من الشرك الأصغر أو الأكبر.

هذه ملَّة إبراهيم عليه السلام: الحنيفية التي أعرضت عن الشرك بالكلية، وأقبلت على التوحيد بكليتها، أن تعبد الله مخلصًا له الدين.

[١٥] قوله: «وبذلك أمر الله» الإشارة ترجع إلى قوله: أن تعبد الله مخلصًا له الدين، أي: وبعبادة الله مخلصًا له الدين أمر الله جميع الخلق، أمر الله جميع الناس عربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم، كلَّ الناس من عهد آدم إلى آخر بشر في الدنيا، كلهم أمرهم الله بعبادته مع الإخلاص في العبادة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

أنه لا ندَّ له، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا كفؤ له، فهذا نهي عن الشرك الأكبر، وعن الشرك الأصغر، أمر الله بذلك جميع الناس من أولهم إلى آخرهم.

قوله: «وخلقهم لها»، أي: لعبادته وحدَه لا شريك له سبحانه، خُلقوا من أجلها، ذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وأُمروا بذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة:٢١].

هذا معنى قول الشيخ: خلقهم لها وأمرهم بها، جمع الأمرين في قوله: «وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها»، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ

....

وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، فقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾ الله هو الخالق، هو الذي خلق الأشياء كلها، ومن ذلك أنه خلق الجن والإنس، وأعطاهم العقول، وكلَّفهم بعبادته وحدَه لا شريك له، خصَّهم بالأمر بعبادته؛ لأن الله أعطاهم عقولًا وأعطاهم ما يميزون به بين الضار والنافع، والحق والباطل، وخلق الأشياء كلَّها لمصالحهم ومنافعهم.

قال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[الجاثية:١٣] . كل مسخر لبني آدم من أجل أن يستعينوا به علىٰ ما خُلقوا من أجله، وهو عبادة الله سبحانه وتعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

والجن عالم من عالم الغيب لا نراهم، وهم مكلفون بالعبادة، ومنهيون عن الشرك وعن المعصية مثل بني آدم، لكن يختلفون عن بني آدم في الخلقة.

أما من ناحية الأوامر والنواهي فهم مثل بني آدم مأمورون ومنهيون، والجن عالم من عالم الغيب لا نراهم لكنهم موجودون.

والإنس هم بنو آدم، سموا بالإنس؛ لأن بعضهم يأنس ببعض، يجتمعون ويتآلفون، والجن سموا جنًّا من الاجتنان: وهو الاختفاء، ومنه الجنين في البطن؛ لأنه مختفٍ، وجَنَّهُ الليل إذا سَتَرَهُ، والمِجَنُّ: ما يتخذ للوقاية به في الحرب من السهام وغيرها، فهو يستر حامله، فالاجتنان والجَنَان: هو الشيء الخفي المستتر، فالجن مستترون عنا لا نراهم.

وَهُمْ عالم موجود من أنكرهم فهو كافر؛ لأنه مكذِّب لله ورسوله، ولإجماع المسلمين، فقد بيَّن الله جل جلاله أنه لم يخلق الجن والإنس إلا لعبادته لا لشيء آخر.

فهو لم يخلقهم لأجل أن ينفعوه أو يضروه، أو يعتز بهم من ذلة، أو يتكثر بهم من قلة؛ لأنه غني عن العالمين، وما خلقهم لحاجة إليهم، ما خلقهم لأجل أن يرزقوه أو يكتسبوا له الأموال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٧-٥٨].

فالله ليس بحاجة إلىٰ الخلق، وإنما خلق الجن والإنس لشيء واحد فقط، وهو أن يعبدوه، وهو ليس بحاجة إلىٰ عبادتهم وإنما هم المحتاجون إليها؛ لأنهم إذا عبدوا الله أكرمهم وأدخلهم الجنة، فمصلحة العبادة راجعة إليهم، ومضرة المعصية عائدة إليهم، أما الله -جل وعلا- لا تضره طاعة المطيع، ولا معصية العاصي، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]. الله لا تضره معصية العاصي، ولا تنفعه طاعة المطيع، وإنما هذا راجع إلىٰ الخلق أنفسهم، إن أطاعوه انتفعوا، وإن عصوه تضرروا بمعصيته.

ومعنىٰ يَعبُدون: يوحدون [١٦].

أعظم ما أمر الله به التوحيد

وأعظَمُ ما أَمَرَ الله به التوحيد، وهو إفرادُ الله بالعبادة [١٧].

---

[١٦] قوله: «ومعنىٰ يعبدون: يوحدون»: أي: يفردوني بالعبادة، فالعبادة والتوحيد بمعنىٰ واحد؛ التوحيد يُفَسَّر بالعبادة، والعبادة تُفَسَّر بالتوحيد ومعناهما واحد، ففي هذا ردٌّ علىٰ من فسَّر التوحيد بأنه الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر، فهذا ليس هو التوحيد الذي خُلِق الخلق من أجله، وإنما خلِقَ الخَلْق من أجل توحيد العبادة، وهو توحيد الألوهية.

أما من أقر بتوحيد الربوبية فقط، فإنه ليس موحِّدًا، وليس من أهل الجنة؛ بل هو من أهل النار؛ لأنه لم يأت بالتوحيد الذي خُلق من أجله و«هو» العبادة.

[١٧] قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أعظم ما أمر الله به التوحيد»: هذا مهم جدًّا، إن التوحيد أعظم ما أمر الله به، كل الأوامر التي أمر الله بها كلُّها بعد التوحيد.

الدليل علىٰ أن أعظم ما أمر الله به التوحيدُ قولهُ تعالىٰ: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ [النساء:٣٦] إلىٰ آخر الآية.

هذه الآية فيها عشرة حقوق؛ ولهذا تسمىٰ آية الحقوق العشرة، أول هذه الحقوق حق الله سبحانه: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾، ﴿ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا ﴾ هذا هو الحق الثاني، ﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ هذا هو الحق الثالث.

وذوو القربىٰ: هم الذين تجمعك بهم قرابة نسبية من جهة الأب أو الأم، كالآباء والأجداد، والأعمام والعمات، والأخوال والخالات، والإخوة والأخوات،

وأولاد الإخوة والأخوات، وأولاد الأعمام والعمات، هؤلاء هم ذوو القربىٰ، لهم حق القرابة.

﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ الأيتام من المسلمين، وهم كل من مات أبوه، وهو صغير ولم يبلغ، وصار بحاجة إلىٰ من يسد مَسَدَّ أبيه في رعاية هذا الطفل تربية وإنفاقًا وقيامًا بمصالحه، ورفع ما يضره؛ لأنه ليس له أب يحميه، وينفق عليه، ويدافع عنه، فهو بحاجة إلىٰ من يساعده؛ لأنه فقد أباه وعائله، وله حق في الإسلام.

المهم أن الله بدأها بحقه سبحانه وتعالى، قوله: ﴿وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ لم يقتصر علىٰ قوله: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ لأن العبادة لا تصح مع الشرك ولا تنفع، ولا تسمىٰ عبادة إلا إذا كانت خالصة لله عز وجل، إن كان معها شرك فإنها لا تكون عبادة مهما أتعب الإنسان نفسه فيها، قرن الأمر بالعبادة بالنهي عن الشرك، إذ لا تصح العبادة مع وجود الشرك أبدًا.

هذا دليل علىٰ قول الشيخ: «أعظم ما أمر الله به التوحيد». حيث إن الله بدأ في آيات كثيرة منها هذه الآية.

ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]. فبدأ سبحانه وتعالى بالتوحيد، وهذا يدلُّ علىٰ أنه أعظم ما أمر الله به.

﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾ [الأنعام:١٥١].

هذا دليل علىٰ ما يأتي أن أعظم ما نهىٰ الله عنه الشرك، فإذا كان أعظم ما أمر الله به التوحيد، فإنه يجب أن يبدأ الإنسان بتعلُّم العقيدة قبل كل شيء، العقيدة هي

....

الأساس، فيجب أن يبدأ بها بالتعلُّم والتعليم، وأن يداوم علىٰ تدريسها وبيانها للناس؛ لأنها هي أعظم ما أمر الله به، فليس من المناسب أن تجعلها آخر الأشياء أو لا يؤبه بها؛ لأن الآن هناك دعاة يزهدون في تعليم التوحيد والعقيدة، هناك أناس ابتلوا بهذا؛ ولأن الإخلال بها إخلال بالدين كله فيجب العناية بها.

وما هو التوحيد؟ هل هو أن تقر بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت؟ لا.

التوحيد هو: إفراد الله بالعبادة؛ لأن الله قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وقال أهل التفسير: يعبدون، أي: يوحدون، ففسروا التوحيد بالعبادة.

إذن؛ فالتوحيد هو إفراد الله بالعبادة، وليس هو الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر؛ لأن هذا موجود في الفِطَرِ، موجود في عقول العقلاء، لا يوجد عاقل في الدنيا يعتقد أن أحدًا خلق السموات والأرض غير الله سبحانه وتعالى، لا يوجد أحد في العالم كله وما فيه من الكفار والملاحدة يعتقد أن أحدًا من البشر خلق بشرًا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف:٨٧].

لا يوجد عاقل في العالم يعتقد أن بشرًا يخلق بشرًا إنسانًا يمشي علىٰ الأرض، ويتكلم ويأكل ويشرب، هل يوجد عاقل يعتقد هذا؟ ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٦].

توحيد الربوبية موجود في الفطر والعقول؛ لكنه لا يكفي بدون توحيد العبادة، وهو إفراد الله بالعبادة.

أعظم ما نهى الله عنه الشرك

وأعظمُ ما نهىٰ عنه الشِّركُ [١٨].

ولهذا قال الشيخ: التوحيد هو إفراد الله بالعبادة، وليس هو إفراد الله بالخلق والرزق والإحياء والإماتة؛ لأن هذا شيء معروف، ولا يكفي توحيد الربوبية في تعريف التوحيد.

[١٨] قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأعظم ما نهىٰ الله عنه الشرك».

هذه فائدة عظيمة؛ لأن بعض الناس يعتقدون أن هناك أشياء هي أعظم الجرائم، وأعظم ما نهىٰ الله عنه، فيقول: الربا هو أعظم المحرمات، الزنَا هو أعظم المحرمات؛ ولذلك يركزون علىٰ النهي عن الربا، وعن الزنا، وعن فساد الأخلاق، ولكن لا يهتمون بأمر الشِّرك، ولا يحذرون منه، وهم يرون الناس واقعين فيه، هذا من الجهل العظيم بشريعة الله تَعَالَىٰ.

فأعظم ما نهىٰ الله عنه هو الشرك، فهو أعظم من الربا، وأعظم من شرب الخمر، وأعظم من السرقة، وأعظم من أكل أموال الناس بالباطل، وأعظم من القمار والميسر، هو أعظم المحرمات.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ

....

وَلَا تَقْرَبُوا ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ إلىٰ آخر الآيات، وهذه الآيات تسمىٰ بالوصايا العشر: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:١٥١-١٥٢].

هذه المحرمات بدأها الله بقوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ فدلَّ علىٰ أن الشرك هو أعظم ما نهىٰ الله عنه.

وفي سورة الإسراء، قال الله تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء:٢٢]. بدأ بالنهي عن الشرك، وختمها بالنهي عن الشرك، فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء:٣٩].

فدل علىٰ أنه أعظم ما نهىٰ الله عنه، هذا يدل علىٰ قول الشيخ: وأعظم ما نهىٰ الله عنه الشرك.

وفي الحديث الصحيح: «أن النبي ﷺ سئل: أي الذنب أعظم؟ قال: **أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**. قيل: ثم أي؟ قال: **أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**. قيل: ثم أي؟ قال: **أن تزاني حليلة جارك**»(١).

وأنزل الله تصديق ذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٦١)، ومسلم (٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فبدأ بالشرك في قوله: «**أن تجعل لله ندًّا** -أي: شريكًا- **وهو خلقك**». وقال: هو أعظم الذنوب؛ لأنه سئل أي الذنب أعظم؟ فبدأ بالشرك.

وقالﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات. قيل: وما هن يا رسول الله؟! قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق...**»(١) إلخ الحديث.

بدأها بالشرك؛ فدلَّ علىٰ أن الشرك هو أعظم الذنوب، ولذلك فإن المشرك لا يدخل الجنة أبدًا، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[المائدة:٧٢] . المشرك لا يغفر الله له: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾[النساء:٤٨] .

فدل ذلك علىٰ تحريم الجنة علىٰ المشرك، وأن الله لا يغفر له، ودل هذا علىٰ أن الشرك أعظم الذنوب؛ لأن الذنوب -ما عدا الشرك- قابلة للمغفرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ فالزنا، والسرقة، وشرب الخمر، والربا كله داخل تحت المشيئة، إن شاء الله غفر لصاحبه، وإن شاء عذبه.

أما الشرك فإنه لا يغفر، حكم الله أنه لا يغفره، وكذا العاصي، وإن كان عنده كبائر دون الشرك فإنه لا تحرم عليه الجنة، مآله إلىٰ الجنة، إما أن يغفر الله له من أول وهلة ويدخله الجنة، وإما أن يخرج من النار بعد تعذيبه، ويدخل الجنة؛ المؤمن مهما كان منه من الفسق والمعاصي التي دون الشرك، فإنه لا يقنط من رحمة الله، ولا يحرم من الجنة، وهو داخل تحت المغفرة بمشيئة اللهسبحانه وتعالى .

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) من حديث أبي هريرةرضي الله عنه .

....

أما المشرك فإنه محروم من ذلك كله، والعياذ بالله، فدل علىٰ أن الشرك هو أعظم الذنوب، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان:١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[النساء:٤٨]. ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[النساء:١١٦]. كل هذا يدل علىٰ أن الشرك أعظم الذنوب، وإذا كان الشرك أعظم الذنوب فإنه يجب علىٰ العلماء والمتعلمين النهي عنه والتحذير منه، وألا يسكتوا عن التحذير من الشرك، وأنه يجب جهاد المشركين مع القدرة كما جاهدهم رسول الله ﷺ.

قال تعالىٰ: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾[التوبة:٥]. فيجب التحذير من الشرك، وبيانه للناس حتىٰ يجتنبوه، هذا الذي يجب.

أما أن يسكت عن الشرك، ويترك الناس يهيمون في عبادة غير الله، وهم يدَّعون الإسلام، ولا أحد ينهىٰ، ولا أحد يحذر، فالأمر خطير جدًّا، هناك ناس يتجهون إلىٰ النهي عن الربا، والزنا، وفساد الأخلاق، هذه أمور محرمة، وفيها فساد، لكن الشرك أعظم، فلماذا لا يهتم بالنهي عن الشرك، والتحذير من الشرك، وبيان ما يقع فيه كثير من الناس في الشرك الأكبر وهم يدَّعون الإسلام؟!

لماذا هذا التساهل في أمر الشرك والتغافل عنه، وترك الناس يقعون فيه، والعلماء موجودون؛ بل يعيشون مع هؤلاء ويسكتون عنهم؟

الواجب: أن يتجه أولًا إلىٰ النهي عن هذا الخطر العظيم الذي فتك بالأمة فتكًا ذريعًا، كل ذنب دونه فهو أهون منه، والواجب أن يبدأ بالأهم فالأهم.

وهو دعوة غيره معه [١٩].

---

[١٩] هذا تعريف الشرك: هو دعوة غيره معه، بمعنىٰ أن يُصْرَف شيء من العبادة لغير الله، من مَلَك من الملائكة أو نبي من الأنبياء، أو صالح من الصالحين أو بَنِيَّة من البنيَّات، أو غير ذلك من كل المخلوقات، فمن صرف شيئًا من العبادة لغير الله فهذا هو أعظم ما نهىٰ الله عنه، هذا هو الشرك.

فاعرفوا تفسير التوحيد وتفسير الشرك؛ لأن هناك من الناس من يفسر التوحيد بغير تفسيره، ومن يفسر الشرك بغير تفسيره.

من الناس من يقولون: إن الشرك هو الشرك في الحاكمية، وهذا ظهر الآن مع الأسف، الحكم بغير ما أنزل الله نوع من أنواع الشرك يسمىٰ شرك الطاعة، لا شك أن طاعة المخلوق في تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحل الله هذا نوع من الشرك؛ لكن هناك ما هو أعظم منه، وهو عبادة غير الله بالذبح والنذر والطواف والاستغاثة.

فالواجب: أن يحذر من الشرك كله، لا يؤخذ منه، ويترك ما هو أعظم وأخطر منه، فلا يفسر الشرك بأنه شرك الحاكمية فقط، أو الشرك السياسي، ويقولون: الشرك بالقبور هذا شرك ساذج -أي: هين- هذه جراءة علىٰ الله ﷻ، الشرك أعظم ما نهىٰ الله عنه، وهو دعوة غيره معه، هذا هو الشرك.

ومنهم من يقول: الشرك هو محبة الدنيا، ومحبة المال، المال جعله الله محبوبًا حبًّا طبيعيًّا ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر:٢٠]. ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: المال: ﴿لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨]. ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾ [التوبة:٢٤].

قال: أحب إليكم، ما أنكر عليهم أنهم يحبونه، لكن أنكر عليهم أنهم يقدِّمون محبته علىٰ محبة الله، محبة المال ليست شركًا؛ لأن هذه محبة طبيعية، الناس يحتاجون إلىٰ المال ويحبونه؛ محبة المال ليست شركًا؛ لأنه من محبة المنافع التي ينتفع بها الإنسان، لكن هؤلاء الذين يقولون هذه المقالات إما أنهم جهال لم يتعلموا التوحيد والشرك. وإما أنهم مُعرضون يريدون صرف الناس عن هذه الحقائق إلىٰ أشياء هم يريدونها؛ ومآرب يريدونها، والله أعلم بالمقاصد.

المهم: أن هذا ليس هو الشرك، الشرك هو دعوة غير الله معه، أو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله، كالذبح، والنذر، والدعاء، والاستغاثة، والاستعانة، والالتجاء، والخوف، والرجاء وغير ذلك، هذا هو الشرك الذي هو أعظم الذنوب دعوة غيره معه ﷻ؛ لأن الدعاء هو أعظم أنواع العبادة كما قال سبحانه: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ [الرعد:١٤]. وقال: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [غافر:١٤]. فدعاء غير الله هو الشرك الذي حرمه الله ورسوله.

أما هذه الجزئيات التي يجعلونها هي الشرك فليس كذلك، لكن يقال: إن بعضها جزء من الشرك، وإن هناك ما هو أخطر منه، وأهم منه؛ لأن الشرك يتفاوت، بعضه أشد من بعض، والعياذ بالله.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء:٣٦][٢٠].

---

[٢٠] قوله: «والدليل قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾».

قلنا: إن الدليل علىٰ أن أعظم ما أمر الله به هو التوحيد قوله: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ ثم ذكر بقية الحقوق، فكونه بدأ بالتوحيد والنهي عن الشرك، هذا دليل علىٰ أن التوحيد هو أعظم ما أمر الله به؛ لأنه قال: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ وأتبعه بقوله: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ فهذا نهي، فبدأ بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، فدل علىٰ أن أعظم ما أمر الله به التوحيد، وأعظم ما نهىٰ عنه الشرك، لأن الله بدأ بذلك، ولا يبدأ سبحانه إلا بالأهم فالأهم، هذا وجه الدلالة من الآية.

الرسالة الرابعة
الأصول الثلاثة التي تجب معرفتها

الأصل الأول: معرفة الله ﷻ:

فإذا قيلَ لك: ما هي الأصولُ الثلاثة التي تجبُ معرفتها؟

فقل: معرفة العبدِ ربه، ودينه، ونبيه محمداً ﷺ[١].

---

[١] قوله: «الأصول»: جمع أصل، والأصل: ما يُبنىٰ عليه غيره، والفرع: ما يبنىٰ علىٰ غيره، فهذه سُميت بالأصول؛ لأنها يُبنَىٰ عليها غيرُها من أمر الدين؛ فلذلك سميت أصولًا لأنها يبنىٰ عليها أمر الدين، وكل الدين يدور علىٰ هذه الأصول الثلاثة.

قوله: «معرفة العبد ربَّهُ»: ربه منصوب؛ لأنه مفعول لمعرفة؛ لأن المصدر (معرفة) أضيف إلىٰ اسم الفاعل (العبد) والمصدر إذا أُضيف يعمل عمل فعله عند النحويين، فالمصدر هنا أضيف فيعمل عمل الفعل.

قوله: «ودينه ونبيه»: معطوف عليه، أي: علىٰ المنصوب، هذه أصول الدين إجمالًا، وسيأتي تفصيلها في كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إن شاء الله.

لماذا خص هذه الأصول الثلاثة؟

لأنها هي الأساسات لدين الإسلام؛ ولأنها هي المسائل التي يُسأل عنها العبد

حين يوضع في قبره؛ لأن العبد إذا وضع في قبره وسُوِّي عليه التراب، وانصرف عنه الناس راجعين إلىٰ أهلهم، جاءه ملكان في القبر، فتعاد روحه في جسده ويحيا حياة برزخية ليست حياة مثل حياة الدنيا، حياة الله أعلم بها، فيجلسانه في قبره فيقولان له: من ربك، وما دينُك، ومَنْ نبيك؟

فالمؤمن يقول: ربي الله، وديني الإسلام، ومحمدﷺ نبيي، فيقال له: كيف عرفت؟ يقول: قرأت كتاب الله فدريت وعرفت، فينادي مناد: أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وافتحوا له بابًا من الجنة، ويُوسَّع له في قبره مدَّ البصر، فيأتيه من ريح الجنة وروحها، فينظر إلىٰ مسكنه في الجنة، فيقول: يا ربِّ أقم الساعة؛ حتىٰ أرجع إلىٰ أهلي ومالي!

وأما المرتاب الذي عاش علىٰ الريبة والشك، وعدم اليقين، وإن كان يدَّعي الإسلام، إذا كان عنده شكوك وعنده ريب في دين الله كالمنافق فإنه يتلجلج، فإذا قالوا له: مَنْ ربُّك؟ يقول: لا أدري، وإذا قالوا: ما دينُك؟ يقول: لا أدري، وإذا قيل: مَنْ نبيك؟ يقول: لا أدري، هاه هاه لا أدري؛ سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته[1].

يعني: أنه في الدنيا يقول ما يقوله الناس من غير إيمان -والعياذ بالله- هذا المنافق الذي أظهر الإسلام، وهو لا يعتقده في قلبه، وإنما أظهره من أجل مصالحه الدنيوية، فيقول في الدنيا: ربي الله، وهو غير مؤمن بها، قلبه منكر والعياذ بالله!!

يقول: ديني الإسلام، وهو لا يؤمن بالإسلام، قلبه منكر!!

يقول: نبيي محمدﷺ، وهو لا يؤمن برسالة محمد في قلبه!!

---

(١) سبق تخريجه (ص١٤).

إنما يقول بلسانه فقط، هذا هو المنافق، فيُقال له: لا دريت ولا تَلَيْتَ، فيضرب بمرزبة من حديد يصيح منها صيحة لو سمعه الثقلان لصعقوا ، يسمعها كل شيء إلا الإنسان لو سمعه لصعق، أي: لمات من الهول، ويُضيق عليه في قبره حتىٰ تختلف أضلاعه، ويُفتح له باب إلىٰ النار فيأتيه من سَمُومها وحرِّهَا، فيقول: يا رب لا تقمِ الساعة، هذه عيشته وحالته في القبر، -والعياذ بالله- لأنه ما أجاب بالجواب السديد.

ولذلك ينادي مناد: أن كذب عبدي فأفرشوه من النار، وافتحوا له بابًا من النار، والعياذ بالله.

فإذا كانت هذه المسائل بهذه الأهمية وجب علينا أن نتعلَّمها وأن نعتقدها، ولا يكفي التعلُّم فقط؛ بل نتعلَّمها ونعتقدها، ونؤمن بها، ونعمل بها ما دمنا علىٰ قيد الحياة؛ لعل الله أن يثبتنا عند السؤال في القبر.

يقول الله تعالىٰ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

فهذه الأصول الثلاثة لها أهمية عظيمة، ولهذا ركَّزَ عليها الشيخ في هذه الرسالة ووضحها من أجل أن ندرسها، ونتمعَّن فيها، ونعتقدها ونعمل بها، لعل الله أن يثبتنا وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

فإذا قيل لك: مَنْ ربك؟

فقل: ربِّي الله الذي ربَّاني وربَّىٰ جميع العالمين بنعمه [٢].

---

[٢] لما بيَّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأصول الثلاثة مجملة أراد أن يبينها مفصلة واحدًا واحدًا بأدلتها من الكتاب والسنة، ومن آيات الله في الكون، ومن الأدلة العقلية، وهكذا يجب أن تبنىٰ العقائد علىٰ أدلة الكتاب والسنة، وعلىٰ النظر في آيات الله الكونية من أجل أن ترسخ وتثبت في القلب وتزول جميع الشبه.

وأما العقائد المبنية علىٰ الشُّبهات، وعلىٰ الشكوك، وعلىٰ أقوال الناس والتقليد الأعمىٰ، فإنها عقائد زائلة لا تثبت، وهي عُرضة للنقض وعُرضة للإبطال.

فلا تثبت العقيدة، ولا سائر الأحكام الشرعية إلا بأدلة الكتاب والسنة، وبالأدلة العقلية المسلَّمة، ولهذا أكثر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من سياق الأدلة علىٰ هذه الأصول الثلاثة، فلا يمر أصل منها إلا وقد دعمه بالأدلة والبراهين اليقينية التي تطرد الشكوك والأهواء، وترسخ العقيدة في القلب.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا قيل لك». أي: سُئلت «مَنْ ربك؟» وهذا سؤال وارد ستُسأل عنه في الدنيا والآخرة، فلابد أن تعرف ربك عَزَّ وَجَلَّ، وأن تجيب بجواب صحيح مبني علىٰ اليقين والبرهان.

فقل: ربي الله -هذا هو الجواب-، الذي رباني وربَّي جميع العالمين بنعمه؛ هذا استدلال عقلي.

فالربُّ -جل وعلا- هو الذي يربي جميع عباده بنعمه، ويغذيهم برزقه، يخلقهم -بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا- في بطون أمهاتهم خلقًا من بعد خلق في ظلمات ثلاث، ويوصل إليهم الرزق حتىٰ في بطون أمهاتهم؛ ولذلك ينمو جسم

الجنين في بطن أمه ويكبر؛ لأنه يصل إليه الرزق من الله ﷻ، ويصل إليه الغذاء.

ثم تُنفخ فيه الرُّوح، فيتحرك ويحيا -بإذن الله- هذه تربية في البطن، ثم إذا خرج فإن الله سبحانه يربيه بنعمه بالصحة والعافية، ويدرُّ عليه لبن أمِّه، فيتغذَّىٰ إلىٰ أن يأكل الطعام ويستغني عن الحليب، ثم ينمو شيئًا فشيئًا عقله وسمعه وبصره، ينمو شيئًا فشيئًا حتىٰ يبلغ الحُلُم، ثم ينمو وينمو حتىٰ يبلغ أشدَّه ويبلغ أربعين سنة، ويكون في غاية القوة.

فمن الذي يغذيه من يوم أن خلقه في بطن أمه إلىٰ أن يموت، من الذي يغذيه ثم من الذي يسوغ هذا الطعام، وهذا الشراب في جسمه فيصل إلىٰ كل خلية وعضلة وإلىٰ كل مكان في جسمه، من الذي يشهي إليه الطعام والشراب، من الذي يصرفه ويخرج منه ضرره، من الذي يفعل هذا ويربي هذا الإنسان، أليس هو الله ﷻ؟ هذا هو الربُّ ﷻ الذي يربي، هو الذي رباني وربىٰ جميع العالمين بنعمته.

كل ما علىٰ وجه الأرض من العوالم الآدمية والحيوانية، وعالم البر والبحر، من أكبر مخلوق إلىٰ أصغر مخلوق، في البر والبحر كلها تتغذىٰ بنعمه ورزقه، قال تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك:٢١]. وقال: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود:٦]. وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠]. هذا هو الرب سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [يونس:٣].

أما غير الله -جل وعلا- فلا يملك من ذلك شيئًا لا الأصنام ولا غيرها، لا أحد يملك من الرزق شيئًا؛ وإنما هو مرزوق مخلوق مثلك.

وهو معبودي ليسَ لي معبودٌ سواه [٣].

---

[٣] قوله: «وهو معبودي»: الربُّ الذي هذا شأنه هو الذي يستحق العبادة مني ومن غيري، ثم أيضًا نبَّه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا يكفي الإقرار بالربوبية، لا يكفي أن تقول: ربي الله الذي رباني بنعمه.

هذا لا يكفي لابد أن تعترف له بالعبودية، وأن تُخلص له بالعبادة، وهذا هو الفرق ما بين الموحِّد والمشرك، فالموحِّد يقرُّ بربوبية الله عَزَّ وَجَلَّ وبعبوديته وحدهَ لا شريك له، والمشرك يقرُّ بربوبية الله، ولكنه مشرك في عبادته، يُشرِك معه غيرَه في عبادته، يشرك معه مَنْ لا يخلق، ولا يرزق، ولا يملك شيئًا.

هذا هو الفرق ما بين الموحد والمشرك؛ الموحد يقول: ربي الله، وهو معبودي، وليس لي معبود سواه.

أما المشرك فيقول: ربي الله؛ لكن العبادة عنده ليست خاصَّة بالله، فيعبد مع الله الأشجار والأحجار، والأولياء والصالحين، والقبور، فلذلك صار مشركًا ولم ينفعه الإقرار بالربوبية، ولم يدخله في الإسلام.

فقوله: «**وهو معبودي**»، أي: الإله الذي أعبده.

وقوله: «ليس لي معبود سواه»: لا من الملائكة، ولا من الرسل، ولا من الصالحين، ولا من الأشجار، والأحجار، ولا من أي شيء، ليس لي معبود سواه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هذا تقرير التوحيد بالدليل، وهذا دليل عقلي، ثم ذكر الدليل النقلي من القرآن.

والدليل قولهُ تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢].

هذه الآية هي أول القرآن في المصحف، ليس قبلها إلا بسم الله الرحمن الرحيم، وهي آخر كلام أهل الجنة، قال تعالىٰ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

....

﴿ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [يونس:١٠]. والله -جل وعلا- افتتح بها الخلق، قال تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١].

وختم بها الخلق، قال تعالىٰ: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الزمر:٧٥]. فتح بها الخلق، وختم بها فهي كلمة عظيمة.

فقوله تعالىٰ: الحمد: الثناء علىٰ المحمود مع محبته وإجلاله، و«أل» في الحمد للاستغراق، أي: جميع المحامد لله ملكًا واستحقاقًا، فهو المستحق للحمد المطلق، وأما غيره فيحمد علىٰ قدر ما يفعل من الجميل، ومن الخير، وأما الحمد المطلق الكامل فهو لله ﷻ؛ لأن النعم كلها منه.

وحتىٰ المخلوق إذا أسدىٰ إليك شيئًا من الإحسان فإنه من الله ﷻ، هو الذي سخر لك هذا المخلوق، وهو الذي مكّنه من أن يحسن إليك، فالحمد يرجع إلىٰ الله ﷻ.

وقوله: لله: جار ومجرور متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، أي: الحمد كائن، أو مستقر لله ﷻ.

والله: معناه: ذو الألوهية والعبودية علىٰ خلقه أجمعين، وهذا الاسم لا يسمىٰ به غيره سبحانه، لا أحد تسمىٰ بالله، حتىٰ فرعون، ما قال: أنا الله، لكنه قال: أنا ربكم، فهذا الاسم خاص بالله، لا أحد يتسمىٰ به أبدًا، ولا أحد يجرؤ أن يقول: أنا الله.

رب: نعت لاسم الجلالة وهو مجرور وهو مضاف.

العالمين: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم.

فواضح أن الحمد كله والثناء كله لله رب العالمين.

وعالم الملائكة وعالم الجمادات والطيور، وعالم السباع، وعالم الحيوانات، وعالم الحشرات والذر، عوالم في البر والبحر لا يعلمها إلا الله، ولا يحصيها إلا الله، كلها الله ربها.

رب العالمين: وهذا لا يطلق إلىٰ علىٰ الله -سبحانه عز وجل-، لا يمكن لأحد أن يقال له: رب العالمين.

فإذا قيل: الرب، فهذا لا يطلق إلا علىٰ الله، علىٰ الله -جل وعلا-، ولا ينصرف إلا إليه، أما المخلوق فيقيد فيقال: ربُّ الدار، ربُّ البهيمة، أي: مالكها وصاحبها.

وكلُّ ما سوىٰ الله عالَم، وأنا واحدٌ من ذلك العالَم [٤].

فإذا قيلَ لك: بما عرفتَ ربَّكَ؟

فقل: بآياته، ومخلوقاته [٥].

---

[٤] ثم بين الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجه الاستدلال بهذه الآية.

فقوله: «وكل ما سوىٰ الله عالم، وأنا واحد من ذلك العالم» فيكون الله ربِّي؛ لأن الله ربُّ العالمين، وأنا واحد من العالمين، فلا أحد يستطيع أن يقول: أنا لي رب غير رب العالمين، لا الكافر ولا المسلم، هذا لا يمكن أبدًا، ولا يقوله عاقل، هذا دليل علىٰ ربوبية الله عَزَّ وَجَلَّ، وما دام أنه رب العالمين فهو المستحق للعبادة، وهذا يُبطل عبادةَ غيره تَعَالَىٰ، ولذلك قال بعدها: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

وهذا يفيد الحصر؛ لأن تقديم المعمول -إياك- وتأخير العامل -نعبد- يدل علىٰ الحصر، فإياك نعبد يختلف عن نعبدك، لأن نعبد، هذا إثبات فقط، لكن ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يتضمن النفي والإثبات، أي: لا نعبد غيرك، والعبادة لا تصح إلا مع النفي والإثبات، وهو معنىٰ لا إله إلا الله، فيها نفي وإثبات، نفي الألوهية عما سوىٰ الله، وإثباتها لله عَزَّ وَجَلَّ.

[٥] أنت قلت: الله ربي، أو ربي الله الذي رباني بنعمه، ما هو الدليل علىٰ أن الله ربك الذي ربَّاك بنعمه؟

جاء الشيخ بأدلة من الوحي ومن العقل كما سيأتي، فإذا قيل لك: بم عرفت ربَّك؟ لأن من ادَّعَىٰ شيئًا فلابد أن يقيم الدليل علىٰ دعواه:

والـدَّعاوىٰ إذا لَـم يُقيموا ... عليها بينات أهلُها أدعياءُ

لابدَّ لكل مدع أن يقيم الدليل على دعواه، وإلا كانت دعواه غير صحيحة، أنت قلت: ربي الله الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمه، ما الدليل؟

فقل: الدليل آياته ومخلوقاته.

الآيات: جمع آية، والآية في لغة: العلامة على الشيء، والدلالة على الشيء، كما قال ﷺ: **«آية المنافق ثلاث»**(١). أي: علامته.

قوله: «بآياته»، أي: العلامات والدلالات الدالة عليه سبحانه وتعالى، فجميع هذه الكائنات التي ترونها كلها كانت معدومة، ثم إن الله أوجدها وخلقها بقدرته سبحانه وتعالى.

ومنها خلق يتجدد مثل النبات والمواليد وأشياء ما كانت موجودة، ثم وجدت، وأنتم تنظرون إليها، من الذي يخلقها؟ هو الله سبحانه وتعالى، هل تخلق نفسها، هل أحد من البشر خلقها؟ لا أحد ادعى هذا، ولا يستطيع أن يدَّعي.

قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٦]. هذه الأشياء ما أَوجَدَتْ نفسها، أو أوجدها غيرُها من المخلوقات أبدًا لم ولن يخلق أحدٌ شجرةً أو بعوضة أو ذبابًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج:٧٣].

فهذا الخلق يدل على الخالق سبحانه وتعالى، ولهذا لما قيل لأعرابي على البديهة: بِمَ عرفت ربك؟ قال: البعرةُ تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، ألا يدل هذا الكون على اللطيف الخبير.

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن آياته: الليل والنهارُ، والشمسُ والقمر، ومن مخلوقاته: السموات السبع والأرضون السبع، وما فيهن وما بينهما [٦].

إذا رأيت أثر قدم على الأرض، أما يدلك هذا على أن أحدًا مشى على هذه الأرض؟ إذا رأيت بعر بعير، ألا يدلك هذا على أن هذه الأرض فيها إبل، أو مر عليها بعير؟ البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير.

[٦]قوله: «ومن آياته الليل والنهار، والشمس والقمر»: فالآيات على قسمين:

القسم الأول: آيات كونية تشاهد، مثل السموات والأرض والنجوم، والشمس والقمر، والجبال، والشجر، والبحار، سميت آيات؛ لأن بها دلالات على خالقها ﷻ، ولهذا يقول أبو العتاهية:

فيا عجبًا كيفَ يُعصىٰ الإلـ ـهُ أم كيف يَجحدُه الجاحِدُ
وفي كلِّ شيء له آيةٌ تَدلُّ على أنه واحدُ
ولله في كلِّ تحريكة وتسكينة في الورَىٰ شاهدُ

فكيف يجحد أحد الله -جل وعلا-، ويقول: ليس هناك رب لهذا الكون كله، وهذه المخلوقات وجدت من غير خالق، وإن وجدت بخالق فمن هو هذا الخالق غير الله -جل وعلا- بيِّنْ لي؟ لا تجد خالقًا غير الله ﷻ: ﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾[الرعد:١٦].

القسم الثاني: الآيات القرآنية التي تُتلىٰ من الوحي المنزل على الرسولﷺ، هذه كلها أدلة على وجود الرب ﷻ، وعلى كماله وصفاته وأسمائه، وعلى أنه مستحق للعبادة وحده لا شريك له، كلها تدل على ذلك الآيات الكونية والآيات القرآنية.

الآيات الكونية تدل على خالقها وموجدها ومدبرها، والآيات القرآنية فيها الأمر بعبادة الله، وفيها تقرير توحيد الربوبية، والاستدلال به على توحيد الألوهية، والأمر بعبادة الله سبحانه وتعالى، كل القرآن يدور على هذا المعنى، وأُنزل من أجل هذا المعنى.

ومن آياته الليل والنهار، والشمس والقمر، هذه من أعظم آياته سبحانه وتعالى، الليل المظلم الذي يغطي هذا الكون، والنهار المضيء الذي يضيء هذا الكون، فينتشر الناس لأشغالهم قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١-٧٣].

هذا من أعظم آيات الله هذا الليل، وهذا النهار، لا الوقت كله ليل، ولا الوقت كله نهار؛ لأنه لو كان كذلك تعطلت مصالح العباد وتعبوا.

جعل الله لهم الليل والنهار يتعاقبان، ثم إن الليل والنهار منتظمان لا يتخلف واحد منهما ولا يتغير على نظام واحد؛ مما يدل على حكمة الحكيم سبحانه وتعالى، أفعال العباد وصناعاتهم تخرب وتختلف مهما كانت وتتعطل، وأما مخلوقات الله عز وجل فإنها لا تخرب إلا في وقت يأذن الله فيه بخرابها.

فالليل والنهار مستمران لم يتعطل أحد منهما، بينما صناعة الخلق تتعطل وتخرب وتفنى، وإن كانت قوية أو ضخمة.

الدليل على ربوبيته وإلهيته سبحانه وتعالى

والدليلُ قولُه تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧][٧].

كم تشاهدون من السيارات المرمية والطائرات والبواخر مع أنها قوية ومعتنىٰ بها لكنها تخرب وتتعطل، هل تعطل الليل أو تعطل النهار؟ لا، لأن صانعه قدير حكيم -جل وعلا-: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾[النمل:٨٨].

[٧] هذا دليل علىٰ ربوبيته وإلهيته سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ﴾.

الشمس والقمر: الشمس الكوكب العظيم الذي يضيء الكون سراجًا وهاجًا، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾[النبأ:١٣].

والقمر: نور يضيء الليل، ويضيء الطريق للناس.

ومن مصالحهما أيضًا: إصلاح الكون بأشجاره وثماره وبحاره، فلو اختفت الشمس عن الكون لتضرر الكون وفسدت كثير من معايش الناس ومصالحهم، ولو اختفىٰ القمر كذلك، القمر أيضًا فيه منافع للثمار والأشجار، مع ما فيه أيضا من معرفة الحساب، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾[يونس:٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ ﴾ [البقرة:١٨٩].

ففي الأهلَّة مصلحة لمعرفة المواقيت والآجال، آجال الديون، وآجال العِدَدِ للنساء، ومواقيت العبادات، والصيام، والحج، كلها تعرف بالحساب المبني علىٰ هذين النيرين: الشمس والقمر، فالحساب الشمسي والحساب القمري فيهما مصالح للخلق أجمعين.

ومن مخلوقاته السموات السبع، قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق:١٢]. ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ ﴾ [الملك:٣]. بعضها فوق بعض، السماء الدنيا، ثم التي تليها إلىٰ السابعة، وفوق الجميع عرش الرحمن سبحانه وتعالى.

والأرضون سبع كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ فهي سبع طباق أيضًا، وكل طبقة من طبقات السموات السبع والأرضين لها سكان وعُمَّار، ما في السموات من الكواكب والأفلاك الشمس والقمر، وما في الأرض من المخلوقات من الدواب باختلاف أنواعها، ومن الجبال والأشجار والأحجار، ومن المعادن، ومن البحار هذه من آيات الله سبحانه وتعالى، الآيات الكونية التي تُرىٰ وتُشاهد.

قال رحمه الله: والدليل قوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت:٣٧].

من آياته الليل: يعني من علاماته الدالة علىٰ الربوبية، وقدرته، واستحقاقه للعبادة دون سواه: الليل الذي يظلم، والنهار الذي يضيء الكون كله، هذا من عجائب آيات الله سبحانه وتعالى.

فمن الذي يجعل الكون كله مظلمًا في آن واحد؟ ثم يجعل الكون كله مضيئًا في آن واحد؟ هو الله ﷻ، لو اجتمع الخلق علىٰ أن يضيئوا بقعة من الأرض ما استطاعوا أن يضيئوا إلا بقعة محدودة، لو جاءوا بمكائن الكهرباء التي في الدنيا كلها لا تضيء إلا جزءًا محدودًا من الأرض.

أما الشمس والقمر فهما يضيئان الأرض كلها، الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر كذلك.

قال تعالىٰ: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

هذا إبطال للشرك، لا تسجدوا للمخلوقات؛ لأن من أعظم المخلوقات الشمس والقمر؛ ولأن المشركين كانوا يعبدون الشمس ويسجدون لها، ومنهم من يعبد القمر والكواكب مثل قوم إبراهيم يبنون لها هياكل علىٰ صورة الكواكب ويعبدونها، فقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ﴾ السجود معناه: وضع الجبهة علىٰ الأرض خضوعًا للمعبود، وهو أعظم أنواع العبادة، ورسول الله ﷺ يقول: «**أقرب ما يكون العبد من ربه، وهو ساجد**»[(1)].

فأعظم أنواع العبادة السجود علىٰ الأرض؛ لأن وجهك الذي هو أعزُّ شيء عندك وضعتَه لله علىٰ الأرض تعبدًا لله وتذللًا بين يديه ﷻ، هذا هو السجود الحقيقي، ولا يليق التعبد به إلا لله.

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

أما السجود للشمس والقمر فهو سجود لمخلوق لا يستحق أن يسجد له، فلا يجوز السجود للمخلوقات، وإنما السجود لخالق المخلوقات، أما المخلوقات فهي مثلك مخلوقة مُدَبَّرة متصرَّف فيها، هل تسجد لمخلوق عاجز مثلك؟ هذا لا يجوز أين ذهبت العقول؟!

السجود إنما يستحقه الخالق سبحانه وتعالى الذي لا يعجزه شيء، فالسجود حق لله عز وجل وليس حقًّا للمخلوق مهما كان هذا المخلوق من العِظَم والكِبَر فإنه مخلوق ضعيف مدبَّر متصرَّف فيه: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

فالواجب: ألا نعبد إلا الله، فإذا سجدتم له، وسجدتم لغيره، فإنكم لا تكونون عابدين لله العبادةَ الصحيحة؛ بل تعبدونه مع الشرك، والشرك يفسد العبادة.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤][٨].

---

[٨] ﴿إِنَّ﴾: حرف توكيد ونصب، وهي موطئة للقسم، يقدر قبلها قسم تقديره والله.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾: فهي في جواب قسم مقدر.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ أي: خالقكم، ومربيكم بالنعم.

﴿ٱللَّهُ﴾: لا غيره سبحانه وتعالى.

ثم ذكر الدليل علىٰ ذلك فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ هذا هو البرهان علىٰ ربوبية الله عز وجل، أنه خلق السموات والأرض، ولا أحد خلق شيئًا منهما، ولا أحد أعانه سبحانه وتعالى علىٰ ذلك؛ بل هو المنفرد بخلقه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ هل أحد من المشركين أو الملاحدة عارض هذا، وقال: ما خلق الله السموات والأرض، الذي خلقها هو فلان، أو أنا الذي خلقتها، أو خلقها الصنم الفلاني؟ هل قال هذا أحد من العالم قديمًا وحديثًا، مع أن هذه الآية تتلىٰ ليلًا ونهارًا؟ ولا أحد عارضها ولا يستطيع أن يعارضها أبدًا.

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾: هذه المخلوقات الهائلة العظيمة خلقها الله في ستة أيام، وهو قادر علىٰ أن يخلقها في لحظة، ولكنه خلقها في ستة أيام لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى، وستة الأيام أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، ففي يوم الجمعة تكامل الخلق؛ ولذلك صار هذا اليوم أعظم أيام الأسبوع، وهو سيد الأيام، وعيد الأسبوع، وهو أفضل الأيام.

قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة»[(١)]. لأنه تكامل فيه خلق المخلوقات، وخُلِق فيه آدم وأُدخل الجنة، وأُهبط منها، وفيه تقوم الساعة، كل ذلك في يوم الجمعة، فهو أفضل الأيام، وهو آخر أيام الخلق خلق السموات والأرض وما فيهن.

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ حرف عطف وترتيب، أي: أن استواءه على العرش جاء بعد خلق السموات والأرض؛ لأنه من صفات الأفعال التي يفعلها الله متى شاء.

ومعنى استوى: ارتفع وعلا.

العرش: هو سقف المخلوقات.

وهو في اللغة: السرير، وهو سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو أعظم المخلوقات وأعلى المخلوقات.

الاستواء: صفة من صفات الله الفعلية، كما يليق بجلاله ﷻ، ليس كاستواء المخلوق على المخلوق، وليس هو بحاجة إلى العرش؛ لأنه هو الذي يمسك العرش وغيره: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾[فاطر:٤١].

فالعرش محتاج إلى الله ﷻ؛ لأنه مخلوق، والله غني عن العرش وغيره، لكنه استوى عليه لحكمة يعلمها ﷻ، والاستواء نوع من العلو، لكن العلو صفة ذات، وأما الاستواء فهو صفة فعل يفعله إذا شاء ﷻ.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٥٤)، وأبو داود (١٠٤٦)، والترمذي (٤٨٨)، والنسائي (٣/ ٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

﴿يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ يغشي الليل بالنهار، ويغطي النهار بالليل، فبينما ترون الكون مضيئًا فإذا الليل يغطيه فيصبح مظلمًا، والليل يغطيه النهار فيصبح مضيئًا.

﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾ يأتي هذا بعد هذا مباشرة ولا يتأخر، فإذا أدبر الليل جاء النهار، وإذا أدبر النهار جاء الليل مباشرة، لا يتأخر هذا عن هذا، وهذا من كمال قدرته سبحانه وتعالى، لا يفتر هذا عن هذا.

والشمس هي الكوكب العظيم المعروف، والقمر كذلك كوكب من الكواكب السبعة السيارة، وكل منهما يجري ويدور على الأرض، والأرض ثابتة مستقرة، جعلها قرارًا، أي قارة ثابتة لمصالح العباد، والشمس وسائر الأفلاك تدور عليها.

لا كما يقوله المتخرصون الآن من الذين يدَّعون المعرفة، يقولون: إن الشمس ثابتة والأرض تدور عليها هذا عكس ما في القرآن ... ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ [يس:٣٨]. وهم يقولون: الشمس ثابتة، يا سبحان الله!

والنجوم: هي الكواكب.

مسخرات بأمره: مسخرات في الجريان والدوران دائمًا لا يفترن، وهذا رد على الذين يعبدون الشمس والقمر والكواكب بأنها مسخرة بأمر الله مأمورة، الله الذي يجريها، والله الذي يوقفها، إذا شاء سبحانه وتعالى، فهي مسخرة مدبَّرة ليس لها من الأمر شيء.

يأمرها سبحانه فتجري وتدور وتضيء بأمره الكوني سبحانه وتعالى، يطلع هذا ويغرب هذا ويتعاقبان، نصب الشمس والقمر، والنجوم على العطف؛ لأن السموات منصوب؛ لأنه مفعول وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث

سالم، والأرض معطوف علىٰ السموات منصوب بالفتحة، ثم قال: والشمس والقمر معطوف علىٰ المنصوب، والمعطوف علىٰ المنصوب منصوب.

مسخرات: منصوب علىٰ الحال، أي: حال كونها مسخرات، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه ملحق بجمع المؤنث السالم. قال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤].

﴿أَلَا﴾: أداة تنبيه وتقرير، له سبحانه وتعالى لا لغيره.

﴿الْخَلْقُ﴾: وهو الإيجاد؛ فهو القادر علىٰ الخلق إذا أراد سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء.

والأمر: أمره سبحانه وتعالى، وهو كلامه سبحانه وتعالى الكوني والشرعي.

أمره الكوني: الذي يأمر به المخلوقات فتطيعه، وتستجيب له، مثل قوله: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت:١١]. أمرهما سبحانه، وهذا أمر كوني أمر به السموات والأرض، فتكونت: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]. هذا أمر كوني.

أما الأمر الشرعي: فهو وحيه المنزل الذي يأمر به عباده، يأمرهم بعبادته، يأمرهم بالصلاة، يأمرهم بالزكاة، يأمرهم ببر الوالدين، هذا أمره الشرعي، يدخل فيه الأوامر والنواهي التي في القرآن الكريم، وفي السنة النبوية، هذا من أمر الله سبحانه وتعالى.

إذا كان له الخلق والأمر فماذا بقي لغيره سبحانه وتعالى؟

ولهذا يقول ابن عمر لما قرأ هذه الآية، قال: «من له شيء فليطلبه».

ودلت الآية علىٰ الفرق بين الخلق والأمر ففيه ردٌّ علىٰ من يقولون بخلق القرآن؛ لأن القرآن من الأمر، وأمر الله ليس مخلوقًا؛ لأن الله غاير بين الخلق وبين الأمر فجعلهم شيئين متغايرين، والقرآن داخل في الأمر فهو غير مخلوق.

....

وهذا ما خَصَمَ به الإمام أحمد الجهميةَ لما طلبوا منه أن يقول بخلق القرآن. قال: هل القرآن من الخلق أو من الأمر؟ قالوا: القرآن من الأمر. قال: الأمر غير مخلوق، الله غاير بينه وبين الخلق، فجعل الخلق شيئًا والأمر شيئًا آخر.

الأمر كلام، وأما الخلق فهو إيجاد وتكوين، يوجد فرق بينهما.

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: تعاظم الذي هذه أفعاله سبحانه وتعالى وهذه قدرته وهذه مخلوقاته -تبارك وتعالىٰ-.

وتبارك: فعل خاص به سبحانه، فلا يطلق علىٰ غيره، والبركة هي كثرة الخير ونماؤه، وبركات الله -جل وعلا- لا تتناهىٰ، أما المخلوق فلا يقال له: تبارك. إنما يقال له: مبارك يعني: بارك الله فيه وجعله مباركًا، والبركة كلها من الله سبحانه وتعالى .

﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: مثلما سبق ففي هذه الآية تقرير التوحيد، توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية كما سبق.

والربُّ هو المعبودُ، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١-٢٢][٩].

---

[٩] قوله: «والرب هو المعبود» أي: هو الذي يستحق العبادة، وأما غيره فلا يستحق العبادة؛ لأنه ليس ربًّا، هذا وجه كلام الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «الرب هو المعبود» أي: هو الذي يستحق العبادة، ثم أيضًا لا يكفي أن الإنسان يقرُّ بالربوبية بل لابد أن يقرَّ بالعبودية لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ويفعلها مخلصًا له تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فما دام أقر أنه الرب، فإنه يلزمه أن يقر أنه هو المعبود، وأن غيره لا يستحق شيئًا من العبادة.

والدليل علىٰ أن العبادة خاصة بالرب، قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: هذا نداء من الله لجميع الناس المؤمنين والكفار؛ لأن الله ذكر في هذه السورة -سورة البقرة- انقسام الناس إلىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المؤمنون الذين يؤمنون بالغيب، ويؤمنون باليوم الآخر، ووصفهم بأنهم هم المفلحون في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة:٥].

القسم الثاني: الكفار الذين أظهروا الكفر والعناد، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة:٦].

....

القسم الثالث: المنافقون الذين ليسوا مع الكفار، وليسوا مع المؤمنين: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء:١٤٣]. فهم مؤمنون في الظاهر لكنهم كفار في الباطن، وهؤلاء شرٌّ من الكفار المجاهرين بكفرهم، ولهذا أنزل الله فيهم بضع عشرة آية، بينما أنزل في المؤمنين آيات قليلة، وفي الكفار آيتين.

أما المنافقون فبدأ ذكرهم من قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا﴾ إلىٰ قوله: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾[البقرة:٨-٢٠].

هذا كله في المنافقين لشدة خطرهم وقبح فعلهم، ولما ذكر هذه الأصناف الثلاثة قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهذا دعاء لجميع الأصناف المؤمنين والكفار والمنافقين.

قال العلماء: أول نداء في المصحف هو هذا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾.

اعبدوا: فعل أمر، أي: أخلصوا له العبادة، لماذا؟ لأنه ربكم، والعبادة لا تصلح إلا للرب سبحانه وتعالى، ثم ذكر الدليل علىٰ ذلك، وهو قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾: من الأمم كلهم، خلق الله سبحانه وتعالى الملائكة، والجن، والإنس، وجميع المخلوقات.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: إذا تدبرتم هذا، فلعل هذا أن يسبب لكم التقوىٰ إذا تدبرتم أنه الذي خلقكم، وخلق الذين من قبلكم، لعلكم تتقونه سبحانه وتعالى في عبادته؛ لأنه لا يقي من عذابه إلا طاعته سبحانه وتعالى، لعلكم تتقون عذابي وتتقون النار؛ لأنه لا يقيكم منها إلا عبادة ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم.

ثم واصل الاستدلال على ربوبيته وعبوديته سبحانه وتعالى بقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾؛ أي: بساطًا ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح:١٩]. أي: مبسوطة، وفراشًا، أي: تفترشونها، تنامون عليها، تبنون عليها، تزرعون على ظهورها، تسيرون عليها في سفركم أينما تريدون، فالأرض فراش ومهاد ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات:٤٨]. لأجل مصالحكم.

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾: فالسماء سقف الأرض، وفيها مصالح للعباد ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أنواع العبادة التي أمر الله بها، وأدلة كل نوع

قال ابن كثير -رحمه الله تعالىٰ-: الخالقُ لهذه الأشياء هو المستحقُّ للعِبادَة. وأنواع العبادة التي أمَرَ الله بها مثلُ الإسلام والإيمان والإحسان. [١٠].

---

[١٠] لما بين الشيخ أن الرب هو المعبود، واستدل بقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ استشهد بكلام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره للآية، وأراد أن يبين أنواع العبادة، وأدلة كل نوع، فالعبادة في اللغة معناها: التذلل والخضوع، ومنه طريق معبد، يعني: مذلل مخضع بالمشي عليه.

والعبادة قسمان:

القسم الأول: عبادة عامة لجميع الخلق، كلهم عباد الله، المؤمن، والكافر، والفاسق، والمنافق كلهم عباد الله، بمعنىٰ أنهم تحت تصرفه وقهره، وأنهم تجب عليهم عبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هذه عبادة عامة لجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم، كلهم يقال لهم: عباد الله، بمعنىٰ أنهم مخلوقون له مذللون، لا يخرج أحد منهم عن قبضته وسلطانه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم:٩٣].

هذا يشمل كل من في السموات والأرض المؤمن والكافر، كلهم يأتون يوم القيامة منقادين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ليس لأحد منهم شركة مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ملكه.

....

القسم الثاني: عبودية خاصة بالمؤمنين كما قال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان:٦٣]. قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر:٤٢]. وقال الشيطان: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر: ٤٠]. هذه عبودية خاصة، وهي عبودية الطاعة والتقرب إلىٰ الله بالتوحيد.

والعبادة في الشرع اختلف العلماء في تعريفها، يعني: اختلفت عباراتهم في تعريفها، والمعنىٰ واحد:

فمنهم من يقول: العبادة غاية الذل مع غاية الحب، كما قال ابن القيم في النونية:

وعبادةُ الرَّحْمَن غايةُ حُبِّه ... مع ذُلِّ عابده هما قطبان

فعرفها بأنها غاية الحب مع غاية الذل.

ومنهم من يقول: العبادة هي، ما أمر به شرعًا من غير اطراد عرفي، ولا اقتضاء عقلي.

لأن العبادة توقيفية لا تثبت بالعقل، ولا بالعرف، وإنما تثبت بالشرع، وهذا تعريف صحيح.

ولكن التعريف الجامع المانع هو ما عرَّفه بها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: **العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.**

هذا التعريف الجامع المانع، وهو أن العبادة اسم لجميع ما أمر الله به، ففعل ما أمر الله به طاعة لله، وترك ما نهىٰ الله عنه طاعة لله، هذه هي العبادة، ولا تحصر

....

أنواعها، أنواعها كثيرة، كل ما أمر الله به فهو عبادة، وكل ترك لما نهىٰ الله عنه طاعة لله هو عبادة، ولا تحصر أنواعها، أنواعها كثيرة كل ما أمر الله به فهو عبادة، وكل ما نهىٰ الله عنه فتركه -سواء كان ظاهرًا علىٰ الجوارح، أو كان باطنًا في القلوب-، هو عبادة؛ لأن العبادة تكون علىٰ اللسان، وتكون علىٰ القلب، وتكون علىٰ الجوارح.

تكون علىٰ اللسان مثل: التسبيح، والذكر، والتهليل، والنطق بالشهادتين، كل أقوال اللسان المشروعة من ذكر الله، فإنها عبادة.

وكذلك كل ما في القلب من التقرب إلىٰ الله ﷻ فإنه عبادة: كالخوف، والرجاء، والخشية، والرغبة، والرهبة، والتوكل، والإنابة، والاستعانة، كل هذه أعمال قلب، اللجوء إلىٰ الله بالقلب، وخشية الله وخوفه، والرغبة إليه، ومحبته سبحانه، والإخلاص له، والنية الصادقة لله ﷻ، كل ما في القلوب من هذه الأنواع فهو عبادة.

وكذلك تكون العبادة علىٰ الجوارح مثل: الركوع والسجود، والجهاد في سبيل الله، والجهاد بالنفس، والهجرة، كل هذه عبادات بدنية، والصيام عبادة بدنية تظهر علىٰ الجوارح.

فإذن العبادة تكون علىٰ اللسان، وعلىٰ القلب، وتكون علىٰ الجوارح، ثم هذه العبادة تنقسم إلىٰ عبادة بدنية وإلىٰ عبادة مالية.

العبادة البدنية: هي الثلاثة الأنواع التي قلنا، تكون علىٰ اللسان، وعلىٰ الجوارح، وعلىٰ القلب.

....

وتكون مالية: مثل: إخراج الزكاة، ومثل: الإنفاق في سبيل الله، وهو الإنفاق في الجهاد، قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [التوبة: ٢٠]. قدَّم الأموال علىٰ الأنفس، فالجهاد بالمال عبادة مالية.

الحج يتكون من عبادة بدنية، وعبادة مالية، فأداء المناسك: الطواف، والسعي، ورمي الجمار، والوقوف بعرفة، والمبيت بمزدلفة عبادة بدنية، أما الإنفاق فيه فهو عبادة مالية؛ لأن الحج يحتاج إلىٰ نفقة.

الإسلام، والإيمان، والإحسان ودليل كلٍّ

وأنواع العبادة التي أَمَرَ الله بها مثلُ الإسلام، والإيمان، والإحسان [١١].

---

[١١] والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أورد أمثلة للعبادة من باب التمثيل لا من باب الحصر؛ لأنها أكثر مما ذكره، ولا يمكن استيعابها في رسالة مختصرة، لكن ذكر أمثلة، ولشيخ الإسلام رسالة مستقلة، اسمها «العبودية» تبحث في العبادة، وأنواع العبادة، وبيان الانحرافات التي حصلت من الصوفية وغيرهم في العبادة، وهي رسالة قيمة يحتاج طالب العلم أن يقرأها.

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «مثل الإسلام والإيمان، والإحسان»: هذه الأنواع الثلاثة أعظم أنواع العبادات، الإسلام، والإيمان والإحسان، وسيأتي شرحها في كلام الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في الأصل الثاني، وذكرها هنا؛ لأنها من أنواع العبادة.

فالإسلام بأركانه الخمسة؛ الشهادتان، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام، هذه كلها عبادات مالية وبدنية، وكذلك الإيمان، بأركانه الستة، وهو من أعمال القلوب: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره، هذا عبادة قلبية.

كذلك الإحسان وهو ركن واحد، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك، هذا أعلىٰ أنواع العبادة؛ لأن الإحسان هو أعلىٰ أنواع العبادة، وهذه تسمىٰ مراتب الدين؛ لأن مجموعها هو الدين؛ لأن جبريل لما سأل النبي ﷺ بحضرة

الدعاء أقسامه ودليله

ومنه الدُّعاء، والخوفُ، والرجاءُ، والتوكلُ، والرغبةُ، والرهبة، والخشوع، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة، والذبح، والنذر، وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها، كلها لله تعالىٰ [١٢].

أصحابه، وأجابه النبيﷺ عن الإسلام، والإيمان، والإحسان، قال: **«هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم»**(١) . فسمىٰ هذه الثلاثة: الدين.

[١٢] قوله: «ومنه الدعاء». أي: ومن أنواع العبادة: الدعاء، بدأ به لأنه أعظم أنواع العبادة:

والدعاء علىٰ قسمين: **دعاء عبادة، ودعاء مسألة.**

دعاء العبادة: **هو الثناء علىٰ الله سبحانه وتعالى كما في أول الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾** [الفاتحة:٢-٥]. **هذا كله دعاء عبادة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾** [الفاتحة:٦]. **إلىٰ آخر السورة هذا دعاء مسألة.**

ودعاء المسألة: هو طلب شيء من الله عز وجل كطلب الهداية، وطلب الرزق، وطلب العلم من الله، وطلب التوفيق.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (٨ و٩ و١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨][١٣].

---

[١٣] المساجد: تطلق ويراد بها أماكن السجود والبقاع التي يُصلَّىٰ فيها، وهي أحب البقاع إلىٰ الله ﷻ ، قد جاء الترغيب في بنائها وإعدادها، قال ﷺ: «**من بنىٰ مسجدًا لله كمفحص قطاة، أو أصغر، بنَىٰ الله له بيتًا في الجنة**»(١).

يقول الله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [التوبة: ١٨]. والمراد بالعمارة: العمارة الحسية، والمعنوية، عمارتها بالطين، وما تحتاج إليه حتىٰ تأوي المصلين، وتظلهم من الحر، وتكنُّهم من البرد، وعمارتها بالعبادة؛ بالصلاة، وتلاوة القرآن، وذكر الله ﷻ .

وتطلق المساجد، ويراد بها أعضاء السجود السبعة، وهي الجبهة، والأنف، واليدان والركبتان ورءوس القدمين؛ لأنها تسجد لله، والآية تشتمل المعنيين.

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ أي: البقاع التي يُصلَّىٰ فيها، وأعضاء السجود لله ﷻ .

﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ لا تجعلوا هذه المساجد وهذه البقاع محلًّا للشرك ودعوة غير الله؛ بل يجب أن تطهَّر المساجد من الشرك، فلا يكون فيها قبور، ولا يكون فيها دعاء لغير الله، ولا يكون فيها بدع ومحدثات وحلقات صوفية مبتدعة.

يجب أن تطهر المساجد عن البدع والشرك والمعاصي؛ لأنها لله ﷻ فلا يكون فيها إلا ما يرضي الله ﷻ ، فلا تدعوا مع الله أحدًا في هذه المساجد، أو تستخدموا أعضاءكم بالسجود لغير الله ﷻ ؛ لأن هذا شرك أكبر كالذي يسجد للصنم، أو للقبر، أو يسجد للوثن فهذا يسجد لغير الله ﷻ .

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٥٤) (٢١٥٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه ابن ماجه (٧٣٨)، وابن خزيمة (١٢٩٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

فمن صرف شيئًا منها لغير الله فهو مشرك كافرٌ، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧].

وفي الحديث: «الدعاءُ مخُّ العبادة»(١).

والدليلُ قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠][١٤].

الشاهد في قوله: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ أمر بإخلاص الدعاء له وحده.

وقوله: ﴿أَحَدًا﴾ يعم كل مدعو من دون الله سواء كان ملكًا، أو نبيًّا، أو وليًّا، أو شجرًا، أو حجرًا، يعم كل من دُعِيَ من دون الله ﷻ فإنه يكون شركًا أكبر.

[١٤] ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾ أي: أمركُم ربُّكم وقال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أمر بدعائه سبحانه ووعد بالاستجابة، وهذا من كرمه سبحانه وتعالى؛ لأنه غني عن دعائنا؛ ولكننا محتاجون لدعائه تعالى، فهو يأمرنا بما نحتاج إليه وبما يصلحنا، وهو سبحانه يغضب إذا تركت سؤاله بينما المخلوق يغضب إذا سألته، ولهذا يقول الشاعر:

الله يغضبُ إن تركت سؤالَه ... وبنِي آدمَ حين يُسألُ يَغضبُ

ويقول آخر:

فلو سُئل الناسُ الترابَ لأوشكوا ... إذا قيل هاتوا أن يَملُّوا ويَمنعوا

فالناس أقسام ثلاثة:

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وفي إسناده ابن لهيعة، ضعيف يعتبر به، قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة.

....

الأول: من لا يدعو الله أصلًا، فيكون مستكبرًا عن عبادة الله.

الثاني: من يدعو الله؛ ولكن يدعو معه غيره فيكون مشركًا.

الثالث: من يدعو الله مخلصًا له الدعاء، فهذا هو الموحد.

في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**الدعاء مخ العبادة**». وفي رواية: «**الدعاء هو العبادة**»[١]. فهذا يدل علىٰ عظيم الدعاء، وأنه أعظم أنواع العبادة؛ لأن الرسول ﷺ قال: «**مخ العبادة**».

وفي رواية: «**الدعاء هو العبادة**». والرواية الثانية أصح من رواية: «**الدعاء مخ العبادة**». والمعنىٰ واحد.

فالحديث بروايتيه يبين عِظَمَ الدعاء، وأنه هو النوع الأعظم من أنواع العبادة، كما قال ﷺ: «**الحج عرفة**»[٢]. بمعنىٰ أن الوقوف بعرفة في الحج هو الركن الأعظم من أركان الحج، وليس معناه أن الحج كله هو عرفة؛ ولكن الوقوف بعرفة هو أعظم أركان الحج، كذلك ليست العبادة محصورة في الدعاء؛ ولكن الدعاء هو أعظم أنواعها، ولهذا قال: «**الدعاء هو العبادة**». من باب تعظيم الدعاء، وبيان مكانته.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨) من حديث النعمان ابن بشير رضي الله عنه وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، والنسائي (٣٠١٦)، وابن ماجه (٣٠١٥) من حديث عبد الرحمن بن يعمَرَ الديلي رضي الله عنه.

الخوف أنواعه ودليله

ودليلُ الخوف قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥] [١٥].

ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أدلة أنواع العبادة التي ذكرها وهي: الخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والخشية، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة، والذبح، والنذر، وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها كلها لله، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

[١٥] الخوف نوع من أنواع العبادة، وهو عبادة قلبية، وكذلك الخوف، والخشية، والرغبة، والرهبة، والرجاء، والتوكل كلُّ هذه عبادات قلبية.

والخوف: هو توقع المكروه، وهو نوعان: خوف العبادة، والخوف الطبيعي.

النوع الأول: خوف العبادة، هذا صرفه لغير الله شرك، وذلك بأن يخاف غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كأن يخاف أحدًا أن يمرضه، أو أن يقبض روحه، أو يميت ولده.

كما يفعل كثير من الجهال؛ يخافون علىٰ حمل زوجاتهم، وعلىٰ أولادهم من الجن، يخافون من السحرة، أو من الموتىٰ، فيعملون أعمالًا شركية لأجل أن يتخلصوا من هذا الخوف، فهذا لا يقدر عليه إلا الله، الأمراض والموت والرزق وقطع الأجل، هذه أمور لا يقدر عليها إلا الله جَلَّ .

....

وكذلك إنزال البركة، أو غير ذلك، هذه أمور لا تكون إلا من الله ﷻ فإذا خاف أحدًا في شيء لا يقدر عليه إلا الله، فهذا شرك أكبر؛ لأنه صرف نوعًا من أنواع العبادة لغير الله ﷻ .

كالذين يخافون من القبور، ومن الأضرحة، ومن الجن، ومن الشياطين، أن تمسهم بسوء، أو أن تنزل بهم ضررًا، فيذهبون يتقربون إلىٰ هذه الأشياء لدفع ضررها، أو خوفًا منها، هذا شرك أكبر.

يقول: أخاف إن لم أذبح له أن يصيبني أو يصيب أولادي، أو مالي، أو ما أشبه ذلك، كما قال قوم هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ يهددونه بآلهتهم، ويخوفونه بآلهتهم ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾[هود:٥٤-٥٦] .
هذا هو التوحيد تحداهم كلهم هم وآلهتهم.

﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ لا تمهلوني؛ بل من الآن فكيدوني، ولم يقدروا عليه بشيء؛ بل نصره الله عليهم.

فالذي يخاف من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ هذا يكون قد أشرك الشرك الأكبر، وهذا يسمىٰ خوف العبادة.

وخوف الشرك كثير في الناس، يخافون من القبور أو من الأولياء، يخافون من الشيطان، يخافون من الجن؛ ولذلك يقومون بتقديم القربات لهم، يقدمون لهم الذبائح والنذور والأطعمة وغير ذلك كإلقاء النقود علىٰ أضرحتهم من أجل أن يسلموا من شرهم، أو ينالوا من خيرهم، فهذا هو خوف العبادة.

....

النوع الثاني: الخوف الطبيعي: وهو أن تخاف من شيء ظاهر يقدر علىٰ ما تخافه منه، كأن تخاف من الحية، أو العقرب، أو من العدو؛ هذه أمور ظاهرة ومعروفة فالخوف منها لا يسمىٰ شركًا، هذا خوف طبيعي من شيء ظاهر معروف؛ لأنك تخاف من سبب ظاهر ومطلوب الوقاية منه، والحذر منه، تأخذ السلاح، تأخذ العصا لقتل الحية والعقرب، وقتل السبع؛ لأن هذه أمور محسوسة، وفيها ضرر معلوم، فإذا خفت منها، فهذا لا يسمىٰ شركًا؛ بل يسمىٰ خوفًا طبيعيًّا.

ولهذا قال الله في موسىٰ عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا﴾ أي: من البلد ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:٢١]. خائفًا من أعدائه؛ لأنه قتل منهم نفسًا.

وهرب -عليه الصلاة والسلام- إلىٰ مَدْيَنَ، وكان يترقب، ويخشىٰ أن يلحقوه، فهذا خوف طبيعي؛ لكن تعلَّم الإنسان أن يعتصم بالله عز وجل، ويأخذ بالأسباب التي تدفع عنه الضرر، ويعتمد علىٰ الله عز وجل ويتوكل علىٰ الله.

قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]. هذه الآية في سورة آل عمران في قصة النبي ﷺ مع المشركين يوم أُحد لما توعَّدهم المشركون وقالوا: نرجع إليهم، ونستأصلهم، فالله -جل وعلا- يقول: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]. أي: أن هذا التهديد وهذا الوعيد إنما هو من الشيطان، أي: يخوفكم أولياءه أو يخوف مَنِ انقاد له من الناس، وخاف منه، فإنه يتسلط عليهم.

الرجاء ودليله

ودليلُ الرجاء قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] [١٦].

---

[١٦] قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ﴾ يعني يطمع في ثواب الله ﷻ ورؤيته عيانًا يوم القيامة، من كان يطمع في أن يرىٰ الله عيانًا يوم القيامة؛ فليعمل عملًا صالحًا.

يأتي بالسبب الذي يؤهله لحصول هذا المطلوب، وهو الثواب بدخول الجنة، والنجاة من النار، والنظر إلىٰ وجه الله؛ لأن هذا متلازم؛ لأن من دخل الجنة فإنه يرىٰ الله ﷻ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ هذا يدل علىٰ أن الرجاء وحدهَ لا يكفي، لابد من العمل.

أما أنك ترجو الله؛ ولكنك لا تعمل فهذا تعطيل للسبب، فالرجاء المحمود هو الذي يكون معه عمل صالح، أما الرجاء غير المحمود فهو الرجاء الذي ليس معه عمل صالح.

والعمل الصالح ما توفر فيه شرطان:

الأول: الإخلاص له ﷻ.

الثاني: المتابعة للرسول ﷺ.

التوكل ودليله

ودليلُ التوكل قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [١٧].

فالعمل لا يكون صالحًا إلا إذا توفر فيه هذان الشرطان: أن يكون خالصًا لوجه الله ليس فيه شرك، وأن يكون صوابًا علىٰ سُنَّة رسول الله ﷺ ليس فيه بدعة، فإذا توفر فيه الشرطان فهو صالح، وإن اختل فيه شرط فإنه يكون عملًا فاسدًا لا ينفع صاحبه.

فالعمل الذي فيه شرك يرد علىٰ صاحبه، كذلك العمل الذي فيه بدعة يرد علىٰ صاحبه، قال ﷺ: **«من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»**[١]. فهذه الآية فيها الرجاء، وأنه عبادة لله عز وجل، وفيها أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل الصالح.

[١٧] التوكل: هو التفويض والاعتماد علىٰ الله سبحانه وتعالى، وتفويض الأمور إليه سبحانه وتعالى. هذا هو التوكل، وهو من أعظم أنواع العبادة، ولهذا قال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ قدم الجار والمجرور علىٰ العامل؛ ليفيد الحصرَ.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ أي: عليه لا علىٰ غيره، ثم قال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ فجعل من شرط الإيمان التوكل علىٰ الله سبحانه وتعالى، ودل علىٰ أن من لم يتوكل علىٰ الله فليس بمؤمن، فالتوكل عبادة عظيمة، فالمؤمن دائمًا يتوكل علىٰ الله، ويعتمد علىٰ

(١) سبق تخريجه (ص١٨).

....

الله ﷻ ، والله من أسمائه الوكيل، أي: الموكول إليه أمور عباده ﷻ، فالتوكل لا يكون إلا علىٰ الله، ولا يجوز أن يقول: توكلت علىٰ فلان؛ لأن التوكل عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله.

أما إذا أسندت إلىٰ أحد من الخلق تصرفًا، فهذا لا يسمىٰ توكلًا إنما يسمىٰ توكيلًا، والوكالة معروفة أنك توكِّل أحدًا يقضي لك حاجة، وقد وكَّل النبي من ينوبون عنه في بعض الأعمال، فالتوكيل غير التوكل، فالتوكل عبادة، ولا تكون إلا لله، ولا يجوز أن تقول: توكلت علىٰ فلان، وإنما تقول: وكَّلتُ فلانًا.

ومع هذا أنت توكله، ولا تتوكل عليه، وإنما تتوكل علىٰ الله ﷻ؛ فلاحظوا الفرق بين الأمرين التوكل والتوكيل.

ومن صفات المؤمنين ما ذكره الله تعالىٰ بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢]. هذه من صفات المؤمنين، فالتوكل عبادة عظيمة لا تكون إلا لله ﷻ؛ لأنه هو القادر علىٰ كل شيء، وهو المالك لكل شيء، وهو الذي يقدر أن يحقق لك مطلوبك، أما المخلوق فإنه قد لا يقدر أن يحقق لك مطلوبك فإنك توكله في قضاء شيء من الأمور، لكن تتوكل علىٰ الله في حصول ذلك الشيء.

ثم أيضًا لنعلم أن التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب، فيجمع المسلم بين التوكل علىٰ الله، والأخذ بالأسباب، ولا تنافي بينهما، فأنت تعمل الأسباب التي أُمِرْتَ بعملها؛ ولكن لا تعتمد علىٰ الأسباب؛ وإنما تعتمد علىٰ الله، أنت تزرع الزرع في

....

الأرض، هذا سبب، ولكن لا تعتمد علىٰ زرعك وفعلك؛ بل اعتمد علىٰ الله في نمو هذا الزرع، وتثميره وحمايته وإصلاحه، ولهذا يقول: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة:٦٣-٦٤]. فالزارع الحقيقي هو الله، أما أنت فقد فعلت سببًا فقط قد ينتج هذا الزرع وينبت، وقد لا ينتج، وإذا نبت قد يصلح وقد لا يصلح، قد يصاب بآفة، فيذهب.

الرغبة والرهبة والخشوع ودليل كلٍّ

ودليلُ الرَّغبةِ والرَّهبة والخُشوع قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠][١٨].

---

[١٨] الرغبة: هي طلب الشيء المحمود.

الرهبة: هي الخوف من الشيء المرهوب، قال تعالىٰ: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠]. وهي نوع من الخوف، الرهبة والخوف بمعنىً واحد.

الخشوع: نوع من التذلل لله عَزَّوَجَلَّ، والخضوع والذل بين يديه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو من أعظم مقامات العبادة.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ﴾ الضمير يرجع للأنبياء؛ لأن سورة الأنبياء قد ذكر الله قصص الأنبياء فيها، ثم قال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾.

فقوله تعالىٰ: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾؛ أي: يتسابقون إليها، ويبادرون إليها، هذه صفة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لا يتكاسلون، ولا يتعاجزون؛ وإنما يسارعون إلىٰ فعل الخيرات، ويتسابقون إليها.

قوله تعالىٰ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا﴾ أي: طمعًا لما عند الله عَزَّوَجَلَّ، طمعًا في حصول المطلوب.

الخشية ودليلها

دليل الخشية قولُه تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ [البقرة:١٥٠][١٩].

قوله تعالىٰ: ﴿وَرَهَبًا﴾ أي: خوفًا منا، فيدعون الله أن يرحمهم، ويدعونه ألا يعذبهم، وألا يؤاخذهم، وألا يعاقبهم، فهم يطمعون في رحمة الله، ويخافون من عذابه، كما قال تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾[الإسراء:٥٧].

فهم يدعون الله خوفًا منه، ويدعونه أيضًا طمعًا فيما عنده، يدعون الله أن يقدر لهم الخير، ويدفع عنهم الشر ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ أي: خاضعين متذللين متواضعين لله ﷻ، فجمعوا بين الصفات الثلاث: الرغبة والرهبة والخشوع، هذه صفات الأنبياء -صلىٰ الله عليهم وسلم-، وهذه الأنواع الثلاثة من أنواع العبادة لله ﷻ .

وفيها ردٌّ علىٰ الصوفية الذين يقولون: نحن لا نعبد الله رغبة في ثوابه ولا خوفًا من عقابه، وإنما نعبده محبة له فقط، هذا كلام باطل؛ لأن الأنبياء يدعون الله رغبًا ورهبًا وهم أكمل الخلق.

[١٩] الخشية نوع من الخوف، وهي أخصُّ من الخوف وقيل: الخشية: خوف يشوبه تعظيم، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ أمر الله سبحانه وتعالى بخشيته وحدَه.

الإنابة ودليلها

ودليلُ الإنابة قولُه تعالىٰ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر:٥٤][٢٠].

وقال تعالىٰ في الآية: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ فأمر بخشيته ﷻ، وقال في صفة المصلين: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ [المعارج:٢٧]. أي: خائفون. هؤلاء خواص الخلق يخافون الله ﷻ.

وقال عن الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩﴾ [النحل:٥٠]. خواص الخلق من الملائكة، والرسل، والأنبياء، والصالحين يكونون علىٰ غاية عظيمة من خشية الله ﷻ، والخوف منه ﷻ، والرهبة منه، فالرهبة والخوف والخشية، كلها بمعنىٰ واحد، وإن كان بعضها أخص من بعض.

إلا أنها يجمعها الخوف من الله ﷻ، وهذه من صفات الأنبياء وعباد الله الصالحين، وهي أنواع عظيمة من أنواع العبادة، وهي من أعمال القلوب التي لا يعلمها إلا الله ﷻ.

[٢٠] الإنابة: الرجوع وهي بمعنىٰ التوبة، والتوبة والإنابة بمعنىٰ واحد.

ولكن بعض العلماء يقول: الإنابة أخصُّ من التوبة، أي: آكد لأنها توبة مع إقبال إلىٰ الله ﷻ، أي: توبة خاصة، والإنسان قد يتوب ويترك الذنب ولا يعود إليه، ويندم عليه، ولكن قد يكون في الإقبال علىٰ الله إقبال ضعيف.

....

أما الإنابة فهي إقبال على الله ﷻ ، ولهذا قال: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ أي: ارجعوا له، وأقبلوا عليه ﷻ : ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ إذا جاء العذاب المهلك الماحق فإنها لا تُقبل توبةُ من تاب عند ذلك: ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ ﴾[يونس:٩٨] . هذا مستثنىٰ، وإلا فإنه إذا نزل العذاب المهلك فإنها لا تقبل التوبة، ولهذا قال: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾.

فالتوبة والإنابة لهما أجل ولهما حدٌّ، فلا تقبل توبة مَنْ غَرْغَرَ أو من حضره الموت، ولا تقبل توبة من نزل به العذاب الماحق المهلك، ولا تقبل التوبة إذا خرجت الشمس من مغربها قبل قيام الساعة، لا تقبل التوبة حينئذٍ، فالله يحث العبد علىٰ التوبة والإنابة قبل انتهاء أجله: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾.

الشاهد قوله: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ ﴾ دل علىٰ أن الإنابة نوع من أنواع العبادة؛ لأنه قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمۡ ﴾ فهذا يدل علىٰ أنها نوع من أنواع العبادة.

الاستعانة ودليلها

ودليل الاستعانة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

وفي الحديث: «إذا استعنت فاستعن بالله»(١) [٢١].

---

[٢١] الاستعانة: طلب العون، وهي على نوعين:

النوع الأول: الاستعانة بشيء لا يقدر عليه إلا الله، فهذه صرفُها لغير الله شرك، من استعان بغير الله في شيء لا يقدر عليه إلا الله، فإنه قد أشرك، لأنه صرف نوعًا من أنواع العبادة لغير الله ﷻ.

النوع الثاني: الاستعانة فيما يقدر عليه المخلوق، فأنت تستعين بأحد أن يبني معك الجدار، أو أن يحمل معك متاعك، أو أن يعينك على مطلوب مباح، كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة:٢].

فالاستعانة في الأمور العادية التي يقدر عليها الناس، هذا النوع لا بأس فيه؛ لأنه من التعاون على البر والتقوى، وقال ﷺ: **«والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»**(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أما الاستعانة بالمخلوق في شيء لا يقدر عليه إلا الله، مثل جلب الرزق، ودفع الضرر، فهذا لا يكون إلا لله، كالاستعانة بالأموات، والاستعانة بالجن والشياطين، والاستعانة بالغائبين، وهم لا يسمعونك تهتف بأسمائهم، هذا شرك أكبر؛ لأنك تستعين بمن لا يقدر علىٰ إعانتك.

فقوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: هذا فيه تقديم المعمول علىٰ العامل، المعمول إياك في محل نصب، ونعبد هذا هو العامل الذي نصب إياك، وتقديم المعمول علىٰ العامل يفيد الحصر.

فمعنىٰ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: أي: لا نعبد غيرك، فحصر العبادة في الله ﷻ.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: حصر الاستعانة بالله ﷻ، وذلك في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى.

وفي قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ براءة من الحول والقوة، وأن الإنسان لا قوة له إلا بالله، ولا يقدر إلا بالله ﷻ، وهذا غاية التعبد لله إذا تبرأ من الشرك، وتبرأ من الحول، ومن القوة، فهذا غاية التعبد لله ﷻ.

الاستعاذة ودليلها

ودليلُ الاستعاذة قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق:١][٢٢].

---

[٢٢] الاستعاذة: طلب الالتجاء إلىٰ من يمنعك من محذور تخافه من أجل أن يدفع عنك هذا الشيء، هذه هي الاستعاذة.

والاستعاذة نوع من أنواع العبادة، لا يجوز أن تستعيذ بغير الله ﷻ ، فمن استعاذ بقبر، أو بوثن، أو بأي شيء غير الله ﷻ فإنه يكون مشركًا الشرك الأكبر، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦].

كان العرب في جاهليتهم إذا نزلوا في مكان من الأرض يقول أحدهم: أعوذ بسيد هذا الوادي، أي: كبير الجن، يستعيذ به من شر سفهاء قومه.

فقال النبي ﷺ -مبطلًا لذلك، ومبينًا لما يشرع بدله-: «**من نزل منزلًا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق؛ لم يضره شيء حتىٰ يرتحل من منزله ذلك**»[(١)].

هذا هو البديل الصحيح، الاستعاذة بكلمات الله التامات بدلًا من الاستعاذة بالجن.

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم السلمية رضي الله عنها .

....

الفلق: هو الصبح. ورب الفلق: هو الله ﷻ كما قال تعالىٰ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام:٩٦]. أي: مظهر نور الصبح في ظلام الليل، من الذي يقدر علىٰ هذا إلا الله ﷻ.

﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ أي: رب الصبح إذا أصبح، المالك المتصرف فيه القادر عليه.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾: هذا يشمل شر جميع المخلوقات، يستعيذ بالله من شر جميع المخلوقات، هذا يكفيك عن كل استعاذة، أو تعوذ مما يفعله الناس.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾.

الغاسق: هو ظلام الليل؛ لأن ظلام الليل تخرج فيه الوحوش والسباع، فأنت تقع في خطر تستعيذ بالله من شر هذا الظلام، وما تحته من هذه المؤذيات.

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ وهي السواحر تستعيذ بالله من السحر وأهله؛ لأن السحر شر عظيم.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ **الحاسد**: هو الذي يتمنىٰ زوال النعمة عن الغير، إذا رأىٰ علىٰ أحد نعمة، فإنه يغتاظ، ويتمنىٰ زوال هذه النعمة حسدًا وبغيًا والعياذ بالله، وهو من أعظم الخصال المذمومة؛ لأن فيه اعتراضًا علىٰ الله، وفيه إساءة إلىٰ الخلق.

ويدخل فيه العائن، الذي يصيب بنظرته؛ لأن الإصابة بالعين نوع من الحسد، فأنت تستعيذ بالله من هذه الشرور، فدل علىٰ أن الاستعاذة عبادة لا يجوز أن تصرف لغير الله، فلا تستعذ بالمخلوق، ومن استعاذ بمخلوق فقد أشرك بالله ﷻ،

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:١][٢٣].

والنبي ﷺ يقول لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: **«وإذا استعنت فاستعن بالله»**[1].

[٢٣] وفي قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس:١-٦]. أمر الله ﷻ بالاستعاذة برب الناس ملك الناس إله الناس، هذه كلها أسماء وصفات لله ﷻ، وفيها أنواع التوحيد الثلاثة، توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

استعذ بالله، وبهذه الأسماء والصفات، استعذ بالله من شر الوسواس، وهو الشيطان، أما الوِسواس بالكسر فهو مصدر وَسْوَسَ يُوَسْوِسُ، وأما الوَسواس فهذا اسم من أسماء الشيطان؛ لأنه يوسوس للإنسان ويخيل إليه، ويشغله من أجل أن يلقي في قلبه الرعب والتردد والحيرة في أموره، خصوصًا في أمر العبادة فإن الشيطان يوسوس للإنسان في العبادة حتىٰ يلبِّس عليه صلاته أو عبادته، ثم ينتهي به الأمر إلىٰ أن يخرج من الصلاة، ويعتقد أنها بطلت، أو يصلي ثم يعتقد أنه علىٰ غير وضوء، أو أنه ما قام لكذا أو أنه ما فعل كذا، ويصبح في وسواس، ولا يطمئن إلىٰ عبادته.

فالله -جل وعلا- أعطانا الدواء لهذا الخطر، وذلك بأن نستعيذ بالله من شر هذا الوسواس.

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾: الذي يتخلف ويبتعد، فهو يوسوس إذا غفلت عن ذكر الله، ويخنس، أي: يتأخر إذا ذكرت الله ﷻ، فهو وسواس مع الغفلة، وخناس عند ذكر الله ﷻ.

---

(١) سبق تخريجه (ص١١٣).

....

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾: كأن المعنىٰ -والله أعلم- أنه هناك موسوسون من الجن، ومن الإنس يوسوسون للناس، يأتون الناس ويشككونهم، فكما أن للجن شياطين يوسوسون فكذلك للإنس شياطين يوسوسون فأنت تستعيذ بالله من شر القبيلين.

ولهذا يقول النبيﷺ: «**ما تعوذ متعوِّذٌ بمثلهما**»[(١)]. أي: هاتين السورتين؛ فينبغي للمسلم أن يقرأهما في أدبار الصلوات، ويكررهما ويقرأهما عند النوم مع آية الكرسي، وسورة الإخلاص.

يقرأ آية الكرسي، وسورة الإخلاص والمعوذتين، يقرؤهما دبر كل صلاة ويكررهما ثلاثًا بعد المغرب وبعد الفجر، وكذلك يقرؤهما عند النوم من أجل أن يبتعد عنه الشيطان؛ فلا يكدر عليه نومه ويزعجه بالأحلام.

الشاهد من هاتين السورتين: أن الله أمر بالاستعاذة به وحدَه؛ فدل علىٰ أن الاستعاذة بغيره من الجن، أو من الإنس، أو من أي مخلوق أنه لا يجوز؛ لأنها نوع من أنواع العبادة.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٦٣)، والنسائي (٨/ ٢٥٣)، وأحمد (٢٨/ ٥٣٠) (١٧٢٩٧) من حديث عقبة بن عامرﷺ.

الاستغاثة ودليلها

ودليل الاستغاثة: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ﴾ [الأنفال:٩][٢٤].

---

[٢٤] الاستغاثة: هي نوع من أنواع العبادة، وهي طلب الغوث، وهي لا تكون إلا عند الشدة، إذا وقع الإنسان في شدة فإنه يطلب الغوث من الله، والنجاة من هذه الشدة.

والاستغاثة على نوعين:

النوع الأول: الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ وهذا شرك، فمن استغاث بغير الله من جن، أو إنس، أو غائبين، أو أموات، فإن هذا شرك بالله ﷻ.

فالاستغاثة بالأموات، وبالغائبين من الشياطين والجن هذا شرك بالله ﷻ.

النوع الثاني: الاستغاثة بالمخلوق الحاضر الحي فيما يقدر عليه، هذا جائز.

قال تعالى في قصة موسى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص:١٥].

الذبح أقسامه ودليله

ودليلُ الذَّبح قولُه تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢].

ومن السنة: «لَعَنَ الله مَنْ ذَبَحَ لغير الله»[(١)] [٢٥].

---

[٢٥] الذبح علىٰ أربعة أقسام:

الأول: الذبح علىٰ وجه التقرُّب والتعظيم لأحد ما، وهذا لا يجوز إلا لله سبحانه وتعالى؛ لأنه من العبادات المالية، فلا يجوز الذبح للجن، ولا للشياطين، ولا للملوك والرؤساء، تعظيمًا لهم؛ لأن هذه عبادة لا تجوز إلا لله عز وجل.

فالذين يذبحون للجن من أجل السلامة من شرهم، أو من أجل شفاء المرضىٰ، كما يفعله الكهان والمنجمون الذين يّدعون العلاج ويقولون للناس: اذبحوا كذا لأجل شفاء مريضكم، ولا تذكروا اسم الله عليه، هذا شرك أكبر مخرج من الملة، وهذا الذي قال الله تعالىٰ محذرًا من فعله لغير الله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر:٢]. أي: واذبح لربك.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٧٨) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

النذر ودليله

ودليلُ النَّذرِ: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان:٧] [٢٦].

الثاني: الذبح من أجل أكل اللحم، هذا لا بأس به؛ لأنه ما ذبح من أجل التقرُّب والتعظيم لأحد، وإنما ذبح لحاجة والأكل منه، فهذا لا بأس به؛ لأنه ليس نوعًا من العبادة ويذبح لبيع اللحم.

الثالث: الذبح علىٰ وجه الفرح والسرور، بمناسبة زواج، أو مناسبة نزول مسكن جديد، أو قدوم غائب، أو ما أشبه ذلك بجمع الأقارب، ويذبح من باب إظهار الفرح والسرور بما حصل له، هذا لا بأس به؛ لأنه ليس فيه تعظيم لأحد، ولا تقرب لأحد، وإنما هو من باب الفرح والسرور في شيء حصل.

الرابع: الذبح من أجل التصدق باللحم علىٰ الفقراء والمساكين والمعوزين هذا يعتبر سنة وهو داخل في العبادة.

[٢٦] النذر: هو إلزام الإنسان نفسه بشيء لم يلزمه بأصل الشرع، كأن ينذرَ أن يصوم، أو ينذِرَ أن يتصدق بكذا، فيلزمه الوفاء بنذره؛ لقول النبي ﷺ: «**من نَذَرَ أن يطيع الله فليطعه**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦ و٦٧٠٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام

تعريف الدين:

الأصلُ الثاني: معرفةُ دين الإسلام بالأدلة [٢٧].

والنذر نوع من أنواع العبادة لا يجوز إلا لله، فمن نذر لقبر، أو صنم، أو غير ذلك فقد أشرك بالله ﷻ، وهو نذر معصية وشرك، وقد قال النبي ﷺ: «**ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**»(١).

[٢٧] فلما فرغ الشيخ من بيان معرفة الأصل الأول، وهو معرفة الله ﷻ بالأدلة، انتقل إلىٰ بيان الأصل الثاني، وهو معرفة دين الإسلام بالأدلة.

فقال: الأصل الثاني: معرفة دين الإسلام بالأدلة، ثم عرفه وبين معناه ثم ذكر مراتبه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «معرفة دين الإسلام»: الدِّين يراد به الطاعة، يقال: دان له إذا أطاعه فيما أمر وترك ما نهىٰ.

ويطلق الدِّين، ويراد به الحساب، كما في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[الفاتحة: ٤]. ويقال: دانه إذا حاسبه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦ و٦٧٠٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وهو الاستسلامُ له بالتوحيد، والانقيادُ له بالطَّاعة، والبراءةُ من الشِّرك وأهله [٢٨].

﴿مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي: يوم الحساب: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار:١٧-١٩].

قوله: «بالأدلة» أي: أن معرفة دين الإسلام لا تكون بالتقليد، أو تكون بالتخرص من عند الإنسان، الدِّينُ لابد له من أدلة من الكتاب والسنة.

أما الإنسان الذي لا يعرف دينه؛ وإنما يقلد الناس، ويكون إمعة مع الناس، فهذا لن يعرف دينه وحريٌّ به أنه إذا سئل عنه في القبر أن يقول: هاه، هاه، لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته(١).

فواجب على الإنسان أن يعرف دينه بالأدلة من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ ولا يعرف هذا إلا بالتعلُّم.

[٢٨] الإسلام مأخوذ من أسلم للشيء إذا انقاد له، أسلم نفسه للقتل، أي: خضع للقتل، فأسلم نفسه للشيء إذا انقاد له.

فالإسلام هو إسلام الوجه والقصد والنية له ﷻ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء:١٢٥].

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١١٢]. أي: أخلص عمله لله ﷻ، وانقاد لله عن طواعية واختيار ورغبة ومحبة.

الاستسلام لله بالتوحيد: وهو إفراد الله -جل وعلا- بالعبادة، وهذا هو معنى التوحيد، فمن عبد الله وحدَه لا شريك له، فقد استسلم له.

---

(١) انظر ما سلف (ص١٦).

....

قوله: «والانقياد له سبحانه بالطاعة»: فيما أمرك به، وما نهاك عنه، فما أمرك به تفعله، وما نهاك عنه تجتنبه طاعةً لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: «والبراءة من الشرك وأهله»: البراءة معناها الانقطاع والاعتزال، والبعد عن الشرك وأهل الشرك، بأن تعتقد بطلان الشرك فتبتعد عنه، وتعتقد وجوب عداوة المشركين لأنهم أعداء الله عَزَّوَجَلَّ، فلا تتخذهم أولياء إنما تتخذهم أعداء؛ لأَنَّهم أعداء لله ولرسوله ولدينه، فلا تحبهم ولا تواليهم؛ وإنما تقاطعهم في الدين، وتبتعد عنهم، وتعتقد بطلان ما هم عليه، فلا تحبهم بالقلب، ولا تناصرهم بالقول والفعل؛ لأنهم أعداء لربك وأعداء لدينك، فكيف تواليهم وهم أعداء الإسلام؟!

لا يكفي أنك تستسلم لله، وتنقاد له بالطاعة، وأنت لا تتبرأ من الشرك، ولا من المشركين، هذا لا يكفي، ولا تعدُّ مسلمًا حتىٰ تتصف بهذه الصفات:

أولًا: الاستسلام لله بالتوحيد.

ثانيًا: الانقياد له بالطاعة.

ثالثًا: البراءة مما يضاد التوحيد، ويضاد الطاعة وهو الشرك.

رابعًا: البراءة من أهل الشرك.

بتحقيق هذه الصفات تكون مسلمًا، أما إذا نقصت صفة واحدة منها، فإنك لا تكون مسلمًا، فبهذه الكلمات الثلاث لخص الشيخ تعريف الإسلام، وكم من إنسان لا يعرف معنىٰ الإسلام، لأنه لم يتعلم هذا الشيء، ولو قيل له: ما هو الإسلام؟ لم يجب جوابًا صحيحًا.

مراتب الدين

المرتبة الأولى: الإسلام.

وهو ثلاثُ مراتب:

الإسلام [٢٩].

والإيمانُ، والإحسانُ [٣٠].

---

[٢٩] معنىٰ المراتب:الدرجات؛ لأننا قلنا: إن الدين ثلاث درجات بعضها أعلىٰ من بعض، أول مرتبة من مراتب الدين هي الإسلام، ثم بعدها الإيمان، ثم بعدها الإحسان، فالإسلام أوسع، والإيمان أضيق من الإسلام، والإحسان أضيق من الإيمان.

فدائرة الإسلام واسعة، المنافقون يدخلون فيها إذا انقادوا إلىٰ الإسلام وأظهروه والتزموا به ظاهرًا، إذا صلَّوا مع المسلمين، وزكوا وعملوا الأعمال الظاهرة، يسمون مسلمين، وتطبق عليهم أحكام المسلمين في الدنيا، فلهم ما للمسلمين وعليهم ما علىٰ المسلمين، لكنهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار؛ لأنهم ليس عندهم إيمان وإنما عندهم إسلام ظاهري فقط.

[٣٠] قوله:«الإيمان»: هذه هي المرتبة الثانية، والمؤمنون يتفاوتون، منهم المقربون، ومنهم الأبرار، والمقربون هم أصحاب أعلىٰ الدرجات، والأبرار دونهم،

وكلُّ مرتبة لها أركانٌ [٣١].

ومنهم الظالم لنفسه، وهو المرتكب للكبائر التي هي دون الشرك، فهو مؤمن فاسق، أو مؤمن ناقص الإيمان، قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر:٣٢].

قوله: «الإحسان»: هذه هي المرتبة الثالثة، وهي الإحسان، وهي أن يحسن العبد فيما بينه وبين الله، في عبادة الله ﷻ، وذكر النبي ﷺ الإحسان فقال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك**»(١). أي: يكون عندك علمٌ يقينيٌّ أن الله يراك أينما كنت.

[٣١] قوله: «وكل مرتبة لها أركان»: والأركان جمع ركن، وهو ما يقوم عليه الشيء.

فأركان الشيء جوانبه التي يقوم عليها، ولا يقوم بدونها، وتكون بداخل الشيء، خلاف الشروط فهي تكون خارج الشيء، مثل شروط الصلاة فهي خارج الصلاة قبلها، وأما أركان الصلاة فإنها بداخلها، مثل تكبيرة الإحرام وقراءة الفاتحة، فإذا اختل شيء منها فإن الصلاة لا تصح، كما لو فقد شيء من أركان البنيان فإنه لا يقوم ولا يعتمد.

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري (٥٠)، وأخرجه مسلم (٩، ١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أركان الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله

معناها ودليلها:

فأركانُ الإسلام خمسةٌ: شهادةُ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقامُ الصلاة، وإيتاءُ الزكاة، وصومُ رمضان، وحجُّ بيت الله الحرام [٣٢].

---

[٣٢] لا يقوم الإسلام إلا علىٰ هذه الأركان، إذا فقدت فإن الإسلام لا يستقيم، وبقية الطاعات مكملات لهذه الأركان، كل الطاعات وأفعال الخير كلها مكملات لهذه الأركان، ولهذا سأل جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ بحضرة الصحابة قال: أخبرني عن الإسلام، قال: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا**»(١).

ففسر الإسلام بأنه هذه الأركان الخمسة، لكن حديث ابن عمر بيَّن أن هذه الخمسة هي مباني الإسلام، فقال: «**بني الإسلام علىٰ خمس**»(٢). أي: أن هذه الخمس ليست هي الإسلام كله لكنها أركانه ومبانيه التي يقوم عليها، وبقية المشروعات مكملات ومتممات لهذه الأركان.

---

(١) التخريج السابق نفسه.

(٢) أخرجه البخاري (٨)، وأخرجه مسلم (١٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

فدليل الشهادة: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨] [٣٣].

---

[٣٣] قوله تعالىٰ: ﴿ شَهِدَ ﴾؛ أي: حكم وقضىٰ وأعلَمَ وبيَّن وألزم، فالشهادة من الله تدور علىٰ هذه المعاني الخمسة: الحكم والقضاء والإعلان والبيان والإلزام.

فمعنىٰ شهد: أي: قضىٰ سبحانه، وأعلم وأخبر، وألزم عباده بذلك، أنه لا إله إلا هو.

لا إله: لا نافية تنفي جميع ما عُبد من دون الله.

إلا هو: مثبت العبادة لله وحده.

ومعنىٰ أنه لا إله إلا هو: أي: لا معبود بحق إلا الله ﷻ، أما من عبد غير الله، فإن عبادته باطلة، لقوله تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج:٦٢].

شهد لنفسه ﷻ بالوحدانية، وهو أصدق القائلين، وشهادته ﷻ أصدق الشهادات؛ لأنها صادرة عن حكيم خبير عليم، يعلم كل شيء، فهي شهادة صادقة.

والملائكة: شهدوا أنه لا إله إلا هو، وهم عالَمٌ خلقهم الله لعبادته، ملائكة كرام عباد مكرمون خلقهم الله لعبادته، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وأيضًا خلقهم الله لتنفيذ أوامره في الكون، وكِّل إليهم تنفيذ ما يأمر به ﷻ من أمور الكون، فكل مَلَك منهم موكل بعمل، وشهادتهم شهادة صدق؛ لأنهم أهل علم وعبادة ومعرفة بالله ﷯ ، وهم من أفضل الخلق علىٰ الخلاف، هل صالح البشر أفضل من الملائكة، أو الملائكة أفضل من صالح البشر؟ علىٰ خلاف.

وأولو العلم: صنفان: الملائكة، والصنف الثاني: أولو العلم من البشر، وأولو العلم لا يشهدون إلا بما هو حق بخلاف الجهال لا اعتبار بشهادتهم، وكل عالم من خلق الله يشهد لله بالوحدانية، وأنه لا إله إلا هو، وهذا فيه تشريف لأهل العلم حيث إن الله قرن شهادتهم مع شهادته سُبحانه وتعالى وشهادة ملائكته.

اعتبر شهادة أهل العلم من الخلق ودل علىٰ فضلهم وشرفهم ومكانتهم، علىٰ أعظم مشهود به وهو التوحيد.

والمراد بأولي العلم: أهل العلم الشرعي لا كما يقوله بعض الناس: إن أهل العلم المراد بهم أهل الصناعة والزراعة، فهؤلاء لا يقال لهم أهل العلم علىٰ وجه الإطلاق؛ لأن علمهم محدود مقيد، بل يقال: هذا عالم بالحساب، عالم بالهندسة، عالم بالطب، ولا يقال لهم: أهل العلم مطلقًا؛ لأن هذا لا يطلق إلا علىٰ أهل العلم الشرعي.

وأيضًا أكثر هؤلاء أهل علم دنيوي، وفيهم ملاحدة يزيدهم علمُهم -غالبًا- جهلًا بالله عَزَّ وَجَلَّ وغرورًا وإلحادًا كما تشاهدون الآن في الأمم الكافرة، إنهم متقدمون في الصناعات، وفي الزراعة؛ لكنهم كفار فكيف يقال: إنهم أهل العلم الذين ذكرهم الله في قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾؟!! هذا غير معقول أبدًا.

وكذلك قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر:٢٨] . المراد: علماء الشرع الذين يعرفون الله حق معرفته، ويعبدونه حق عبادته، ويخشونه.

أما هؤلاء فأغلبهم لا يخشون الله عَزَّ وَجَلَّ ؛ بل يكفرون بالله ويجحدونه، ويدَّعون أن العالَم ليس له رب، وإنما الطبيعة هي التي توجده وتتصرف فيه، كما هو عند

الشيوعيين، إنهم ينكرون الرب ﷻ مع أن عندهم علمًا دنيويًا، كيف نقول: إن هؤلاء هم أهل العلم؟!

هذا غلط، فالعلم لا يطلق إلا على أهله، وهو لقب شريف لا يطلق على الملاحدة والكفار ويقال: هؤلاء أهل العلم!!

فالملائكة وأولو العلم شهدوا لله بالواحدانية.

إذن لا عبرة بقول غيرهم من الملاحدة والمشركين والصابئين الذين يكفرون بالله ﷻ، هؤلاء لا عبرة بهم ولا بقولهم؛ لأنه مخالف لشهادة الله وشهادة ملائكته وشهادة أولي العلم من خلقه.

وقوله: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾: منصوب على الحال من شهد، أي: حالة كونه قائمًا ﷻ.

والقسط: العدل، أي: أن الله ﷻ قائم بالعدل في كل شيء، والعدل ضد الجور، وهو ﷻ حكم عدل لا يصدر عنه إلا العدل في كل شيء.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: تأكيد للجملة الأولى.

﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾: اسمان لله ﷻ يتضمنان صفتين من صفاته، وهما العزة والحكمة.

ومعناها: لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، «لا إله» نافيًا جميعَ ما يُعبدُ من دون الله، «إلا الله»: مُثبتًا العبادةَ له وحدَهُ لا شريكَ له في عبادته كما أنه ليس له شريكٌ في مُلكه [٣٤].

---

[٣٤] قوله: «ومعناها: لا معبود بحق إلا الله»، أي: معنىٰ لا إله إلا الله ليس كما يقول أهل الباطل: لا خالق، ولا رازق إلا الله؛ لأن هذا توحيد الربوبية يقرُّ به المشركون، وهم لا يقولون لا إله إلا الله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات:٣٥-٣٦]. آلهتنا، أي: معبوداتنا ﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ يعنون الرسولﷺ، وصفوه بالشعر والجنون لأنه قال لهم: قولوا: لا إله إلا الله، ونهاهم عن عبادة الأصنام.

ولما قال لهم: قولوا: لا إله إلا الله. قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[ص:٥]. يحسبون الآلهة متعددة.

فدل علىٰ أن معناها لا معبود بحق إلا الله، ولو كان معناها لا خالق ولا رازق إلا الله، فإن هذا يقرون به، ولا يمارون فيه، فلو كان هذا معناها ما امتنعوا من قول لا إله إلا الله؛ لأنهم يقولون إذا سئلوا من خلق السموات والأرض؟ يقولون: الله، إذا سئلوا من الذي يخلق؟ من الذي يرزق؟ من الذي يحيي ويميت؟ ويدبر الأمر؟ يقولون: الله. هم يعترفون بهذا، فلو كان هذا معنىٰ لا إله إلا الله لأقروا بهذا، لكن معناها لا معبود بحق إلا الله.

لو قلت: لا معبود إلا الله هذا غلط كبير؛ لأن المعبودات كلها تكون هي الله -تعالىٰ الله عن هذا-، لكن إذا قيدتها وقلت: بحق؛ انتفت المعبودات كلها إلا الله ﷻ، لابد أن تقول: لا معبود حق، أو لا معبود بحق إلا الله، ثم بيِّن ذلك علىٰ لفظ الكلمة:

وتفسيرُها الذي يوضِّحها قولُه تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨][٣٥].

لا إله: النفي، نفي للعبودية عما سوىٰ الله.

إلا الله: هذا إثبات للعبودية لله وحده لا شريك له.

فلا إله إلا الله تشتمل علىٰ نفي وإثبات، ولابد في التوحيد من النفي والإثبات، لا يكفي الإثبات وحده، ولا يكفي النفي وحده؛ بل لابد من النفي والإثبات كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾، ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾.

فلو قلت: الله إله هذا. لا يكفي، اللات إله، والعزىٰ إله، ومناة إله، كل الأصنام تسمىٰ آلهة.

فلابد أن تقول: لا إله إلا الله، فلابد من الجمع بين النفي والإثبات حتىٰ يتحقق التوحيد وينتفي الشرك.

[٣٥] خير ما يُفسِّر القرآن القرآنُ، فلا إله إلا الله فسَّرها الله في القرآن، وذلك في قول الخليل -عليه الصلاة والسلام- فيما ذكر الله عنه: ﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ﴾ هذا النفي، لا إله، ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾: يعني: إلا الله، هذا الإثبات.

فهذه الآية تفسير معنىٰ لا إله إلا الله تمامًا.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤] [٣٦].

---

[٣٦] وقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ هذه الآية من سورة آل عمران نزلت في وفد نجران النصارىٰ الذين قدموا علىٰ النبي ﷺ، وناظروه وسألوه، وحصل بينهم وبينه كلام طويل، وهم نصارىٰ من نصارىٰ العرب، وفي النهاية طلب النبي ﷺ منهم المباهلة: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران:٦١].

فلما طلب منهم المباهلة خافوا، ولم يباهلوه -عليه الصلاة والسلام-، ودفعوا له الجزية؛ لأنهم يعلمون أنهم علىٰ باطل، وأنه رسول الله ﷺ.

نبتهل، أي: ندعو باللعنة علىٰ الكاذب منا، وكانوا يعلمون أنهم هم الكاذبون، ولو باهلوه لنزلت عليهم النار وأحرقتهم في مكانهم، فقالوا: لا، لكن ندفع الجزية، ولا نباهلكم، فقبل النبي ﷺ منهم الجزية، لقد تبين لهم أن الله أمره بما في هذه الآية.

وهذه الآية فيها معنىٰ لا إله إلا الله، قوله: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ﴾ هذا النفي، وقوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذا الإثبات، وهذا هو العدل الذي قامت له السموات والأرض، فالسموات والأرض قامت علىٰ التوحيد والعدل، لا نشرك في عبادته شيئًا، لا المسيح الذي تزعمون أنه رب وتعبدونه من دون الله، ولا غير المسيح ولا محمد -عليه الصلاة والسلام-، ولا أحد من الأنبياء، ولا من الصالحين، ولا من الأولياء: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

....

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ كما اتخذتم الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله تعالىٰ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ [التوبة: ٣١].

واتِّخاذ الأحبار والرهبان من دون الله بيَّنه رسول الله ﷺ في أنه طاعتهم في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله(١) هذا معنىٰ اتخاذهم أربابًا من دون الله، إذا كانوا يحللون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله فإذا أطاعوهم في ذلك، فقد اتخذوهم أربابًا؛ لأن الذي يشرع للناس، ويحلل ويحرم، هو الله سبحانه وتعالى.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ ولم يقبلوا دعوة التوحيد ﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أشهدوهم علىٰ أنكم موحدون وأنهم كفار، بينوا لهم بطلان ما هم عليه، ففي هذه الآية البراءة من دين المشركين والمصارحة بذلك، اشهدوا بأنا مسلمون، ففي هذا وجوب إعلان بطلان ما عليه المشركون، وعدم السكوت عن ذلك، والإعلان عن بطلان الشرك والرد علىٰ أهله.

* **والخلاصة:**

أن لا إله إلا الله لها ركنان: هما النفي والإثبات، فإذا قيل لك: ما هي أركان لا إله إلا الله، فتقول: النفي والإثبات.

---

(١) انظر: حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه الذي أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، وفيه: قال رسول الله ﷺ: **«أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم؛ ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئًا استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرموه».**

وشروطها سبعة لا تنفع إلا بهذه الشروط نظمها بعضهم بقوله:

علـم يقـين وإخـلاص وصـدقك   مـع محـبة وانقـياد والقـبول لَهَـا

فالعلم: ضده الجهل، فالذي يقول: لا إله إلا الله بلسانه ويجهل معناها، هذا لا تنفعه لا إله إلا الله.

واليقين: فلا يكون معه شك؛ لأن بعض الناس قد يعلم معناها؛ ولكن عنده شك في ذلك، فليس علمه بصحيح، لابد أن يكون عنده يقين بلا إله إلا الله، وأنها حق.

والإخلاص: ضده الشرك، بعض الناس يقول: لا إله إلا الله؛ ولكنه لا يترك الشرك، مثلما هو الواقع الآن عند عباد القبور، هؤلاء لا تنفعهم لا إله إلا الله؛ لأن من شروطها ترك الشرك.

والصدق: ضده الكذب؛ لأن المنافقين يقولون: لا إله إلا الله؛ لكنهم كاذبون في قلوبهم، لا يعتقدون معناها، قال الله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾[المنافقون:١-٢] .

والمحبة: أن تكون مُحبًّا لهذه الكلمة وليًّا لأهلها، أما الذي لا يحبها أو لا يحب أهلها فإنها لا تنفعه.

والانقياد: ضد الإعراض والترك، وهو الانقياد لما تدل عليه من عبادة الله وحده لا شريك له، وامتثال أوامره، ما دمت اعترفت وشهدت أنه لا إله إلا الله يلزمك أن تنقاد لأحكامه ودينه، أما أن تقول: لا إله إلا الله، ولا تنقاد لأحكام الله وشرعه، فإنها لا تنفعك لا إله إلا الله.

ودليلُ شهادةِ أن محمدًا رسولُ الله قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨] [٣٧].

والقبول: القبول المنافي للرد، بألاَّ ترد شيئًا من حقوق لا إله إلا الله، وما تدل عليه؛ بل تقبل كل ما تدل عليه لا إله إلا الله، تقبله تقبلًا صحيحًا.

وزيدَ شرطٌ ثامن:

وزِيــد ثامــنها الكفــران بمــا ... مــع الإلـه مــن الأشـياء قـد ألـهـا

أي: البراءة من الشرك، فلا يكون موحدًا حتىٰ يتبرأ من الشرك: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾[الزخرف:٢٦].

هذه شروط لا إله إلا الله، ثمانية شروط.

[٣٧] الركن الأول من أركان الإسلام مكون من شيئين:

الأول: شهادة أن لا إله إلا الله.

والثاني: شهادة أن محمدًا رسول الله.

فهما ركن واحد، الشق الأول: يعني الإخلاص في العبادة، والشق الثاني: يعني متابعة الرسول ﷺ.

ودليل شهادة أن محمدًا رسول الله قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وأدلة شهادة أن محمدًا رسول الله كثيرة من: الكتاب، والسنة، والمعجزات الباهرات؛ الدالة علىٰ رسالته ﷺ.

....

ومن الكتاب هذه الآية، يقول تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فهذه شهادة من الله لهذا الرسول ﷺ بالرسالة، وبيان صفاته.

قوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ اللام هذه لام القسم، ففيها قسم مقدر، تقديره: والله لقد جاءكم.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق وتأكيد بعد تأكيد.

﴿جَآءَكُمْ﴾: أيها الناس، هذا خطاب لجميع الناس؛ لأن رسالته ﷺ عامة لجميع الثقلين، الإنس والجن.

﴿رَسُولٌ﴾: هو من أُوحي إليه بشرع، وأُمِرَ بتبليغه، سمي رسولًا؛ لأنه مرسل من قبل الله ﷻ.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾: أي من جنسكم من البشر، وليس ملكًا من الملائكة، وهذه سنة الله ﷻ أنه يرسل إلىٰ البشر رسلًا منهم من أجل البيان، ومن أجل أن يتخاطبوا معهم؛ ولأنهم يعرفونه.

لو أرسل إليهم ملكًا ما استطاعوا أن يتخاطبوا معه؛ لأنه ليس من جنسهم، وأيضًا لا يقدرون علىٰ رؤية الملك؛ لأنه ليس من جنسهم، من رحمته ﷻ أن أرسل إلىٰ الناس رسولًا من جنسهم؛ بل ومن العرب ومن أشرف بيوت العرب نسبًا، من بني هاشم الذين هم أشرف أنساب قريش، وقريش أشرف أنساب العرب، فهو خيار من خيار، يعرفونه، ويعرفون شخصه، ويعرفون نسبه، ويعرفون قبيلته، ويعرفون بلده، ولو كانوا لا يعرفونه فكيف يصدقونه؟ ولو كان بغير لغتهم فكيف يفهمون كلامه.

....

﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ﴾.

فقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾: يعني شاق عليه ﷺ.

﴿مَا عَنِتُّمۡ﴾: يعني ما يشق عليكم، العنت معناه: التعب والمشقة، والرسول ﷺ يشق عليه ما يشق علىٰ أمته، وكان لا يريد لها المشقة وإنما يريد لها اليسر والسهولة؛ ولذلك جاءت شريعته ﷺ سهلة سمحة، قال ﷺ: «**بعثت بالحنيفية السمحة**»(١).

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج:٧٨].

وقال: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾ [المائدة:٦]. فشريعته سهلة تتماشىٰ مع قدرة الناس، واستطاعة المكلفين، ولا تحمِّلهم ما لا يطيقون.

ولهذا كان النبي ﷺ يحب لهم التيسير، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، وكان يُحب أن يأتي بالعمل ويتركه شفقة بأمته، يترك العمل، وهو يحب أن يأتي به من الأعمال الصالحة من أجل ألاَّ يشق علىٰ أمته، هذه من صفاته، أنه يشق عليه ما يشق علىٰ أمته، ويسر بسرورها، ويفرح بفرحها، ومن كانت هذه صفته فلا شك أنه لا يأتي إلا بالخير والرحمة ﷺ.

﴿حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾ أي: علىٰ هدايتكم، وإخراجكم من الظلمات إلىٰ النور، ولذلك كان يتحمل المشاق في دعوة الناس طلبًا لهدايتهم، وإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور حتىٰ قال الله له: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]. أي: لعلك مهلك نفسك ألا يكونوا مؤمنين من أجل الحزن عليهم، فلا تحزن عليهم،

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦/ ٦٢٣) (٢٢٢٩١) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

....

وهذا من كمال نصحه ﷺ.

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿رَءُوفٌ﴾: من الرأفة، وهي الرفق واللطف.

﴿رَّحِيمٌ﴾: وصفه بالرحمة، فليس بغليظ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

كان ﷺ متواضعًا لينًا مع المؤمنين، يخفض لهم جناحه ويستقبلهم بالبشر والمحبة والعطف والإحسان، هذا من صفاته ﷺ.

ذكر الله خمس صفات في هذا الرسول ﷺ:

الأولىٰ: أنه منكم.

الثانية: عزيز عليه ما عنتم.

الثالثة: حريص عليكم.

الرابعة: بالمؤمنين رءوف.

الخامسة: رحيم.

خمس صفات من صفات هذا النبي ﷺ، وخص المؤمنين بالرأفة والرحمة؛ لأنه ﷺ كان غليظًا علىٰ المشركين والمعاندين، يغضب لغضب الله ﷻ، كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

الرحمة والرأفة خاصة بالمؤمنين، وهكذا المؤمنون بعضهم مع بعض: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]. هذه صفاته ﷺ.

ومعنىٰ شهادة أن محمدًا رسولُ الله: طاعَتُه فيما أمر، وتصديقه فيما أخبَرَ، واجتنابُ ما عنه نهىٰ وزجر، وألاَّ يُعبَدَ الله إلا بما شرع [٣٨].

---

[٣٨] شهادة أن محمدًا رسول الله لها معنىٰ ومقتضىٰ ليست لفظًا يقال فقط. فمعناها: أن تعترف بلسانك وبقلبك أنه رسول الله، تنطق بلسانك وتعتقد ذلك بقلبك، أنه رسول اللهﷺ.

أما التلفظ باللسان والإنكار بالقلب فهذه طريقة المنافقين، كما أخبرنا الله عنهم، بقوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون:١-٢]. جعلوا أيمانهم -أي: شهاداتهم- سترة يستترون بها، فصدوا عن سبيل الله، فدل علىٰ أن النطق باللسان لا يكفي.

وكذلك اعتقاد القلب مع عدم النطق باللسان لمن يقدر علىٰ النطق أيضًا لا يكفي، فإن المشركين يعلمون أنه رسول الله؛ لكنهم يعاندون، كما قال تعالىٰ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:٣٣]. فهم بقلوبهم يعترفون بالرسالة، ويعرفون أنه رسول الله، لكن منعهم الكبر ومنعهم العناد من الإقرار برسالته.

وكذلك منعهم الحسد، كما عند اليهود، وعند مشركي العرب، وكان أبو جهل عمرو بن هشام يعترف ويقول: كنا نحن وبنو هاشم متساوين في كل الأمور؛ لكنهم قالوا: منا رسول، وليس منكم رسول من أين نأتي برسول؟ فلذلك أنكروا رسالته حسدًا لبني هاشم(١)، ويقول أبو طالب في قصيدته:

---

(١) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (١/ ٢٥١) قصة استماع قريش إلىٰ قراءة النبيﷺ.

....

ولقد علمت بأن دين محمد　　　من خير أديان البرية دينًا

لولا الملامة أو حذار مسبة　　　لوجدتني سمحًا بذاك مبينًا

يعترف بقلبه برسالة محمد؛ لكن منعته الحمية الجاهلية لقومه، فلم يكفر بدين عبد المطلب الذي هو عبادة الأصنام، فهم يعترفون بنبوته بقلوبهم، فلا يكفي الاعتراف بالقلب أنه رسول الله؛ بل لابد أن ينطق بلسانه.

ثم لا يكفي النطق باللسان والاعتراف بالقلب؛ بل لابد من أمر ثالث، وهو الاتباع، قال الله تعالىٰ فيه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧]. حتىٰ لو نصره مثل أبي طالب وحامىٰ دونه، وهو يعرف أنه رسول الله لكن لم يتبعه، فإنه ليس بمسلم حتىٰ يتبعه، ولهذا قال الشيخ: ومعنىٰ شهادة أن محمدًا رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهىٰ عنه وزجر، وألاَّ يعبد الله إلا بما شرع.

فلابد من الاعتراف برسالته ظاهرًا وباطنًا واعتقادًا، ولابدَّ من اتباعه ﷺ، ويتلخص ذلك في هذه الأربع كلمات التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الأولىٰ: طاعته فيما أمر، يقول الله -جل وعلا-: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]. ويقول سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٦٤]. فقرن طاعة الرسول مع طاعته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقرن معصية الرسول مع معصيته: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣]. وقال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور:٥٤]. وقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦].

....

فلابد من طاعته ﷺ، فالذي يشهد أنه رسول الله تلزمه طاعته فيما أمر لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧].

وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]. عن أمره، أي: عن أمر الرسول، فلابد من طاعة الرسول ﷺ.

الثانية: تصديقه فيما أخبر؛ لأن الرسول ﷺ أخبر عن أمور كثيرة مغيبة، أخبر عن الله، وعن الملائكة، وأخبر عن أمور غائبة، وأخبر عن أمور مستقبلة من قيام الساعة، وأشراط الساعة، والجنة والنار، وأخبر عن أمور ماضية عن أحوال الأمم السابقة، فلابد من تصديقه فيما أخبر، لأنه صدق لا كذب فيه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤].

الرسول ﷺ لا يتكلم بهذه الأخبار، أو هذه الأوامر والنواهي، لا يتكلم بشيء من عنده -عليه الصلاة والسلام-، إنما يتكلم بوحي من الله ﷻ فأخباره صدق، ومن لم يصدقه فيما أخبر فليس بمؤمن ولا صادق في شهادته أنه رسول الله، كيف يشهد أنه رسول الله ويكذبه في أخباره؟! كيف يشهد أنه رسول الله ولا يطيع أمره؟!

الثالثة: اجتناب ما نهىٰ عنه وزجر: اجتنب ما نهاك عنه الرسول ﷺ. نهاك عن أقوال وأفعال وصفات كثيرة، ولا ينهىٰ ﷺ إلا عن شيء فيه ضرر وفيه شر، ولا يأمر إلا بشيء فيه خير وفيه بر، فإذا لم يجتنب العبد ما نهىٰ عنه رسول الله ﷺ لم يكن شاهدًا له بالرسالة؛ بل صار متناقضًا، كيف يشهد أنه رسول الله، ولا يجتنب ما نَهاه عنه الرسول ﷺ، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر:٧].

قال ﷺ: **«إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»**(١). فلابد من اجتناب ما نهىٰ عنه ﷺ.

الرابعة: ألاَّ يُعبد الله إلا بما شرع: تقيَّد في العبادات بما شرعه الله لرسوله ﷺ فلا تأت بعبادة لم يشرعها الرسول ﷺ، وإن كان قصدك حسنًا، وإن كنت تريد الأجر، لكن هذا عمل باطل؛ لأنه لم يأت به الرسول ﷺ. النية لا تكفي؛ بل لابد من الاتباع.

فالعبادات توقيفية لا يجوز الإتيان بعبادات لم يشرعها رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: **«من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»**(٢).

وقال ﷺ: **«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة»**(٣).

فالإتيان بعبادة لم يشرعها رسول الله تعتبر بدعة منكرة منهيًّا عنها، وإن قال بها فلان أو فلان، أو فعلها من فعلها من الناس ما دامت خارجه عما جاء به الرسول ﷺ فإنها بدعة وضلالة، فلا يعبد الله إلا بما شرع علىٰ لسان رسوله، والمحدثات والخرافات كلها عمل باطل، ونقص وضلال علىٰ من أتىٰ بها، وإن كان يقصد بها

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه (ص١٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢، ٤٣)، وأحمد (٢٨/ ٣٧٣) (١٧١٤٤) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

ودليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد قولُه تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥] [٣٩].

الخير ويريد الأجر، فإن العبرة ليست بالمقاصد، وإنما العبرة بالاتباع والطاعة والانقياد، ولو كنا أحرارًا نأتي بما نشاء ونستكثر من العبادات ما نشاء لما احتجنا إلىٰ بعثة الرسول ﷺ.

ولكن من رحمة الله بنا لم يكلنا إلىٰ عقولنا، ولم يكلنا إلىٰ فلان وعلان من الناس؛ لأن هذه الأمور مردها إلىٰ الشرع إلىٰ الله ورسوله، ولا ينفع منها إلا ما كان موافقًا لما شرعه الله ورسوله، ففي هذا الابتعاد عن جميع البدع، ومن ابتدع شيئًا في الدين لم يأت به الرسول ﷺ فإنه لم يشهد أنه رسول الله، لم يشهد الشهادة الحقيقية؛ لأن الذي يشهد أنه رسول الله ﷺ شهادة حقيقية يتقيد بما شرعه، ولا يحدث شيئًا من عنده أو يتبع شيئًا محدثًا ممن سبقه.

هذا معنىٰ شهادة أن محمدًا رسول الله ليست ألفاظًا تقال باللسان فقط من غير التزام، ومن غير عمل، ومن غير تقيد بما جاء به هذا الرسول ﷺ.

[٣٩] فالصلاة هي الركن الثاني من أركان الإسلام، والزكاة هي الركن الثالث، وهي قرينة الصلاة في كتاب الله، الصلاة عمل بدني، والزكاة عمل مالي.

وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة»(١) لما امتنع أناس من دفع الزكاة بعد وفاة الرسول ﷺ قاتلهم أبو بكر رضي الله عنه، وقال: «والله

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٠٠)، ومسلم (٢٠).

لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعوني عِقالًا -وفي رواية: عناقًا- كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه».

فالزكاة حق واجب في الأموال، وهي ركن من أركان الإسلام، وهي قرينة الصلاة في كتاب الله ﷻ في كثير من الآيات، ومنها هذه الآية: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾.

دليل التوحيد في أولها في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ هذا هو تفسير التوحيد، وهو عبادة الله مع الإخلاص له، وترك عبادة ما سواه، فالدين والتوحيد والعبادة بمعنىٰ واحد.

﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: العبادة، هذا تفسير التوحيد، لا كما يقوله علماء الكلام: إنه الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت هذا توحيد الربوبية، والمطلوب هو توحيد الألوهية الذي دعت إليه الرسل، ولا يصير المسلم مسلمًا إلا إذا جاء به.

أما من جاء بتوحيد الربوبية فقط، فهذا ليس مسلمًا بدليل أن المشركين يعتقدونه وينطقون به، ويعترفون به، ولم يدخلهم في الإسلام، ولم يمنع من قتلهم وسبي أموالهم توحيدهم هذا؛ لأنهم ليسوا موحدين لما أشركوا بالله ﷻ في العبادة؛ هذا هو تفسير التوحيد من كتاب الله لا من كتاب فلان وعلان، كتاب «الجوهرة»[1]،

---

(١) كتاب «جوهرة التوحيد» كتاب يقرر مذهب الأشاعرة، وفيه مخالفات كثيرة لمذهب أهل السنة والجماعة.

أو كتاب «المواقف»[(١)]، أو كتب علماء الكلام، لا يؤخذ تفسير التوحيد من هذه الكتب وإنما يؤخذ من كتاب الله، ومن سنة رسول الله ﷺ، ومن كتب أهل السنة والجماعة الذين يتمسكون بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

ودليل الصلاة في قوله تعالىٰ: ﴿وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ والمعنىٰ أن يأتوا بها كما أمر الله ﷻ بشروطها وأركانها وواجباتها، أما مجرد صورة الصلاة فإنها لا تكفي، ولهذا لم يقل: ويصلوا، بل قال: ويقيموا الصلاة، ولا تكون الصلاة قائمة إلا إذا أتىٰ بها كما أمر الله سبحانه وتعالى.

أما الذي يصلي مجرد صورة في أي وقت يشاء، أو بدون طهارة، وبدون طمأنينة، ولا يأتي بمتطلبات الصلاة، هذا لم يصل، ولهذا قال ﷺ للمسيء في صلاته الذي لا يطمئن في صلاته قال له: «**ارجع فصل، فإنك لم تصل**»[(٢)].

ليس مقصودًا صورة الصلاة من قيام وركوع وسجود وجلوس فقط، ليس هذا المقصود؛ بل المقصود أن يؤتىٰ بها كما شرع الله سبحانه وتعالى مستوفية لكل متطلباتها الشرعية.

ثم ذكر دليل الزكاة بقوله تعالىٰ: ﴿وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ أي: يدفعوا الزكاة للمستحقين لها، الذين ذكرهم الله تعالىٰ في قوله: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

(١) كتاب «المواقف في علم الكلام» للإيجي.

(٢) أخرجه البخاري (٧٥٧)، ومسلم (٣٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ودليل الصِّيام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣] [٤٠].

ذكر ثمانية مصارف وحصرها بـ: «إنما» فلا يكون صرفها في غير هذه المصارف الثمانية، فمن صرفها في غير مصارفها الثمانية لم يكن قد آتىٰ الزكاة، ولو أنفق أموالًا طائلة ملايين أو مليارات وسماها زكاة، ولا تكون زكاة حتىٰ توضع في مواضعها التي حصرها الله تعالىٰ فيها، هذا معنىٰ إيتاء الزكاة.

وأيضًا في وقتها أي: يخرجها وقت وجوبها، لا يتباطأ ويتأخر ويتكاسل، طيبة بها نفسه، أي: لا يعتبرها مغرمًا أو خسارة؛ وإنما يعتبرها مغنمًا له.

هذه الأمور الثلاثة هي: ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ الدين: الملة، القيمة: صفة لموصوف محذوف تقديره دين الملة القيمة، أي: المستقيمة.

هذا دليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد.

[٤٠] الصيام لا يجب إلا علىٰ المسلمين، أما الكفار لو فعلوه ما صح منهم حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ، ما داموا علىٰ الكفر فإنهم لا تنفعهم العبادات لا صيام ولا غير صيام؛ ولذلك خاطب به المؤمنين خاصة؛ لأنهم هم الذين يستجيبون، وهم الذين يصح منهم الصيام، ويقبل منهم الصيام.

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ معنىٰ كتب: فرض، مثل قوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ﴾ [البقرة:٢١٦]. يعني: فرض عليكم القتال، فالكتب في كتاب الله معناه الفرض.

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي: كما فرض علىٰ الذين من قبلكم من الأمم، فدل علىٰ أن الصيام كان معروفًا عند الأمم السابقة وفي الشرائع القديمة، ولم تختص به شريعة محمد ﷺ.

....

والنفس قد تتثاقل الصيام لما فيه من كبح جماحها ومنعها من الشهوات، والله -جل وعلا- بيَّن أنه سُنته في خلقه وأنه على جميع الأمم، حتى في الجاهلية كان الصيام معروفًا، كانوا يصومون يوم عاشوراء.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ هذا بيان للحكمة من الصيام، فلعلكم تتقون: بيان للحكمة في مشروعية الصيام، وهو أنه يسبب التقوى؛ لأن الصيام يترك به الإنسان مألوفاته وشهواته ومرغوباته تقربًا إلى الله تعالى فيكسبه التقوى، كما أنه يكسر أيضًا شهوة النفس وحدتها؛ لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فمع تناول الشهوات يتسلط الشيطان، ومع ترك الشهوات يضعف مجرى الدم فيطرد الشيطان عن المسلم ففي الصيام حصول التقوى التي هي جماع الخير كله.

فهذه فائدة الصيام أنه يسبب التقوى، تقوى الله تعالى، واتقاء المحارم والشهوات المحرمة؛ لأن الإنسان إذا ترك المباحات طاعة لله كان من باب أولى أن يترك المحرمات، الصيام يدربه على تجنب الحرام، ويدربه على التمكن من نفسه الأمارة بالسوء، ويطرد عنه الشيطان، ويليِّن قلبه للطاعة.

ولذلك تجد الصائم أقرب إلى الخير من المفطر، تجده يحرص على تلاوة القرآن وعلى الصلاة، ويذهب إلى المسجد مبكرًا، الصيام لَيَّنه للطاعة وهذَّبه، كل هذا داخل في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

فالشاهد من الآية قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ هذا دليل على فرضية الصيام، وفسره بقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[البقرة:١٨٥]. لأن قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ مجمل فسره بقوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[البقرة:١٨٥].

ودليل الحجِّ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧][٤١].

---

[٤١] ادعىٰ اليهود أنهم مسلمون، وأنهم علىٰ دين إبراهيم فامتحنهم الله -جل وعلا- في هذه الآية، وقال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ فإن كنتم مسلمين فحجوا؛ لأن الله فرض حج البيت علىٰ المسلمين، فإذا لم تحجوا وأبيتم الحج، فهذا دليل علىٰ أنكم لستم مسلمين، ولستم علىٰ ملة إبراهيم ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

ولله أي: هذا فرض وحق وواجب لله ﷻ علىٰ الناس.

حج: معناه في اللغة: القصد.

الحج شرعًا: قصد الكعبة المشرفة والمشاعر المقدسة في وقت مخصوص لأداء عبادات مخصوصة، وهي مناسك الحج.

حج البيت، أي: الكعبة، وما حولها من المشاعر تابع لها.

من استطاع إليه سبيلًا: هذا بيان شرط الوجوب، وهو الاستطاعة البدنية والاستطاعة المالية، الاستطاعة البدنية بأن يكون قادرًا علىٰ المشي والركوب والانتقال من بلده إلىٰ مكة في أي مكان من الأرض، هذه البدنية، يخرج العاجز عجزًا مستمرًا كالمريض مرضًا مزمنًا والكبير الهرم، فهذا ليس عنده استطاعة بدنية، فإن كانت عنده استطاعة مالية فإنه ينيب من يحج عنه حجة الإسلام.

أما الاستطاعة المالية فهي توفر المركب الذي ينقله، الراحلة، أو السيارة، أو الطيارة، أو الباخرة كل وقت بحسبه، ويكون عنده مال يستطيع أن يوفر له المركب الذي يمتطيه لأداء الحج، وأيضًا الزاد يكون عنده زاد ونفقة له في السفر

....

ذهابًا وإيابًا، ولمن يمونهم يكون عندهم كفايتهم إلىٰ أن يرجع إليهم، فالزاد معناه أن يكون عنده ما يكفيه في سفره، ويكفي من يمون من أولاده ووالديه وزوجته، وكل من تلزمه نفقته يؤمِّن لهم ما يكفيهم حتىٰ يرجع إليهم بعد تأمين سداد الديون إن كان عليه ديون، يكون هذا المال فاضلًا بعد سداد الديون، فإذا توفر هذا فيكون هذا هو السبيل، «**الزاد والراحلة**»[(١)]. كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ومن لم يستطع، أي: من ليس عنده زاد، ولا راحلة فليس عليه حج؛ لأنه غير مستطيع، فشرط وجوب الحج هو الاستطاعة.

ولما كان الحج يؤتَىٰ إليه من بعيد من كل أقطار الأرض، من كل فج عميق، ويحتاج إلىٰ مؤنة، وفيه مشقة وتعب، وقد يحصل فيه أخطار فمن رحمة الله أن جعله في العمر مرة واحدة، وما زاد عليها فهو تطوع، هذا من رحمة الله سبحانه وتعالى حيث لم يوجبه علىٰ المسلم كل سنة، كما قال النبي ﷺ: «**إن الله فرض عليكم الحج فحجوا.** قال الأقرع بن حابس رضي الله عنه: أكل سنة يا رسول الله؟ فسكت عنه الرسول ﷺ ثم أعاد السؤال، فسكت عنه النبي ﷺ ثم أعاد السؤال، فقال النبي ﷺ: **لو قلت: نعم، لوجبت ولما استطعتم، الحج مرة واحدة فما زاد فهو تطوع**»[(٢)]. هذا من رحمة الله.

---

(١) أخرجه الترمذي (٨١٣)، وابن ماجه (٢٨٩٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه ابن ماجه (٢٨٩٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤/ ١٥١) (٢٣٠٤)، وأبو داود (١٧٢١)، والنسائي (٥/ ١١١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه دليل على أن من امتنع عن الحج وهو يقدر ولم يحج فإنه كافر، لأن الله قال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾؛ أي: من أبى أن يحج وهو قادر على الحج، فإن هذا كفر، قد يكون كفرًا أصغر، فمن تركه جاحدًا لوجوبه هذا كفر أكبر بإجماع المسلمين.

أما من اعترف بوجوبه وتركه تكاسلًا فهذا كفر أصغر، ولكن إذا توفي، وكان له مال، فإنه يُحج من تركته؛ لأنه دين عليه لله ﷻ، وهذه الآية فيها وجوب الحج، وهو ركن من أركان الإسلام، وبيَّن الرسول ﷺ أنه ركن من أركان الإسلام في حديث جبريل[1]، وفي حديث ابن عمر[2].

وقد فُرض الحج في السنة التاسعة على قول، ولم يحج النبي ﷺ في هذه السنة، وإنما حج في السنة التي بعدها في السنة العاشرة. لماذا؟ لأنه ﷺ أرسل عليًّا ينادي في الناس في الموسم: **«ألاَّ يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»**[3]. فلما منع المشركون والعراة من الحج في العام العاشر حج النبي ﷺ حجة الوداع.

---

(١) سبق تخريجه (ص١٢٥).

(٢) سبق تخريجه (ص١٢٦).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٩)، ومسلم (١٣٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المرتبة الثانية: الإيمان

تعريف الإيمان:

المرتبة الثانية: الإيمان: وهو بضعٌ وسبعونَ شعبةً، فأعلاها: قولُ لا إله إلا الله، وأدناها: إماطَةُ الأذَىٰ عن الطريق، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان [٤٢].

---

[٤٢] فالإيمان أعم من الإسلام، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمنًا، فالإيمان أعم من جهة نفسه، وأخص من جهة أهله.

والإيمان في اللغة: التصديق، قال تعالىٰ علىٰ لسان إخوة يوسف: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ﴾ [يوسف:١٧]. أي: بمصدق لنا.

وأما الإيمان في الشرع: فهو كما فسره أهل السنة والجماعة: قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية.

وهو بهذا التفسير يكون حقيقة شرعية؛ لأن الحقائق ثلاث:

حقيقة لغوية، وحقيقة شرعية، وحقيقة عرفية.

فتفسير الإيمان بهذا التفسير هو حقيقة شرعية، فالإيمان نقل من المعنىٰ اللغوي إلىٰ المعنىٰ الشرعي.

فالإيمان: قول باللسان، لابد من النطق والاعتراف باللسان، واعتقاد بالقلب، لابد من أن يكون ما ينطق به بلسانه معتقدًا له بقلبه وإلا كان مثل إيمان المنافقين الذين ﴿يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ [الفتح:١١].

....

ولا يكفي القول باللسان والاعتقاد بالقلب؛ بل لابد من العمل بالجوارح أيضًا، لابد من أداء الفرائض، وتجنب المحرمات، فيفعل الطاعات، ويتجنب المحرمات، كل هذا من الإيمان، وهو بهذا التعريف يشمل الدين كله، لكن هذه الطاعات والشرائع الكثيرة منها ما هو جزء من حقيقة الإيمان، ومنها ما هو مكملات للإيمان.

والإيمان له أركان، وله شُعَب، وقد بينها النبيﷺ في حديثين، بيَّن أركان الإيمان في حديث جبريل، وبيَّن شعب الإيمان في حديث: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة»**. وهذا يأتي إن شاء الله.

والإيمان والإسلام إذا ذُكِرَا جميعًا صار لكل واحد معنىٰ، وإذا ذكر منهما واحد فقط دخل في الآخر، فإذا ذكرا جميعًا فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، وهي أركان الإسلام الخمسة، وفسر الإيمان بالأعمال الباطنة، وهي الأركان الستة ومحلها القلب، ولابد من اجتماعها في المسلم، لابد أن يكون مسلمًا مؤمنًا يقيم أركان الإسلام، ويقيم أركان الإيمان لابد من اجتماعها.

قالﷺ: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة، أو بضع وستون شعبة»** روايتان[1].

قوله: «بضع»: البضع هو ما بين الثلاثة إلىٰ التسعة، فإذا قيل: بضعة عشر: هو ما بين ثلاثة عشر إلىٰ تسعة عشر، وإذا قيل: بضع فقط فهو ما بين الثلاثة إلىٰ التسعة.

قوله: «شعبة»: الشعبة هي القطعة من الشيء، أي: أن الأركان بضع وسبعون قطعة أو جزءًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٩) بلفظ: «وستون»، ومسلم (٣٥) بروايتيه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: «أعلاها»، أي: أعلىٰ هذه الشعب قول: لا إله إلا الله، فهي رأس الإسلام، ورأس الإيمان، وهي الركن الأول، وهي مدخل الدين.

قوله: «أدناها»، أي: آخرها وأقلها.

قوله: «إماطة الأذىٰ عن الطريق»، أي: إزالة الأذىٰ عن الطريق المسلوك، والأذىٰ كل ما يؤذي الناس من شوك، أو حجر، أو قاذورات أو مخلفات، كل ما يؤذي الناس في طريقهم، ووضع الأذىٰ في الطريق محرم؛ لأن الطريق للمارة، فالأذىٰ يعطل المارة أو يعرضهم للخطر، مثل أن يوقف سيارته في الطريق هذا من الأذىٰ، إرسال الماء من البيت في الطريق هذا من الأذىٰ، وضع القمامات في الطريق هذا من الأذىٰ، سواء كان الطريق في البلد أو في البر، وضع الحجارة، وضع الأخشاب، وضع الحديد بطرقات الناس، حفر الحُفَر في طرقات الناس كل هذا من الأذىٰ.

فإذا جاء مسلم وأزاح هذا الأذىٰ، أخلىٰ الطريق منه، فهذا دليل علىٰ إيمانه، فوضع الأذىٰ في الطريق من شعب الكفر، وإزالة الأذىٰ عن الطريق من شعب الإيمان.

قوله: «والحياء شعبة من الإيمان»: الحياء خلق يجعله الله في الإنسان يحمله علىٰ فعل ما يجمله ويزينه ويمنعه مما يدنسه ويشينه، والحياء الذي يحمل صاحبه علىٰ الخير ويبعده عن الشر هذا محمود.

أما الحياء الذي يمنع الإنسان من فعل الخير وطلب العلم، والسؤال عما أشكل عليه، فهذا حياء مذموم؛ لأنه خجل.

....

وشعب الإيمان كثيرة كما عرفتم بضع وسبعون، وقد كتب الإمام البيهقي مؤلفًا كبيرًا بيَّن فيه شعبَ الإيمان، وله مختصر مطبوع.

ومن أدلة العلماء علىٰ أن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، قولهﷺ: «**أعلاها لا إله إلا الله**». هذا يدل علىٰ القول، وقولهﷺ: «**أدناها إماطة الأذي عن الطريق**». هذا عمل، دل علىٰ أن الأعمال من الإيمان، وقولهﷺ: «**الحياء شعبة من الإيمان**». هذا في القلب، الحياء إنما يكون في القلب، فهذا دليل علىٰ أن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح.

أركان الإيمان

قال: وأركانه ستةٌ: أن تؤمنَ بالله، وملائكته، وكُتُبه، ورُسُله، واليوم الآخر، وتؤمِن بالقدر خيره وشرِّه [٤٣].

---

[٤٣] **الإيمان يتكون من أركان وشعب فما الفرق بينهما؟**

الفرق أن الأركان لابد منها، فإذا زال واحد منها زال الإيمان؛ لأن الشيء لا يقوم إلا على أركانه، فإذا فُقِد ركن من أركان الشيء لم يتحقق.

وأما الشعب فإنها مكملات، لا يزول الإيمان بزوال الشيء منها، لكنها مكملات إما واجبات أو مستحبات، فالواجبات لكمال الإيمان الواجب، والمستحبات لكمال الإيمان المستحب.

فإذا ترك المسلم شيئًا من الواجبات، أو فعل شيئًا من المحرمات، فإنه لا يزول إيمانه بالكلية عند أهل السنة والجماعة؛ ولكن يزول كماله الواجب.

فيكون ناقص الإيمان أو فاسقًا، كما لو شَرِبَ الخمر، أو سرق أو زنى، أو فعل شيئًا من الكبائر، هذا يكون فاعلًا لمحرم وكبيرة من كبائر الذنوب لكنه لا يكفر بذلك، ولا يخرج من الإيمان؛ بل يكون فاسقًا، ويقام عليه الحدُّ إن كانت المعصية ذات حدٍّ.

وكذلك من ترك واجبًا كمن ترك بر الوالدين أو صلة القرابة هذه واجبات،

....

فمن تركها نقص إيمانه، وكان عاصيًا بترك الواجب، فيكون عاصيًا إما بترك الواجب، وإما بفعل محرم، وعلىٰ كل حال لا يخرج من الإيمان؛ وإنما يكون مؤمنًا ناقص الإيمان.

هذا مذهب أهل السنة والجماعة خلافًا للخوارج والمعتزلة الذين يكفرون مرتكب الكبيرة.

فالخوارج يكفرونه ويخرجونه من الدين.

والمعتزلة يخرجونه من الدين، لكن لا يدخلونه في الكفر، وإنما يقولون: هو في منزلة بين منزلتين لا هو مؤمن ولا كافر.

هذا مذهبهم وهو مذهب مبتدَع، مخالف للأدلة، ومخالف لما هو عليه أهل السنة والجماعة، والسبب في ذلك تقصيرهم في الاستدلال، حيث أخذوا أدلة الوعيد، وتركوا أدلة الوعد مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨] هذه من أدلة الوعد، دلت علىٰ أن العاصي الذي لم يصل إلىٰ حد الشرك والكفر أنه مرجو له المغفرة ومعرض للوعيد والعقوبة.

فإذا جمعت بين قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن:٢٣] من أخذ بظاهرها كفَّر بالمعصية مطلقًا، وإن ردَّها إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ تبين له الحق، وأنه لا يخرج من الدين؛ ولكنه متوعد بالنار، إن شاء الله غفر له، وإن شاء عذبه، فقد يأتي عليه مكفرات في الدنيا أو عذاب في القبر تكفر هذه السيئات.

والمكفرات كثيرة، يبتلي بمصائب، يبتلىٰ بعقوبات في الدنيا أو يعذب في قبره أو يؤجل إلىٰ يوم القيامة ويكون تحت المشيئة.

....

هذا مذهب أهل السنة والجماعة، وهذا هو الفرق بين الشعب والأركان، فمن ترك شيئًا من الأركان فإنه يكفر، من جحد التوحيد وأشرك بالله ﷻ هذا يكفر لأنه ترك الركن الأول، ومن جحد أحد الرسل يكفر؛ لأنه ترك ركنًا من أركان الإسلام، ومن جحد الملائكة يكفر، ويخرج من الملة، من كفر بالبعث، أو جحد الجنة أو النار، أو الصراط، أو الميزان أو شيئًا مما ثبت من أمور الآخرة فإنه بذلك يكفر؛ لأنه أنكر ركنًا من أركان الإيمان.

كذلك من جحد القدر وقال: الأمر أُنُف، ولم يسبق قدر من الله إنما هي المصادفة، والأمور بالصدفة، وليس هناك قدر كما يقوله غلاة المعتزلة فإنه يكفر أيضًا؛ لأنه جحد القدر، أما من ترك شيئًا من الشعب فإن هذا ينقص إيمانه، إما أن يكون نقصًا لكماله الواجب، أو نقصًا لكماله المستحب؛ لكنه لا يكفر بذلك.

وما دليل الزيادة والنقصان في الإيمان؟

أما دليل الزيادة: فقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[الأنفال:٢] . فدل علىٰ أن الإيمان يزيد بسماع القرآن.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[التوبة:١٢٤] .

دل علىٰ أن الإيمان يزيد بنزول القرآن وسماعه وتدبره، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ﴾[المدثر:٣١] . فدل علىٰ أن الإيمان يزيد بالطاعات والتصديق.

وأما النقصان: فإن كل شيء يزيد فإنه ينقص، كل شيء قابل للزيادة فإنه قابل للنقص هذا من ناحية.

ودل عليه قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**إن الله ﷻ يوم القيامة يقول: أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان**»(١). فدل على أن الإيمان ينقص حتىٰ يكون علىٰ وزن حبة من خردل في القلب.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [آل عمران: ١٦٧]. دل علىٰ أن الإيمان ينقص حتىٰ يكون أقرب إلىٰ الكفر، وفي قوله: «**من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(٢). دل علىٰ أن الإيمان يضعف، أي: ينقص، فالإيمان إذن يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

قوله: «وأركانه ستة» أي: دعائمه التي يقوم عليها، ويفقد بفقدها، أو بفقد واحد منها ستة أركان، وهي:

الأول: أن تؤمن بالله: فالركن الأول، وهو الإيمان بالله، ويشمل أنواع التوحيد الثلاثة: الإيمان بأن الله ﷻ واحد أحد فرد صمد لا شريك له في ربوبيته، ولا في ألوهيته، ولا في أسمائه وصفاته.

الثاني: الإيمان بالملائكة: والملائكة جمع مَلك، وأصله ملأك ثم سهل وقيل: ملك، والملائكة خلق من خلق الله في عالم الغيب، خلقهم الله لعبادته ولتنفيذ

(١) أخرجه البخاري (٢٢)، ومسلم (١٨٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

أوامره سبحانه وتعالى في ملكه، وهم أصناف كل صنف له عمل موكل به ويقوم به، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون:

فمنهم: من هو موكل بالوحي وهو جبريل عليه السلام، وهو أشرف الملائكة، وهو الروح الأمين شديد القوىٰ.

ومنهم: من هو موكل بحمل العرش: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾[غافر:٧] .

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾[الحاقة:١٧] .

العرش هو أعظم المخلوقات، ولا يعلم عِظَمَهُ إلا الله عز وجل يحمله الملائكة، وهذا دليل علىٰ عظم الملائكة، وعظم قواهم وخلقهم، قال تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾[فاطر:١] .

فمنهم من له ستمائة جناح كجبريل -عليه الصلاة والسلام- فلا يعلم عظم خلقتهم إلا الله سبحانه وتعالى : ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾[الأنبياء:٢٦-٢٧] .

ومنهم: الموكل بالقطر والنبات وهو ميكائيل.

ومنهم: من هو موكل بالنفخ في الصور، وهو إسرافيل ينفخ في الصور فيهلك كل شيء، قال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ ثم نفخ فيه مرة ثانية، فتطير الأرواح في أجسادها ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾[الزمر:٦٨] .

تطير الأرواح من القرن، وهو الصور إلىٰ أجسادها، وتدخل فيها فيحيون بإذن الله، ثم يسيرون إلىٰ المحشر.

ومنهم: من هو موكل بقبض الأرواح عند نهاية آجالها، وهو ملك الموت، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]. ومعه أعوان من الملائكة: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١]. يعني: أعوان ملك الموت.

ومنهم: من هو موكل بالأجنة في الأرحام؛ قال رسول الله ﷺ: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك**». الحديث[1].

ومنهم: الموكلون بحفظ أعمال بني آدم، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار:١٠-١١]. يلازمونكم بالليل والنهار.

قال ﷺ: «**يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار**»[2]. ويجتمعون في صلاة الفجر، وفي صلاة العصر، ويشهدون للمصلين عند الله ﷻ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨]. أي: يحضره الملائكة، ملائكة الليل وملائكة النهار.

ومنهم: من هو موكل بحفظ بني آدم من المكاره، يحفظونه من الآفات، ومن الأعداء، ومن الهوام، من السباع، ومن الأفاعي والحيات، ما دام له بقية حياة، فإن له ملائكة يحفظونه من الأخطار.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

ينام بين السباع وبين الحيات في البر، من الذي يدفع عنه الحيات والسباع والهوام؟ معه ملائكة سخرهم الله ﷻ، قال الله فيهم: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد:١١]. أي: بأمر الله هؤلاء يحفظون بني آدم من المكاره والأخطار إلىٰ أن يحين الأجل، فإذا حان الأجل تخلوا عنه فوقع ما قدر الله له من الموت، أو الإصابة التي تفضي إلىٰ الموت.

ومنهم: ملائكة موكلون بتنفيذ الأوامر في أقطار السموات والأرض لا يعلمهم إلا الله ﷻ.

منهم: ملائكة يطلبون مجالس الذكر ويحضرونها، كما قال رسول الله ﷺ: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة**»[١]. ملائكة سياحون في الأرض يطلبون حلق الذكر ويشهدونها.

ولا يعلم الملائكة وأصنافهم وأوصافهم إلا الله، لكن ما جاء في النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة أثبتناه واعتقدناه، وما لم يذكر لنا نمسك عنه، ولا نبحث فيه؛ لأن هذا من علم الغيب الذي لا ندخل فيه إلا بدليل.

فالإيمان بالملائكة ركن من أركان الإسلام، فمن جحد الملائكة، وقال: لا يوجد ملائكة لأننا لا نراهم؛ هذا يكون كافرًا ملحدًا زنديقًا والعياذ بالله؛ لأنه لم يؤمن بالغيب.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

....

وكذلك الذي يؤول الملائكة فيقول: الملائكة إنما هي معانٍ وليست أجسامًا، وهي الهواجس التي تأتي علىٰ الإنسان، إن كانت هواجس خير فهي ملائكة، وإن كانت هواجس شر فهي شياطين، فهذا قولٌ إلحادي والعياذ بالله، ومع الأسف هو في «تفسير المنار» نقله محمد رشيد رضا عن شيخه محمد عبده.

وهذا كلام الفلاسفة، وهو كلام باطل، من اعتقده فهو كافر، لكن نرجو أنه نقله ولم يعتقده، ولكن نقله من غير تعقيب فيه خطورة، وهذا كلام باطل وكفر بالملائكة، نسأل الله العافية والسلامة.

فالإنسان لا يدخل بعقله وتفكيره، أو ينقل عن الفلاسفة، أو عن الزنادقة شيئًا من أمور الدين، وأمور الغيب، وإنما يعتمد علىٰ الكتاب والسنة هذا هو الواجب، ويذكر في «تفسير المنار» أنه منقول من كتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي، والله أعلم.

وكتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي فيه طوام وفيه بلايا، وإن كان فيه شيء من الخير والفوائد؛ لكن فيه من المهلكات والسموم الشيء الكثير، وهو كتاب مختلط، شره أكثر من خيره، فلا يليق بالمبتدئ أو العامي أن يطالع فيه إلا إذا كان عنده علم وتمييز بين الحق والباطل.

والملائكة ليسوا معانٍ كما يقول؛ بل الملائكة أجسام وأشكال يتشكلون بأشكال أعطاهم الله القدرة عليها، ولهذا كان جبريل عليه السلام يأتي إلىٰ النبي ﷺ في صورة رجل، فأعطاهم الله القدرة علىٰ التشكل في أشكال من أجل مصلحة بني آدم؛ لأن بني آدم لا يطيقون رؤية الملائكة علىٰ خلقتهم التي خلقهم الله عليها.

وإنما يأتون إلىٰ النبي ﷺ في صورة رجل رفقًا ببني آدم، ولا يرون علىٰ صورتهم وحقيقتهم إلا عند العذاب، قال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الفرقان:٢٢]. وعند الموت يعاينهم الإنسان، يرىٰ ملائكة الموت، لكن في الدنيا، وعلىٰ قيد الحياة لا يراهم لأنه لا يطيق رؤيتهم، خلقهم الله من نور، وخلق الشياطين من نار كما في القرآن وخلق آدم من تراب، فالله علىٰ كل شيء قدير.

والكفار يعتقدون أن الملائكة بنات الله، قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف:١٩].

الثالث: الإيمان بكتبه: وهي الكتب التي أنزلها الله علىٰ الرسل لهداية البشر، نؤمن بأنها كلام الله حقيقة، ونؤمن بما سمىٰ الله منها وما لم يسم، سمىٰ الله لنا منها: التوراة والإنجيل والزبور والقرآن العظيم وصحف إبراهيم وموسىٰ فنؤمن بها.

ونؤمن بما لم يسمه الله منها، فالإيمان بالكتب السابقة يكون إيمانًا مجملًا، والإيمان بالقرآن يكون إيمانًا مفصلًا بكل ما فيه؛ لأنه كتابنا، وأنزل علىٰ نبينا محمد ﷺ، فمن جحد آية أو حرفًا من حروفه فهو كافر مرتد عن الإسلام.

وكذلك من آمن ببعض القرآن، وكفر ببعض فهو كافر، وكذلك من آمن ببعض الكتب وكفر ببعض فهو كافر، ومن قال: أنا أومن بالقرآن ولا أومن بالتوراة والإنجيل فهو كافر، أو قال: أومن بالتوراة والإنجيل، ولا أومن بالزبور الذي أنزل علىٰ داود عليه السلام فهو كافر، قال تعالىٰ: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النساء: ١٦٣]. أو أنكر صحف إبراهيم فهو كافر؛ لأنه مكذب لله عز وجل، ومكذب لرسله، فهو كافر؛ لأنه جحد ركنًا من أركان الإيمان.

الرابع: الإيمان برسله: الإيمان بالرسل جميعهم من أولهم إلىٰ آخرهم من سمىٰ الله منهم ومن لم يسم، نؤمن بهم جميعًا وأنهم رسل الله حقًّا جاءوا بالرسالة وبلغوها لأممهم.

فمن كفر بنبيٍّ واحد فهو كافر بجميع الرسل؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء:١٥٠-١٥٢].

فالكفر بنبيٍّ واحد، أو برسول كفر بالجميع، ولهذا قال: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]. مع أنهم كذبوا نوحًا؛ فتكذيبهم لنوح صار تكذيبًا لبقية المرسلين، وكذلك من كفر بعيسىٰ ومحمد كاليهود، أو كفر بمحمد كالنصارىٰ، فإنه كافر بالجميع، لابد من الإيمان بجميع الرسل -عليهم الصلاة والسلام- من سمىٰ الله منهم ومن لم يسم.

وقد سمىٰ الله منهم، كما في سورة الأنعام: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٨٣-٨٦]. فذكر جملة منهم في هذه الآيات، وفي آيات أخرىٰ، فنؤمن بمن سمىٰ الله منهم، ونؤمن بمن لم يسم الله منهم.

الخامس: اليوم الآخر: الإيمان باليوم الآخر، هو الركن الخامس، واليوم الآخر المراد به يوم القيامة سمي باليوم الآخر؛ لأنه بعد اليوم الأول وهو يوم الدنيا، الدنيا هي اليوم الأول والقيامة هي اليوم الآخر.

والإيمان باليوم الآخر هو: الإيمان بما بعد الموت من عذاب القبر ونعيمه، وسؤال الملكين في القبر، وكل ما يكون بعد القبر فهو من الإيمان باليوم الآخر، وكذلك الإيمان بالبعث، والنشور، والمحشر، والحساب، ووزن الأعمال، والصراط، والميزان الذي توزن به الحسنات والسيئات، والجنة والنار.

فتفاصيل ما يحصل في اليوم الآخر نؤمن بها جملة وتفصيلًا، بداية من الموت إلىٰ أن يستقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، كل ما صح من هذا نؤمن به، ولا نشك في شيء منه، فَمَنْ شك في شيء منه فهو كافر مرتد عن الإسلام، كل هذا يطلق عليه اليوم الآخر وما فيه.

الركن السادس: تؤمن بالقدر خيره وشره: تؤمن بأن ما يجري في هذا الكون من خير أو شر، من كفر وإيمان، من نعمة ونقمة، من رخاء وشدة، من مرض وصحة، من حياة وموت، كل ما يجري في هذا الكون فإنه مقدر لم يكن صدفة أو يكن أمرًا مستأنفًا، أي: أنه مبتدأ لم يسبق أن قُدِّر، تؤمن بهذا كله بأنه بقضاء الله وقدره، وتؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن هذا بقضاء الله وقدره، قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد:٢٢]. هذا هو الإيمان بالقدر.

....

والإيمان بالقدر يتضمن أربع درجات من لم يؤمن بها كلها فليس مؤمنًا بالقدر:

المرتبة الأولىٰ: العلم: بأن الله عَلِمَ كل شيء في الأزل، علم كل ما يجري، ما كان وما يكون إلىٰ ما لا نهاية، فالله قد علمه في الأزل قبل أن يكون، وقبل أن يقع، علمه ﷻ بعلمه القديم الأزلي الذي هو موصوف به أزلًا وأبدًا، هذه مرتبة العلم فمن جحدها فهو كافر.

المرتبة الثانية: مرتبة الكتابة في اللوح المحفوظ: وهي أن الله كتب كل شيء في اللوح المحفوظ، فما يجري شيء إلا وهو مكتوب في اللوح المحفوظ، ليس هناك شيء يجري وهو غير مكتوب.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [الحديد:٢٢]. يعني: اللوح المحفوظ، كتب الله فيه مقادير كل شيء، قال رسول الله ﷺ: «**أول ما خلق الله القلم، قال: اكتب. قال: وما أكتب قال: اكتب ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة**»(١).

فمن جحد الكتابة وقال: الله يعلم كل شيء لكنه لم يكتب في اللوح المحفوظ شيئًا، هذا كافر مرتد عن دين الإسلام.

المرتبة الثالثة: مشيئة الله النافذة: وهي أن الله سبحانه يشاء الشيء ويريده، فما من شيء يحدث إلا وقد شاءه الله وأراده كما في اللوح المحفوظ، وكما علمه ﷻ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

الدليل على أركان الإيمان

والدليلُ علىٰ هذه الأركان السِّتة: قولُه تعالىٰ: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة:١٧٧][٤٤].

يشاء كل شيء في وقته، ويريد كل شيء في وقت حدوثه، لا يقع شيء بدون مشيئة الله، أو بدون إرادة الله، فمن قال: إن الأشياء تحدث بدون أن يشاءها الله أو يريدها فهذا كافر.

المرتبة الرابعة: مرتبة الخلق والإيجاد: الله خالق كل شيء، إذا شاءه وأراده خلقه ﷻ وأوجده، فكل شيء هو مخلوق لله ﷻ، وهو من خَلْق الله، وهو فعل العباد وكسب العباد.

فهذه المراتب الأربع لابد من الإيمان بها، وإلا لَمْ يكن الإنسان مؤمنًا بالقدر: مرتبة العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق والإيجاد، كل هذه لابد من الإيمان بها، فمن جحد شيئًا منها فإنه كافر مرتد عن دين الإسلام؛ لأنه جحد ركنًا من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالقدر.

[٤٤] لما ذكر الشيخ هذه الأركان ذكر دليلها من القرآن، ومن السنة؛ لأن أي شيء من أمور الدين والعبادة والعقيدة وأمور الأحكام الشرعية يحتاج إلىٰ

....

دليل، وإن لم يكن له دليل، لم يكن صحيحًا، لما ذكر الشيخ أركان الإيمان الستة ذكر دليلها من القرآن أولًا، ثم من السُّنة.

فمن القرآن: قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾.

البر: هو فعل الخير الذي يقرب من الله، ويوصل إلىٰ جنته، فكل أفعال الخير هي من البر، فالبر لفظ عام يجمع جميع أنواع الخير، وأنواع الطاعات كلها داخلة تحت مسمىٰ البر، وتحت مسمىٰ التقوىٰ.

فالبر والتقوىٰ من الأسماء العامة التي تجمع كل خصال الخير، وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ هذا ردٌّ علىٰ اليهود الذين استنكروا تحويل القبلة من بيت المقدس إلىٰ الكعبة المشرفة، استنكروا هذا وجحدوه مع العلم أنهم يعلمون أنه حق، لكن جحدوه من باب العناد والمكابرة والحسد للنبي ﷺ ولهذه الأمة.

يقول الله: ليس البر أن تولوا وجوهكم جهة من الجهات من غير أمر من الله؛ ولكن البر طاعة الله سبحانه وتعالى، إذا أمركم بأمر وجب عليكم امتثاله. هذا هو البر، فإذا أمركم باستقبال بيت المقدس، فالبر في ذاك الوقت هو استقبال بيت المقدس؛ لأنه طاعة لله عز وجل، ثم إذا أمركم أن تستقبلوا الكعبة، فالبر هو استقبال الكعبة، فالبر يدور مع أمر الله سبحانه وتعالى.

أنتم عبيد يجب عليكم الامتثال، إذا أمركم الله أن تستقبلوا جهة من الجهات وجب عليكم الامتثال، أما أن تتعصبوا لجهة معينة وتقولوا: لا يصح إلا استقبالها، فهذا معناه اتباع الهوىٰ والعصبية.

ودليل القَدر قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩][٤٥].

المرتبة الثالثة: الإحسان

تعريف الإحسان:

المرتبةُ الثالثة: الإحسان، ركنٌ واحدٌ، وهو: أن تعبد الله كأنك تراهُ، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك [٤٦].

العبد الصادق يدور مع أوامر الله حيث دارت، ولا يعترض علىٰ أمر الله؛ لأن استقبال جهة بعد نسخ استقبالها لا يكون طاعة لله ﷻ، فالعمل بالمنسوخ وترك الناسخ ليس طاعة لله ﷻ وإنما هو طاعة للهوىٰ والعصبية، فالبر متعلق بطاعة الله، فحيث وجَّهك تتوجَّه إن كنت محقًّا في عبوديتك لله ﷻ: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾.

[٤٥] دليل الركن السادس من أركان الإيمان: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ أي: كل شيء خلقه الله فإنه مقدر في علمه وكتابته ومشيئته وإرادته سبحانه وتعالى، وليس هو عفويًّا أو صدفيًّا، إنما هو أمر سابق في علم الله، ومكتوب في اللوح المحفوظ، وسابق في مشيئة الله وإرادته سبحانه وتعالى.

[٤٦] الإحسان في اللغة: إتقان الشيء وإتمامه، مأخوذ من الحسن، وهو الجمال ضد القبح. وهو ينقسم إلىٰ أقسام:

أولًا: إحسان بين العبد وبين ربه وهذا هو المقصود.

ثانيًا: إحسان بين العبد وبين الناس.

....

ثالثًا: إحسان الصنعة وإتقانها، إذا صنع الإنسان شيئًا، أو عمل عملًا فإنه يجب عليه أن يتقنه ويتمه.

النوع الأول: وهو الإحسان بين العبد وربه، بيَّنه الرسولﷺ لما سأله جبريل بحضرة الصحابة، كما يأتي، فقال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

فالإحسان بين العبد وبين ربه هو إتقانه العمل الذي كلفه الله به بأن يأتي به صحيحًا خالصًا لوجه الله ﷻ، عمل الإحسان بين العبد وربه ما توفر فيه الإخلاص لله ﷻ والمتابعة للرسولﷺ، وقد بين النبيﷺ أن الإحسان علىٰ مرتبتين، واحدة أعلىٰ من الأخرىٰ.

الأولىٰ: أن تعبد الله كأنك تراه، بأن يبلغ بك اليقين والإيمان بالله كأنك تشاهد الله عيانًا، ليس عندك تردد، أو أي شك، بل كأن الله أمامك ﷻ تراه عيانًا، فمن بلغ هذه المرتبة فقد بلغ غاية الإحسان، تعبد الله كأنك تراه من كمال اليقين، وكمال الإخلاص، كأنك ترىٰ الله عيانًا، والله -جل وعلا- لا يُرىٰ في الدنيا؛ وإنما يُرىٰ في الآخرة؛ ولكن تراه بقلبك حتىٰ كأنك تراه بعينيك، ولذلك يجازىٰ أهل الإحسان بالآخرة بأن يروه ﷻ، لما عبدوه وكأنهم يرونه في الدنيا جازاهم الله بأن أفسح لهم المجال بأن يروه بأبصارهم في دار النعيم.

قال تعالىٰ: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]. الزيادة هي النظر لوجه الله، السبب أنهم أحسنوا في الدنيا فأعطاهم الله الحسنىٰ، وهي الجنة، وزادهم رؤية الله ﷻ تعبد الله كأنك تراه علىٰ المشاهدة، والمحبة والشوق إلىٰ لقائه ﷻ، تتلذذ بطاعته، وتطمئن إلىٰ طاعته ﷻ، تشتاق إليها، هذه طريقة المحسنين.

المرتبة الثانية: إذا لم تبلغ هذه المرتبة العظيمة، فإنك تعبده على طريقة المراقبة بأن تعلم أن الله يراك، ويعلم حالك، ويعلم ما في نفسك، فلا يليق بك أن تعصيه، وأن تخالف أمره، وهو يراك ويطلع عليك، وهذه حالة جيدة؛ ولكنها أقل من الأولى، وما دمت أنك تعلم أنه يراك فإنك تحسن عبادته وتتقنها؛ لأنك تعلم أن الله يراك، ولله المثل الأعلى لو كنت أمام مخلوق له منزلة وأمرك بأمر، وأنت تنفذ هذا الأمر أمامه وينظر إليك، هل يليق بك أن يقع منك إخلال بهذا الفعل؟

الحاصل: أن الإحسان على مرتبتين:

مرتبة المشاهدة القلبية: وهي أن تعبد الله كأنك تراه من شدة اليقين والإيمان، كأنك ترى الله عز وجل عيانًا.

والمرتبة الثانية: وهي أقل منها، أن تعبد الله، وأنت تعلم أنه يراك ويطلع عليك، فلا تعصيه ولا تخالف أمره سبحانه وتعالى.

هذه مرتبة الإحسان وهي أعلى مراتب الدين، من بلغها فإنه بلغ أعلى مراتب الدين، وقبلها مرتبة الإيمان، وقبلها مرتبة الإسلام.

دليل الإحسان

والدليلُ قولُه تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨]. وقوله تعالىٰ: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء:٢١٧-٢٢٠]. وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس:٦١] [٤٧].

فالدين دوائر:

الدائرة الأولىٰ: الإسلام، وهي واسعة حتىٰ إنه يدخل فيها المنافق ويقال له: مسلم، ويعامل معاملة المسلمين؛ لأنه استسلم في الظاهر، فهو داخل في دائرة الإسلام ويدخل فيها ضعيف الإيمان الذي ليس معه من الإيمان إلا مثقال حبة خردل.

الدائرة الثانية: وهي أضيق من الأولىٰ وأخص، دائرة الإيمان، وهذه لا يدخل فيها المنافق النفاق الاعتقادي أبدًا، وإنما يدخل فيها أهل الإيمان، وهم علىٰ قسمين: إيمان كامل، وإيمان ناقص، فيدخل فيها مؤمن فاسق أو مؤمن تقي.

الدائرة الثالثة: وهي أضيق من الثانية، دائرة الإحسان وهي كما بينها النبي ﷺ، ولا يدخل فيها إلا أهل الإيمان الكامل.

[٤٧] هذا دليل المرتبة الأولىٰ من الإحسان: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ

هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ دلت الآية أن الله مع المحسنين، وهم الذين عبدوا الله كأنهم يرونه، فإن الله معهم، معية خاصة، معية النصرة والتأييد والتوفيق.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ هذا دليل المرتبة الثانية، هذا دليل قولهﷺ: «فإنه يراك».

﴿ وَتَوَكَّلۡ ﴾ أي: فوِّض أمورك.

﴿ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾: وهو الله سبحانه وتعالى.

﴿ حِينَ تَقُومُ ﴾: تقوم للعبادة والصلاة.

﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾: يراك وأنت راكع وأنت ساجد، يراك في جميع أحوال العبادة قائمًا وراكعًا وساجدًا فهو يراك سبحانه وتعالى.

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾: السميع لأقوالك، العليم بأقوالك سبحانه وتعالى.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٍ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٍ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ ﴾ هذا دليل المرتبة الثانية.

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٍ ﴾: هذا خطاب للرسولﷺ، في أي شأن من أمورك، من أمور العبادة أو من غيرها، جميع أفعالك وتحركاتك ما تكون في شأن من الشئون.

﴿ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٍ ﴾ أي: من الله؛ لأن القرآن من عند الله عز وجل أو الضمير راجع إلىٰ الشأن، أي: ومن الشأن الذي تكون فيه تلاوة القرآن.

﴿ وَلَا تَعۡمَلُونَ ﴾ هذا لجميع الأمة، للرسولﷺ وغيره.

﴿ مِنۡ عَمَلٍ ﴾ أي عمل من الأعمال خير أو شر.

﴿ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا ﴾ نراكم ونبصركم ونشاهدكم، هذا دليل لقولهﷺ: «فإنه يراك».

....

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تباشرونه وتعملونه، فهذا يعطي دليلًا على المرتبة الثانية من مراتب الإحسان، وأنه -جل وعلا- شهيد على كل عامل بعمله يراه سبحانه وتعالى ويعلمه ويبصره، ولا يغيب عنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران:٥].

وأما الإحسان بين العبد والخلق فمعناه: بذل المعروف لهم، وكف الأذى عنهم، بأن تطعم الجائع، وتكسو العاري، وتعين بجاهك المحتاج، وتشفع لمن احتاج الشفاعة، تبذل المعروف، جميع وجوه المعروف: تكرم الضيف، تكرم الجار، لا يصدر منك إلا خير لجارك، وتكف أذاك عنه أيضًا، فلا يصدر منك أذى له ولا لغيره.

من الناس من لا يصدر منه إلا أذى، ومن الناس من يصدر منه أذى وخير، ومن الناس من لا يصدر منه إلا خير فهذا في أعلى الطبقات.

بذل الخير للناس، وكف الأذى عنهم هو الإحسان للناس: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]. حتى البهائم يجب أن تحسن إليها بأن تهيئ لها ما تحتاج إليه، وتمنع الأذى عنها، وترفق بها، هذا من الإحسان إلى البهائم.

حتى المستحق للقتل لا تعذبه بل تقتله قتلة حسنة ومريحة، من وجب عليه القصاص، ومن وجب عليه الحدُّ، فإنه ينفذ فيه برفق لا تمثيل، ولا تعذيب، ولا صبر.

قال ﷺ: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبح**»[(١)]. في القصاص أو غير ذلك مما يلزم الحد.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٥) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

....

فإذا ذبحتم: أي ذبحتم الحيوانات المأكولة فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته، فتحسن حتىٰ للبهائم، وقد غفر الله للبغي من بني إسرائيل بسبب أنها سقت كلبًا رأته يلهث من العطش، فسقته فشكر الله لها فغفر الله لها ذنبها[(١)]. وهو ذنب عظيم، وهو البغاء؛ أي: الزنا؛ فغفر الله لها بسبب ذلك؛ لأنها أحسنت إلىٰ هذا البهيم العطشان.

فكيف بغير الكلب إذا أحسنت إلىٰ جائع من المسلمين أو حتىٰ من بني آدم، ولو كان كافرًا، إذا أحسنت إليه فإن الله -جل وعلا- يشكر لك ذلك الإحسان، قال تعالىٰ: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

النوع الثالث: وهو إتقان العمل، أي عمل تعمله يجب عليك أن تتقنه، لا ليقال: إن فلانًا يحسن كذا، وقد جاء في الحديث: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه**»[(٢)].

---

(١) انظر: ما أخرجه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٣٣٤) (٥٣١٣ و٥٣١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

والدليل من السنة: حديثُ جبريلَ المشهورُ عن عُمَرَ ﷺ، قال: «بينما نحنُ جلوسٌ عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر» [٤٨].

---

[٤٨] قد تقدم الكلام عن الإسلام والإيمان والإحسان، وأركان كل مرتبة، وذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أدلة كل مرتبة من القرآن، وهذا كله تقدَّم وانتهىٰ.

ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ دليل هذه المراتب من السنة، سنة الرسول ﷺ فذكر حديث جبريل، وأنه أتىٰ النبي ﷺ وهو مع أصحابه، أتاهم في صورة رجل، وجلس إلىٰ النبي ﷺ، وسأله عن الإسلام، والإيمان، والإحسان.

ثم سأله عن الساعة، وسأله عن أماراتها، هذا ما يسمىٰ بحديث جبريل أو حديث عمر، وهو حديث ورد من عدة طرق عن جماعة من الصحابة، فهو حديث صحيح.

وذكر الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ رواية عمر بن الخطاب(١) في هذا الحديث مع اختلاف في ألفاظ الحديث في طرق أخرىٰ ولكن المعنىٰ واحد.

قال: «بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ» كان من عادتهم رضي الله عنهم أنهم يجتمعون عند النبي ﷺ في المسجد، ويتلقون عنه العلم، ويستمعون إلىٰ أجوبته ﷺ علىٰ ما يرده من الأسئلة؛ فبينما هم كذلك علىٰ عادتهم إذ دخل عليهم رجل من الباب، رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، أي: أن جبريل عليه السلام تمثل في صورة هذا الرجل، ولم يأتهم بصورته الملكية؛ لأنهم لا يطيقون النظر إليه في صورته الملكية.

---

(١) أخرجها مسلم (٨)، وانظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب (١/ ٩٣) الحديث الثاني.

لا يُرىٰ عليه أثرُ السَّفَر ولا يعرفُه منَّا أحدٌ، حتىٰ جَلَس إلىٰ النبي ﷺ فأسندَ رُكبَتَيه إلىٰ رُكبتَيه، ووضَعَ كفَّيه علىٰ فَخِذَيه، وقال: يا محمدُ أخبرني عن الإسلام [٤٩].

---

[٤٩] لا يُرىٰ عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا -أي: من الحاضرين- أحد: فهذا من العجائب، أنه ليس قادمًا من سفر حتىٰ يقال: إنه من غير أهل المدينة وهم لا يعرفونه، وهو ليس من أهل البلد حتىٰ يعرفوه، فتحيروا في شأنه، لا هو قادم، ولا هو من أهل البلد، لو كان قادمًا من سفر لظهر عليه أثر السفر في ثيابه، وفي لونه؛ لأن المسافر تظهر عليه آثار السفر، فلا يعرفه أحد من الحاضرين، فليس هو من أهل البلد، وليس هو قادم من سفر، فمن أين يكون هذا الرجل؟ هذا الذي استغربوه.

فجلس إلىٰ النبي ﷺ: بين يديه جلوس المتعلِّم من معلِّمه.

وأسند ركبتيه إلىٰ ركبتي النبي ﷺ: أي: أنه قريب منه جدًّا.

ووضع يديه علىٰ فخذيه: أي: فخذي النبي ﷺ.

فقال يا محمد: خاطبه باسمه، ولم يقل: يا رسول الله، ولعله فعل ذلك عليه السلام من أجل أن يظن الصحابة أنه من أهل البادية؛ لأن من عادة أهل البادية أنهم يخاطبون النبي ﷺ باسمه؛ لأن أهل البداية علىٰ طبيعتهم وعادتهم، وهو زيادة في الإغراب والتعمية حتىٰ لا يعرفوه.

قال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، أي: اشرح لي معنىٰ الإسلام.

قال: أن تشهدَ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ، وتقيمَ الصلاة، وتؤتي الزكاةَ، وتصومَ رمضان، وتَحجَّ البيتَ إن استطعت إليه سبيلًا. فقال: صدقت. فعجبنا له يسألُهُ ويُصَدِّقُهُ [٥٠].

قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه. قال: صدقت [٥١].

---

[٥٠] قال: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا**».

ذكر له النبي ﷺ أركان الإسلام، التي لابد منها، والتي إن تحققت ووُجِدت تحقق الإسلام، وما زاد عليها من الأمور الأخرىٰ فهي مكملات.

فالرسول ﷺ اقتصر علىٰ بيان أركان الإسلام؛ لأن الجواب كلما كان مختصرًا كان أسهل علىٰ المتعلِّم والسامع، وسهل عليه حفظه ووعيه، بينما لو طوِّل الجوابُ تشعب علىٰ الحاضرين، وربما أن أكثرهم لا يستوعبه، فهذا دليل علىٰ أن المسئول ينبغي أن يتوخَّىٰ الاختصار مهما استطاع، ويقتصر علىٰ الشيء الضروري، وإلا فالإسلام أكثر من ذلك. هذه أركانه ودعائمه التي يقوم عليها.

قال: «**صدقت**»: هذه عجيبة ثانية.

قال: «فعجبنا له يسأله ويصدقه». فدل علىٰ أنه عالـمٌ، وأنه لا يسأل سؤال جاهل، وإنما يسأل وهو عالـم، بدليل أنه قال: صدقت، فدل علىٰ أنه عالـم، فلماذا يسأل؟!

[٥١] قال: «**أخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**». فذكر له ﷺ أركان الإيمان الستة بعدما ذكر له أركان الإسلام.

قال: أخبرني عن الإحسان. قال: **أن تعبُدَ الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراهُ، فإنَّه يراك**. قال: فأخبرني عن الساعة. قال: **ما المسئول عنها بأعلَمَ من السائل**[٥٢].

والإسلام والإيمان إذا ذكرا جميعًا فالإسلام معناه الأعمال الظاهرة، والإيمان هو الأعمال الباطنة، أعمال القلوب، وما يقوم به من التصديق والعلم، ولابد من الإسلام والإيمان جميعًا، الإسلام: الأعمال الظاهرة، والإيمان: الأعمال الباطنة؛ لقولهﷺ: «**الإسلام علانية، والإيمان في القلب**»(١).

فإن ذكرا جميعًا صار لكل واحد معنًىٰ خاصٌّ به، وإذا ذكر واحد منهما دخل فيه الآخر، إذا ذكر الإيمان وحده دخل فيه الإسلام، وإذا ذكر الإسلام وحدَه دخل فيه الإيمان؛ لأنه لا يصح إسلام بدون إيمان، ولا يصح إيمان بدون إسلام لابد من الاثنين، فهما متلازمان، ولهذا يقولون: إن الإسلام والإيمان من الأسماء التي إذا اجتمعت افترقت، وإذا انفردت اجتمعت، أي: يدخل بعضها في بعض لأنهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر.

فسأله عن الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة، وبيَّن لهﷺ أركان كلٍّ من الإسلام والإيمان.

[٥٢] قال: «**فأخبرني عن الإحسان. قال: أن تعبد الله**». سبق أن المحسن هو من يعبد الله علىٰ المشاهدة واليقين كأنه يرىٰ الله، أو يعبده علىٰ المراقبة، وهو يعلم أن الله يراه فيحسن العمل؛ لأن الله مطلع عليه، فالمحسن يعبد الله إما علىٰ المشاهدة

---

(١) أخرجه أحمد (١٩/ ٣٧٤) (١٢٣٨١) من حديث أنس رضي الله عنه.

....

في القلب وهذا أكمل، وإما على المراقبة، وأن يعلم أن الله يراه في أي مكان، أو في أي عمل يعمله، هذا هو الإحسان.

قال: «**صدقت. فأخبرني عن الساعة**». أي: عن قيام الساعة متى؟ ولما كان هذا السؤال لا يعلم أحد الجواب عنه إلا الله ﷻ؛ لأن قيام الساعة لا يعلم تحديده إلا الله ﷻ.

نحن نعلم أنها ستقوم الساعة لا نشك في هذا، من شكَّ في هذا فهو كافر، نعلم أنها ستقوم الساعة ولابد، ولكن الوقت الذي تقوم فيه الساعة الله ﷻ لم يخبرنا عنه، ولم يبينه لنا، واستأثر بعلمه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [لقمان:٣٤].

وقال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾ [الأعراف:١٨٧]. هو الذي يعلمها سبحانه.

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ﴾ [الأنعام:٥٩]. ومنها وقت قيام الساعة.

قال ﷺ لجبريل: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**». أي: أنا وأنت سواء لا نعلم متى تقوم الساعة، الله -جل وعلا- لم يُطلع على هذا لا الملائكة، ولا الرسل، ولا أحدًا؛ بل استأثر بعلمها ﷻ.

قال: فأخبرني عن أماراتها. **قال: أن تَلِدَ الأمةُ ربَّتَها** [٥٣].
وأن تَرَىٰ الحُفاةَ العراةَ العالَةَ رعاءَ الشاءِ يتطاولُونَ في البُنيان [٥٤].

---

[٥٣] قال: «**أخبرني عن أماراتها**». الأمارات: جمع أمارة وهي العلامة، أما الإمارة -بالكسر- فهي: الولاية.

«**أخبرني عن أماراتها**». أي: العلامات التي تدل علىٰ قرب قيامها.

نعم؛ الساعة لها أمارات، وقد بينها الله ﷻ، منها أمارات صغيرة، ومنها علامات كبيرة، ومنها متوسطة، ومنها علامات مقاربة للساعة، تكون عند قيام الساعة، تكون قريبًا من قيامها، أما العلامات الأخرىٰ فإنها متقدمة.

العلماء يقولون: علامات الساعة علىٰ ثلاثة أنواع؛ هي: علامات صغيرة ومتقدمة، وعلامات متوسطة، وعلامات كبيرة.

العلامات الصغيرة، والعلامات المتوسطة كلها حصلت، أو حصل معظمها، أما العلامات الكبار، ظهور الدجال، ونزول عيسىٰ ؑ، وخروج الدابة، وخروج يأجوج ومأجوج فهذه تكون عند قيام الساعة وتتتابع.

قال: «**أخبرني عن أماراتها**». ولما كانت أماراتها معلومة أجابه الرسول ﷺ قال: «**أن تلد الأمة ربتها**». هذا من علامات الساعة، الأمة هي المملوكة، وربتها: سيدتها.

[٥٤] قال الشراح: معناه، والله أعلم، أنه في آخر الزمان يكثر التسري، يعني: يكثر وطء الإماء، أي: المملوكات فيلدن بنات، تكون بنتها حرة، وتكون سيدة لأمها ومالكة لها، وقيل: معناه أنه يكثر العقوق فتكون البنت كأنها سيدة لأمها.

وأن ترىٰ الحفاة: هذه علامة ثانية.

قال: فمضىٰ، فلبثنا مليًّا. فقال: يا عُمَرُ أتدري مَنِ السائلُ؟ قلت: الله ورسوله أعلمُ. قال: هذا جبريل أتاكُم يعلِّمكم أمر دينكم» [٥٥].

الحفاة: الذين ليس لهم نعال من الفقر والفاقة.

العراة: الذين ليس لهم لباس.

العالة: الفقراء.

رعاء الشاء: جمع راعٍ الذين يرعون الأغنام، هؤلاء كانوا في الأصل في البراري في بيوت ينتقلون من محل إلىٰ آخر، وفي آخر الزمان يستوطنون في المدن، ويبنون القصور، والعمارات الشاهقة، هذا من علامات الساعة، إذا تحولت البادية إلىٰ حاضرة، وصاروا يتطاولون في المباني، ويتباهون بها، وينمقونها، وهم ليس من عادتهم يتحولون إلىٰ أغنياء إلىٰ أصحاب ثروة وأصحاب مظاهر، هذا من علامات الساعة.

وكما تعلمون فإن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوىٰ، كما تعلمون الآن كيف حال الناس، لقد تغيرت الأحوال وتحول الفقراء إلىٰ أغنياء أصحاب ثروات، وتحضرت البادية، وبنوا وتطاولوا في البنيان، وهذا مصداق ما قاله رسول الله ﷺ.

[٥٥] قال: «ثم خرج ولبثنا مليًّا»: يعني وقتًا قصيرًا.

فقال النبي ﷺ: «**يا عمر! أتدري من السائل؟**». أو «**تدرون من السائل؟**» وفي رواية أن النبي ﷺ قال: «**علي بالرجل**»(١). فطلبوه فلم يقدروا عليه.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٥/ ٣٨٠) (٥٨٥٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنه، وابن حبان (١٧٣)، والدارقطني (٣/ ٣٤١) (٢٧٠٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

....

قال: «**هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم**». هذا الذي دخل وسأل هذه الأسئلة هو جبريل ، وجاء في صورة رجل كما وصف لغرض تعليم الحاضرين أمور دينهم علىٰ طريق السؤال والجواب.

فدل هذا الحديث علىٰ مسائل عظيمة:

الأولىٰ: أن الدين ينقسم إلىٰ ثلاث مراتب: الإسلام، والإيمان، والإحسان، كل مرتبة أعلىٰ من التي قبلها، وأن كل مرتبة لها أركان، أركان الإسلام، وأركان الإيمان، والإحسان ركن واحد.

الثانية: فيه التعليم بطريق السؤال والجواب، وهذه طريقة تعليمية ناجحة؛ لأنها أدعىٰ للانتباه وتلقي العلم كونه يسأل ويتهيأ ذهنه، يتطلب الجواب، ثم يلقىٰ عليه الجواب، وهو يتطلع إليه، يكون هذا أثبت.

الثالثة: في الحديث دليل علىٰ أن من سأل عن علم وهو لا يدري، عليه أن يقول: الله ورسوله أعلم، يكل العلم إلىٰ عالمه فلا يتكلم بالجواب، وهو لا يعرفه ويتخرص، هذا لا يجوز، والرسول ﷺ لما سُئل عن الساعة قال: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**». ولما قال للصحابة: «**أتدرون من السائل؟**». وهم لا يعرفونه. قالوا: الله ورسوله أعلم.

فدل ذلك علىٰ أن مسائل الشرع ومسائل الدين لا يجوز التخرص فيها، لأن هذا من التكلف؛ ولكن من كان عنده علم فإنه يجيب، ومن ليس عنده علم يقول: الله أعلم، ومن قال: لا أدري، فقد أجاب.

....

قد سئل الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أربعين مسالة فأجاب عن ست منها، وقال في الباقية: لا أدري. فقال له السائل: أنا جئت من كذا وكذا وسافرت وأتعبت راحلتي وتقول: لا أدري. قال: اركب راحلتك، واذهب إلىٰ البلد الذي جئت منه، وقل: سألت مالكًا فقال: لا أدري. هذا ليس عيبًا أن الإنسان إذا كان لا يعرف الجواب في الأمور الشرعية أنه يقول: لا أدري ولو كان عالمًا، الرسول ﷺ قال: «**ما المسئول عنها بأعلم من السائل**».

وكان ﷺ إذا سئل في بعض الأسئلة، ولم يكن عنده وحي من الله ﷻ انتظر حتىٰ ينزل الوحي من الله ﷻ ألستم تقرءون: يسألونك عن كذا، يسألونك عن كذا، قل: كذا.

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ ﴾ [البقرة:٢١٩].

﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة:١٨٩].

فالرسول ﷺ كان إذا سئل ولم يكن عنده جواب ينتظر حتىٰ ينزل عليه الوحي من الله، وكذلك غيره من باب أولىٰ، ينتظر حتىٰ يسأل غيره، أو يبحث عن المسألة في كتب أهل العلم؛ ليتحصل علىٰ جواب، أما أن يستعجل فهذا فيه خطورة عظيمة، وفيه سوء أدب مع الله ﷻ؛ لأن الذي يجيب، يجيب عن شرع الله، يقول: الله أحل كذا أو حرم كذا، أو شرع كذا، فالأمر فيه خطورة جدًّا.

المسألة الرابعة: في الحديث دليل علىٰ آداب المتعلم، جبريل، وهو سيد الملائكة يجلس بين يدي الرسول ﷺ، وهو يسند ركبتيه إلىٰ ركبتَي الرسول ﷺ، ويضع يديه علىٰ فخذيه يسأل بأدب، هذا من أجل أن يعلم الناس كيف يتأدبون مع العلماء.

....

هذا بعض ما يدل عليه الحديث وفيه:

مسألة خامسة: وهي بيان بعض علامات الساعة، ذكر علامتين: أن تلد الأمة ربتها، وبعض العلماء يقول: معنىٰ أن تلد الأمة ربتها أنه يكثر العقوق في آخر الزمان حتىٰ تصبح البنت كأنها سيدة علىٰ والدتها تأمرها وتنهاها وتغلظ عليها.

الأصل الثالث: معرفة نبينا محمدﷺ

اسمه، ونسبه، ونشأته:

الأصل الثالث: معرفةُ نبيِّكُم محمدﷺ [٥٦].

---

[٥٦] قوله: «الأصل الثالث»: أي من الأصول الثلاثة، لأن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر في أول الرسالة أنه يجب علىٰ كل مسلم ومسلمة معرفة هذه الأصول الثلاثة، وهي: معرفة الله، ومعرفة دين الإسلام، ومعرفة نبيه محمدﷺ بالأدلة.

أما الأصل الأول والثاني؛ فقد تقدم شرحهما وبيان أدلتهما.

الأصل الثالث: وهو معرفة النبيﷺ، لما كان النبيﷺ واسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه ورسالته، وجب معرفته -عليه الصلاة والسلام-، وإلا كيف تتبع شخصًا لا تعرفه فلابد أن تعرفه من حيث الاسم، ومن حيث البلد الذي ولد ونشأ فيه، والبلد الذي هاجر إليه، وتعرف مدة عمره -عليه الصلاة والسلام-.

وأقسام عمره -عليه الصلاة والسلام-، وأقسام المدة التي أقامها في هذه الدنيا، تعرفها أيضًا قبل النبوة وبعدها، وقبل الهجرة وبعد الهجرة، تعرف كيف ابتدئ بالوحي -عليه الصلاة والسلام- ومتىٰ ابتدئ بالوحي، وما هي الآية التي تدل علىٰ نبوته، والآية التي تدل علىٰ رسالته، تأتي بالآيات التي تدل علىٰ نبوته، والآيات التي تدل علىٰ إرساله، فلابد أن تعرف هذا، تعرف نسبه من أي قبيلة؛

وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم من قريش، وقريشٌ من العرب، والعرَبُ من ذُرِّيَّة إسماعيل بن إبراهيمَ الخليل -عليه وعلىٰ نبيِّنا أفضلُ الصلاة والسلام- [٥٧].

لأن العرب قبائل، وهو عربي بلا شك، فلابد من معرفة هذه الأشياء عن الرسول ﷺ بأن تدرس الآيات والأحاديث المتعلقة بهذه المسائل، وتنظر في سيرة الرسول ﷺ ودعوته لأجل أن تعرف هذه الأمور عن نبيك الذي أنت مأمور باتباعه، والاقتداء به.

[٥٧] هذا اسمه، ونسبه، اسمه محمد -عليه الصلاة والسلام-، وله أسماء غير محمد، لكن أشهر أسمائه محمد، قد ذكر الله ذلك في القرآن في عدة آيات: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح:٢٩].

وقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران:١٤٤].

وقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب:٤٠].

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد:٢]. فذكر الله اسمه محمدًا في عدة آيات.

ومن أسمائه أحمد، قد ذكره الله في قوله في بشارة المسيح عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف:٦].

فهو محمد، وأحمد، ومعنىٰ ذلك أنه كثير المحامد -عليه الصلاة والسلام-، وكثير الصفات التي يُحمد عليها، ومن أسمائه نبي الرحمة، ونبي الملحمة، يعني الجهاد في سبيل الله، والحاشر، والعاقب -عليه الصلاة والسلام- الذي يحشر الناس بعد بعثته؛ لأنه آخر الرسل ﷺ، فليس بعده إلا قيام الساعة.

....

فبعد رسالته تقوم الساعة، ويُحشر الناس للجزاء والحساب، ومن أراد أن يلم بهذه الأمور فليرجع إلىٰ كتاب «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام علىٰ خير الأنام» للإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

وأما نسبه: فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصي بن كلاب.

وهو من قبيلة قريش التي هي أشرف القبائل، وقريش من ذرية إسماعيل -عليه الصلاة والسلام-، والعرب علىٰ قسمين في المشهور:

العرب العاربة، وهم: القحطانية.

والعرب المستعربة، وهم: العدنانية من ذرية إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ابن إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ. سموا بالمستعربة؛ لأنهم تعلموا العربية من العرب العاربة، لما جاءت جُرْهم، ونزلوا في مكة عند هاجر أم إسماعيل، وابنها إسماعيل -وهو صغير-، لما وجدوا ماء زمزم نزلوا، واصطلحوا مع هاجر أن ينزلوا عندها، وأن تسمح لهم أن يستقوا من الماء.

فإسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ كان رضيعًا في ذلك الوقت، ثم إنه تربىٰ ونشأ وأخذ العربية عن جُرْهُم وهي من العرب العاربة، وتزوج من جُرهم، وجاءه ذرية تعلموا العربية، ونشئوا مع العرب، فصاروا عربًا مستعربة وهي العدنانية.

أما العاربة، فهم القحطانية، أصلها من اليمن.

وبعض العلماء يقول: العرب العاربة علىٰ قسمين: عرب بائدة وعرب باقية، العرب البائدة هم الذين هلكوا، وهم قوم نوح، وعاد، وثمود، وشعيب.

....

أما العرب الباقية فهم الذين ينقسمون إلىٰ عرب عاربة، وعرب مستعربة، وهي العرب الباقية، والنبي من بني هاشم، وهاشم من ذرية إسماعيل -عليه الصلاة والسلام-، واسمه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب.

وعبد المطلب ليس هذا اسمه، اسمه شيبة، ولكن سمي عبد المطلب؛ لأن عمه المطلب بن عبد مناف جاء به من المدينة وهو صغير من عند أخواله بني النجار، فلما رآه الناس أسود من السفر ظنوا أنه عبد مملوك للمطلب، فقالوا: عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وعبد مناف له أربعة أولاد: هاشم جد الرسول ﷺ، والمطلب، وعبد شمس، ونوفل.

بنو هاشم يقال لهم: الهاشميون، وبنو المطلب يقال لهم: المطلبيون، وأما عبد شمس، فمنهم عثمان ﷺ، ومنهم بنو أمية هؤلاء من بني عبد شمس.

ونوفل كذلك له ذرية منهم: جبير بن مطعم، وحكيم بن حزام.

وإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- له إسماعيل وهو الأكبر، وهو جد العرب العدنانية، وإسحاق وهو جد بني إسرائيل، وجميع الأنبياء كلهم من ذرية إسحاق إلا نبينا -عليه الصلاة والسلام-، فهو من ذرية إسماعيل خاتم النبيين.

أما مولده: فقد ولد ﷺ عام الفيل، وهو العام الذي جاء فيه أبرهة ملك اليمن، انتدبه ملك الحبشة؛ ليهدم الكعبة، ومعه فيل عظيم، فلما وصل إلىٰ مكان يقال له: المغمس، ولم يبق إلا أن يدخل مكة، ويهدم الكعبة، وتفرق أهل مكة، وصعدوا الجبال؛ لأنهم لا طاقة لهم به، فأراد أن يتوجه إلىٰ الكعبة، فانحبس الفيل، وأبىٰ أن يقوم من الأرض، حبسه الله.

وله من العُمُر ثلاثٌ وستُّونَ سنة، أربُعونَ قبلَ النُّبُوةِ، وثلاثٌ وعشرونَ نبيًّا رسُولًا، نُبِّئَ بـ: ﴿اقْرَأْ﴾ [٥٨].

فإذا وجهه إلىٰ غير جهة مكة قام وهرول، وإذا وجهه إلىٰ جهة مكة انحبس، ولم يستطع المشي، وبينما هم كذلك رأوا فرقان طير من قِبَل البحر معها حجارة، كل طائر معه حجران: حجر في منقاره وحجر في رجليه، فرمتهم فصارت الحصاة تضرب هامة الرجل فتخرج من دبره وتشقه نصفين، فأهلكهم الله ﷻ.

فأنزل الله في ذلك يذكِّر قريشًا سورة الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ من جهنم، والعياذ بالله ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ﴾ [الفيل:١-٥]. أصبحوا مثل التبن الذي أكلته الدواب وراثته.

هذه قصة الفيل حمىٰ الله بيته الحرام، وأهلك هذا الجبار، وفي هذا العام ولد محمد ﷺ، وظهر مع ولادته آيات، حيث ظهر معه نور أشرقت له قصور الشام، وفي ليلة ولادته ارتجت الأصنام، وارتج إيوان كسرىٰ، وسقطت منه شرفات، في ليلة ولادة النبي ﷺ هذه إرهاصات لبعثة النبي ﷺ، والجن والشياطين حصل عندهم ضجة في الليلة العظيمة.

ولد في مكان يقال له: شعب علىٰ مقربة من الكعبة، ولد في مكة لكن لا يوجد تحديد ثابت لموضع الدار.

[٥٨] فهو ولد في مكة ﷺ، واستُرضع في بني سعد عند حليمة السعدية، ومات عبد الله أبوه، وهو في بطن أمه، ثم ماتت أمه بعد ولادته بقليل، فحضنته أم أيمن الحبشية التي ورثها عن أبيه، وصار في كفالة جده عبد المطلب.

....

ثم مات عبد المطلب، وانتقلت كفالته إلىٰ عمه أبي طالب، وعاش ﷺ أربعين سنة قبل النبوة معروفًا بالأمانة، والصدق، والكرم، وتجنب عبادة الأصنام، وتجنب شرب الخمر، ما كان يعمل ما يعمله أهل الجاهلية؛ بل كان -عليه الصلاة والسلام- يخرج إلىٰ غار حراء، ويتعبد فيه الأيام ذات العدد، يعبد الله علىٰ ملة إبراهيم علىٰ التوحيد.

ثم لما بلغ الأربعين من عمره -عليه الصلاة والسلام- نزل عليه الوحي بأن جاءه جبريل وهو في غار حراء وقال له: «اقرأ، قال: **ما أنا بقارئ**. -أي: لا أحسن القراءة-، فضمه ضمة شديدة ثم أرسله وقال: اقرأ. قال: **ما أنا بقارئ**، ثم ضمه مرة ثانية، ثم أرسله وقال له: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. فقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ [العلق:١-٢]».

هذه هي نبوته ﷺ نبأه الله باقرأ، أي: جعله نبيًّا بذلك، ثم ذهب إلىٰ بيته يرتجف من الخوف؛ لأنه لقي شيئًا ما كان يعرفه من قبل، أمرًا هائلًا، فوجد زوجه خديجة رضي الله عنها فغطته وهدأته، وقالت له: كلا، والله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكَلَّ، وتعين علىٰ نوائب الدهر، فوطأته وذهبت به إلىٰ ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان قد تحنث وقرأ في الكتب السابقة تعبدًا لله عز وجل فلما أخبره بما رأىٰ قال: هذا هو الناموس الذي كان ينزل علىٰ موسىٰ يعني: جبريل -عليه الصلاة والسلام-.

نزول الوحي عليه

وأرسِلَ بـ: «المدثِّر»، وبلدُهُ مكَّة، وهاجَرَ إلىٰ المدينة، بعثه الله بالنِّذارة عن الشِّرك، ويدعو إلىٰ التوحيد، والدليلُ قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر:١-٧] [٥٩].

---

[٥٩] ثم نزل عليه قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ هذا هو الإرسال، وهذا معنىٰ قول الشيخ: نبأه: اقرأ، وأرسله: بالمدثر.

والفرق بين النبي والرسول: أن النبي هو من أوحي إليه بشرع، ولم يؤمر بتبليغه، والرسول هو من أوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه، وتوضيح ذلك أن الرسول تنزل عليه شريعة وكتاب، فهو نُبئ بـ: اقرأ، وأُرسل: بـ: المدثر علىٰ رأس الأربعين، وكذلك الأنبياء، والنبي يبعث بشرع من قبله وكتاب من قبله، ويوحىٰ إليه ببعض المسائل كأنبياء بني إسرائيل من بعد موسىٰ.

والمدثر معناه: الملتحف لأنه ﷺ أصابه شيء من الفزع فقال: «دثروني دثروني»، أي: غطوني، فأنزل الله عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: عظِّمْهُ ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: طهِّرْ أعمالك من الشرك، فالأعمال تسمىٰ الثياب، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾[الأعراف:٢٦] . سمَّىٰ التقوىٰ لباسًا.

﴿وَٱلرُّجْزَ﴾: الرجز معناه الأصنام.

﴿فَٱهْجُرْ﴾ أي: اتركها وابتعد عنها.

فبعثه الله علىٰ رأس الأربعين، وبقي في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو الناس إلىٰ التوحيد وترك عبادة الأصنام، وحصلت مداولات بينه وبين المشركين، حصل عليه أذىٰ وعلىٰ من آمن به واتبعه، وحصلت مضايقات من المشركين في خلال ثلاث عشرة سنة، وقبل الهجرة بثلاث سنوات أسري به إلىٰ بيت المقدس، وعُرج به إلىٰ السماء، وفرضت عليه الصلوات الخمس، فصلّىٰ بمكة ثلاث سنين، ثم تآمرت قريش علىٰ قتله وعلىٰ الفتك به، فأذن الله له بالهجرة إلىٰ المدينة، فهاجر إلىٰ المدينة، بعدما التقىٰ بالأنصار في بيعة العقبة الأولىٰ، وبيعة العقبة الثانية.

هاجر إلىٰ المدينة، وأقام بها عشر سنوات، فالمجموع ثلاث وعشرون سنة، بعد النبوة عاش ﷺ ثلاثًا وعشرين سنة ثلاث عشرة في مكة يؤسس دعوة التوحيد، وعشر سنوات في المدينة، ثم توفاه الله علىٰ رأس الثالثة والستين من عمره -عليه الصلاة والسلام-، فمدة عمره في الرسالة ثلاث وعشرون سنة، وهذه البركة التي أنزلها الله عَزَّ وَجَلَّ عليه، وهذا العلم الغزير، وهذا الجهاد، وهذا التمكين في هذه المدة الوجيزة ثلاث وعشرين سنة هذا من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ومن بركات هذا النبي ﷺ، وبركات دعوته، وبركات الوحي الذي أنزل إليه، وقبل هذا كله بإعانة الله عَزَّ وَجَلَّ ، وهو الذي أعانه، وهو الذي حماه وأيده ونصره حتىٰ بلغت دعوته المشارق والمغارب، والحمد لله رب العالمين.

....

قوله: «بعثة الله بالنذارة عن الشرك، ويدعو إلىٰ التوحيد»: هذه دعوته ﷺ، النذارة عن الشرك، والدعوة إلىٰ التوحيد، وهذا الذي يجب أن يسير عليه الدعاة في دعوتهم أن يركزوا علىٰ الإنذار عن الشرك والدعوة إلىٰ التوحيد قبل كل شيء، وإلا لم تكن دعوتهم علىٰ منهج الرسول ﷺ.

الرسول ﷺ بعثه الله بالنذارة عن الشرك والدعوة إلىٰ التوحيد، فلابد من تأصيل هذا الشيء أولًا ثم بعد ذلك يتجه إلىٰ بقية الأمور؛ لأنها لا تصلح الأمور إلا بوجود التوحيد، لو أن الناس تركوا الزنا، والخمر، والسرقة، واتصفوا بكل فضيلة من الأعمال والأخلاق لكنهم لم يتركوا الشرك فلا فائدة من هذه الأمور، ولا تنفعهم، بينما لو سَلِمَ الإنسان من الشرك وعنده كبائر دون الشرك فهو مرجو أن يغفر الله له أو يعذب بقدر ذنوبه؛ ولكن مآله إلىٰ الجنة؛ لأنه موحد.

فالتوحيد هو الأصل والأساس، ولا نجاة إلا بوجود التوحيد أولًا؛ ولذلك يجب التركيز عليه، والعناية به دائمًا وأبدًا، ودعوة الناس إليه، وتعليم الناس إياه، وأن يبين لهم ما معنىٰ التوحيد، وما معنىٰ الشرك، لابد أن يعرف المسلم هذا الأمر ويتحقق منه، ويتفقد نفسه حتىٰ لا يقع في شيء من الشرك أو يخل بالتوحيد، فلابد من هذا الأمر، ولابد أن تقوم الدعوة علىٰ هذا الأساس.

مدة الدعوة في مكة

أخذَ علىٰ هذا عشر سنين يدعُو إلىٰ التوحيد [٦٠].

---

[٦٠] قوله: «أخذ علىٰ هذا عشر سنين يدعو إلىٰ التوحيد». أي: أخذ علىٰ دعوة الناس إلىٰ التوحيد والإنذار عن الشرك عشر سنين في مكة، وهو يدعو إلىٰ التوحيد، وينهىٰ عن الشرك؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام، والحكمة أن الله بعثه في مكة؛ لأن مكة هي أم القرىٰ التي ترجع إليها القرىٰ، والله -جل وعلا- يقول: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص:٥٩]. والأم هي المرجع الذي يُرجع إليه، والأصل الذي يُرجع إليه، هذا هو الأم.

قوله تعالىٰ: ﴿هُنَّ أُمُّ﴾ [آل عمران:٧]. أي: الأصل الذي ترد إليه الآيات المتشابهات.

كذلك مكة -شرفها الله- هي الأصل الذي يرجع إليه أهل الأرض، والمسلمون في أقطار الأرض يرجعون إلىٰ مكة، فهي أم القرىٰ؛ بمعنىٰ هي المرجع، ولذلك بعث الله نبيهﷺ من مكة؛ لأنها أم القرىٰ، ومكث فيها ثلاث عشرة سنة، ينهىٰ أهل مكة عن الشرك، ويأمرهم بالتوحيد؛ لأن أهل مكة هم القدوة لغيرهم، ولهذا يجب أن تبقىٰ مكة إلىٰ قيام الساعة دارًا للتوحيد، ومنارًا للدعوة إلىٰ الله، وأن يبعد عنها كل ما يخالف ذلك، يبعد عنها الشرك والبدع والخرافات؛ لأن الناس ينظرون إليها دائمًا وأبدًا، ما يفعل فيها ينتشر في العالم، فإن كان ما يفعل فيها خير انتشر الخير، وإن كان علىٰ عكس ذلك انتشر الشر.

الإسراء والمعراج

وبعدَ العشر عُرِجَ به إلىٰ السماء، وفُرضت عليه الصلوات الخمس، وصلَّىٰ في مكَّة ثلاثَ سنين [٦١].

فيجب أن تطهر مكة دائمًا وأبدًا، ولهذا يقول -جل وعلا-: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة:١٢٥]. فيجب أن تطهر مكة من كل ما يخالف الإسلام حتىٰ يصدر منها الدين والدعوة إلىٰ مشارق الأرض ومغاربها؛ لأن الله بعث نبيه فيها، وبدأ دعوته فيها -عليه الصلاة والسلام-، مكث النبي ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة منها عشر يدعو إلىٰ التوحيد، وينهىٰ عن الشرك، ولم يؤمر بشيء غير ذلك، لم يؤمر بصلاة، ولا زكاة، ولا صيام، ولا حج؛ بل كانت دعوته مقتصرة علىٰ التحذير من الشرك والأمر بالتوحيد، يقول لهم: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وهم يقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص:٥].

[٦١] قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وبعد العشر عرج به إلىٰ السماء**» بقي ﷺ عشر سنين علىٰ هذا ينهىٰ عن الشرك، ويدعو إلىٰ التوحيد، يؤسس هذا الأساس، ثم في السنة الحادية عشرة أسري به من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ.

....

قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١]. بينما هو ﷺ نائم في بيت أم هانئ جاءه جبريل -عليه الصلاة والسلام-، ومعه دابة يقال لها: البراق، أقل من البغل، وفوق الحمار، ويقع خطوه عند مد بصره، فأُركب عليه السلام عليها، وذُهب به إلىٰ بيت المقدس في الليل.

أسرىٰ، من السرىٰ، وهو السير بالليل، وهذا من خواصه ﷺ ومن معجزاته -عليه الصلاة والسلام-، فالتقىٰ هناك مع الأنبياء في بيت المقدس، ثم إنه ﷺ عُرج إلىٰ السماء يعني رُفع من بيت المقدس إلىٰ السماء بصحبة جبريل، ومعنىٰ العروج: الصعود.

فأسري به من مكة إلىٰ بيت المقدس، وعُرج به من بيت المقدس إلىٰ السماء، يعني صَعِدَ به جبريل عليه السلام ومر بأهل السموات، كل سماء يستفتح جبريل فيفتح له، ثم انتهىٰ إلىٰ السماء السابعة.

ثم صعد فوق السموات إلىٰ سدرة المنتهىٰ، وعندها كلمه الله من وحيه بما شاء ففرض عليه الصلوات الخمس، فرضها في اليوم والليلة خمسين صلاة؛ ولكن موسىٰ عليه السلام أشار علىٰ نبينا محمد ﷺ بأن يسأل ربه التخفيف، فإن أمته لا تطيق خمسين صلاة في اليوم والليلة، فما زال رسول الله ﷺ يراجع ربه يسأله التخفيف حتىٰ انتهت إلىٰ خمس.

فقال الله عز وجل، كما في حديث الإسراء والمعراج: **«أمضيت فريضتي، وخفَّفْتُ عن عبادي، وأجزي الحسنة عشرًا»**(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧) و(٣٨٨٧) من حديث مالك بن صعصعة، وهو حديث طويل فيه قصة المعراج.

....

وفي رواية أنس عن أبي ذر فقال: «هي خمس، وهي خمسون»[١]. أي: خمس في العمل، وخمسون في الميزان.

خمس صلوات في اليوم والليلة تعادل خمسين صلاة في الميزان؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها، فالصلاة الواحدة عن عشر صلوات، فالإسراء ذُكر أول سورة سبحان، سورة بني إسرائيل، والمعراج ذكر أول سورة النجم: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم:١٣-١٨]. هذا في المعراج.

ثم إنه نزل من السماء إلىٰ بيت المقدس، ثم إنه رجع إلىٰ مكة في ليلته، فلما أصبح وأخبر الناس بذلك، المؤمنون زاد إيمانهم، وأما الكفار فزاد شرهم، وفرحوا بهذا، وراحوا يشهرون به، كيف يزعم صاحبكم أنه ذهب إلىٰ بيت المقدس ورجع منه في ليلة واحدة، ونحن نضرب أكباد الإبل إليها شهرًا ذهابًا، وشهرًا إيابًا، يقيسون قدرة الخالق بقدرة المخلوق، فكان الإسراء والمعراج امتحانًا من الله ﷻ للناس، المشركون زاد تندرهم وشرهم وتنقصهم للرسول ﷺ، والمؤمنون زاد إيمانهم.

فلهذا لما قال المشركون لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: انظر إلىٰ صاحبك ماذا قال؟

قال: وماذا قال؟

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩) من حديث أنس، عن أبي ذر رضي الله عنهما.

قالوا: يزعم أنه ذُهب به إلىٰ بيت المقدس وعُرِجَ به إلىٰ السماء، وإنه جاء في ليلة واحدة.

قال أبو بكر الصديق: إن كان قاله فهو كما قال. لقد صدق.

قالوا: كيف ذلك؟

قال: أنا أصدقه فيما هو أعظم من ذلك، أنا أصدقه في خبر السماء ينزل عليه، فكيف لا أصدقه في الإسراء إلىٰ بيت المقدس؟![1].

وهذا بقدرة الله ﷻ لا بقدرة الرسول ﷺ، إنما هو بقدرة الله ﷻ، وهذا من معجزات هذا الرسول ﷺ، ومن كرامته عند ربه ﷻ.

ولابد من الاعتقاد بأنه ﷺ أُسري وعُرج بروحه وجسمه معًا يقظة لا منامًا؛ لأن بعض الناس يقولون: أُسري بروحه، وأما جسده فلم يبرح مكة، وإنما أسري وعرج بروحه، وهذا كلام باطل؛ بل إنه أسري بروحه وجسده -عليه الصلاة والسلام-، وحُمل علىٰ البراق، وكان ذلك يقظة لا منامًا إذ لو كان بروحه فقط، أو كان منامًا فما الفرق بينه وبين الرؤيا، والله -جل وعلا- يقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء:١].

فالعبد يطلق علىٰ الروح والبدن جميعًا، لا يطلق علىٰ الروح وحدَها أنها عبد، ولا يطلق علىٰ البدن وحدَه أنه عبد، لا يطلق إلا علىٰ مجموع الروح والبدن، لم يقل: سبحان الذي أسرىٰ بروح عبده؛ بل قال: أسرىٰ بعبده، والعبد هو مجموع الروح والبدن، والله -جل وعلا- لا يعجزه شيء، وهو القادر علىٰ كل شيء.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٥) (٤٤٠٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وفرضت عليه الصلوات الخمس، وصلىٰ في مكة ثلاث سنين»**.

وكان يصليها ركعتين ركعتين، فلما هاجر النبي ﷺ أتمت الرباعية إلىٰ أربع إلا الفجر، فإنها تطول فيها القراءة فبقيت ركعتين كما هي، وإلا المغرب فإنه ثلاث من أول ما فرضت؛ لأنها وتر النهار، أما الظهر والعصر والعشاء، وكانت في مكة ركعتين ركعتين، فلما هاجر النبي ﷺ أتمت أربع ركعات.

كما في الحديث: «أول ما فرضت الصلاة ركعتين، فلما هاجر النبي ﷺ أتمت صلاة الحضر، وبقيت صلاة السفر»(١). هذا بإجماع أهل العلم، أن الصلاة فرضت بمكة، وأن النبي ﷺ صلاها بمكة، لكن اختلفوا: هل هي فرضت قبل الهجرة بثلاث سنين؟

هذا هو الراجح، كما ذكر الشيخ هنا، وقيل: قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل: قبل الهجرة بسنة واحدة، وقيل: بسنة ونصف؛ لكن الراجح هو ما ذكره الشيخ أنها قبل الهجرة بثلاث سنين.

وهل فرض مع الصلاة شيء آخر من أركان الإسلام؟ هذا محل خلاف بين العلماء، منهم من يرىٰ أن الزكاة فرضت أيضًا بمكة؛ وإنما بينت أنصبتها ومقاديرها وأهل الزكاة في المدينة، أما أصل فرضيتها فهو في مكة.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٤١]. والمراد

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٠)، ومسلم (٦٨٥) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

الهجرة إلى المدينة

وبعدَها أُمِرَ بالهجرة إلىٰ المدينة [٦٢].

بـ﴿حَقَّهُۥ﴾ هنا: الزكاة، والسورة مكية كلها، وكذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج:٢٤-٢٥].

أيضًا هذه السورة مكية، والمراد بالحق المعلوم: الزكاة، ففرض أصلها في مكة، لكن بينت تفاصيلها بالمدينة هذا قول.

والقول الثاني: وهو الذي يظهر من كلام الشيخ هنا أن الزكاة إنما فرضت في المدينة، ولم يفرض في مكة غير الركن الأول وهو التوحيد، والركن الثاني، وهو الصلاة، هذا ظاهر كلام الشيخ.

[٦٢] قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وبعدها أمر بالهجرة إلىٰ المدينة**». لما اشتد أذىٰ قريش، وزاد شرهم بالصد عن سبيل الله، ومضايقة المسلمين، وتعذيب من ليس له جماعة تحميه من مستضعفي المسلمين، أذن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للمسلمين بالهجرة إلىٰ الحبشة، الهجرة الأولىٰ؛ لأن فيها ملكًا لا يُظلم أحدٌ عنده، وكان نصرانيًا؛ ولكنه كان عادلًا، هاجر منهم نفر كثير، فلما علمت قريش بهجرتهم إلىٰ الحبشة، أرسلوا في طلبهم مندوبين من دهاة قريش أحدهما: عمرو بن العاص، ومعهما الهدايا للنجاشي، وقالوا: إن هؤلاء فروا منا، وهم أقاربنا نريد أن يرجعوا، وإنهم أشرار، لا يفسدون في بلدك ... إلخ.

....

وأعطوه الهدايا التي معهم ليغروه؛ ولكنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ استدعىٰ المهاجرين، وسمع منهم، وخيَّرهم فاختاروا البقاء في الحبشة، فرجع المندوبان خائبين، وبقي من بقي في الحبشة من المهاجرين.

ثم إن الله مَنَّ علىٰ النجاشي فأسلم، وحَسُنَ إسلامه، فلما توفي صَلَّىٰ عليه الرسول ﷺ هو وأصحابه صلاةَ الغائب، فكان في هجرتهم إليه خير له أيضًا هداه الله بسببهم فدخل في الإسلام.

ثم لقي النبي ﷺ نفرًا من الأنصار في منًىٰ في موسم الحج، وكان النبي ﷺ يعرض نفسه علىٰ القبائل في موسم الحج، يذهب إلىٰ منازل العرب في منىٰ ويدعوهم إلىٰ الله، وصادف أن لقي أناسًا من الأنصار فدعاهم إلىٰ الله فعرض عليهم ما عنده، فقبلوا من الرسول ﷺ دعوته، وبايعوه علىٰ الإسلام، ورجعوا إلىٰ قومهم من موسم الحج فدعوهم إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ ، فوافىٰ في الموسم الذي بعده أكثر من الموسم الأول.

جاء ناس من الأنصار وبايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة الثانية، أي: عند جمرة العقبة، بايعوه علىٰ الإسلام، وعلىٰ أن يناصروه إذا هاجر إليهم، وأن يحموه مما يحمون منه أنفسهم وأولادهم.

فعند ذلك -أي: بعد هذه البيعة المباركة- أمر النبي من كان في مكة من المسلمين بالهجرة إلىٰ المدينة، وهاجر من هاجر إلىٰ المدينة، وبقي الرسول وبعض أصحابه، ثم إن الله أذن لنبيه ﷺ بالهجرة.

....

فلما علمت قريش بهجرة الصحابة إلىٰ المدينة، وعلموا بالبيعة التي حصلت بينه وبين الأنصار، خافوا أن يلحق رسول الله ﷺ بأصحابه في المدينة، ويتكون له قوة، وتكون لهم منعة.

ففي هذه الليلة التي أراد النبي ﷺ أن يخرج إلىٰ الهجرة جاءوا وحاصروا البيت، ووقفوا عند الباب معهم أسلحتهم يريدون الفتك برسول الله ﷺ، فأخبر الله نبيه ﷺ، فأمر النبي ﷺ عليًّا أن ينام علىٰ فراشه حتىٰ يراه المشركون، ويظنون أنه النبي ﷺ، فنام علي رضي الله عنه علىٰ فراش رسول الله ﷺ فتغطىٰ بغطاء الرسول ﷺ، فصار المشركون ينتظرون خروجه علىٰ أنه الرسول ﷺ وخرج النبي ﷺ من بينهم، وهم لا يشعرون.

أعمىٰ الله بصائرهم عنه، وأخذ ترابًا وذرّه علىٰ رءوسهم، وخرج من بينهم، وذهب إلىٰ أبي بكر رضي الله عنه، وخرجا فذهبا إلىٰ غار ثور، فاختفيا فيه ثلاثة أيام، وقريش تطلب من الناس العثور عليه بأي وسيلة، حيًّا أو ميتًا.

فلم يئسوا من العثور عليه بعد البحث والتنقيب، أغروا بالجوائز من يأتي به ﷺ حيًّا أو ميتًا، فلما أيسوا خرج رسول الله ﷺ وصاحبه من الغار، وركبوا الرواحل، وذهبوا إلىٰ المدينة.

والهجرة: الانتقالُ من بلد الشِّرك إلىٰ بلد الإسلام [٦٣].

[٦٣] الهجرة في اللغة: ترك الشيء.

أما الهجرة في الشرع: -فهي كما عرفها الشيخ-: الانتقال من بلد الكفر إلىٰ بلد الإسلام، وهذه هي الهجرة الشرعية، والهجرة عمل جليل قرنه الله بالجهاد في كثير من الآيات.

لما هاجر النبيﷺ إلىٰ المدينة جاء المهاجرون الذين كانوا في الحبشة إلىٰ المدينة، واجتمع المسلمون في المدينة، والحمد لله، وتكونت للمسلمين دولة في المدينة من المهاجرين والأنصار، ومن يسلم يأتي إليهم، عند ذلك شرع الله بقية شرائع الدين، ففرض علىٰ نبيهﷺ الصيام، والزكاة في السنة الثانية من الهجرة، وفرض عليه الحج في السنة التاسعة من الهجرة علىٰ الصحيح، وبذلك تكاملت أركان الإسلام، أولها الشهادتان، وآخرها الحج إلىٰ بيت الله الحرام.

والحاصل من هذا: أن نعلم أن التوحيد هو المهمة الأولىٰ في الدعوة إلىٰ الله ﷻ، وأنه يبدأ الداعية به قبل أن يبدأ بالصلاة، والصيام، أو الزكاة، أو الحج؛ لأن النبي ﷺ بقي عشر سنين يدعو إلىٰ التوحيد، وينهىٰ عن الشرك، ولم يؤمر بصلاة، ولم يؤمر بزكاة، ولا بحج، ولا بصيام، وإنما فُرضت عليه هذه الفرائض بعد أن تقرر التوحيد.

فالنبي ﷺ كان إذا بعث الدعاة يأمرهم أن يدعو الناس أول ما يدعون إلىٰ التوحيد كما في حديث معاذ: «**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أجابوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات ...**» إلخ الحديث(١).

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

والهجرةُ فريضةٌ علىٰ هذه الأمة من بلد الشِّرك إلىٰ بلد الإسلام، وهي باقيةٌ إلىٰ أن تقومَ الساعةُ [٦٤].

فدل علىٰ أنه لا يؤمر بالصلاة، ولا الزكاة، ولا بالصيام إلا بعد تحقيق التوحيد، ووجود التوحيد، وأن من بدأ بغير التوحيد، فإن دعوته فاشلة، ومنهجه مخالف لمنهج الرسل كلهم -عليهم السلام-.

الرسل كلهم أول ما يبدءون به التوحيد وإصلاح العقيدة، وهذا منهج مهم معرفته للسالكين؛ لأنه كثر اليوم مَنْ يعكر علىٰ هذا المنهج فيغير هذا المنهج، ويختار منهجًا لنفسه من عنده، ومن عند غيره من الجهلة، لابد من الرجوع إلىٰ منهج الرسول ﷺ، وهذه فائدة معرفة الرسول ﷺ وسيرته، وجعل ذلك من الأصول الثلاثة، تعرف كيف دعا الناس، وما منهجه ﷺ في دعوتهم؟ حتىٰ تسير عليه؛ لأنه هو القدوة -عليه الصلاة والسلام-.

[٦٤] الهجرة قرينة الجهاد في سبيل الله، وهي فريضة باقية غير منسوخة، يجب علىٰ كل مسلم يحتاج إلىٰ الهجرة أن يهاجر، ولا يجوز للمسلم أن يقيم في بلاد الكفر وهو لا يقدر علىٰ إظهار دينه، فيجب عليه أن يهاجر إلىٰ بلاد المسلمين فهي فريضة باقية لقوله ﷺ: **«لا تنقطع الهجرة حتىٰ تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتىٰ تخرج الشمس من مغربها»**(١).

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٧٩)، وأحمد (٢٨/١١١) (١٦٩٠٦) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء:٩٧-١٠٠] [٦٥].

---

[٦٥] هاتان الآيتان فيهما الوعيد علىٰ من ترك الهجرة وهو يقدر عليها، وأن مأواه جهنم وساءت مصيرًا، وإن كان لا يخرج من الإسلام، لكن هذه من نصوص الوعيد، وإن كان ترك الهجرة فقد ترك واجبًا، وكان عاصيًا ولكن لا يخرج من الإسلام بترك الهجرة؛ ولكن عليه وعيد شديد.

ثم بيَّن الله بالآية التي بعدها العذر الذي يسقط وجوب الهجرة، قال تعالىٰ: ﴿ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ﴾؛ يعني الأطفال: ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ﴾ ما عندهم إمكانيات، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ أي: ما يعرفون الطريق إلىٰ البلد -المدينة-؛ لأن الهجرة تحتاج إلىٰ سفر، وإلا فإن الإنسان يهلك خلال الهجرة إذا كان لا يعرف الطريق، فعذرهم في أمرين:

الأول: لا يستطيعون حيلة.

الثاني: ولا يهتدون سبيلًا، حتىٰ لو كان عندهم إمكانيات مادية؛ ولكنهم لا يعرفون الطريق الذي يسلكونه، من يدلهم، هذا هو العذر الصحيح.

أما الإنسان الذي عنده إمكانيات ويعرف الطريق فهذا لا عذر له.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت:٥٦]. قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين بمكة ولم يهاجروا، ناداهم الله باسم الإيمان [٦٦].

---

[٦٦] هذه الآية من سورة العنكبوت، وفيها الأمر بالهجرة وأن أرض الله واسعة، إذا كنت في بلد لا تتمكن من إظهار دينك فيها، فهناك أرض الله واسعة، انتقل منها، لا تبقَ في هذه البقعة السيئة؛ بل اخرج منها إلىٰ أرض الله الواسعة، قد وسع الله الأرض سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والدليل علىٰ الهجرة من السنة قوله ﷺ: **«لا تنقطع الهجرة، حتىٰ تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتىٰ تطلع الشمس من مغربها»**(١).

أما قوله ﷺ: **«لا هجرة بعد الفتح»**(٢). ظاهر هذا الحديث أن الهجرة انتهت بعد فتح مكة، وظن بعض الناس التعارض بين هذا الحديث، وبين قوله ﷺ: **«لا تنقطع الهجرة حتىٰ تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة، حتىٰ تطلع الشمس من مغربها»**.

لكن أهل العلم أجابوا عن هذا الحديث، أن المراد: لا هجرة بعد الفتح، أي: من مكة؛ لأنها صارت بالفتح دار إسلام.

يظنون أن الهجرة باقية من مكة بعد الفتح، فيريدون تحصيل ثواب الهجرة، وأما الهجرة من بلاد الكفر فهي باقية إلىٰ أن تقوم الساعة، والدليل الآيات السابقة، والحديث النبوي السابق، هذا هو الجواب علىٰ هذا الإشكال.

---

(١) سبق تخريجه (ص٢٠٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣) (٨٥) قبل الحديث (١٨٦٤) (٨٦) من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وأخرجه مسلم (١٨٦٤) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

الاستقرار في المدينة ونزول باقي الشرائع وإكمال الدين

فلما استقرَّ بالمدينة أُمِرَ ببقيَّة شرائع الإسلام، مثل الزكاة، والصوم، والحج، والجهاد، والأذان، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغير ذلك من شرائع الإسلام. أخذ علىٰ هذا عشر سنين، وبعدها توفِّي -صلوات الله وسلامُه عليه-، ودينُه باقٍ وهذا دينه، لا خيرَ إلا دلَّ الأمة عليه، ولا شرَّ إلا حذَّرها منه، والخيرُ الذي دلَّها عليه: التوحيدُ، وجميعُ ما يُحبه الله ويرضاه، والشرُّ الذي حذَّرَ منه: الشركُ وجميع ما يكرهُهُ الله ويأباه، بعثه الله إلىٰ الناس كافَّة، وافترض الله طاعتَهَ علىٰ جميع الثقلين الجنِّ والإنس.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨] [٦٧].

---

[٦٧] هذا كما سبق بيانه أن الشريعة نزلت بالتدريج حتىٰ تكاملت -ولله الحمد- قبل وفاة النبيﷺ، وأنزل الله عليه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ وبعد نزول هذه الآية بمدة يسيرة توفي النبيﷺ ودينه باقٍ إلىٰ أن تقوم الساعة.

وأكمل الله به الدِّين.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة:٣][٦٨].

---

[٦٨] فلم يُتوفﷺ إلا بعد أن أكمل الله به الدين، وأتم به النعمة، وأنزل عليه قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ نزلت هذه الآية علىٰ رسول اللهﷺ وهو واقف في عرفة في حجة الوداع من يوم الجمعة، وعاش بعدهاﷺ مدة يسيرة، وانتقل إلىٰ الرفيق الأعلىٰ، وترك أمته علىٰ المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

وفي هذه الآية شهادة من الله ﷻ علىٰ كمال هذا الدين، وشموله لمصالح العباد، وحل قضاياهم ومشاكلهم إلىٰ أن تقوم الساعة، وهو صالح لكل زمان ومكان لا يحتاجون بعده إلىٰ شريعة أخرىٰ، أو إلىٰ كتاب ينزل، أو إلىٰ رسول يبعث بعد الرسولﷺ فما من قضية تجدُّ، وما نازلة تنزل إلىٰ يوم القيامة إلا وفي شريعة محمد ﷺ حلها والحكم فيها؛ ولكن الشأن فيمن يحسن الاستنباط والاستدلال في الأحكام والقضايا، فإذا توفر أهل العلم، وأهل الاجتهاد الذين تتوفر فيهم شروط الاجتهاد، فإن هذه الشريعة كاملة، وفيها حل المشاكل كلها، وإنما يحصل النقص من ناحيتنا نحن، من ناحية قصور العلم، وعدم إدراك ما أنزل الله ﷻ، أو من ناحية الهوىٰ، بأن يكون هنا هوىٰ يصرف عن الحق، وإلا فهذا الدين صالح، وشامل، وكامل، قد أغنىٰ الله به الأمة الإسلامية، إلىٰ أن تقوم الساعة إذا ما عملت به حق العمل، ورجعت إليه في أمورها.

....

قال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء:٥٩]. الرد إلىٰ الله هو الرد إلىٰ كتاب الله، والرد إلىٰ الرسول بعد وفاته هو الرد إلىٰ سنته، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورىٰ:١٠].

فهذه الآية فيها رد علىٰ الذين يرمون الشريعة الإسلامية بالقصور، أو النقص، من الملاحدة والزنادقة، أو أنصاف المتعلمين الذين قصرت أفهامهم عن إدراك أسرار هذه الشريعة، فنسبوا القصور إلىٰ الشريعة، ولم يعلموا أن القصور من عندهم هم، ففيها رد علىٰ من اتهم الشريعة بالنقص، وأنها لم تتناول حاجات العباد، ومصالح العباد إلىٰ أن تقوم الساعة.

أو قال: إنها مخصوصة بالزمان الأول؛ لأن كثيرًا من الجهال إذا قيل لهم: هذا الحكم الشرعي، قالوا: هذا زمان الرسول والزمان الأول، أما الآن تغيرت الأحوال وتبدلت الأمور، والأحكام الشرعية هذه لأناس مضوا ولمشاكل انتهت، يقولون هذا، وهذا كفر بالله ﷻ، وتكذيب لقوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة:٣]. أكمل الله الدين لهذه الأمة إلىٰ أن تقوم الساعة لكل زمان، ولكل مكان ولكل جيل من الناس.

وفيها رد أيضًا علىٰ المبتدعة الذين يحدثون عبادة من عند أنفسهم وينسبونها إلىٰ الدين، وليس لها دليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإنما ابتدعوها باستحسانهم، أو بتقليدهم لمن يحسنون به الظن من المخرفين وأصحاب المطامع والشهوات، فيحدثون في الدين عبادة ما أنزل الله بها من سلطان، وقد قال ﷺ: **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»**(١).

---

(١) سلف تخريجه (ص١٨).

وقال -عليه الصلاة والسلام-: «**وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة**»[١].

فالذي يحدث عبادات ليس لها دليل من كتاب الله، ولا من سنة رسول الله، فإنه مُتَّهِم لهذا الدين بعدم التمام، وهو يريد أن يكمل الدين من عنده، ولا يعترف بتكميل الله له، فما لم يكن دينًا في عهد النبي ﷺ فإنه لا يكون من بعده دينًا أبدًا، فهذا رد علىٰ هذه الطوائف.

الطائفة التي تقول: إن الإسلام لا يصلح لكل زمان، أو الذين يبتدعون البدع المحدثات التي ليس لها دليل من كتاب الله وسنة رسوله وينسبونها إلىٰ الدين ففي هذه الآية ردٌّ عليهم؛ لأن الدين أكمله الله ﷻ، فلا مجال للزيادة فيه، ولا النقصان، ولا مجال للتشكيك والتلبيس بأنه لا يصلح لأهل الزمان المتأخر: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ هذا كلام الله ﷻ، وهو أصدق القائلين وقال تعالىٰ: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ هذا آخر ما نزل علىٰ النبي ﷺ، وهو شهادة من رب العالمين لهذا الدين بالكمال والشمولية والصلاحية لكل زمان ومكان.

فقوله تعالىٰ خطاب لهذه الأمة من أولها إلىٰ آخرها وليس خطابًا للجيل الأول فقط إنما هو خطاب لكل الأمة إلىٰ أن تقوم الساعة.

أما الإجماع: فقد أجمعت الأمة علىٰ وفاته ﷺ، لم يخالف في هذا إلا المخرفون الذين يقولون: إن الرسول ما مات، وينفون الموت عن الرسول ﷺ،

---

(١) سلف تخريجه (ص١٤٣).

والدَّليلُ علىٰ موتِهِ ﷺ قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:٣٠-٣١][٦٩].

هذا كلام ساقط، كلام مردود واضح، يرده الحس والواقع، فإن الرسول ﷺ توفي بين أصحابه وغُسل وكُفن وصُلي عليه، ودفن -عليه الصلاة والسلام- هل هذه الأعمال تُعمل مع إنسان حي؟! عومل ﷺ معاملة الأموات غُسل، وكُفن، وصُلي عليه ثم دفن ﷺ في قبره.

هذه سنة الله ﷻ في خلقه، ثم أين الرسل الذين من قبله؟ سُنته سنة الرسل الذين من قبله، وقد ماتوا وهو واحد منهم يموت، هذا بإجماع أهل السنة والجماعة، ولم يخالف في هذا إلا المخرفون الذين يتعلقون علىٰ الرسول ﷺ ويستغيثون به من دون الله، ويقولون: هو حي.

[٦٩] النبي ﷺ لما أكمل الله به الدين، وأتم به النعمة توفاه إليه كما هي سنة الله ﷻ في خلقه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥]. والأنبياء والرسل داخلون في هذا العموم ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ فالنبي ﷺ قد توفي، وانتقل من هذه الدنيا إلىٰ ربه ﷻ .

وهذا ثابت بالنص والإجماع والقياس، أما النص ففي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ هذا إخبار من الله لرسوله ﷺ أنه سوف يموت، إنك مِّيتٌ، أي: تموت فيقال للذي يموت: هذا ميت، وأما الذي توفي بالفعل يقال له: ميْتٌ بالتخفيف لقوله تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام:١٢٢]. الميت هو الذي فارقت روحه جسده، أما الميْتُ فهو الذي سيموت في المستقبل.

خاتمة
الإيمان بالبعث

والناسُ إذا ماتُوا يُبعَثونَ، والدَّليلُ قولُه: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥][٧٠].

---

[٧٠] انتقل إلىٰ أصل آخر، وهو الإيمان بالبعث، أي: أنه ليس المراد موت فقط، نحن علمنا والكل يعلم حتىٰ الكفار والملاحدة والزنادقة، كلهم يعلمون أنه لابد من الموت، لا أحد ينكر الموت؛ لأنه شيء محسوس؛ لكن الشأن في البعث بعد الموت، هذا هو محل النزاع بين المؤمنين والكفار، البعث بعد الموت، وهو إعادة الأجسام التي تفتت وصارت رميمًا وترابًا وتفرقت في الأرض، تُعاد وتُبنىٰ كما كانت؛ لأن القادر علىٰ إنشائها أول مرة قادر علىٰ إعادتها، ثم تنفخ فيها الأرواح، ثم تتحرك، وتسير من القبور إلىٰ المحشر؛ لقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج:٤٣].

وقال تعالىٰ: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر:٧-٨].

لا أحد يتخلف، فهذا البعث حق لا ريب فيه، ومن أنكره فهو كافر بالله ﷻ، والإيمان بالبعث هو أحد الأركان الستة للإيمان التي قال فيها النبي ﷺ: «أن تؤمن

وقوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح:١٧-١٨] [٧١].

بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»(١).

فمن لم يؤمن بالبعث واليوم الآخر، فإنه يكون كافرًا بالله ﷻ، ولو شهد بأن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ولو صلَّىٰ، وصام، وحج، وزكَّىٰ، وفعل الطاعات، فإذا أنكر البعث أو شك فيه فإنه يكون كافرًا بالله ﷻ.

وأدلة البعث كثيرة منها قوله تعالىٰ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾؛ يعني: الأرض حينما خلق آدم عليه السلام أبا البشرية: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ يعني: بعد الموت في القبور، ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ هذا هوا لبعث.

فهذه الآية تضمنت البدء والإعادة: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥].

[٧١] ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ حينما خلق منها آدم عليه السلام: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ أي: بالموت والقبور ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ هذا هو البعث، يخرجون من القبور، ويسيرون إلىٰ المحشر، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف:٢٥]. أي: تحيون علىٰ ظهرها، وفيها تموتون، ومنها تخرجون للبعث يوم القيامة.

هذه أدلة من القرآن علىٰ البعث، أيضًا يوجد دليل عقلي من القرآن نفسه وهو أن الذي قدر علىٰ البداءة قادر علىٰ الإعادة من باب أولىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ

---

(١) سلف تخريجه (ص١٢٦).

....

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الروم:٢٧]. الذين قدر على إيجاد الناس من عدم قادر على إعادتهم بعد الموت من باب أولى، هذا دليل سمعي عقلي.

ومن الأدلة على البعث: ما يحصل للأرض من الحياة بالنبات، أنت ترى الأرض ميتة ليس فيها نبات جرداء، ثم إن الله ﷻ ينزل عليها المطر، ثم ينبت النبات الذي كان هشيمًا ميتًا، كذلك الأجسام في الأرض كانت مخزنة في الأرض فينزل الله عليها مطرًا، ثم تنبت الأجسام، وتتكامل ثم تنفخ فيها الأرواح، فأنتم ترون الأرض كيف تكون قاحلة ثم تحيا بما نبت فيها.

الله -جل وعلا- هو الذي يحيي الأرض بعد موتها: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [فصلت:٣٩]. فالذي قدر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأجسام بعد موتها؛ لأن الكل أحياء بعد الموت.

ومن الأدلة على البعث: أنه لو لم يكن هناك بعث للزم أن يكون خلق الناس عبثًا حيث إنهم يعيشون منهم المطيع المتقي المؤمن بالله ورسله، ومنهم الكافر الملحد والزنديق والجبار والمتكبر والعاصي، كلهم يعيشون ثم يموتون، دون أن ينال هذا المؤمن شيئًا من جزائه أو ينال هذا الكافر وهذا الزنديق، وهذا الملحد، وهذا الطاغية المتجبر على الناس دون أن ينال جزاءه.

فهل يليق بالله أن يترك الناس هكذا دون أن يجازي أهل الإيمان بإيمانهم، وأهل الإحسان بإحسانهم، وأهل الإجرام والكفر بإجرامهم وكفرهم؟! هذا لا يليق

....

بحكمة الله ﷻ، ولهذا قال: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾[النجم:٣١]. هذا لا يكون إلا في يوم القيامة، وكذلك في قوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[الجاثية:٢١].

وقال ﷻ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾[ص:٢٨].

وقال ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[المؤمنون: ١١٥].

وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[القيامة:٣٦-٤٠].

ورد على الكافر الذي قال: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ بقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾[يس:٧٨-٨٠]. الذي قدر على إخراج النار المحرقة من الشجر الأخضر الرطب الذي قدر على هذا ألا يقدر على إحياء الأموات؟!

ومن أدلة البعث: الاستدلال بخلق السموات والأرض فالذي خلق هذه المخلوقات الهائلة العظيمة الكبيرة قادر على أن يعيد الإنسان؛ لأن القادر على الشيء العظيم يقدر على ما دونه من باب أولى.

قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾[يس:٨١].

الحساب والميزان

وبعد البعث محاسبون ومجزون بأعمالهم، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴾ [النجم:٣١] [٧٢].

وقال تعالىٰ: ﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [غافر:٥٧].

فهذه أدلة البعث التي تثبت أن الله سبحانه وتعالى يبعث من في القبور، وأنه يجازي كل عامل بعمله إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، فليكفر الكافر، وليفسق الفاسق، والزنديق والملحد، فإن أمامه البعث والنشور والجزاء والحساب.

أما المؤمن المتقي الذي يعبد الله، ويتقرب إلىٰ الله، فإن عمله لن يضيع، فإن هناك موعدًا يوفيه الله فيه عمله، ويضاعف له أجره، ويعطيه ما لم يقع في ظنه وحسبانه.

[٧٢] من أعمال يوم القيامة: الحساب والميزان، الحساب بمعنىٰ مناقشة أهل المعاصي.

فالمسلمون علىٰ أقسام يوم القيامة:

القسم الأول منهم: من لا يحاسب، ويدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب،

كما في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب[١].

القسم الثاني من الناس: من يحاسب حسابًا يسيرًا، وهو العرض فقط، لا يحاسب حساب مناقشة؛ وإنما يحاسب حساب عرض فقط، وهذا أيضًا من السعداء، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق:٧-٩].

القسم الثالث: من يحاسب حساب مناقشة، وهذا تحت الخطر لقوله ﷺ: «من نوقش الحساب عذب»[٢]. أما الكفار فقد اختلف العلماء فيهم هل يحاسبون أو لا يحاسبون؟ فمن العلماء من يقول: إن الكفار لا يحاسبون؛ لأنهم ليس لهم حسنات؛ وإنما يذهب بهم إلىٰ النار؛ لأنهم ليس لهم حسنات، ومن العلماء من يقول: إنهم يحاسبون حساب تقرير، أي: بأعمالهم، وكفرهم وإلحادهم، ثم يذهب بهم إلىٰ النار.

والميزان: معناه الآلة التي توزن بها أعمال العباد توضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [المؤمنون:١٠٢-١٠٣]. فإذا ثقلت السيئات خسر الإنسان، وإذا ثقلت الحسنات ربح الإنسان.

هذا الميزان ميزان الأعمال، كذلك من أوتي كتابه بيمينه فحسابه يسير، ومن أوتي كتابه بشماله فحسابه عسير، وسيرىٰ الأهوال والأخطار جسيمة، ومن خطر إلىٰ خطر في مواقف القيامة، والحساب والحشر، هذه أمور هائلة لو فكرنا فيها.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢١٨) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ومن كذَّب بالبعث كَفَرَ، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن:٧] [٧٣].

---

[٧٣] قوله: «من كذب بالبعث كفر»؛ لأنه جحد ركنًا من أركان الإيمان؛ ولأنه مكذب لله ولرسله ولكتبه؛ لأن الله -جل وعلا- أخبر عن البعث، والرسل أخبرت عن البعث، والكتب أخبرت عن البعث، فمن أنكره فهو كافر، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ الزعم هو الكذب ﴿أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾.

فدلت الآية علىٰ أن إنكار البعث كفر، يقولون: ليس بعد الموت بعث، المشركون وعبدة الأصنام في عهد النبي ﷺ كانوا يجادلون بالبعث ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ۝١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾ [النازعات:١١-١٢]. وقالوا: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس:٧٨].

ومن مجادلتهم: ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ۝٣٥ ۞هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [المؤمنون:٣٥-٣٦]. إلىٰ غير ذلك من مقالات الكفار من الأمم السابقة ومن المشركين في عهد النبي ﷺ فمن كذب بالبعث فهو مع هؤلاء الكفرة.

لا ينكر البعث إلا كافر، ولقد أمر الله -جل وعلا- نبيه ﷺ أن يقسم به علىٰ البعث، قال: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ هذا قسم ﴿لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ [التغابن:٧]. هذه الآية إحدىٰ الآيات الثلاث التي أمر الله نبيه فيها أن يقسم علىٰ البعث.

الآية الأولىٰ: في سورة يونس: ﴿۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [يونس:٥٣].

الإيمان بالرسل

وأرسَلَ الله جميعَ الرسل مبشِّرين ومنذرين، والدليل قوله تعالىٰ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٥][٧٤].

الثانية في سورة سبأ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [سبأ:٣-٤]. فالله أمر نبيه أن يقسم به علىٰ البعث وعلىٰ قيام الساعة.

الآية الثالثة: هي التي معنا في سورة التغابن: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧]. فالحكمة من البعث هي جزاء العباد علىٰ أعمالهم، وقوله تعالىٰ: ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ أي: لتخبرون بأعمالكم وتجازون بها.

[٧٤] الإيمان بالرسل هو أحد أركان الإيمان الستة قال ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله**»[١].

---

(١) سلف تخريجه (ص١٢٦).

وأولهم: نوحٌ عليه السلام، و آخرهم: محمد ﷺ، والدليل على أن أولهم نوحٌ عليه السلام قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣][٧٥].

فالإيمان بالرسل هو أحد أركان الإيمان، فلابد من الإيمان بالرسل جميعهم من أولهم إلىٰ آخرهم، فمن جحد رسولًا واحدًا منهم، فهو كافر بالجميع كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[النساء:١٥٠-١٥١].

فلابد من الإيمان بجميع الرسل من أولهم إلىٰ آخرهم، من سمىٰ الله منهم في كتابه ومن لم يسم، فإن الرسل كثيرون، ولهذا جاء في الحديث: أن عددهم: **«مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، الرسل من ذلك ثلثمائة وخمسة عشر جمًّا غفيرًا»**[(١)].

فهم رسل كثيرون منهم من سمىٰ الله في كتابه، ومنهم من لم يسم، فيجب علينا الإيمان بجميعهم من أولهم إلىٰ آخرهم.

[٧٥] الدليل علىٰ أن أولهم نوح ، قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ : ﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ ذكر الله جملة من أسمائهم في هذه الآية.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣٦/ ٦١٧-٦١٩) (٢٢٢٨٧) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه .

كما ذكر جملة من أسمائهم في آية الأنعام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ إلىٰ آخر الآيات [الأنعام:٨٤-٨٦].

فأولهم نوح -عليه الصلاة والسلام- بدليل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ بعثه الله إلىٰ قومه لما غلوا في الصالحين بعد أن كان الناس علىٰ دين التوحيد منذ آدم عليه السلام إلىٰ عشرة قرون، وهم علىٰ التوحيد.

فلما جاء قوم نوح كان فيهم رجال صالحون، فلما مات هؤلاء الصالحون حزنوا حزنًا شديدًا، فانتهز الشيطان هذه الفرصة، وقال لهم: صوروا صور هؤلاء الصالحين، وانصبوها علىٰ مجالسكم من أجل إذا رأيتم هذه الصور تتذكرون أحوالهم وتنشطون علىٰ العبادة، فقاموا وصوروا صور هؤلاء الموتىٰ، ونصبوها علىٰ المجالس فلم تُعبد في أول الأمر، لوجود العلماء الذين يبينون للناس التوحيد، وينكرون الشرك.

فلما مات العلماء، وذهب الجيل الأول، جاء جيل متأخر، وقد مات العلماء، جاء الشيطان إليهم فقال لهم: إن آباءكم ما نصبوا هذه الصور إلا ليعبدوها، وبها كانوا يسقون المطر، فزين لهم عبادتها فعبدوها من دون الله.

ومن ثم حدث الشرك في الأرض، فبعث الله نبيه نوحًا -عليه الصلاة والسلام- يدعوهم إلىٰ الله عز وجل ويردهم إلىٰ التوحيد الذي هو دين أبيهم آدم عليه السلام؛ لكنهم عاندوا واستكبروا: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣].

قال ابن عباس: هذه أسماء رجال صالحين، صوروا صورهم ونصبوها علىٰ مجالسهم فآل بهم الأمر إلىٰ أن عبدوها من دون الله.

فلما جاءهم نوح -عليه الصلاة والسلام-، ونهاهم عن عبادتها وأمرهم بعبادة الله، قالوا: لا تذرون آلهتكم، لا تطيعوا نوحًا، واستمروا علىٰ كفرهم وطغيانهم وعنادهم.

هذا أول شرك حدث في الأرض، وسببه الصور؛ ولذلك قال النبي ﷺ: **«إن أشد الناس عذابًا عند الله يوم القيامة المصورون»**[(١)].

وقال ﷺ: **«إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم»**[(٢)]. يؤمرون بنفخ الروح في هذه الصور من باب التعجيز والتعذيب لهم والعياذ بالله؛ لأن التصوير وسيلة من وسائل الشرك كما حصل لقوم نوح.

فأول الرسل نوح، وأما خاتم الرسل وآخرهم فهو محمد ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقال ﷺ: **«وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي»**[(٣)].

فبه ﷺ ختمت الرسالات السماوية فلا يبعث بعده نبي إلىٰ أن تقوم الساعة، ولكن شريعته باقية إلىٰ أن تقوم الساعة، ودينه باق إلىٰ أن تقوم الساعة كما سبق، فمن ادعىٰ النبوة بعد محمد ﷺ فهو كافر، ومن صدقه فهو كافر بالله؛ لأنه لا نبي بعده ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥٠)، ومسلم (٢١٠٩) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٥١)، ومسلم (٢١٠٨) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢١٩) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

وكل أمة بعث الله إليهم رسولًا من نوح إلىٰ محمد يأمرهم بعبادة الله وحده وينهاهم عن عبادة الطاغوت، والدليلُ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦][٧٦].

وقد ادَّعىٰ النبوة بعده خلق كثير، وفضحهم الله، وأظهر كذبهم، ومن آخرهم -فيما نعلم- القادياني، غلام أحمد القادياني، الهندي، الذي كان في الأول يدعي العلم والعبادة، ثم ادعىٰ أنه عيسىٰ بن مريم ثم ادعىٰ النبوة، والآن له أتباع يسمون بالقاديانية.

وقد كفرهم المسلمون ونابذوهم واعتبروهم فرقة كافرة خارجة عن الإسلام، وهم منابذون ومطاردون ولله الحمد من بلاد المسلمين، ولهم نشاط؛ لكن نشاطهم يبوء بالفشل.

الحاصل: أنه لا نبي بعد رسول الله ﷺ، من ادعىٰ النبوة فهو كذاب، كما قال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتىٰ يبعث دجالون كذابون، قريبًا من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله**»(١).

[٧٦] المتنبئون كثيرون؛ ولكن الله يفضح أمرهم، ويكشف سترهم، ويبين خزيهم للناس، ومَنْ صدَّقَهُم فهو كافر؛ لأنه مكذب لله ولرسوله ﷺ ولإجماع المسلمين علىٰ ختم النبوة بمحمد ﷺ.

قوله: «وكل أمة بعث الله إليهم رسولًا». أي: كل أمة من الناس يبعث الله إليها رسولًا؛ ليقيم الحجة عليهم، لئلا يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، ولقوله

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٩)، ومسلم بإثر (٢٩٢٣) في كتاب الفتن (١٥٧) (٨٤).

....

تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء:١٥] . فكل أمة من الأمم السابقة يبعث الله إليها رسولًا كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[فاطر:٢٤] .

لكن يجب أن نعرف ما هي دعوة الرسل؟ دعوة الرسل كلهم من أولهم إلىٰ آخرهم هي دعوة إلىٰ التوحيد؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ فكل ما عُبد من دون الله طاغوت، كما يأتي في أنواع الطواغيت أن من أنواعهم ما عبد من دون الله وهو راض بذلك كما سيأتي.

فمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أي: اجتنبوا عبادة الأوثان والأصنام والقبور والأضرحة هذه هي الطواغيت، فدلت الآية الكريمة علىٰ أن دعوة الرسل كلها تتركز علىٰ التوحيد من أولهم إلىٰ آخرهم.

كما قال ﷻ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥] .

وقوله: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾[النحل:٢] .

فدعوة الرسل كلهم إلىٰ التوحيد، وإفراد الله -جل وعلا- بالعبادة، والنهي عن الشرك هذه هي دعوة الرسل، ثم بعد التوحيد تأتي الشرائع من الحلال والحرام، وتفاصيل الشرائع تختلف باختلاف الأمم وحاجة الأمم، وينسخ الله منها ما يشاء، ثم نسخت كلها بشريعة الإسلام، الحلال والحرام والأحكام والعبادات والأوامر والنواهي، أما الأصل وهو التوحيد فهذا لا اختلاف فيه ولا نسخ، هذا دين واحد، دين الرسل كلهم من أولهم إلىٰ آخرهم دين واحد، كما قال تعالىٰ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[المائدة:٤٨] .

الكفر بالطاغوت والإيمان بالله

وافترَض الله علىٰ جميع العباد الكفرَ بالطاغوت والإيمان بالله [٧٧].

ودين التوحيد هو عبادة الله بما شرع في كل وقت بحسبه، فإذا نسخ هذا الشرع انتقل إلىٰ الناسخ، فمن أصر وبقي علىٰ المنسوخ، وترك الناسخ، فإنه يكون كافرًا بالله عَجَلَّ؛ لأن الدين المنسوخ لا يكون دينًا بعد نسخه؛ وإنما هو دين قبل أن ينسخ، فإذا نسخ فلا يكون دينًا، ويكون الدين هو الناسخ، فلهذا نسخت شريعة الإسلام ما قبلها من الشرائع، فمن بقي علىٰ اليهودية، أو النصرانية، بعد بعثة محمد ﷺ فهو كافر؛ لأنه يعمل بدين منسوخ انتهىٰ وقته.

[٧٧] قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وافترض الله علىٰ جميع العباد الكفار بالطاغوت، والإيمان بالله»**.

ثم ذكر تعريف الطاغوت، فالطاغوت ذكَره الله -جل وعلا- في آيات كثيرة، منها قوله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٦-٢٥٧].

قال ابن القيِّم: معنىٰ الطاغوت: ما تجاوز به العبد حدَّهُ من معبود، أو متبوع، أو مطاع [٧٨].

وفي سورة النساء، قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء:٥١]. وهذه الآية في اليهود.

ويقول سبحانه في المنافقين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء:٦٠].

وفي سورة النحل، يقول -جل وعلا-: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]. **الطاغوت**: مأخوذ من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، يقال: طغىٰ الماء إذا ارتفع منسوبه.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١].

[٧٨] أما معنىٰ الطاغوت في الشرع، فهو كما ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ونقله عنه الشيخ هاهنا.

الطاغوت: ما تجاوز به العبد حدَّه، العبد له حد؛ لأنه عبد حدَّد الله له حدودًا يجب عليه أن يقف عندها، فإذا تجاوزها فإنه يكون طاغوتًا، فمن تجاوز حدود الله التي حددها لعباده وأمرهم ألاَّ يتجاوزوها وألا يقربوها، فهو طاغوت، فإذا عصىٰ الله، وتجاوز حدوده وطغىٰ فإنه يسمىٰ طاغوتًا؛ لأنه طغىٰ وتعدىٰ حدود الله.

فقوله: «ما تجاوز به العبد حدَّه من معبود، أو متبوع، أو مطاع».

....

هذا التعريف الشامل للطاغوت؛ لأن الله -جل وعلا- أمر بعبادته وحدَه لا شريك له، وأمر باتباع رسولهﷺ، وأمر بطاعته وطاعة رسوله فيما حلل وحرم، فمن تجاوز هذا الأمر فهو طاغوتٌ، من تجاوز حد العبادة التي أوجبها الله، واختص بها، ونفاها عن غيره، فعبد مع الله غيره فهو طاغوت، المشرك طاغوت؛ لأنه تجاوز الحد في العبادة وعبد مع الله غيره، صرف العبادة لغير مستحقها.

وكذلك من عُبِدَ وهو راض، الذي يعبده الناس بهذا، ويفرح ويترأس بهذا الشيء ويتزعم، هذا طاغوت مثل: فرعون، والنمرود، ومشايخ الطرق الصوفية الغلاة الذين يعبدهم أتباعهم ويرضون بذلك، أو يدعون الناس إلىٰ هذا، أي: إلىٰ أن يعبدوهم كما سيأتي، فهذا طاغوت في العبادة.

قوله: «أو متبوع»: الله -جل وعلا- أمر جميع الخلق أن يتبعوا محمدًاﷺ، فلا يجوز لأحد أن يتبع غيره -عليه الصلاة والسلام-، فمن اتبع غير الرسولﷺ وزعم أن هذا جائز فإنه يكون طاغوتًا؛ لأنه اتبع غير الرسولﷺ الذي أُمر باتباعه.

فالاتباع خاص بالرسولﷺ، أما غيره من العلماء والدعاة فهؤلاء يُتبعون إذا اتبعوا طريقة الرسولﷺ.

فالمتبع هو الرسول ﷺ، أما هؤلاء فإنهم مبلغون فقط يتبعون للحق وما وافقوا فيه اتباع الرسولﷺ، وما خالفوا فيه الرسول فلا يجوز اتباعه.

مثال ذلك مشايخ الطرق الصوفية، يتبعهم مريدوهم وعبيدهم في غير طاعة الرسول ﷺ بل يقولون: إننا لسنا بحاجة إلىٰ الرسول ﷺ نحن نأخذ مما أخذ منه الرسولﷺ، ونتلقىٰ عن الله مباشرة، الرسول ﷺ يتلقىٰ عن الله بالواسطة، بواسطة

جبريل، ونحن نتلقىٰ عن الله مباشرة ويقولون: أنتم تروون دينكم عن ميت، ونحن نروي ديننا عن الله ﷻ؛ لأنهم يزعمون أن شيوخهم يتصلون بالله، ويتلقون من الله مباشرة.

بلغ بهم الحد إلىٰ هذا الطغيان، والعياذ بالله، هذه طريقتهم لا شك أن هؤلاء هم رءوس الطواغيت والعياذ بالله؛ لأنه لا طريق إلىٰ الله -جل وعلا- إلا باتباع رسوله ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:٣١-٣٢].

فالذي يتبع غير الرسول هذا يعتبر طاغوتًا، وكذلك من يدعو إلىٰ اتباعه ويقول للناس: أنا آتيكم بالأمر من الله مباشرة، هذا أكبر الطواغيت في العالم، والعياذ بالله.

قوله: «**أو مطاع**»: الطاعة إنما هي لله، ولرسوله، بما حلل وحرم، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩].

فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، وليس لأحد أن يشارك الله في التحليل والتحريم؛ ولذلك حكم الله علىٰ من حلل وحرم أو أطاع من فعل ذلك بأنه مشرك.

قال ﷻ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ

كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾[الأنعام:١١٨-١٢١].

لأن أهل الجاهلية يقولون: الميتة حلال؛ لأن الله هو الذي ذبحها، فهي أولىٰ بالحل مما ذبحتم وذكيتم، فالله -جل وعلا- يقول: لا تأكلوا إلا ما ذكي ذكاة شرعية، وحرم عليكم الميتة.

وهؤلاء يقولون: لا؛ الميتة حلال، هي أولىٰ بالحل من المذكاة؛ لأن المذكاة ذكيتموها أنتم، وأما الميتة فالله هو الذي ذبحها.

ولهذا رد علىٰ المشركين، وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ أي: خروج عن طاعة الله -سبحانه عز وجل-.

وقال بعدها: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ يقولون: الميتة ذبحها الله، والمذكاة أنتم ذبحتموها فكيف تستحلون ما ذبحتم، ولا تستحلون ما ذبحه الله؟! هذه مجادلة بالباطل.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ هذا من شرك الطاعة، التحليل والتحريم حق لله -جل وعلا-.

فلا يجوز لأحد أن يحلل أو يحرم من عند نفسه، أو يطيع من حلل أو حرم من عند نفسه، ومَن فعل ذلك فإنه طاغوت ومطيع للطواغيت الذين يحللون ويحرمون من دون الله هذا معنىٰ قوله: أو مطاع، أي: مطاع في التحليل والتحريم؛ لأن التحليل والتحريم حق لله -جل وعلا-، والرسول ﷺ مبلغ عن الله ما حلل وحرم.

أنواع الطواغيت

والطَّواغيت كثيرون، ورءوسهم خمسةٌ: إبليسُ لعنه الله، ومن عُبِدَ وهو راضٍ [٧٩].

---

[٧٩] **قوله: «والطواغيت كثيرون ورءوسهم خمسة»:**

الطواغيت الذين ينطبق عليهم هذا التعريف: كل معبود، أو متبوع، أو مطاع كثيرون؛ ولكن رءوسهم خمسة يعني أكابرهم خمسة.

الأول: إبليس لعنه الله، أي: طرده الله وأبعده عن رحمته بسبب أنه امتنع عن السجود لآدم، وعصىٰ الله تعالى وتكبر، وقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [ص:٧٦]. فعصىٰ أمر الله، وتكبر فلعنه الله، وطرده وأبعده، وسمي إبليس قيل: لأنه أبلس من الرحمة يعني يئس من الرحمة، فالمُبْلِس هو اليائس من الشيء، فإبليس لعنه الله رأس الطواغيت؛ لأنه هو الذي يأمر بعبادة غير الله، وهو الذي يأمر باتباع غير رسول الله ﷺ، وهو الذي يأمر بطاعة غير الله بالتحليل والتحريم، فإبليس هو مصدر الشر، وهو رأس الطواغيت.

الثاني: من عُبِد وهو راض، أي: عُبد وهو راض بعبادة الناس له فهو طاغوت. أما من عُبِدَ وهو غيرُ راض بذلك فلا يدخل في هذا؛ لأن عيسىٰ -عليه الصلاة والسلام- عُبِد من دون الله؛ ولكنه غير راض بذلك، وأمه وعزير والأولياء

....

والصالحون من عباد الله لا يرضون بهذا؛ بل كانوا ينكرون هذا، ويحاربون من فعله، فمن عُبِد وهو غير راض بذلك، فإنه لا يسمىٰ طاغوتًا.

ولذلك لما أنزل الله قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء:٩٨]. فرح المشركون، وقالوا: نحن نعبد المسيح ونعبد ونعبد، إذن هم معنا في النار، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١-١٠٢].

وفي الآية الأخرىٰ، قالوا: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون عيسىٰ عليه السلام ثم قال: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف:٥٨-٥٩].

فهو عبد لله، ولا يرضىٰ أن يُعبَد من دون الله؛ بل بعثه الله بإنكار ذلك: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة:١١٧]. فالذي عُبِد وهو غير راض بذلك، لا يدخل في هذا الوعيد ولا يكون طاغوتًا؛ لأنه منكر لذلك؛ لأن الطاغوت هو الذي يرضىٰ بأن يُعبَد من دون الله عز وجل.

ومَنْ دعا الناس إلىٰ عبادة نفسه [٨٠].

---

[٨٠] والثالث: «**من دعا الناس إلىٰ عبادة نفسه**»: مثل رءوس المشركين الذين يدعون الناس إلىٰ عبادة أنفسهم، مثل فرعون قال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾[النازعات: ٢٤].

ومثل النمرود، ومثل غلاة الصوفية الذين يدعون الناس إلىٰ عبادتهم حتىٰ إنهم يوصون الناس أن يعبدوهم بعدما يموتون فيقول أحدهم: إذا أعيتكم الأمور فأتوا إلىٰ قبري، أي: إذا أعجزتكم الأمور فأتوا إلىٰ قبري، ولا يحول بينكم وبين حفنة من التراب.

يوصون الناس أن يأتوا إلىٰ قبورهم، ويعدونهم أنهم سيقومون بحوائجهم، فمن دعا الناس إلىٰ عبادة نفسه حيًّا وميتًا فهو من رءوس الطواغيت، وكذلك من دعا الناس إلىٰ عبادة غيره من الطواغيت، وهم دعاة الشرك، هؤلاء طواغيت، الذين يزينون الشرك للناس، ويسمونه بغير اسمه، ويقولون هذا من باب التوسل، أو هذا من باب الشفاعة وهم كثير.

إن هؤلاء طواغيت؛ لأنهم يدعون إلىٰ الشرك، فهم يدعون إلىٰ عبادة غير الله، ويسمون ذلك بغير اسمه، ويزينونه للناس بالشبهات وزخرف القول، هؤلاء هم الطواغيت، دعاة الشرك طواغيت، وكل من عُبِد من دون الله ورضي بذلك، أو دعا الناس إلىٰ عبادة نفسه، أو دعا الناس إلىٰ عبادة غير الله، فإنه من الطواغيت؛ بل هو من رءوس الطواغيت، نسأل الله العافية.

ومن ادَّعىٰ شيئًا من الغيب [٨١].

[٨١] الرابع: «**من ادعىٰ شيئًا من علم الغيب**»: وهذا يدخل فيه: السحرة، والمنجمون، والكهان، والرمالون، وكل من يدعي أنه يعلم الغيب، ويقول للناس: سيحصل لكم كذا وكذا، أنت سيحصل لك سعادة، أو يحصل لك شيء من التعب، أو توفق في زواج، أو لا توفق، هؤلاء يدعون علم الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥].

وقال تعالىٰ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾: هذا حصر فلا يعلم الغيب إلا الله، أو من أطلعه الله علىٰ شيء من الغيب من رسله لأجل مصلحة البشر ومعجزة للرسول، لكن لم يعلم الغيب من ذات نفسه وإنما علمه للغيب من تعليم الله له، فلا يعلم الغيب إلا الله، فمن ادعىٰ علم الغيب فإنه يكون مشاركًا لله فيما اختص به سبحانه، فيكون مشركًا وطاغوتًا وكافرًا، وهذا من أعظم أنواع الردة عن الإسلام.

ومن حكم بغير ما أنزل الله [٨٢].

---

[٨٢] **الخامس: «من حكم بغير ما أنزل الله»**: ودليله قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء:٦٠]. فالذي يحكم بغير ما أنزل الله مستحلًّا لذلك يكون طاغوتًا، والذي يقول: إنه يجوز أن يتحاكم إلىٰ القانون، أو إلىٰ العوائد في الجاهلية، أو عوائد القبائل والبادية، ويتركوا الشرع، يقول: هذا حلال أو هذا يساوي ما أنزل الله، فإذا قال: إنه أحسن مما أنزل الله، أو يساوي ما أنزل الله، أو قال: إنه حلال فقط، ولم يقل: إنه يساوي ولا أفضل، قال: حلال جائز، هذا يعتبر طاغوتًا، وهذا بنص القرآن، قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ سمي طاغوتًا؛ لأنه تجاوز حده.

أما من حكم بغير ما أنزل الله، وهو يقر أن ما أنزل الله هو الواجب الاتباع والحق، وأن غيره باطل، وأنه يحكم بباطل، فهذا يعتبر كافرًا الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة؛ لكنه علىٰ خطر عظيم، علىٰ طريق قد يصل به إلىٰ الكفر المخرج من الملة إذا تساهل في هذا الأمر.

وأما من حكم بغير ما أنزل الله عن غير تعمد؛ بل عن اجتهاد، وهو من أهل الاجتهاد من الفقهاء، واجتهد؛ ولكن لم يصب حكم الله، وأخطأ في اجتهاده فهذا مغفور له.

قال ﷺ: **«إذا حكم الحاكم فاجتهد، ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد، ثم أخطأ فله أجر»**[1]؛ لأنه لم يتعمد الخطأ هو يريد الحق، ويريد موافقة

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦] [٨٣].

حكم الله ﷻ ؛ لكنه لم يوفق له فهذا يعتبر معذورًا ومأجورًا؛ ولكن لا يجوز اتباعه علىٰ الخطأ، لا يجوز لنا أن نتبعه علىٰ الخطأ.

ومن هذا اجتهادات الفقهاء التي أخطئوا فيها، أو اجتهادات القضاة في المحاكم إذا اجتهدوا وبذلوا وسعهم في طلب الوصول إلىٰ الحق؛ ولكن لم يوفقوا فخطؤهم مغفور.

[٨٣] قال ﷻ: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ معناه أن أحدًا لا يُكرَه علىٰ الدخول في الإسلام؛ لأن الدخول في الإسلام لابد أن يكون عن اقتناع، واعتقاد بالقلب، ولا يكره عليه أحد، لا يمكن هذا؛ لأن القلوب لا يتصرف فيها إلا الله ﷻ ، لا يكرَه أحد علىٰ الإسلام؛ لأننا لا نملك القلوب؛ وإنما الله -جل وعلا- هو الذي يملكها، ويتصرف فيها، ولكن نحن ندعو للإسلام ونرغب فيه.

نجاهد في سبيل الله من كفر لأجل نشر الإسلام، وإتاحة الفرصة لمن يريد أن يسلم، ولأجل قمع أعداء الله، أما الهداية فهي بيد الله ﷻ لا أحد يكرَه علىٰ الإيمان والإسلام، وإنما هذا شيء راجع إليه هو.

ثم قال تعالىٰ: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ فالإسلام، ولله الحمد ليس فيه ما يكره؛ بل كله محبوب ومرغوب، والكفر والشرك كله شر وكله مكروه، قد تبين

....

هذا من هذا، تميز الرشد، وهو الحق من الغي، وهو الباطل، والإنسان عنده عقل وعنده تفكير يوازن بين الحق والباطل، سيهديه تفكيره إن كان سليمًا وسالمًا من الهوىٰ والدوافع، سيهديه تفكيره السليم إلىٰ قبول الحق بدون أن يكره، هذا قول في الآية.

والقول الثاني: أن هذه الآية نزلت في أهل الكتاب، وأن أهل الكتاب لا يجبرون علىٰ الدخول في الإسلام، بل إذا أرادوا البقاء علىٰ دينهم مُكِّنوا من ذلك بشرط أن يدفعوا الجزية للمسلمين وهم صاغرون، أما غيرهم من الكفرة فلا يقبل منهم غير الإسلام أو القتل؛ لأنهم ليس لهم دين والوثنية دين باطل.

والقول الثالث: أن هذه الآية منسوخة بآية الجهاد، هذه في أول الأمر قبل أن يشرع الجهاد ثم شرع الجهاد فنسخت هذه الآية.

ولكن القول الأول هو الصحيح أن الآية غير منسوخة وأن الدين لا يدخل في القلوب بالإكراه، وإنما يدخل بالاختيار، لكن من لم يقبل الدين يعامل المعاملة اللائقة به من قتل، أو أخذ جزية مما شرع الله ﷻ في حقه.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِاللَّهِ﴾ الطاغوت: المراد جميع الطواغيت في العبادة، أو الاتباع أو في الطاعة؛ لأن كلمة الطاغوت هنا عامة.

قدم الكفر بالطاغوت علىٰ الإيمان بالله؛ لأن الإيمان بالله لا ينفع إلا بعد الكفر بالطاغوت، فمن آمن بالله، ولم يكفر بالطاغوت، فإنه لا ينفعه إيمانه.

فالذي يقول: أنه مؤمن، ويصلي ويصوم، ويزكي، ويحج، ويفعل الطاعات؛ لكنه لا يتبرأ من الشرك ولا المشركين ويقول: لا دخل لي فيهم، هذا لا يعتبر مسلمًا

وهذا هو معنىٰ لا إله إلا الله، وفي الحديث: «**رأس الأمرِ الإسلام، وعمودُهُ الصلاةُ، وذروَةُ سنامه الجهادُ في سبيل الله**»(١) [٨٤].

لأنه لم يكفر بالطاغوت؛ فلابد من الكفر بالطاغوت، وهو رفض الطاغوت واعتقاد بطلانه، والابتعاد عنه وعن أهله، لابد من هذا، فلا يصح إيمان إلا بعد الكفر بالطاغوت.

وفي الآية الأخرىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]. فلا تصح عبادة الله إلا باجتناب الطاغوت، لا يجتمع ضدان، لا يجتمع الإيمان والكفر في القلب. الإيمان والكفر الأكبر لا يجتمعان في قلب، أما الكفر الأصغر فقد يجتمع.

[٨٤] قال الشيخ: «**وهذا معنىٰ لا إله إلا الله**»، يعني: الكفر بالطاغوت والإيمان بالله.

الإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك وأهله، هذا هو رأس أمر الدين، الشهادتان هما رأس الإسلام وهما أصل الإسلام، فلا يدخل الإنسان في الإسلام إلا إذا أتىٰ بالشهادتين نطقًا وعلمًا وعملًا واعتقادًا، لا يكون الإنسان مسلمًا إلا بذلك، شبه الدين بالجسم الذي له رأس وعمود وسنام، فإذا قطع الرأس أو لم يكن هناك رأس فإنه لا بقاء للحياة، كذلك بدون التوحيد لا بقاء للدين، لأنه هو الرأس الذي إذا قطع أو زال زالت الحياة وفسد البدن.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في الكبرىٰ (١٠/ ٢١٤-٢١٥) (١١٣٣٠) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

....

وعموده الذي يقوم عليه هو الصلاة، فبدون عمود لا يقوم الإسلام، مثل بيت الشعر، أو الخيمة إذا لم يكن هناك عمود تقوم عليها فإنها لا تقوم، فلا يقوم بيت إلا بعمود فإذا فُقد العمود لا يقوم البيت، كذلك الصلاة إذا فُقدت فإن الإسلام لا يقوم.

ولذلك قال العلماء: إن من ترك الصلاة تكاسلًا فإنه يكفر علىٰ الصحيح، ولو كان يعترف بوجوبها؛ لأنه لا فائدة من الاعتراف بالوجوب مع عدم التطبيق وعدم العمل، لا فائدة من ذلك، ولذلك حكم المحققون من أهل العلم بكفر من ترك الصلاة متعمدًا ولو كان يقر بوجوبها، أما من كان يجحد وجوبها، فهذا كافر بإجماع المسلمين.

«وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله»: ذروة سنام الأمر، وهو الدين، الجهاد في سبيل الله فالجهاد دليل علىٰ قوة الإسلام، إذا وجد الجهاد في سبيل الله فهذا دليل علىٰ قوة الإسلام؛ لأن الجهاد لا يكون إلا من قوة إيمان وقوة مادة.

فالنبيﷺ جعل ثلاثة أشياء للدين: الرأس والعمود والسنام، فبعدم الرأس لا وجود للدين أصلًا، فالذي لا يحقق الرأس -وهو التوحيد- لا دين له.

والذي لا يصلي لا يقوم له دين، وإن شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله؛ لأنه يحتاج إلىٰ عمود يقيم عليه الدين، وهو لا يوجد إلا بالصلاة.

وإذا فُقد الجهاد فُقدت القوة في الإسلام، وصار إسلامًا ضعيفًا، وصار المسلمون مستضعفين، فلا قوة للإسلام والمسلمين إلا بالجهاد في سبيل الله ﷻ، فهو علامة القوة، وفقده علامة الضعف.

....

هذا وجه تشبيه الرسول ﷺ لهذه الأمور الثلاثة بالنسبة للدين: رأس وعمود وسنام، كما أن البعير إذا صار له سنام هذا يدل علىٰ أنه قوي وإذا لم يكن له سنام فهذا يدل علىٰ أنه هزيل ضعيف.

كذلك المسلمون اليوم مستضعفون في الأرض، ولهذا في الحديث: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه منكم حتىٰ ترجعوا إلىٰ دينكم**»[1]. فترك الجهاد ذل وضعف للمسلمين، ووجوده دليل القوة والسِّمَن، كالسنام للحيوان.

والله أعلم، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد.

وبهذا انتهىٰ شرح هذا الكتاب المبارك ثلاثة الأصول

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الفهرس

فهرس الموضوعات

سِلسِلَةُ شَرحِ الرَّسَائِلِ

الطبعة الثانية لـ :

دار الإمام أحمد
للنشر والتوزيع والصوتيات

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

٢٥٧٩ / ٢٠٠٦م

٦ شارع عزيز فانوس - منشية التحرير - جسر السويس - القاهرة

هاتف : ٠٠٢٠٢/٢٢٤١٤٢٤٨ تليفاكس : ٠٠٢٠٢/٢٦٣٦٥٦٣٨ جوال : ٠٠٢/٠١٠٦٠١٤٩٧٨

١١ (أ) درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر

هاتف : ٠٠٢٠٢/٢٥١٠٢٣٩٧ جوال : ٠٠٢/٠١٠٥٢٦٤٠٢٠

E-Mail:Dar_Alemam_Ahmad@yahoo.Com
WWW. DarAlemamAhmad.Com

سلسلة شرح الرسائل

الأصول الستة

ستة مواضع من السيرة

تفسير كلمة التوحيد

بعض فوائد سورة الفاتحة

نواقض الإسلام

الجامع لعبادة الله وحده

معنى الطاغوت

القواعد الأربع

شرح

معالي الشيخ الدكتور

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للإفتاء

اعتنى بنشرها والتعليق عليها

عبد السلام بن عبد الله السليمان

دار الإمام أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشارح

الحَمد للَّه رب العالَمين، والصلاة والسلام على نبينا مُحَمَّد وآله وصحبه.

وبعد:

فهذا شرح لرسائل شيخ الإسلام: مُحَمَّد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ كنت قد ألقيته في الدرس الأسبوعي.

فقام الشيخ: عبد السلام السليمان بتفريغه من الأشرطة وتخريج الأحاديث الواردة فيه وإعداده للطباعة، ثُمَّ راجعته بعد انتهاء الشيخ عبد السلام من عمله فيه، وأذنت له بطباعته رجاء الاستفادة منه.

واللَّه ولي التوفيق.

كتبه:

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

١٤٢٤/٧/٢٣هـ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمد للَّه رب العالَمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فهذه مجموعة من الرسائل من تأليف الإمام المُجدد الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ.

قام بشرحها في دروسه العلامة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان عضو هيئة كبار العلماء، فعرضت على الشيخ تفريغ هذا الشرح فوافق على ذلك، وراجعه وأصلحه بِمَا يناسب أن يخرج كتابًا، مع إضافة الأسئلة المُهمة الَّتي تتعلق بشرح الرسالة.

أسأل اللَّه أن يَجزي شيخنا الشيخ صالحًا خير الجزاء، وأن ينفع بعلمه الإسلام والمسلمين، وأن يغفر للإمام المُجدد الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب، وأن يَجزيه عنا وعن المسلمين الأجر والمثوبة.

عبد السلام بن عبد الله السليمان

الجمعة ٨ رجب ١٤٢٤هـ

(١)

الرسالة الأولى

الأصول الستة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد للَّه رب العالمين، وصلى اللَّه وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب -إمام الدعوة الإسلامية، وحامي حمى الملة الحنيفية-:

من أعجب العُجاب، وأكبر الآيات الدالة على قدرة المَلك الغلاب: ستة أصول بَيَّنَها اللَّه تعالى بيانًا واضحًا للعوام فوق ما يظن الظانون، ثم بعد ذلك غلط فيها أذكياء العالَم وعقلاء بَنِي آدم إلا أقل القليل [١].

---

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمد للَّه رب العالَمين، وصلى اللَّه وسلم وبارك على نبينا مُحمَّد وعلى آله وصحبه أجْمَعين.

لا شك أن اللَّه سبحانه أنزل القرآن تبيانًا لكل شيء، وأن الرسول ﷺ بيَّن هذا القرآن بيانًا شافيًا، وأعظمُ ما بيَّنه اللَّه ورسوله فِي هذا القرآن قضية التوحيد والشرك؛ لأن التوحيد هو أصل الإسلام وأصل الدين، وهو الذي تُبْنَى عليه جميع الأعمال، والشركُ يبطل هذا الأصل، ويفسده ولا يكون له وجودٌ؛ لأنهما أمران متضادان ومتناقضان لا يَجتمعان أبدًا؛ فلذلك اللَّه سبحانه بين هذا الأصل فِي كتابه فِي جميع القرآن، فلا تكاد تَخلو سورةٌ من ذكر التوحيد وذكر الشرك، والناس يقرءون هذا القرآن ويرددونه.

ولكن قلَّ من يتنبه لِهذا البيان، ولذلك تَجد كثيرًا من الناس يقرءون القرآن ويقعون فِي الشرك ويُخِلُّون بالتوحيد، مع أن هذا الأمر واضحٌ فِي كتاب اللَّه وفِي سُنة رسول اللَّه ﷺ؛ لأنَّهم يَمشون على العوائد وما وجدوا عليه آباءهم ومشايخهم، فالأصل

عندهم ما وجدوا عليه آباءهم ومشايخهم وأهل بلدهم، ولا يفكرون فِي يوم من الأيام أن يتأملوا ويتدبروا القرآن، ويَعرضوا عليه ما كان عليه الناس، هل هو صحيحٌ أو غير صحيحٍ؟

بل أخذهم التقليد الأعمى لآبائهم وأجدادهم، واعتبروا أن القرآن إنَّمَا يُقرأ للبركة وحصول الأجر بالتلاوة، وليس المقصود أنه يُقرأ للتدبر والعمل بِمَا فيه.

قلَّ من الناس من يقرأ القرآن لِهذا الغرض، إنَّمَا يقرءونه للتبرك به أو التلذذ بصوت القارئ، والترنُّم به، أو لقراءته على المَرضى للعلاج.

أما أن يُقرأ للعمل به والتدبر والصدور عما فيه، وعرض ما عليه الناس على هذا القرآن، فهذا لا يوجد إلا فِي قليلٍ من الناس، لا نقول: إنه معدومٌ، لكنه فِي أقل القليل، ولذلك تَجد القرآن فِي وادٍ، وأعمال بعض الناس فِي وادٍ آخر لا يفكرون فِي التغيير أبدًا، ولو حاول مُجددٌ أو داعٍ إِلَى اللَّه أن يغير ما هم عليه، لقاموا فِي وجهه واتهموه بالضلال، واتهموه بالخروج على الدين وأنه أتى بدينٍ جديدٍ وأنه وأنه.....

كما حصل لِهذا الشيخ نفسه لَمَّا حاول رَحِمَهُ اللَّهُ أن يرد الناس إِلَى القرآن وما دل عليه القرآن، ويغيِّر ما هم عليه من العادات والتقاليد الباطلة، ثاروا فِي وجهه وبدَّعوه وفسَّقوه، بل وكفَّروه واتَّهموه باتهاماتٍ، لكن فِي الحَقيقة هذا لا يضر وليس بغريبٍ، فإن الأنبياء قيل فيهم ما هو أشد من ذلك، لَمَّا أرادوا أن يغيروا ما عليه الأمم من عبادة غير اللَّه قيل فِي حق الأنبياء ما قيل، فكيف بالدعاة والعلماء؟! فلا غرابة فِي هذا، وهذا لا ينقص من أجر العالِم والداعية، بل هذا يزيد فِي حسناته عند اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وإنَّما يرجع بالنقص على من قاله ومن تفوَّه به وكتبه، فإن هذا يرجع عليه، أما العلماء المُخلصون والدعاة إِلَى اللَّه، فلا يضرهم ما قيل فيهم بل يزيد فِي درجاتهم وحسناتهم، ولَهم قدوةٌ بالأنبياء وما قيل فِي حقهم وما اتُّهموا به، واللَّه تعالَى يقول لنبيه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت: ٤٣].

الأصل الأول: إخلاص الدين للَّه تعالَى وحده لا شريك له [٢].

فالشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي هذه الكلمات يبين شيئًا من هذا الأمر العجيب: أن الناس يقرءون القرآن، ويكثرون من قراءته ويَختمونه ويَحفظونه ويرتِّلونه، ويركزون اهتمامهم بألفاظ القرآن وتَجويده وأحكام المد، وأحكام الإدغام، والغنة، والإقلاب، والإظهار، والإخفاء، ويعتنون بِهذا عنايةً فائقةً، وهذا شيءٌ طيبٌ.

ولكن الأهم والمَقصود ليس هذا، المَقصود تدبر المَعاني، والتفقه فِي كتاب اللَّه عَجَّلَّ وعرض أعمالنا وأعمال الناس على كتاب اللَّه: هل هي موافقةٌ لكتاب اللَّه أو مُخالفةٌ؟

هذا هو المَطلوب: أن نصحح أوضاعنا، وأن ننبه على أخطاء الناس، لا بقصد التشهير وقصد النيل من الناس، بل بقصد الإصلاح والنصيحة.

[٢] الشرح: الأصل الأول من هذه الأصول الستة: (إخلاص الدين للَّه وحده لا شريك له) هذا أصل الأصول وقاعدة الدين، وهذا هو المُعترك بين الأنبياء وبين الأمم، فالأنبياء يريدون أن يصححوا هذا الأصل الذي خلق اللَّه الخَلق من أجله وربط سعادتهم به.

فليس المُهم أن الإنسان يصوم ويصلي ويكثر من العبادات، المُهم الإخلاص، فقليلٌ مع الإخلاص خيرٌ من كثيرٍ مع عدم الإخلاص، فلو أن الإنسان يصلي الليل والنهار، ويتصدق بالأموال، ويعمل الأعمال لكن بدون إخلاص فلا فائدة فِي عمله؛ لأنه لا بدَّ من الإخلاص.

والإخلاص معناه: ترك الشرك وإفراد اللَّه -جل وعلا- بالعبادة، ولا أحد يستحق العبادة مهما بلغ من الكمال ومن الفضل إلَّا اللَّه، لا المَلائكة المُقربون، ولا الأنبياء والرسل، ولا الأولياء والصالِحون، هذا هو الأصل، ولا يتحقق هذا الأصل إلا بترك الشرك، أما من يَخلط بين العبادة للَّه وبين الشرك بغيره، فهذا عمله حابطٌ.

وأما الذي يُخلص عمله للَّه عَجَّلَّ فهذا هو السعيد، ولو كان عمله قليلًا، فقليلٌ من العمل مع الإخلاص، فيه الخير، وفيه النجاة؛ وحديث البطاقة لا يَخفى: «رجلٌ

وبيان ضدِّه الذي هو الشرك[٣].

يبعث يوم القيامة تعرض عليه أعماله مكتوبةً فِي سجلاتٍ، كل سجلٌ منها مد البصر، مَملوءةً بالسيئات، توضع هذه السجلات فِي كِفَّةٍ، وتوضع هذه البطاقة الَّتِي فيها «لا إله إلا اللَّه» قالها هذا الرجل من قلبه بإخلاصٍ ويقينٍ وإيمَانٍ؛ فرجحت هذه الكلمة بِجميع السجلات، وطاشت بِجميع السجلات»(١).

هذا هو الإخلاص فهو ما قالَها مُجرد لفظٍ، وإنَّما قالها عارفًا بِمعناها، معتقدًا بِما دلت عليه، لكنه مات قبل أن يتمكن من العمل، فكيف بالذي عنده أعمالٌ كثيرةٌ صالِحةٌ وخالصةٌ لوجه اللَّه ﷻ؟!

هذا فيه دلالة على أن الإخلاص وإن كان قليلًا فقد ينجي اللَّه به صاحبه، ويكفِّر عنه جميع الذنوب والسيئات، وأنه إذا فقد الإخلاص فلا فائدة من كثرة الأعمال.

[٣] ضد التوحيد: الشرك باللَّه ﷻ، فالتوحيد: هو إفراد اللَّه بالعبادة، والشرك: هو صرف شيءٍ من أنواع العبادة لغير اللَّه ﷻ، كالذبح والنذر والدعاء والاستغاثة ... إِلَى آخر أنواع العبادات، هذا هو الشرك، والشرك المَقصود هنا: هو الشرك فِي الألوهية، أما الشرك فِي الربوبية، فهذا غير موجودٍ فِي الغالب.

فالأمم كلها مقرةٌ بتوحيد الربوبية اضطرارًا، لَمْ يَجحده إلا من تظاهر بالإنكار، مع أنه يعترف به فِي الباطن؛ لأن الإقرار به ضروريٌّ، فالجَميع يعرف أن هذا الخَلق وهذا الكون لا بدَّ له من خالقٍ، وهذا الخلق الذي يسير لا بدَّ له من مدبِّرٍ، ليس موجودًا بِمجرد الصدفة أو موجودًا من نفسه ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].

فالإقرار بتوحيد الربوبية ضروريٌّ وفطريٌّ لكنه لا يكفي، لَمْ يكفِ المشركين إقرارُهم به كما فِي القرآن، فالقرآن صريحٌ فِي هذا ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾ [الزخرف: ٨٧] ماذا يُجيبون؟ يُجيبون: (اللَّه)، أي: اللَّه هو الذي خلقنا، هذا توحيد الربوبية،

---

(١) حديث البطاقة: أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠).

وكون أكثر القرآن فِي بيان هذا الأصل من وجوه شتى بكلام يفهمه أبلَدُ العامة [٤].

فالمَطلوب هو توحيد الألوهية، هذا الذي حصل فيه النزاع والخِلاف والخِصام بين الرسل والأمم، وبين الدعاة إِلَى اللَّه وبين الناس، هذا هو الذي فيه الخُصومة، فيه القتال، وفيه ما يتعلق بذلك من الولاء والبراء وغير ذلك.

[٤] اللَّه -جل وعلا- يقول: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦] هل هذا كلامٌ غامضٌ؟ العوام يفهمونه ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ يفهمون من هذه الآية الأمر بالعبادة والنهي عن الشرك، ولو أنَّهم لَمْ يتعلموا، يعرفون هذا من لغاتهم، هذه آيةٌ واحدةٌ، والقرآن مَملوءٌ من مثل هذا.

هذه الآيات يَمرون عليها ويقرءونها، لكن لا يفكرون فيها، يقول اللَّه تعالَى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

وهم يقولون: يا علي، يا حسين، يا بدوي، يا تيجاني، يا عبد القادر، يصرخون ويصيحون وينادون بأعلى أصواتهم: يا فلان يا فلان، وفلانٌ هذا ميتٌ!!!

وهذا الذي ينادي الميت ويصرخ ربَّما أنه يَحفظ القرآن بالقراءات السبع أو العشر، ويَجوِّده تَجويدًا منقطع النظير، «**يُقيمه إقامة السهم**»[(١)] -كما قال النَّبِي ﷺ- لكنه يعتنِي بِحروفه ويضُيع حدوده.

يقول الإمام ابن القيم: القرآن كله فِي التوحيد؛ لأنه إما أمرٌ بعبادة اللَّه وترك الشرك، وإما بيانٌ لِجزاء أهل التوحيد، وجزاء أهل الشرك، وإما فِي أحكام الحلال والحرام، وهذه من حقوق التوحيد، وإما قصصٌ عن الرسل وأمَمهم وما حصل بينهم من الخُصومات، وهذا جزاء التوحيد والشرك.

فالقرآن كله توحيدٌ، من أوله إِلَى آخره، ومع هذا يقرءون هذا القرآن وهم مقيمون على الشرك الأكبر، ويقولون: لا إله إلا اللَّه، ولا يعملون بِهَا، هم فِي وادٍ، والقرآن

---

(١) سنن الترمذي (٢١٨٨)، وسنن ابن ماجه (١٦٨)، ومسند أحمد (٣٥٩٦)، وسنن الدارمي (٢٠٤).

ثم صار على أكثر الأمة ما صار؛ أظهر لَهُم الشيطان الإخلاص فِي صورة تنقُّص الصالحين، والتقصير في حقوقهم [٥].

ولا إله إلا اللَّه فِي وادٍ آخر، إنَّمَا هي ألفاظ على اللسان فقط.

لو تسأل واحدًا منهم: ما معنى لا إله إلا اللَّه؟ لقال لك: لا أدري، أنا لَمْ أتعلم.

فنقول له: إذن أنت تقول: لا إله إلا اللَّه ولا تعلم ما معناها، هل هذا يليق بالمسلم؟!

تقول كلامًا لا تعرف معناه ولا تهتم به، أو تقول: سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته، مثلما يقول المُنافق فِي القبر إذا سئل: يقول: «**سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته**»(١) مُجرد مُحاكاة.

كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] شبَّههم اللَّه بالبهائم الَّتِي تسمع صوت الراعي وتسمع الحُداء، وتَمشي على صوت الراعي وهي لا تفهم معناه.

[٥] إذا قيل لَهم: لا تَدْعوا المَخلوقين، ولا تستغيثوا بِهم، ادعوا اللَّه واستغيثوا باللَّه، واسألوا اللَّه، وتوجهوا إِلَى اللَّه، لا تتوجهوا إِلَى القبور والأموات.

يقولون: أنت تتنقص الأولياء، هؤلاء الأولياء قدرهم عندنا أن نُجلّهم ونَحترمهم ونهتف بأسمائهم، هذا قدرهم فأنت تتنقصهم ولا تعترف بفضلهم، هكذا يقولون لدعاة التوحيد.

فنقول لَهم: نَحن نُحب الصالِحين، ونُحب أولياء اللَّه، ونواليهم ونُجلُّهم ونَحترمهم، ولكن لا نعطيهم شيئًا من حق الرب ﷻ ولا نعطيهم شيئًا من العبادة؛ لأنها ليست حقًّا لَهم، وهم لا يرضون بِهذا، ولا يرضون بأنهم يُدعَون مع اللَّه ويُستغاث بِهم فِي الشدائد.

---

(١) صحيح البخاري (٨٦)، وصحيح مسلم (٩٠٥)، وسنن النسائي (٢٠٦٢)، وسنن ابن ماجه (١٢٦٥)، ومسند أحمد (٢٦٣٨٥)، وموطأ مالك (٤٤٧).

وأظهر لَهُم الشرك بالله فِي صورة مَحبة الصالِحين وأتباعهم [٦].

الأصل الثاني: أمر الله بالاجتماع فِي الدين، والنهي عن التفرق، فبيَّن الله هذا بيانًا شافيًا تفهمه العوام [٧].

---

[٦] هم يقولون: إن استغاثتهم بالصالِحين واستنجادهم بِهم اعترافٌ بفضلهم وإجلالٌ لَهم، هذا ما زيَّن لَهم الشيطان، والمُراد بالشيطان شيطان: الجِن وشيطان الإنس، علماء الضلال شياطين الإنس يتكلمون ويكتبون ويؤلفون فِي الدعوة إِلَى الشرك، ويزعمون أن هذا من تعظيم الصالِحين، ومن الاعتراف بفضلهم، ومن موالاتهم، وأن عدم دعائهم وعدم الاستغاثة بِهم من الجفاء فِي حقهم، ومن بغضهم، إِلَى آخر ما يقولون، هذا موجودٌ فِي كتبهم.

[٧] هذا الأصل موجودٌ فِي القرآن، قال تعالَى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]. ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٥]. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

فلا يَجوز للمسلمين أن يتفرقوا فِي دينهم، بل يَجب أن يكونوا أمةً واحدةً على التوحيد ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

لا يَجوز لأمة مُحَمَّد أن تتفرق فِي عقيدتها، وفِي عبادتها، وفِي أحكام دينها، هذا يقول: حلالٌ، وهذا يقول: حرامٌ بغير دليل، لا يَجوز هذا. لا شك أن الاختلاف من طبيعة البشر، كما قال الله سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

لكن الاختلاف يُحسم بالرجوع إِلَى الكتاب والسنة، فإذا اختلفت أنا وأنت فإنه يَجب علينا أن نرجع إِلَى كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ، قال تعالَى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء: ٥٩].

أما ما يقال: كلٌّ يبقى على مذهبه، وكلٌّ يبقى على عقيدته، والناس أحرارٌ فِي

آرائهم، ويطالبون بِحرية العقيدة، وحرية الكلمة، هذا هو الباطل الذي نهى اللَّه عنه فقال: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فيجب أن نَجتمع فِي عرض اختلافنا على كتاب اللَّه حَتَّى فِي مسائل الفقه، إذا اختلفنا فِي شيء نعرضه على الأدلة، فمن شهد له الدليل صرنا معه، ومن أخطأ الدليلَ، فإننا لا نأخذ بالخَطأ.

إن اللَّه -جل وعلا- لَمْ يتركنا نَختلف ونتفرق بدون أن يضع لنا ميزانًا يبين الصحيح من الخطأ، بل وضع لنا القرآن والسُّنة ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني: القرآن، ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾ يعني: السنة، والرسول ﷺ يقول: «**إني تاركٌ فيكم ما إنْ تَمسَّكتم به لن تضلوا بعدي: كتابَ اللَّه وسنَّتي**»[1].

فكأن الرسول ﷺ موجودٌ بيننا بوجود السُّنة مدونةً ومصححةً وموضحةً، وهذا من فضل اللَّه ﷻ على هذه الأمة، أنه لَم يتركها فِي متاهةٍ، بل تركها وعندها ما يدلُّها على اللَّه ﷻ ويدلُّها على الصواب، أما الذي لا يريد الحَق، ويريد أن كل واحدٍ يبقى على مذهبه وعلى نِحْلَته.

ويقول: نَجتمع فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه. هذا لا شك أنه كلام باطل.

فالواجب أن نَجتمع على كتاب اللَّه وسُنة رسوله، وما اختلفنا فيه نردُّه إلَى كتاب اللَّه وسُنة رسوله، لا يعذر بعضنا بعضًا ونبقى على الاختلاف؛ بل نردُّه إلَى كتاب اللَّه وسُنة رسوله، وما وافق الحَقَّ أخذنا به، وما وافق الخطأ نرجع عنه. هذا هو الواجب علينا، فلا تبقى الأمة مُختلفةً، وربَّما يذكر الذين يدعون إلَى البقاء على الاختلاف حديث: «**اختلاف أمتي رحمةٌ**»[2] وهذا الحَديث يروى ولكنه ليس صحيحًا.

(١) أخرجه مالك فِي المُوطأ (٣).

(٢) أورده العراقي فِي المُغني عن حمل الأسفار (١/ ٢٨)، والفتني فِي تذكرة الموضوعات (٩٠)، والألباني فِي السلسلة الضعيفة (٥٧) وقال: لا أصل له، وقد جهد المُحدثون فِي أن يقفوا له على سند فلم يُوفَّقوا.

الاختلاف ليس رحمةً، الاختلاف عذابٌ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥] فالاختلاف يشتت القلوب ويفرق الأمة، ولا يُمكن للناس إذا صاروا مُختلفين أن يتناصروا ويتعاونوا أبدًا، بل يكون بينهم عداوةٌ وعصبيةٌ لفِرَقهم وأحزابهم، ولا يتعاونون أبدًا.

إنَّمَا يتعاونون إذا اجتمعوا واعتصموا بِحبل اللَّه جميعًا، وهذا هو الذي أوصى به النَّبِي ﷺ فقال: «**إن اللَّه يرضى لكم ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بِحبل اللَّه جميعًا ولا تفرَّقوا، وأن تُناصحوا مَنْ ولَّاه اللَّه أمرَكم**»(١). هذه الثلاث يرضاها اللَّه لنا.

والشاهد منها قوله: «**وأن تعتصموا بِحبل اللَّه جميعًا ولا تفرقوا**» وليس معنى هذا أنه لا يوجد اختلافٌ ولا يوجد تفرق.

طبيعة البشر وجود الاختلاف، ولكن معنى هذا: أنه إذا حصل اختلافٌ أو تفرقٌ يُحسم بالرجوع إلى كتاب اللَّه وسُنة رسوله ﷺ وينتهي النزاع وينتهي الاختلاف، هذا هو الحق.

وليس تَحكيم القرآن أو تَحكيم السُّنَّة مقتصرًا على مسألة النزاع فِي الخصومات بين الناس فِي الأموال، حيث يسمون الحُكم بِمَا أنزل اللَّه، أنه الحُكم بين الناس فِي أموالِهم ونزاعاتهم فِي أمور الدنيا فقط.

لا؛ بل هو الحكم بينهم فِي كل اختلافٍ وكل نزاعٍ، والنزاع فِي العقيدة أشد من النزاع فِي الأموال، والنزاع فِي أمور العبادات وأمور الحلال والحرام أشد من النزاع فِي الخُصومات فِي الأموال، إنَّمَا الخُصومات فِي الأموال جزءٌ أو جزئيةٌ من

(١) أخرجه مسلم (١٧١٥)، ومالك فِي المُوطأ (٢/ ٩٩٠)، والبخاري فِي الأدب المفرد (٤٤٢)، وأحمد (٨٣٣٤) و(٨٧١٨) و(٨٧٩٩)، وابن حبان (٥٧٢٠) من حديث أبِي هريرة.

ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا قبلنا فهلكوا [٨].

الاختلاف الذي يَجب حسمه بكتاب اللَّه ﷻ، والصحابة ﷺ كان يَحصل بينهم اختلافٌ لكن سرعان ما يرجعون إِلَى كتاب اللَّه وسُنة رسوله ﷺ فينتهي اختلافهم.

فقد حصل بينهم اختلافٌ بعد وفاة النَّبِي ﷺ حول من الذي يتولَّى الأمر من بعده؟ وسرعان ما حسموا النزاع ورجعوا وولَّوا أبا بكرٍ الصديق، وانقادوا له وأطاعوا له، وزال الاختلاف، وانحسمت الفرقة الَّتِي حصلت فيمن يتولَّى الأمر بعد الرسول ﷺ، فهم يَحصل بينهم اختلافاتٌ لكن يرجعون إِلَى كتاب اللَّه وسُنة رسوله ﷺ، ثُمَّ يذهب الاختلاف فيما بينهم.

وإن الرجوع إِلَى كتاب اللَّه يُزيل الأحقاد ويُزيل الأضغان، فلا أحد يعترض على كتاب اللَّه ﷻ فإنك عندما تقول لإنسان: تعالَ إِلَى قول الإمام الفلاني أو العالِم الفلاني لا يقتنع.

لكن لو قلت له: تعالَ إِلَى كتاب اللَّه وإِلَى سُنة رسوله ﷺ، فإن كان فيه إيمَانٌ فهو يقتنع ويرجع.

قال اللَّه تعالَى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١] هذا قول المُؤمنين، أما المُنافقون إن كان الحَق لَهم جاءوا مذعنين، وإن كان الحَق عليهم تولَّوا وأعرضوا كما ذكر اللَّه عنهم.

فلا يسع المُؤمنين أن يبقوا على اختلافهم فِي جميع الاختلافات، لا فِي الأصول ولا فِي الفروع، كلها تُحسم بالكتاب والسُّنَّة، وإذا لَمْ يتبين الدليل مع أحد المُجتهدين، وصار لا مرجِّح لقول أحدهم على الآخر، ففي هذه الحَالة لا يُنكر على من أخذ بقول إمام معين، ومِنْ ثَمَّ قال العلماء: «لا إنكار فِي مسائل الاجتهاد» أي: المسائل الَّتِي لَمْ يظهر الدليل فيها مع أحد الطرفين.

[٨] لَمَّا بقوا على اختلافهم، هلكوا وتناحروا فيما بينهم وتقاتلوا، هذا شأن أهل الاختلاف، أما شأن أهل الاجتماع فهو القوة وزوال الحقد من قلوبهم.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ

وذكر أنه أمر المُسلمين بالاجتماع فِي الدين، ونَهاهم عن التفرق فيه [٩].

ويزيده وضوحًا ما وردت به السنَّة من العجب العجاب فِي ذلك [١٠].

ثم صار الأمر إلَى أنَّ الافتراق فِي أصول الدين وفروعه هو العلم والفقه فِي الدين [١١].

حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

ولا يرضي الناس ولا ينهي النزاع إلا الرجوعُ إلَى كتاب اللَّه وسُنة رسوله ﷺ.

[٩] قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. أي: لا يصير كل واحدٍ له دينٌ؛ لأن الدين واحدٌ ليس فيه تفرق.

[١٠] نعم، ثبت عن الرسول ﷺ من الأحاديث ما يَحثُّ على الاجتماع وينهى عن التفرق والاختلاف.

مثل حديث: «**فإنه من يَعِش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسُنتي وسُنة الخُلفاء الراشدين...**» الحَديث(١).

[١١] صار الأمر مع الأسف عند المُتأخرين: أن الاختلاف فِي الأصول والفروع هو الفقه، مع أن الواجب العكس: أن الاجتماع هو الفقه فِي دين اللَّه.

هم يقولون: إن التفرق وإعطاء الحرية للناس وعدم الحَجْر عليهم هذا هو الفقه.

ونَحن نقول: الفقه هو: الاجتماع على كتاب اللَّه وسُنة رسوله ﷺ.

وبعضهم يقول: هذا من سَعة الإسلام أنه إذا حرم علينا أحد شيئًا نَجد من يفتي بِحلِّه، اتَّخذوا الناس هم المشرِّعين، فعلى رأي هؤلاء إذا قال فلانٌ: هذا حلالٌ، صار حلالًا لنا ولو كان حرامًا فِي كتاب اللَّه أو سُنة رسوله.

فنقول: نرجع إلَى كتاب اللَّه، فمن شهد له بالحَق أخذنا به، ومن شهد عليه بالخطأ تركناه، هذا هو الواجب.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٤٢)، وابن ماجه (٤٣)، وابن أبِي عاصم فِي السنة (٣٣) و(٤٨)، والحاكم (١/ ٩٧) من حديث العرباض بن سارية.

وصار الأمر بالاجتماع لا يقوله إلا زنديق أو مَجنون [١٢].

الأصل الثالث: أن من تَمام الاجتماع السمع والطاعة لِمَن تأمَّرَ علينا ولو كان عبدًا حبشيًّا [١٣].

---

[١٢] الذي يأمر بالاجتماع وترك الخِلاف يقولون عنه: هذا خارجٌ على الأمة، هذا زنديقٌ؛ لأنه يلغي أقوال العلماء، فنحن لا نلغي أقوال العلماء، إنَّمَا نعرضها على كتاب اللَّه، نَحن لَمْ نكلَّف باتباع الناس، إنَّمَا أُمرنا باتباع القرآن والسُّنة، هذا هو الحَق، ما أُمرنا باتباع فلانٍ وفلانٍ، واللَّه تعالَى لَمْ يَكِلنا إلَى آرائنا واجتهاداتنا، بل أنزل علينا كتابه وأرسل إلينا رسوله، وإذا رجعنا إلَى كتاب اللَّه وسُنة رسوله ﷺ زال الشقاق وزال الاختلاف واجتمعت الكلمة.

أتدرون أنه إلَى عهدٍ قريبٍ كان فِي المَسجد الحرام أربعة مَحاريب، كل أصحاب مذهبٍ يصلُّون جماعةً وحدهم مع أهل مذهبهم بِجوار الكعبة، حَتَّى قيَّض اللَّه مَنْ جمعهم على إمامٍ واحدٍ وزال -وللَّه الحَمد- هذا المَظهر السيئ.

هذا كله من اتباع المَذاهب واتباع الآراء، حَتَّى الصلاة فرَّقوها، صار الحنفي لا يصلي وراء الحنبلي، والحنبلي لا يصلي وراء الشافعي، ولا يصلون فِي وقتٍ واحدٍ، هذا يصلي فِي أول الوقت وهذا فِي آخره؛ لأن فلانًا يرى تأخير الصلاة، وفلانًا يرى تقديمها، يريدون أن يرضوا جميع الناس.

وهذا وجدناه فِي بعض البلاد الأخرى باقيًا إلَى الآن، حَتَّى الجُمعة لا يصلونها فِي وقتٍ واحدٍ، بعضهم لا يصليها إلا عند العصر؛ لأن فلانًا قال كذا وكذا، وإذا أراد أحدهم أن يصلي مبكرًا ذهب يصلي مع فلانٍ، وإذا أراد أحدهم أن يتأخر صلى مع فلانٍ، ولكن عندنا -وللَّه الحَمد- فِي هذه البلاد فِي ظل هذه الدعوة المُباركة عادوا فِي المَسجد الحرام إلَى ما كان عليه السلف الصالح يصلون جميعًا فِي وقتٍ واحدٍ وخلف إمامٍ واحدٍ.

[١٣] الأصل الثالث: طاعة ولي الأمر المسلم؛ لأنه لا يتم هذا الاجتماع إلا بطاعة ولي الأمر، فلا اجتماع إلا بإمامٍ، ولا إمامة إلا بسمع وطاعةٍ، فوليُّ الأمر

فبيَّن النبيﷺ هذا بيانًا شائعًا ذائعًا بكل وجه من أنواع البيان شرعًا وقدرًا[١٤] .

(ثم صار هذا الأصل لا يعرف عند أكثر من يدَّعي العلم فكيف العمل به)[١٥] .

المسلم جعله اللَّه رحمةً للمسلمين لإقامة الحدود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونصرة المظلوم من الظالِم، وحفظ الأمن.

هذا من رحمة اللَّه ﷻ والصحابة لَمَّا توفِّي الرسولﷺ لَمْ يدفنوه حَتَّى بايعوا إمامهم؛ لأنَّهم يَخشون من الاختلاف ومن الفتنة، لأنَّهم يعرفون أنه لا يصلح أن يعيشوا ولا ليلةً واحدةً بدون إمام؛ لأن هذا من ضروريات الدين.

ولا يُمكن أن يكون هذا إلا بالسمع والطاعة لوليِّ الأمر، ولِهذا يقول -جل وعلا-: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩]. بعد طاعة اللَّه وطاعة رسوله لابدَّ من طاعة أولي الأمر، وقوله: ﴿مِنكُمْ﴾ أي: من المسلمين، دلَّ على أنه يُشترط فِي ولي الأمر أن يكون مسلمًا.

[١٤] حيث قالﷺ: «**أوصيكم بتقوى اللَّه والسمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبد، فإنه من يَعِش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسُنتي وسُنة الخلفاء الراشدين المُهديين**»(١).

هذا الأصل الثالث: السمع والطاعة: «**اسمعوا وأطيعوا وإن تأمَّر عليكم عبدٌ**»(٢) فلا يُمكن أن تَحصل جماعةٌ للمسلمين إلا بولي أمرٍ مسلم ولو لَمْ يكن ذا نسب عربي بل لو كان مَملوكًا.

[١٥] صار هذا الأصل لا يُعرف عند كثيرٍ مِمَّن يدعي العلم، فيجهلون مسألة السمع والطاعة وما لَها من فضلٍ وما لَها من أهميةٍ، فكيف بالعوام وهم أشد جهلًا فِي هذا؟

فصار الشجاع -الذي يأمر بالمَعروف وينهى عن المنكر عندهم والذي لا تأخذه

---

(١) تقدم تَخريجه فِي الصفحة (١٩).

(٢) صحيح البخاري (٧١٤٢)، وسنن ابن ماجه (٢٨٦٠)، ومسند أحمد (١١٧١٦).

الأصل الرابع: بيان العلم والعلماء، والفقه والفقهاء[١٦].

فِي اللَّه لومة لائم، عندهم-: هو الذي يَخرج على إمام المسلمين، ويَخلع يد الطاعة، وينادي بالثورة على الحكام المسلمين بِمجرد حصول خطأ منهم، أو معصية لا تصل إِلَى حد الكفر.

وصار حديث المَجالس والندوات والمُحاضرات فِي تتبع عثرات الولاة وتفخيمها والنفخ فيها، حَتَّى يئول الأمر إِلَى تفرُّق الكلمة، وتنفير الرعية من طاعة ولي الأمر حَتَّى يَختلَّ الأمن وتُسفك الدماء، ويئول الأمر إِلَى فساد أشد من الفساد الذي يَحصل من الصبر على طاعة ولي الأمر الفاسق والظالِم الذي عندهم لَمْ يصدر منه كفر بواح عندهم عليه من اللَّه سلطان.

[١٦] هذا أصلٌ عظيمٌ: وهو بيان المراد بالعلم؟ وهو أن العلم هو العلم الشرعي المبنِي على كتاب اللَّه وسُنة رسوله ﷺ، هذا هو العلم النافع، أما علوم الدنيا من الحِرف والصناعات والطب وغير ذلك، هذه لا يطلق عليها العلم بدون قيد.

فإذا قيل: العلم، والذي فيه الفضل، فإن المراد به العلم الشرعي، أما علم الحِرف والصناعات والمهن فهذه علومٌ مباحةٌ ولا يطلق عليها اسم العلم بدون قيدٍ.

إِنَّمَا يقال: علم الهَندسة، وعلم الطب، لكن للأسف أصبح الآن فِي عُرف الناس إذا قيل: العلم، فإنه يراد به العلم الحَديث، ويقولون إذا سمعوا شيئًا من القرآن: هذا يشهد له العلم الحَديث، وإذا جاء حديثٌ قالوا: هذا يشهد له العلم.

صار العلم الآن يطلق على علم الحِرف والصناعات والطب وغير ذلك، مع أنه قد يكون جهلًا؛ لأنه قد يعتريه شيءٌ من الخطأ الكثير؛ لأنه مَجهودٌ بشري، خلافَ العلم الشرعي فإنه من اللَّه، فهو ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] وهم علماء الشرع الذين يعرفون اللَّه ﷻ أما علماء الهَندسة والصناعة والاختراع والطب، فهؤلاء قد يكونون يَجهلون حق اللَّه -جل وعلا- ولا يعرفون اللَّه، وإن عرفوه فمعرفتهم قاصرةٌ، لكن

وبيانُ مَن تشبَّه بهم وليس منهم [١٧].

وقد بيَّن اللَّه تعالى هذا الأصل فِي أول سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠]. إلَى قوله قبل ذِكْر إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: ١٢٢] [١٨].

الذين يعرفون اللَّه هم علماء الشرع، قال تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ لأنَّهم يعرفون اللَّه بأسمائه وصفاته، ويعرفون حقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهذا لا يَحصل بعلم الطب وعلم الهَندسة، وإنَّما قد يَحصل به توحيد الربوبية فقط، أما توحيد الألوهية فهذا إنَّمَا يَحصل بعلم الشرع.

[١٧] المَقصود بيان من تشبَّه بأهل العلم وليس هو من أهل العلم، إنَّمَا يُحاكي أهل العلم ويتشبَّه بِهم وهو لا يَملك رصيدًا من العلم، وهذا ضرره عظيم على نفسه وعلى الأمة؛ لأنه يقول على اللَّه بغير علم، ويُضل الناس بغير علم، قال تعالَى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾ [الأنعام: ١٤٤] وقد قيل: «يفسد الدنيا أربعةٌ: نصف فقيه، ونصف نَحوي، ونصف طبيب، ونصف متكلم؛ هذا يفسد البلدان، وهذا يفسد اللسان، وهذا يفسد الأبدان، وهذا يفسد الأديان».

[١٨] اللَّه -جل وعلا- فِي سورة البقرة أنزل آيات كثيرة فِي بنِي إسرائيل لتذكيرهم بنعمة اللَّه عليهم، وأمرَهم باتباع مُحَمَّد ﷺ الذي يعرفون نبوته ورسالته فِي كتبهم، وبشرت به أنبياؤهم، بدأها من قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة: ٤٠] وختمها بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٢] ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ﴾ [البقرة: ١٢٣] ثُمَّ ذكر إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- فقال: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ﴾ [البقرة: ١٢٤].

كل هذه الآيات ما بين الآية الأولى والآية الأخيرة، آياتٌ كثيرةٌ كلها فِي بني إسرائيل لتذكيرهم بنعمة اللَّه بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأن الواجب عليهم أن يؤمنوا برسول اللَّه مُحَمَّد ﷺ.

ويزيده وضوحًا ما صرحت به السنَّة فِي هذا من الكلام الكثير البيِّن الواضح للعامي البليد [١٩].

ثم صار هذا أغرب الأشياء، وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات [٢٠].

وخيار ما عندهم لبس الحَق بالباطل [٢١]، وصار العلم الذي فرضه اللَّه تعالَى على الخَلق ومَدَحَه لا يتفوَّه به إلا زنديق أو مَجنون [٢٢].

وبنو إسرائيل هم أولاد يعقوب، فإسرائيل هو يعقوب؛ لأنَّهم من ذريته وهم اثنا عشر سبطًا، كل ابنٍ من أبنائه صار له ذريةٌ، وكل ذريةٍ يسمون السِّبط بِمثابة القبائل فِي العرب، قال تعالَى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠].

[١٩] نعم جاءت الأحاديث الَّتِي فيها من الحثِّ على تعلم العلم والترغيب فيه، وبيان ما هو العلم النافع وما هو العلم الذي لا ينفع، الشيء الكثير، وإذا راجعت كتاب «**جامع بيان العلم وفضله**» لابن عبد البر أو غيره، عرفت هذا.

[٢٠] صار العلم والفقه عند بعض المُتأخرين هو البدع والضلالات؛ لأنَّهم تركوا العلم الصحيح المبنِي على كتاب اللَّه وسُنة رسوله ﷺ، وصار العلم عندهم: قال فلانٌ وقال فلانٌ، وحكاياتٌ.

كقولهم: إن القبر الفلاني ينفع من كذا، وإن البقعة الفلانية رأى فيها فلانٌ فِي المنام كذا، هذا علم هؤلاء، أو يبحثون عن الأحاديث المَوضوعة والمَقبورة الَّتِي قبرها أهل العلم، وبينوا أنَّها مكذوبةٌ، فتجد المُخرفين يَجعلونها صحيحةً ويزينون لَها أسانيد، ويرممونها ويقولون: هذه أحاديث صحيحة، ويتركون الأحاديث الصحيحة الواردة فِي البخاري ومسلم والسنن الأربع والمَسانيد المُعتبرة، يتركونها لأنها ليست فِي صالِحهم.

[٢١] يَجب أن يُميز الحق من الباطل ويفصل بينهما، أما إذا خُلط بينهما فهذا هو التلبيس والغش والتدليس على الناس.

[٢٢] لأنه يُخالف ما هم عليه، فالعلم الذي أثنى اللَّه عليه وعلى أهله ومدحه صار عندهم جهلًا، ومن تفوه به -أي: تكلم به- فهو مَجنونٌ؛ لأنَّهم يقولون: إن العلم

وصار مَنْ أنكره وعاداه وصنَّف فِي التحذير منه والنَّهي عنه هو الفقيه العالِم [٢٣].

الأصل الخَامس: بيان اللَّه سبحانه لأولياء اللَّه، وتفريقه بينهم وبين المُتشبِّهين بهم من أعداء اللَّه والمُنافقين والفُجَّار[٢٤].

الذي فرضه اللَّه يغير ما عليه الناس!! ويغير دين آبائنا وأجدادنا!!

[٢٣] من صنَّف فِي التحذير من العلم النافع، ومدح العلم المَذموم ونشره فِي الناس يقولون عنه: هذا هو الفقيه، هذا هو العالِم، أما من نشر العلم الصحيح يقولون عنه: هذا لا يصلح، وهذا جاهلٌ، وهذا يريد أن يفرق الناس، إنا نريد التجميع لا نريد التفريق، أي: التجميع ولو على الباطل، ولا نريد التفريق الذي فيه تَمييز الحق من الباطل، وتَمييز الطيب من الخَبيث، وهذا مُحال، فإنه لا يَحصل الاجتماع على الباطل، وإنَّما يَحصل الاجتماع على الحق، والشاعر يقول:

إذا ما الجرح رَمَّ على فسادٍ تبيَّن فيه إهمال الطبيبِ

[٢٤] نعم، هذا أصلٌ عظيمٌ، وهو التفريق بين أولياء اللَّه وأولياء الشيطان؛ لأن أهل الباطل صاروا يسمون أولياء الشيطان أولياء اللَّه، حَتَّى إن هذا الأمر التبس على الناس؛ ولذلك صنف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كتابًا نافعًا مفيدًا سماه: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان».

قال اللَّه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ثُمَّ بيَّنهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]. هؤلاء هم أولياء اللَّه، جمعوا بين الإيمان وبين التقوى، بين العلم النافع والعمل الصالح، هؤلاء هم أولياء اللَّه، ليس أولياء اللَّه من خرج على شرع اللَّه وغيَّر دين اللَّه، ودعا إلَى عبادة القبور والأضرحة، هذا ولي الشيطان، وليس الولي هو الساحر والكاهن والخُرافي الذي يُظهر للناس مَخاريقَ سحرية، ويقول: هذه كراماتٌ!! وهي فِي الحقيقة مَخاريق شيطانيةٌ.

ويكفي فِي هذا آيةٌ في آل عمران (٣١) هي قوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [٢٥].

وآيةٌ فِي المَائدة (٥٤)، وهي قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [٢٦].

وآيةٌ في يونس (٦٢-٦٣) وهي قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [٢٧].

---

[٢٥] مَحبة اللَّه هي أعظم أنواع العبادة، وعلامة مَحبة اللَّه: اتباع الرسول ﷺ، فالذي لا يتبع الرسول ليس وليًا للَّه، ولا يُحب اللَّه، وهؤلاء المُخرفون يقولون: لا يكون وليًا للَّه إلا إذا خرج عن طاعة الرسول ﷺ، فهم عندهم الولاية فِي الخروج عن سُنة الرسول ﷺ والاعتماد على الخرافات والبدع، هذه هي الولاية عندهم!!

هم يقولون: نَحن نعبد اللَّه لأننا نُحبه، لا نعبده خوفًا من ناره ولا طمعًا فِي جنته، وإنَّما نعبده لأننا نُحبه.

فيقال لَهم: تُحبونه على طريقة من؟ هل تُحبونه على طريقة الرسول ﷺ، أو على طريقة غيره؟ إنه لا يُحب اللَّه إلا من اتبع الرسول ﷺ، هذا هو الفاصل بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

[٢٦] هذه صفات أولياء اللَّه، أنَّهم يُحبون اللَّه ويُحبهم اللَّه، ويكونون ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ يعني: يُحبون المُؤمنين، وفيهم ولاءٌ للمؤمنين، وفيهم بغض وبراءةٌ من المشركين ﴿يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ هذه أربع صفات هي صفات أولياء اللَّه، وأما الذين يأمرون بعبادة غير اللَّه يدعون مَنْ فِي القبور والأموات والأضرحة، ويسمون خوارق الشيطان كراماتٍ من اللَّه، فهذه صفات أعداء اللَّه.

[٢٧] فأنت تأخذ من هذه الآيات الثلاث صفة أولياء اللَّه، الأولى فِي سورة آل عمران، والآية الثانية فِي سورة المَائدة، والثالثة فِي سورة يونس، فيها صفات أولياء

ثم صار الأمر عند أكثر من يدعي العلم، وأنه من هداة الخَلق وحُفَّاظ الشرع إلَى أن أولياء اللَّه لا بد فيهم من ترك اتِّباع الرسل، ومن تَبِعهم فليس منهم [٢٨].

اللَّه، من اتصف بِهَا فهو وليٌّ للَّه، ومن اتصف بضدها فهو وليٌّ للشيطان..

[٢٨] إذا خرج عن الشرع، يقال عندهم: هذا عارفٌ وصل إِلَى اللَّه ليس بِحاجة إِلَى اتباع الرسول، يأخذ عن اللَّه مباشرة.

يقولون: أنتم تأخذون دينكم عن ميت عن ميت -يعني: بالأسانيد- ونَحن نأخذ ديننا عن الحي الذي لا يَموت، يزعمون أنَّهم يأخذون عن اللَّه مباشرةً.

وَمنْ يأخذ عن الرُّسل فليس من الأولياء عندهم، فلا يكون وليًّا عندهم إلا من خرج عن طاعة الرسول ﷺ.

ولا يصير الولي الآن فِي عرف كثيرٍ من المُتأخرين إلا من بُني على قبره قبةٌ أو مسجدٌ، أما المَدفون الذي دفنه على السُّنة الذي لَمْ يوضع على قبره شيءٌ، فهو عندهم ليس بوليٍّ ولو كان من أفضل الناس.

ثُمَّ أيضًا عندهم الولي له زيٌّ خاصٌّ، بأن يلبس عمامةً ويلبس ثوبًا خاصًّا.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ليس لأولياء اللَّه علامةٌ يتميزون بِهَا، بل يكونون كسائر الناس ما يُعرفون، والرسول ﷺ يقول: **«رُبَّ أشعث أغبر مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على اللَّه لأبَرَّه»**(١).

هذه صفات أولياء اللَّه أنهم لا يُظهرون أنفسهم، بل يَحرصون على الاختفاء؛ لأجل الإخلاص للَّه عَزَّ وَجَلَّ.

إذن من صفات أولياء اللَّه: التواضع، والاختفاء وعدم الظهور.

---

(١) سنن الترمذي (٣٨٥٤).

الأصل السادس: رد الشبهة التي وضعها الشيطان فِي ترك القرآن والسنَّة واتباع الآراء والأهواء المُتفرقة المُختلفة، وهي أن القرآن والسنَّة لا يعرفهما إلا المُجتهد المُطلق [٢٩].

والمُجتهد هو المَوصوف بكذا وكذا أوصافًا لعلها لا توجد تامة فِي أبي بكر وعمر [٣٠].

---

[٢٩] هذا هو الأصل الأخير وهو مهمٌّ جدًّا، وهو أنَّهم يقولون: إنَّا لا نعرف معاني الكتاب والسُّنة، ولا يُمكن أن نعرفها، لا يعرفها إلا العلماء الكبار.

فيقال لَهم: القرآن فيه أشياء واضحةٌ يعرفها العامي ويعرفها المتعلم، تقوم بِهَا الحجة على الخلق، وفيه أشياء لا يعرفها إلا العلماء، وفيه أشياء لا يعلمها إلا اللَّه سبحانه وتعالى.

نعم يوجد فِي القرآن والسُّنة أمور لا يعرفها إلا المُجتهد المُطلَق، لكن توجد أشياء كثيرةٌ يعرفها العوام، ويعرفها المتعلم الذي حاز على قدر يسير من العلم، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ [المائدة: ٧٢].

ومثل: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ﴾ [الإسراء: ٣٢].

ومثل: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ [المائدة: ٣].

ومثل: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾ [النور: ٣٠].

هذه أمورٌ واضحةٌ يعرفها العامي إذا سمعها.

[٣٠] يضعون شروطًا للمجتهد المطلق قد لا توجد تامةً فيمن هم من أفضل الناس مثل أبِي بكر وعمرَ، وهذا الشروط وضعوها من عند أنفسهم.

يقول اللَّه تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ﴾ [النساء: ٨٢]. هذا عامٌّ للمسلمين.

كلٌّ يعرف من القرآن ما يسَّر اللَّه له، فالعامي يَحصل على ما يستطيع، والمتعلم يَحصل على ما يستطيع، والراسخ فِي العلم يَحصل على ما يستطيع. ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ

ومن طلب الهُدى منهما فهو : إما زنديق ، وإما مَجنون ؛ لأجل صعوبة فهمها ، فسبحان اللَّه وبِحمده ، كم بيَّن اللَّه سبحانه شرعًا وقدرًا ، خلقًا وأمرًا فِي رد هذه الشبهة المَلعونة من وجوه شتى بلغت إلَى حد الضروريات العامة ، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ٧-١١] [٣١].

والحَمد للَّه رب العالَمين ، وصلى اللَّه على نبينا مُحمَّدٍ وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلَى يوم الدين [٣٢].

مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]. كل وادٍ يأخذ من السيل قدره ، كذلك العلم أنزله اللَّه ، وكل قلبٍ يأخذ منه بقدرٍ ، قلب العامي وقلب المتعلم وقلب العالِم وقلب الراسخ فِي العلم ، كل واحد يأخذ بقدره ، وبقدر ما أعطاه اللَّه من الفهم ، أما أنه لا يفهم شيئًا من القرآن إلا المُجتهد المُطلق ، فهذا كلام غير صحيح .

ويقولون : مُحاولة فهم القرآن من التكليف بِمَا لا يُستطاع ، والشروط الَّتِي ذكرها العلماء وقالوا لابدَّ أن تتوفر فِي المُفتي يريدون بِهَا : المُجتهد المطلق ، ولا يريدون أنَّها لابد أن تتوفر فِي كل مَنْ يريد أن يتدبر القرآن ويستفيد منه ، ثُمَّ هي شروط لاستنباط الأحكام الغامضة الخفية ، وليست شرطًا فِي فهم الأمور الواضحة مثل التوحيد والشرك ، والواجبات الظاهرة والمُحرمات الظاهرة .

[٣١] هذه الآيات فِي المعرضين عن تدبر كلام اللَّه وكلام رسوله ﷺ ، وفِي آخرها الذي مَنَّ اللَّه عليه وهو ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [يس: ١١] فهذا مَثلٌ للفريقين .

[٣٢] ختم الرسالة بِمثل ما بدأها به بِحمد اللَّه والصلاة والسلام على رسوله وهذا من مَحاسن التأليف والتعليم وذلك بالثناء على اللَّه أولًا وآخرًا .

....

والصلاة والسلام على رسوله معلم الخير والداعي إِلَى اللَّه، صلى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه وسار على نهجه وتَمسك بسُنته إِلَى يوم الدين. والحَمد للَّه رب العالمين.

* * *

الأسئلة

* أثابكم اللَّه فضيلة الشيخ، ما رأيكم فيمن يقول: إن المقصود بأُولي الأمر الذين ذُكروا فِي الآية هم العلماء وليسوا الأمراء؟

هذا غلطٌ، لأن الآية شاملةٌ تشمل العلماء والأمراء، هذا هو الصحيح، أنَّها فِي الأمراء وفِي العلماء، كلهم يقال لَهم: أولي الأمر.

* أحسن اللَّه إليكم، هل الذين يذهبون للكُهَّان والعرَّافين يكفرون كفرًا أكبر، ويعامَلون معاملة المُرتدين؟

نَحن نقول ما قاله الرسول ﷺ: «**من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدَّقه فيما يقول فقد كفر بِمَا أُنزل على مُحمد**»(١).

* أثابكم اللَّه، سؤالٌ يقول: ما ردكم على هذا التعبير الذي يدرَّس فِي المدارس: «أن المَادة لا تفنى ولا تُستحدث من العدم، مع أن اللَّه بديع السموات والأرض»؟

هذا كلام أهل الطبيعة، الذين يقولون بالطبيعة ولا يقرُّون بالخالق، والحق أن كل شيءٍ يوجد من عدمٍ ويفنى بعد وجوده إلا اللَّه ﷻ، فإنه لا بداية له ولا نهاية: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

* فضيلة الشيخ، هناك بعض الإخوة ينتسبون إلى جماعة التبليغ، ويدعوننا كثيرًا للخروج معهم، ويستدلون على كونهم على الحق بكثرة من يهتدون على أيديهم من الكفار وغيرهم فِي أنْحاء العالَم، فكيف نرد عليهم؟

نرد عليهم، بأن نقول: من الذي اهتدى على أيديهم فِي التوحيد؟ هل واحدٌ من الكفار أو من المبتدعة أو من القبوريين اهتدى على يد جماعة التبليغ وترك الشرك، وتاب إلى اللَّه من الشرك، وعرف التوحيد أو لا؟ إنَّما هم يتوِّبون الناس من الذنوب،

---

(١) سنن الترمذي (١٣٥)، وسنن أبي داود (٣٩٠٤)، وسنن ابن ماجه (٦٣٩)، ومسند أحمد (٩٠٣٥)، وسنن الدارمي (١١٣٦).

لكن الشرك لا يتعرضون له قطُّ ولا يُحذِّرون منه، ولذلك تكثر فِي بلادهم عبادة الأضرحة والقبور ولا يتعرضون لَها، فما معنى هذا؟! وأي دعوةٍ هذه؟! ثم إنهم يتوِّبون الناس من المعاصي ويُدخلونهم فِي البدع التي يسيرون عليها فِي منهجهم المعروف.

* أثابكم اللَّه، ما حكم صلاة التسبيح؟

لَم تثبت عن النَّبِي ﷺ، والنبي ﷺ يقول: «**مَنْ عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ**»[1]، وما دامت لَمْ تثبت، فلا يَجوز العمل بِهَا، وأيضًا فيها غرابةٌ من ناحية صفتها، فالنبي ﷺ نهى عن قراءة القرآن فِي الركوع والسجود، وهي فيها قراءةٌ للقرآن فِي الركوع والسجود، وفيها صفاتٌ مُخالفةٌ للصلوات المشروعة، مِمَّا يدل على أنَّها ليس لَها أصلٌ.

فالذي يريد الخَير فهو موجود فِي الصلوات المشروعة، صلِّ يا أخي صلاة الضحى، صلِّ صلاة الليل، والوتر، والرواتب مع الفرائض، الباب مفتوحٌ.

وصلى اللَّه على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

(١) صحيح البخاري (٢٦٩٧)، وصحيح مسلم (١٧١٨)، وسنن أبي داود (٤٦٠٦)، وسنن ابن ماجه (١٤)، ومسند أحمد (٢٣٩٢٩).

(٢)

الرسالة الثانية

ستة مواضع من السيرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمد للَّه رب العالَمين، وصلى اللَّه وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال شيخ الإسلام الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب رحمه اللَّه وعفا عنه... آمين: تأَمَّل رحمكَ اللَّه ستةَ مواضع من السيرة، وافْهَمها فهمًا حسنًا [١].

---

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: (تأمل رحمك اللَّه ستة مواضع من السيرة، وافهمها فهمًا حسنًا) السيرة: المراد بِهَا سيرةُ الرسول ﷺ، وهي الطريقة الَّتِي كان يسير عليها الرسول ﷺ منذ بعثته إِلَى أن توفاه اللَّه ﷻ فِي العبادة، وفِي المعاملات، وفِي الدعوة إِلَى اللَّه ﷻ، وفِي الجهاد والهجرة، وفِي التعليم، فكل أفعاله وأقواله وتصرفاته ﷺ هي سيرته -عليه الصلاة والسلام-، وهذا أمر مهم أن المسلم يدرس سيرةَ الرسول ﷺ من أجل أن يقتدي به؛ لأن اللَّه -جل وعلا- قد جعله قدوة لنا.

قال ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١] فهو قدوتنا -عليه الصلاة والسلام-، فلندرس سيرته من أجل أن نقتدي به فِي ذلك، وهذا هو المطلوب من دراسة السيرة والتفقه فيها، ليس المقصود أن السيرة تُقرأ فِي مناسبة مبتدَعة مثل مناسبة المَولد، فإن هذه القراءة لا تسمن ولا تغنِي من جوع؛ لأنها ليست للتفقه فيها؛ وإنَّما هي للتبرك جريًا على العادة فقط، فلا تفيد شيئًا؛ لأن تَخصيصها بوقت معين ثُمَّ تطوى، هذا الأمر لا ينفع ولا يفيد، السيرة مطلوبٌ دراستُها دائمًا، ولا نقصد بالدراسة مُجرد أننا نقرؤها من أولِها إِلَى آخرها ونقول: قرأنا السيرة، لا، لا بد أن نتفقه فيها ونقتدي بالرسول ﷺ فِي أفعاله وأقواله، هذا هو المقصود.

لعل اللَّه أن يفهمك دين الأنبياء لتتبعه، ودين المشركين لتتركه[٢].

وقد كتب الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابًا عظيمًا فِي فقه السيرة وهو: «زاد المعاد فِي هدي خير العباد» وكتب بعض المعاصرين كتابات منها ما هو صحيح، ومنها ما هو سيئ، ومنهم من انْحرف وجاء بالشركيات، وحث على التبرك بالآثار، وجعل هذا هو المَقصود من قراءة السيرة، ولكن هذا لا عبرة به؛ لأن كلًّا ينفق مِمَّا عنده، الذي عنده شيء جيد ينفق شيئًا جيدًا، والذي عنده شيء رديء ينفق رديئًا، والحَمد للَّه، نسأل اللَّه أن يهدينا وإياكم، ويهدي هؤلاء إِلَى سواء السبيل، وأن يردهم إِلَى الحَق، ونَحن لا نتندر بِهم؛ لئلا يصيبنا ما أصابهم، ولكن نسأل اللَّه العافية، نسأل اللَّه أن يهديهم وأن يردهم إِلَى الصواب.

فالمَقصود من دراسة سيرة الرسول ﷺ: هو الاعتبار والعمل، والاقتداء بالرسول ﷺ، وأخذ الأحكام منها، هذا هو المَطلوب؛ لأن حياته ﷺ كلها خير، وكلها علم، وكلها عمل صالح، كلها جهاد، وكلها دعوة، وكلها تعليم.

حياته ﷺ فائضة بالخَير العظيم من جميع النواحي، كلها عبادة.

فعلينا أن نعتنِي بسيرته ﷺ، والشيخ أخذ منها ستة مواضع مهمة والبقية موجودة فِي سيرته ﷺ، لكن هذه المواضع تتعلق بالعقيدة.

[٢] هذا المَقصود من دراسة السيرة، أنك تفهم دين الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، تفهم التوحيد لتتبعه، وتفهم الشرك من أجل أن تَجتنبه، فلا يكفي أن الإنسان يعرف الحَق فقط بل لابد أن يعرف الحَق ويعرف الباطل، يعرف الحَق من أجل أن يعمل به، ويعرف الباطل من أجل أن يتجنبه؛ لأنه إذا لَمْ يعرف الباطل وقع فيه وهو لا يدري.

فأنت عندما تسير فِي طريق وأنت لا تعرف هذا الطريق، وفيه حُفر وفيه مهالك، ربَّما تهلك وأنت لا تدري، تقع فِي الحفر وأنت ما دريت، لكنك إذا درست الطريق، فعرفت ما فيه من المسالك، وما فيه من الأخطار، فإنك تكون على بينة، تتجنب المهالك الَّتِي فِي الطريق.

فإن أكثر من يدعي الدين ويدعي أنه من المُوحدين لا يفهم السنة كما ينبغي[٣].

هذا فِي الأمور الحسية، كذلك فِي الأمور العقدية من باب أولَى، فلابد أن تعرف الباطل، تعرف الشرك، وما هي أنواعه وما هي أسبابه، وما هي الوسائل الَّتِي توصل إليه حَتَّى تتجنبها. يقول الشاعر:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقِّيه ... ومن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه

حذيفة بن اليمان -رضي اللَّه تعالَى عنه- الصحابي الجليل يقول: كان الناس يسألون النَّبِي ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مَخافة أن أقع فيه(١).

فلابد من معرفة الخير ومعرفة الشر، والبعض اليوم يقول: تعرف الحق، وليس من الضروري أن تعرف ما يضاده.

وهذا باطل؛ لأنك إذا لَمْ تعرف الباطل يظل خافيًا فتضل عن الحق، لاسيما ودعاة السوء ودعاة الضلال على استعداد لإضلال الناس.

[٣] المشركون يتقربون إلَى اللَّه بالشرك يظنون أنه خير؛ لأنَّهم لا يعرفون الشرك، فصاروا يتقربون به إلَى اللَّه!!

فهم يذبَحون للأولياء والصالِحين، ويتبركون بقبورهم ويستغيثون بِهم، ويقولون: نَحن نعلم أنَّهم ليس لَهم من الأمر شيء، وأنهم لا ينفعون ولا يضرون، لكن هم صالِحون نريد منهم أن يتوسطوا لنا عند اللَّه سبحانه، كما قال اللَّه عن أسلافهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ هم يعترفون أنَّهم لا يضرونهم ولا ينفعونهم ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. اتَّخذوهم شفعاء فقط، وفِي الأخرى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٧]. لَمْ يتعلموا، فهم يَحسبون أن هذا خير.

وهذا هو واقع غالب الناس اليوم، الكثير من المنتسبين إلَى الإسلام هذا واقعهم، يتقربون إلَى اللَّه بالشرك، مثل ما تقرب المشركون الأولون، يذبَحون للقبور وينذرون

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦) و(٧٠٨٤)، ومسلم (١٨٤٧) (٥١)، وأحمد (٢٣٢٨٢)، وابن ماجه (٣٩٧٩).

الموضع الأول: قصة نزول الوحي، وفيها أن أول آية أرسله الله بِهَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ إِلَى قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ [المدثر: ١-٧] [٤].

لَها، ويطوفون بِهَا ويتبركون بِهَا، ويقولون: ما عَبَدْنا غير اللَّه، لكن هؤلاء رجال صالِحون، ونَحن قصدنا أنَّهم يتوسطون لنا عند اللَّه فقط.

واللَّه يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ما أرادوا الشرك ولا قصدوه، وإنَّما ظنوا أنَّهم يؤدون عبادة وقربة إِلَى اللَّه سبحانه، يقربونهم إِلَى اللَّه زلفى، انظر كيف يأتي الشيطان إِلَى بني آدم، وكيف يأتي شياطين الإنس إِلَى بني آدم ويزينون هذه الأمور.

نقول لَهم: أنتم ما تعبدون أصنامًا، أنتم تتوسطون بالناس الصالِحين بينكم وبين اللَّه.

واللَّه -جل وعلا- اعتبر هذا شركًا فقال: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ جعله عبادة ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ نزه نفسه عن ذلك فقال: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] فسماه شركًا.

وهم لا يسمونه شركًا، يسمونه طلب الشفاعة، فيجب التنبه لهذا.

أنت درستَ فِي العقيدة أن الشرك حرام، وأنه أكبر الكبائر، وأنه لا يُغفر، لكنَّ فهم الشرك أين هو؟ لابد أن تعرف من أعمال الناس وتطبيقاتهم ما هو شرك وما هو توحيد.

هم يقولون: هذا من التوسُّل بالأولياء والصالِحين، وهذا هو التوحيد، وهذا يُحبه اللَّه، وأن هؤلاء عباده، وأنهم صالِحون، واللَّه يُحب هذا، فيتقربون إِلَى اللَّه بهؤلاء، يسمونه الدين ويسمونه التوحيد، يسمون الشرك توحيدًا لِجهلهم وعمى بصائرهم.

[٤] (الموضع الأول: قصة نزول الوحي) أي: بدء الوحي على الرسول ﷺ.

كان ﷺ قبل البعثة مُخالفًا لِما عليه المشركون، لَمْ يعبد الأصنام، وكان مُخالفًا لِما عليه قومه، فكان يذهب إِلَى غار جبل حراء، وهو غار فِي أعلى الجبل مواجه للكعبة، فكان يَجلس فيه الأيام والأشهر يعبد اللَّه ﷻ ويعتزل عن الناس، يعبد اللَّه ﷻ على دين إبراهيم، على الحنيفية دين إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، جاءه ملك وهو فِي الغار، فقال له: اقرأ، قال: «**ما أنا بقارئ**» لأنه ما كان يقرأ -عليه الصلاة والسلام- قال تعالَى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] كان أمِّيًا -عليه الصلاة والسلام- لا يقرأ ولا يكتب.

والملك يقول له: اقرأ. وهو يقول: «**لست بقارئ**» يعني: لا أُحسن القراءة.

ثم يضمه ضمة شديدة، ثم يرسله ويقول له: اقرأ. فيقول: «**ما أنا بقارئ**»، ثم يضمه ضمة شديدة ثم يرسله ويقول له: اقرأ. فيقول: «**ما أنا بقارئ**». أي: ما أُحسن القراءة. ثُمَّ فِي النهاية قال له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥] فحفظها النَّبي ﷺ، وهذا أول ما نزل عليه من الوحي، وصار بذلك نبيًّا نبأه اللَّه بـ: اقرأ.

ثُمَّ ذهب إِلَى خديجة -رضي اللَّه تعالَى عنها- أم المُؤمنين، وذكر لَها ما حصل له، وكان خائفًا ترعد فرائصه مِمَّا رأى من هول الموقف ومَجيء الملك إليه فِي هذا المكان، وقال لَها: «**لقد خَشيتُ على نفسي**».

فقالت: كلا واللَّه لا يُخزيك اللَّه أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتَحمل الكَلَّ، وتُكسب المُعدم -أو المَعدوم- استدلت بصفاته ﷺ الطيبة على أن اللَّه لا يوقع به ما يَخشاه (لا يُخزيك اللَّه أبدًا)[1]؛ لأن صفاته صفات حميدة، وهذا من فقهها -رضي اللَّه تعالَى عنها- فهي أول من طمأن الرسول ﷺ وناصره وآنسه من هذه الوحشة، وهذا موقف عظيم منها.

ثُمَّ قال: «**دثروني**» أي: غَطُّوني، وغطته، وبينما هو كذلك جاءه الملك فقال له:

(١) أخرجه البخاري (٣) و(٣٣٩٢) و(٤٩٥٣) و(٤٩٥٥) و(٦٩٨٢)، ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

فإذا فهمت أنَّهم يفعلون أشياء كثيرة، يعرفون أنَّها من الظلم والعدوان مثل الزنا [٥]، وعرفت أيضًا أنَّهم يفعلون شيئًا من العبادة يتقربون بِهَا إِلَى اللَّه مثل الحج والعمرة، والصدقة على المساكين والإحسان إليهم وغير ذلك [٦].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ فصار بذلك رسولًا؛ لأنه بهذا أمر بالتَّبليغ، وفِي الأول لَم يؤمر بالتبليغ، قيل له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ لَم يؤمر بالتبليغ، صار نبيًّا بذلك، ثم جاءته الرسالة وهي أنه أُمر بالتبليغ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ١-٥].

الرجز: الأصنام، هذا مَحل الشاهد: وهجرها: تركها والابتعاد عنها ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ لابد من الصبر؛ لأن المهمة ثقيلة جدًّا وطويلة وتَحتاج إلى صبر، هذا أول ما بعث اللَّه به رسوله ﷺ، بالنهي عن الشرك، أول شيء أمره بأن ينهى عن الشرك ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾، ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أنذر عماذا؟ أنذر الناس عن الشرك وعبادة الأصنام أنذرهم عنها.

أول شيء أنه أُمر بالإنذار وأُمر بهجر الأصنام وتركها، مِما يدل على خطورة الشرك.

[٥] هؤلاء أهل الجاهلية كانوا يُمارسون القبائح: الزنا والربا والكبائر.

[٦] ومع هذا عندهم بقايا من دين إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-؛ كانوا يَحجون ويعتمرون، وكانوا يتصدقون على المُحتاجين، هذه الأفعال طيبة لكن ليس معها توحيد، والعمل وإن كان عملًا طيبًا، إذا لَم يكن معه توحيد فإنه لا يفيد صاحبه.

ويعملون أعمالًا سيئة إلَى جانب هذه الأعمال الطيبة، يعملون أعمالًا سيئة أعظمها الشرك، يفعلون الزنا ويأكلون الربا ويأكلون الميسر، وهذه كبائر، لكن أعظمها الشرك، من عبادة الأصنام وغيرها.

ويتقربون بها إلَى اللَّه، يتقربون بهذا الشرك إلَى اللَّه من جهلهم، يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] انظر كيف يفعل الجهل بأصحابه، يَجعل الحق باطلًا والباطل حقًّا، يَجعلون الشرك توحيدًا وتقربًا إلى اللَّه ﷻ.

وأجلّها عندهم الشرك، فهو أجلّ ما يتقربون به إلَى اللَّه عندهم، كما ذكر اللَّه عنهم أنَّهم قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[الزمر: ٣]، ويقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾[يونس: ١٨] .[٧].

وقال تعالَى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠][٨].

وهذا يعطيك وجوب الاهتمام بأمر العقيدة وأمر التوحيد والفقه فِي ذلك

[٧] اعترفوا أنهم يعبدونهم حيث قالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ﴾ لكن يقولون: ما قصدنا بهذه العبادة إلا أنهم يقربونا إلَى اللَّه، ويظنون أن هذا عمل طيب، لأنه تعظيم للَّه وإجلال للَّه، حيث إنهم يقربوننا إليه لأننا لا نصل إليه إلا بعبادتهم، فهم يقربونا إلى اللَّه لأنهم صالِحون، وهم يعنون الملائكة، ويعنون الأنبياء مثل عيسى عليه السلام، يتخذونهم وسائط بينهم وبين اللَّه ليقربوهم إلَى اللَّه زلفى.

[٨] كيف اتَّخذوا الشياطين أولياء من دون اللَّه، وهم يتقربون بالصالِحين: بعيسى وبعزير، وبالملائكة؟ نعم، اتَّخذوا الشياطين؛ لأن هؤلاء الصالِحين لا يرضون بذلك، ولَم يأمروهم بذلك، وإنَّما الذي أمرهم بهذا الشياطين، هي التي أمرتهم بعبادة المسيح وعبادة الملائكة وعزير وغيرهم من الأنبياء والصالِحين، فهم يعبدون الشياطين فِي الحَقيقة حيث أطاعوهم فِي عبادة هؤلاء ﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠]، يَحسبون أن هذا هو الهدى، وأنه طريق خير وطريق صلاح، ولِهذا يقول -جل وعلا-: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ وَكَانُواْ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾[الفرقان: ١٧-١٨].

وقال تعالَى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ﴾ نزهوا اللَّه تعالى أن يُعبد غيره معه ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١] فالملائكة تبرءوا منهم وأخبروا أنَّهم ما أمروهم

فأول ما أمره اللَّه به الإنذار عنه، قبل الإنذار عن الزنا والسرقة وغيرهما [٩].

وعرفت أن منهم من تعلق على الأصنام، ومنهم من تعلق على الملائكة وعلى الأولياء من بنِي آدم [١٠].

بِهذا، وإنَّما الذي أمرهم بِهذا هم الشياطين من الجن والإنس، فصارت عبادتهم للشياطين الذين أمروهم.

فبرأ اللَّه عباده الصالِحين من أن يأمروهم بذلك، ومع هذا يَحسبون أنَّهم مهتدون، فدل على أنه ليس العبرة أن يكون الإنسان حسن النية، أو كونه ما قصد الشر، ليس العبرة بِهذا، العبرة بالاتباع للرسل ومن سار على نهجهم، وحسنُ النية مع قبح الفعل لا ينفع، فلم يكن هذا عذرًا لَهم؛ لأن اللَّه أرسل الرسل وأنزل الكتب لإنكار ذلك.

[٩] أول ما أُمر الرسول ﷺ بالإنذار عن الشرك حيث قال اللَّه تعالَى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المُدثر: ٥] وذلك قبل أن يؤمر بالإنذار عن الزنا وشرب الخمر وأكل الربا، إنَّما هذه نُهي عنها فيما بعد، ولكن أول ما أُمر به ترك الشرك.

لَمْ يقل: حذرهم من الكبائر ومن الزنا ومن الربا ومن الخبائث الَّتِي كانوا يعملونها، بل أول ما أمره بالنهي عن الشرك.

وأول ما أُمروا به التوحيد قبل أن يؤمروا بالصلاة والزكاة والصيام والحج؛ لأن التوحيد هو الأساس، ولا فائدة فِي الصلاة والحج والصيام والأعمال الصالِحة مع عدم وجود التوحيد.

[١٠] كانوا فِي الجاهلية متشتتين فِي عباداتهم ومعبوداتهم، منهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الصالِحين، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار، والنبي ﷺ لَمْ يُفرق بينهم، بل نهاهم جميعًا وقاتلهم جميعًا، لَمْ يُفرق بين من عبد الملائكة والصالِحين ومن عبد الأصنام؛ لأن الكل سواء؛ لأنه لا فرق بين من يعبد صنمًا، ومن يعبد وليًّا أو عبدًا صالِحًا.

ويقولون: ما نريد منهم إلا شفاعتهم [١١].

ومع هذا بدأ بالإنذار عنه فِي أول آية أرسله اللَّه بِهَا، فإن أحكمت هذه المسألة فيا بُشراك [١٢].

خصوصًا إذا عرفت أن ما بعدها أعظم من الصلوات الخمس [١٣].

ولَم تفرض إلا فِي ليلة الإسراء سنة عشر بعد حصار الشِّعب وموت أبِي طالب، وبعد هجرة الحبشة بسنتين [١٤].

---

[١١] يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] هذا قصدهم، تقربوا إِلَى اللَّه بعبادتهم هؤلاء، ما قصدهم الشرك، وإذا كانت الأفعال شركًا وكفرًا فلا يُنظر إِلَى المقاصد هل هي حسنة أو ليست حسنة.

[١٢]أي: إذا فهمت هذه المَسألة، أن أول ما يؤمر به التوحيد، وأول ما يُنهى عنه الشرك، فإنه لا فائدة فِي صلاح باقي الأمور مع فساد العقيدة، هذه مسألة عظيمة ومطلب عظيم يَجهله كثير مِمَّن ينتسبون إِلَى الإسلام اليوم.

فإذا فهمته فيا بشراك بالعلم النافع.

[١٣]أي: ليس بعد هذه المسألة الَّتِي هي التوحيد أعظم من الصلوات الخمس؛ لأنها الركن الثاني من أركان الإسلام بعد الشهادتين، ومع هذا لَمْ يأمر اللَّه ﷻ بالصلوات الخمس إلا قُبيل الهجرة، فالرسول ﷺ مكث فِي مكة ثلاث عشرة سنة لَمْ يؤمر بالصلاة.

وإنَّما أُمر بالصلاة قُبيل الهجرة فِي ليلة المِعراج، فلماذا تأخر الأمر بالصلاة؟ من أجل أن يتأسس التوحيد؛ لأنَّهم لو صلوا ما نفعتهم صلاتهم إلا مع التوحيد.

[١٤]إنَّمَا فُرضت الصلاة ليلة الإسراء والمعراج فِي السنة العاشرة من البعثة، وقصة الحصار: أن الرسول ﷺ كان يدعو إِلَى التوحيد وينهى عن الشرك، وكان المشركون يضايقونه ويضايقون أصحابه، وكان عمه أبو طالب يدافع عنه ويَحميه من

فإذا عرفت أن تلك الأمور الكثيرة والعداوة البالغة، كل ذلك عند هذه المسألة قبل فرض الصلاة، رجوت أن تعرف المسألة [١٥].

أذى قومه، سخره اللَّه له مع أنه مشرك، لكن اللَّه -جل وعلا- سخره لنبيه يَحميه ويدافع عنه.

فلما مات أبو طالب وماتت زوجة النَّبِي ﷺ خديجة ﵂، وهما اللذان يدافعان عنه، تسلط الكفار عليه زيادة، وضيقوا عليه الخِناق هو وأصحابه، وكانوا من قبل قد حاصروهم فِي الشِّعب، فِي شِعب من شعاب مكة، وقاطعوهم، منعوا عنهم الأرزاق والبضائع، ومنعوا التزوج منهم، حاصروهم فِي هذا الشعب حَتَّى آلمهم الجوع.

وكتبوا بذلك صحيفة وقعوا عليها وعلقوها فِي الكعبة لِمقاطعة مُحَمَّد ومن معه؛ ولَمَّا مات الذي كان يدافع عنه فسنحت لَهم الفرصة فاشتد أذاهم له ومن معه ومع هذا ما أُمر بالصلاة من بعثته إِلَى هذه الفترة؛ لأن المقام مقام تصحيح عقيدة قبل كل شيء.

ولَمَّا اشتد أذاهم على الرسول ﷺ وضايقوه، أمر من معه من ضَعَفة الصحابة، مِمَّن ليس لَهم من يدافع عنهم، أمرهم بالهجرة إِلَى الحبشة؛ لأن فيها ملكًا وهو النجاشي لا يُظلم أحد عنده، وهو نصراني إذ ذاك، لكن لا يُظلم أحد فِي أرضه، هذه هي الهجرة الأولى، وفيهم عثمان وفيهم من أكابر الصحابة، وذلك لأجل الفرار بدينهم، وكان هذا سببًا لإسلام النجاشي ﵀، حين سمع القرآن وسمع من الصحابة وهداه اللَّه للإسلام فأسلم.

وأرسلت قريش إِلَى النجاشي بهدايا ومغريات يقولون: هؤلاء مارقون شاردون منا ردهم علينا، فأبى أن يردهم عليهم، فكذب اللَّه ظن المشركين وعادت رسلهم خائبين، واستمر النجاشي ﵀ فِي حماية المسلمين عنده إِلَى أن قيض اللَّه الفرج.

[١٥] إذا عرفت هذه المسألة، وهي مسألة أنَّهم ما عادوا رسول اللَّه ﷺ وضايقوه وحاصروه هو وأصحابه إلا من أجل الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، وإلا لو سالمهم وعبد ربه هو ومن يتبعه وتركهم، ما قالوا له شيئًا، بل كانوا سيفرحون بِهذا.

الموضع الثاني: أنه ﷺ لَمَّا قام ينذرهم عن الشرك ويأمرهم بضده وهو التوحيد[١٦].

لَمْ يكرهوا ذلك واستحسنوه وحدثوا أنفسهم بالدخول فيه، إِلَى أن صرح بسب دينهم وتَجهيل علمائهم، فحينئذٍ شمروا له ولأصحابه عن ساق العداوة [١٧].

وهذه دعوة أهل الكفر اليوم يقولون: دعونا نتعايش ودعونا نتهاود، ولا تقولوا شيئًا فِي ديننا، ونَحن لا نقول شيئًا فِي دينكم، وهم يكذبون لأَنَّهم يُحاربون الإسلام.

وهم يقولون: أنتم لا تقولوا فِي ديننا شيئًا ونَحن لا نقول فِي دينكم شيئًا وهم يُحاربون الإسلام على أقصى ما يُمكن، ويقتلون المسلمين ويشردونهم وهم يقولون: دعونا نتحاور ونتهاود.

ولو أنه ﷺ ما دعا إِلَى التوحيد ولا نهى عن الشرك، ما ثارت ثائرتهم.

[١٦] لو كان يأمرهم بالتوحيد وينهاهم عن الشرك عمومًا ولَم يتعرض لِما هم عليه.

وهم يقولون: الذي نَحن عليه ليس بشرك، الذي نَحن عليه تقرب إِلَى اللَّه بالأولياء والصالِحين، ونَحن لا نشرك باللَّه إنَّمَا هذا تقرب إِلَى اللَّه وتوسل إليه.

ولو أن الرسول اقتصر على النهي عن الشرك دون تفصيل وبيان، لَمَا اعترضوا عليه؛ لأنَّهم يرون أنَّهم غير مشركين.

[١٧] أي: لأنَّهم يفسرون الذي هم عليه أنه ليس بشرك، لكن عندما تقول لَهم: هذه الأضرحة وهذه القبور الَّتِي تعبدونها وتنذِرون لَها وتذبَحون لَها، عملكم هذا هو الشرك، عند ذلك تثور ثائرتهم، هذا هو الذي فعله الرسول ﷺ، نهاهم عن عبادة اللات والعُزى ومَناة والأصنام، وقال لَهم: لستم على شيء، وهؤلاء الذين يدعونكم إليها هؤلاء علماء ضلال، فحينما قال لَهم ذلك ثارت ثائرتهم حمية لدينهم، وهذا هو الذي عليه غالب العالَم اليوم.

وقالوا: سَفَّهَ أحلامنا وعابَ ديننا وشتم آلِهتنا [١٨].

ومعلوم أنه ﷺ لَمْ يشتم عيسى وأمه ولا الملائكة ولا الصالِحين [١٩].

لكن لَمَّا ذكر أنَّهم لا يُدعون ولا ينفعون ولا يضرون جعلوا ذلك شتمًا [٢٠].

فإذا عرفت هذا عرفت أن الإنسان لا يستقيم له إسلام -ولو وحد اللَّه وترك الشرك- إلا بعداوة المشركين والتصريح لَهم بالعداوة والبغض، كما قال تعالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية [٢١].

---

[١٨] لو أنه ما شتم آلِهَتهم ولا عاب دينهم ما قالوا له شيئًا، فلو اقتصر على قوله: الشرك قبيح والتوحيد طيب، ولا عاب آلِهَتهم ولا سب دينهم، لَمَا عارضوه.

[١٩] الرسول ﷺ ما سبَّ الصالِحين، وإنَّما سب عبادةَ غير اللَّه ﷻ، وبين أن أنبياء اللَّه وعبادَه الصالِحين والملائكة لا يرضون أن يُعْبَدوا من دون اللَّه.

[٢٠] لَمَّا قال: إن عيسى لا ينفع ولا يضر، وإن الملائكة لا تنفع ولا تضر، وإن الصالِحين لا ينفعون ولا يضرون، عدُّوا ذلك تنقصًا للصالِحين، ويقولون لأهل التوحيد: أنتم لا تبنون على أضرحتهم. وهذا من حقهم علينا.

يقولون: حقًّا علينا إكرامهم والبناء على قبورهم، هذا من حقهم علينا، وهذا من تقديرهم، وعندما نتوسل بِهم إِلَى اللَّه، هذا من تقديرهم وتعظيمهم.

وأنتم تقولون: هذا باطل ويعتبرون هذا شتمًا وسبًّا لَهم. هذا الذي يفسرون به أعمالَهم، وهذا موجود الآن على ألسنتهم وفِي كتبهم.

[٢١] هناك من ينتسبون للدعوة والعلم ولا يرضون بِمعاداة الكفار ويقولون: إنَّمَا أمرنا بعداوة المُحاربين فقط.

يقولون: نعاديهم لأنَّهم حاربونا، لأنَّهم أخذوا أوطاننا، أما أن نعاديهم من أجل دينهم فلا نعاديهم.

واللَّه -جل وعلا- قال: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ

فإذا فهمتَ هذا فهمًا جيدًا عرفتَ أن كثيرًا من الذين يَدَّعون الدين لا يعرفونها [٢٢].

وإلا فما الذي حمل المسلمين على الصبر على ذلك العذاب والأسر والضرب والهجرة إِلَى الحبشة [٢٣].

﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فلم يقتصر على المُحاربين فقط، بل إن اللَّه جعل سبب الكره لَهم هو المُحادة للَّه ولرسوله، وأي مُحادة للَّه ورسوله أعظم من الكفر، وأعظم من الشرك باللَّه ﷻ؟ لا تَجوز مودة الكفار كلهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ يعني: مَحبوبين ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]. ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

[٢٢] هذا صحيح، فإنك لو تسأل كثيرًا من العلماء والمُتعلمين عن هذه المسألة، -مسألة الولاء والبراء- تَجدهم لا يعرفونها، يقولون: لا يلزم بُغْضهم، ديننا ما هو دين عداوة، ديننا دين مودة ودين مصالَحة ودين كذا، يعتبرون هذا من مدح الدين، فمودة المشركين -عندهم- لا بأس بِهَا، ويعتبرونها من المُصالَحة معهم.

ونقول: مصالَحتهم على أمور السياسة لا مانع منها، لكن مصالَحتهم على ترك بعض أمور الدين لا تَجوز.

[٢٣] ما سبب ما نال المسلمين فِي مكة؟ هل لأنَّهم مسلمون يصلون ويصومون؟ لا... بل لأنَّهم أبغضوا الكفار وعادوهم، ونهوا عن الشرك باللَّه ﷻ، هذا هو السبب، وإلا لو أنَّهم صاموا وصلوا واشتغلوا بالذكر ولَم يتعرضوا لأحد، ما حصل لَهم أذى بالضرب والحَبس والأسر، ولَمَا احتاجوا إِلَى الصبر؛ لأن الصبر لا يكون إلا على شيء مكروه.

مع أنه ﷺ أرحم الناس، لو يَجد لَهم رخصة لأرخص لَهم، كيف وقد أنزل اللَّه تعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠][٢٤].

فإذا كانت هذه الآية فيمن وافقهم بلسانه فكيف بغير ذلك؟![٢٥].

الموضع الثالث: قصة قراءته ﷺ سورة النجم بِحضرتهم، فلما بلغ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾[النجم: ٩] ألقى الشيطان فِي تلاوته: «تلك الغرانيق العلا، وإن شفاعتهن لتُرتجى» فظنوا أن رسول اللَّه ﷺ قالَها، ففرحوا بذلك وقالوا كلامًا معناه: هذا الذي نريد، ونَحن نعرف أن اللَّه هو النافع الضار وحده لا شريك له، ولكن هؤلاء يشفعون لنا عنده.

فلما بلغ السجدة سجد وسجدوا معه، فشاع الخبر أنَّهم صافَوه، وسمع بذلك مَنْ

---

[٢٤] مع رحمته ﷺ بأصحابه ما رخص لأصحابه بالتنازل عن شيء من الدين، ما رخص لَهم فِي هذا مع أنه رءوف رحيم -عليه الصلاة والسلام- فلو وجد لَهم رخصة فِي ترك إظهار الدين لرخص لَهم.

بل إن اللَّه أنزل عليه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ لكن إذا جاء الامتحان، إذا أوذي فِي اللَّه، إذا أوذي بسبب قوله: آمنت باللَّه، وبسبب توحيده فإنه يتراجع عن دينه، يَجعل فتنة الناس كعذاب اللَّه، يفر من أذية الناس فِي الدنيا إلَى عذاب اللَّه فِي الآخرة، مثل الذي استجار بالنار من الرمضاء، وإذا لَمْ يصبر على أذى الناس، كيف يصبر على النار يوم القيامة؟! يلزم العكس أنه يفتدي أذى النار بتحمل أذى الناس، والصبر على دينه، أما أنه يفتدي بدينه من أذى الناس، وينسى النار الَّتِي أمامه، فهذا كالمستجير من الرمضاء بالنار، كما قال الشاعر:

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

[٢٥] إذا كان هذا الوعيد فِي حق من وافق الكفار بلسانه من غير إكراه ليعيش معهم، فكيف بِمن وافقهم بفعله من أجل مصالِحه الدنيوية؟!

بالحبشة فرجعوا، فلما أنكر ذلك رسول اللّٰه ﷺ عادوا إلَى شر مِمَّا كانوا عليه.

ولَمَّا قالوا له: إنك قلت ذلك. خاف من اللّٰه خوفًا عظيمًا، حَتَّى أنزل اللّٰه عليه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾[الحج: ٥٢] الآية.

فمَن فهم هذه القصة، ثُمَّ شك بعدها فِي دين النَّبِي ﷺ، ولَم يُفرق بينه وبين دين المشركين، فأبعده اللّٰه، خصوصًا إن عرف أن قولهم: (تلك الغرانيق) يراد بِهَا الملائكة[٢٦].

---

[٢٦] هذه القصة الَّتِي ذكرها الشيخ من قصص السيرة النبوية تسمى قصة الغرانيق، وهي كما ذكر أنه ﷺ لَمَّا قرأ سورة النجم فِي مكة وعنده المشركون والمسلمون، فلما بلغ قوله تعالَى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩-٢٠]. فهي أكبر أصنام العرب.

اللات: فِي الطائف وكما سبق بيان هذا، أنه رجل صالح كان يُطعم الحجيج، فلما مات عكفوا على قبره يتبركون به على طريقة التبرك بالصالِحين، كما كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك، ويطلبون منه الشفاعة عند اللّٰه؛ لأنه رجل صالح.

والعزى: هي صنم لأهل مكة قريبًا من عرفات، وهو عبارة عن شجرات عليها بنية يتبركون بِهَا.

وأما مناة: فهي صنم بين مكة والمَدينة قريبًا من المَدينة، عند المشلل قريبًا من جبل قديد، وكانت للأوس والخزرج، وكانوا يُحرِمون من عندها بالحج تعظيمًا لَها.

واللّٰه -جل وعلا- يقول: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾[النجم: ١٩-٢٠] أي: أخبروني عن هذه الأصنام، هل نفعتكم وهل ضرتكم؟! بل إنَّها لَمْ تدفع عن نفسها؛ لأن الرسول ﷺ لَمَّا فتح مكة هدمها، ولو كانت آلهة لَمنعت عن نفسها ودافعت عن نفسها. فاللّٰه يوبخ المشركين الذين تعلقوا بهذه الأصنام الَّتِي لا تنفع ولا تضر.

....

فلما قرأ الرسول ﷺ هذه الآية ألقى الشيطان -أي صوت الشيطان- بكلمات دَسَّها فِي تلاوة النَّبِي ﷺ وهي: «تلك الغرانيق العُلا وإن شفاعتهن لتُرتَجى» هذا كلام من الشيطان، دسه فِي تلاوة الرسول ﷺ، والرسول لَمْ يعلم بذلك، ولكن المشركين سمعوه ففرحوا وقالوا: ذكر آلهتنا بِخير، وهذا الذي نريده، نَحن لا نقصد منها إلا الشفاعة، وإلا نَحن نعلم أنَّها لا تنفع ولا تضر، ولكن نَحن نريد شفاعتها.

ومُحمد قال: وإن شفاعتهن لتُرتَجى، فلما بلغ ﷺ آخر السورة وهو قوله تعالَى: ﴿فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا﴾ [النجم: ٦٢] سجد فسجد معه المسلمون، وسجد المشركون فرحًا بهذه الكلمات الشيطانية، حَتَّى إن الوليد بن المغيرة لَمَّا كان كبير السن لَمْ يستطع أن يسجد على الأرض، فأخذ حفنة من تراب فسجد عليها.

فشاع الخبر أن الرسول ﷺ تصالح مع المشركين، وأنه أقرهم على عبادة اللات والعزى ومناة من أجل طلب الشفاعة، ووصل الخبر إلَى المُهاجرين فِي أرض الحبشة من المسلمين، أن الرسول تصالح هو والمشركون أو أن المشركين أسلموا، فعادوا من الحبشة، فلما وصلوا إلَى مكة وجدوا هذا الخبر غير صحيح، وأن المشركين ما زالوا على عداوتهم للرسول ﷺ وتضييقهم على المسلمين.

فلما أخبروا النَّبِي ﷺ أنه قرأ هذه الكلمات: «تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لتُرتَجى» حزن حزنًا شديدًا، وأصابه هم شديد، حَتَّى أنزل اللَّه قوله تعالَى فِي سورة الحج: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٢-٥٥] فأبطل اللَّه ما ألقاه الشيطان فِي تلاوة الرسول ﷺ ونسخه، يعني: أزاله، وأحكم، أي: ثبت آياته الَّتِي أنزلها فِي ذم الأصنام وعبادتها. هذا حاصل القصة.

وقد وردت هذه القصة عن ابن عباس متصلة بسند، ووردت عن بعض التابعين بأسانيد مرسلة، وبعضُ العلماء أنكرها ومنهم ابن كثير، وقال: إنها لَمْ ترد إلا من طرق مرسلة ومنقطعة تكلموا فيها. ولكن الحافظ ابن حجر فِي فتح الباري له رأي غير رأي هؤلاء، يقول: القصة جاءت من طرق مُختلفة متباينة المخارج، فهي تتعاضد ويقوي بعضها بعضًا. هذا معنى كلام الحافظ ابن حجر.

مقصود الشيخ من إيرادها أن المشركين يقولون: نَحن لا نعبد هذه الأصنام على اعتقاد أنها تَخلق وترزق وتنفع وتضر، وإنَّما نعبدها طلبًا للشفاعة بأن تشفع لنا عند اللَّه ﷻ.

فاللَّه أبطل هذا وأقر القرآن على ما هو عليه من إبطال عبادتها، وأبطل ما ألقاه الشيطان فِي تلاوة النَّبِي ﷺ، وسلَّى نبيه وأذهب عنه الحزن بأن هذا يَجري مع مَن قبلك مِن الرسل فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ [الحج: ٥٢].

يعني: تلا، فالتمني هنا معناه التلاوة، كما فِي قوله تعالَى: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨] أي: تلاوة فقط ولا يعرفون المعاني، وكما فِي قول الشاعر فِي عثمان ﷺ:

تَمنى كتاب اللَّه أول ليله وآخره لاقى حمام المقادر

وهي الليلة الَّتِي قُتل فيها ﷺ، كان أول الليل يتهجد ويتلو القرآن، ثُمَّ هجم عليه الخوارج وقتلوه ﷺ فِي آخر الليل.

الشاهد من البيت: قوله: تَمنى كتاب اللَّه؛ أي: تلاه، فالتمني يراد به التلاوة، فيكون المعنى ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾: أي: تلا الكتاب. ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾: يعني: فِي تلاوته، كلمات يظنها السامع من كلام الرسول وهي من كلام الشيطان، ولكن اللَّه له بالمرصاد يُبطل كلام الشيطان ويُحكم آياته ﷻ؛ لأن اللَّه حافظ دينه وحافظ كتابه.

....

فالشاهد منها: أن المشركين فرحوا لَمَّا ظنوا أن الرسول ﷺ وافقهم بالكلام الذي ظنوه من الرسول وهو من الشيطان، أنَّ طلب الشفاعة من الأصنام لا بأس به، ففرحوا بذلك، ثُمَّ إن اللَّه -جل وعلا- أبطل ذلك، وبيَّن أنه لا تَجوز عبادة غير اللَّه ﷻ لأي قصد كان، طلب الشفاعة أو غيره.

العبادة حق للَّه ﷻ، ولا يَجوز عبادة غير اللَّه لأي قصد كان، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]. اللَّه سمى هذا شركًا وأبطله، وما قال الرسول هذه الكلمات الَّتِي فِي القصة وإنَّما قالَها الشيطان، وهذا من باب الابتلاء والامتحان لأجل أن يتميز الخبيث من الطيب، ثُمَّ إن اللَّه يزيل هذه الفتنة ويُبقي الحق.

هذا قد جرى مع الرسل قبل مُحَمَّد ﷺ، وجرى عليه مثلُ ما جرى على الرسل من قبله.

فهذا فيه دليل على بطلان اعتقاد عبدة القبور وغيرهم، الذين يعبدون القبور ويقولون: نَحن نعلم أنَّهم لا يضرون ولا ينفعون، ولا يَخلقون ولا يرزقون، وإنَّما هم صالِحون نتوسط بِهم إلَى اللَّه ونطلب منهم الشفاعة.

وإننا لو أقررناهم على ذلك ما صار بيننا وبينهم خلاف، وإنَّما اشتدت العداوة بيننا وبينهم لَمَّا أنكرنا عليهم هذا واعتبرناه شركًا، كما أنكره الرسول ﷺ، وكما أنكره القرآن فِي آيات.

هذا هو مقصود الشيخ من إيراد هذه القصة، فهو يقول: إنهم يفرحون لو وافقناهم على هذا الكلام.

وقلنا: ما دام أنكم ما تقصدون منها أنَّها تَخلق وترزق وتنفع وتضر، وإنَّما قصدكم منها الشفاعة فهذا أمر لا بأس به.

الموضع الرابع: قصة أبِي طالب، فمن فهمها حسنًا وتأمل إقراره بالتوحيد، وحث الناس عليه، وتسفيه عقول المشركين، ومَحبته لِمن أسلم وخلع الشرك، ثُمَّ بذل عمره وماله وأولاده وعشيرته فِي نصرة رسول اللَّه ﷺ إِلَى أن مات [٢٧].

---

[٢٧] أبو طالب عم الرسول ﷺ، لَمَّا توفِّي والد الرسول ﷺ عبد اللَّه بن عبد المطلب، والرسول ﷺ حمل فِي بطن أمه، ثُمَّ لَمَّا ولد ﷺ كفله جده عبد المطلب؛ لأنه أصبح يتيمًا فكفله جده عبد المطلب، ثُمَّ لَمَّا حضرت عبد المطلب الوفاة أوصى به إِلَى ابنه أبِي طالب، وأبو طالب قام بالواجب وحضن النَّبِي ﷺ ورباه وأكرمه.

ثُمَّ لَمَّا بعثه اللَّه رسولًا إِلَى العالَمين قام معه يَحميه ويدافع عنه، ولقي الأذى من قريش فِي سبيل حماية دعوة الرسول ﷺ والدفاع عنه، وعرَّض نفسه للخطر والمَجاعة، حَتَّى إنهم حاصروهم فِي الشِّعب سنين وقاطعوهم، وقطعوا عنهم المؤن، وقطعوا عنهم الاتصال، ومعهم أبو طالب وصبر على هذا، وكان يَمدح دين الرسول ﷺ ويقول:

ولقد علمت بأن دين مُحَمَّد ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لرأيتني سمحًا بذاك مبينا

وفِي لاميته المشهورة الطويلة الَّتِي أوردها ابن كثير فِي البداية والنهاية اعترف بأن مُحمدًا رسول اللَّه، وأنه صادق فِي رسالته، وأنه لَمْ يَمنعه من اتباعه إلا خشيةُ مسبةِ دين آبائه الذين كانوا على عبادة الأصنام، فأخذته الحمية الجاهلية فِي امتناعه من اتباع مُحَمَّد ﷺ لئلا يَجر على أشياخه المسبة.

ثُمَّ لَمَّا حضرته الوفاة جاءه النَّبِي ﷺ وعنده أبو جهل وعنده آخر من بني مخزوم، فالرسول ﷺ قال له: **«يا عم، قل: لا إله إلا اللَّه، كلمة أحاجّ لك بِهَا عند اللَّه»** فقال له أبو جهل ومن معه: أتترك دين عبد المطلب؟ فأعاد عليه الرسول، فأعادا: أتترك دين عبد المطلب؟ ثم كان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب. ومات على ذلك. فقال النبي ﷺ: **«لأستغفرن لك ما لَم أنه عنك»** فأنزل اللَّه تعالَى:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾(١) [التوبة: ١١٣]. وأنزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

فدل هذا على أن مدح الإسلام ومدح الرسول، واعتقاد أن الإسلام حق وأن الرسول حق من غير اتباع للرسول، أن ذلك لا ينفع، وأنه لابد من اتباع الرسول ﷺ؛ لأن هذا لو كان ينفع لنفع أبا طالب، فإن الإقرار بأن الإسلام حق وأن الرسول صادق، مع المدافعة عن الإسلام وحماية الإسلام، كل هذا لا ينفع إلا مع الاتباع، وإلا فإن النبي ﷺ يقول: «**إن اللَّه يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»(٢).

فلابد من الاتباع، فلا تنفع المُعاونة والمَدح والحِماية للإسلام وغير ذلك، ولا القرابة من الرسول بدون اتباع له، فهذا عم الرسول ﷺ لَمَّا مات على الكفر لَمْ ينفعه الرسول ﷺ بإخراجه من النار رغم المُحاولة، ومنعه اللَّه من الاستغفار له، وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ وقال: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

واللَّه -جل وعلا- يقول: ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ﴾ لَمْ يكتف بقوله: ﴿ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾ بل قال: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦- ١٥٧].

فهذا يدل على أن مدح الإسلام والثناء على الإسلام والمسلمين، وأنهم على حق

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠) و(٣٨٨٤) و(٤٦٧٥) و(٤٧٧٢) و(٥٦٥٧) و(٦٦٨١)، ومسلم (٢٤).
(٢) أخرجه البخاري (٣٠٦٢) و(٤٢٠٤) و(٦٦٠٦)، ومسلم (١١١) من حديث أبي هريرة.

ثُمَّ صبره على المشقة العظيمة والعداوة البالغة، لكن لَمَّا لَمْ يدخل فيه ولَم يتبرأ من دينه الأول لَمْ يصر مسلمًا، مع أنه يعتذر من ذلك بأن فيه مسبة لأبيه عبد المطلب ولِهاشم وغيرهما من مشايخهم[٢٨] .

ثُمَّ مع قرابته ونصرته استغفر له رسول اللَّهﷺ، فأنزل اللَّه تعالَى عليه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾[التوبة: ١١٣] الآية[٢٩] .

وأن الكفار على باطل، وأن الشرك باطل، كلُّ هذا لا يكفي وأنه لا بد من الاتباع، فمن كان يُمدح الإسلام ويثني عليه ويُمجده، وهو لَمْ يترك الشرك بل يدعو غير اللَّه، يدعو الأصنام والأضرحة والقبور، فإن هذه الأمور لا تنفعه ولا تفيده شيئًا، لو كانت تنفع وتفيد لأفادت أبا طالب عم الرسولﷺ . فهذه مسألة دقيقة ينبغي التنبه لَها .

[٢٨] هذا الذي منعه وهو النخوة والعصبية الجاهلية، منعته من الدخول فِي الإسلام ومات على الكفر، مع ما له من المَواقف العظيمة فِي نصرة الحق والدفاع عنه، ومع ذلك لَمَّا لَمْ يتبع الرسولﷺ لَمْ تنفعه هذه الأمور، إلا ما صح أنه خُفف عنه من عذاب النار، حيث أصبح فِي ضحضاح من نار بسبب شفاعة النَّبِيﷺ له(١) ، وفِي رواية: «**فِي أخمص قَدميه جمرتان من نار يغلي منهما دماغه، ما يَرى أن أحدًا من النار أشد منه عذابًا، وإنه لأهونهم عذابًا**»(٢) .

لَم ينفعه ذلك فِي إخراجه من النار، فلا يتعارض هذا مع قوله تعالَى عن الكفار: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[المدثر: ٤٨] إنَّمَا نفعه فِي التخفيف عنه من العذاب فقط .

[٢٩] نستفيد من هذا أنه لا يكفي الإقرار بأن الإسلام حق، ولا يكفي المدافعة عن الإسلام، ولا يكفي ذم الشرك والمشركين، كل هذا لا يكفي إلا باتباع الرسول ﷺ، فمن لَمْ يتبع الرسولﷺ فإن هذه الأمور لا تنفعه .

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٠٨) و(٦٥٧٢)، ومسلم (٢٠٩) و(٣٥٧) من حديث العباسرضي الله عنه .

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٦١) و(٦٥٦٢)، ومسلم (٢١٣) من حديث النعمان بن بشير وليس فيه ذكر لأبي طالب، وإنَّما هو فِي ذكر أهون أهل النار عذابًا .

والذي يبين هذا أنه إذا عرف رجل من أهل البصرة أو الأحساء بِحب الدين وبِحب المسلمين، مع أنه لَمْ ينصر الدين بيدٍ ولا مال ولا له من الأعذار مثل ما لأبي طالب، وفهم الواقع من أكثر من يدعي الدين، تبين له الهدى من الضلال، وعرف سوء الأفهام، واللَّه المستعان[٣٠] .

المَوضع الخامس: قصة الهِجرة، وفيها من الفوائد والعبر ما لا يعرفه أكثر من قرأها[٣١] .

وبناء على ذلك، فإن هؤلاء الذين يُصلون ويَصومون ويشهدون أن لا إله إلا اللَّه، وأن مُحمدًا رسول اللَّه، وقد يُجاهدون الكفار، ولكنهم لا يتركون الشرك حول الأضرحة والقبور، ويستغيثون بالأموات، ويذبَحون للقبور، فهؤلاء لا ينفعهم ذلك؛ لأن الشرك لا ينفع معه عمل كما قال تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[الزمر: ٦٥] ما دام أنه لَمْ يتبرأ من المشركين، ولَم يقاطعهم فِي الدين، فإنه لا ينفعه ذلك.

[٣٠] يقصد بذلك العلماء الذين فِي وقته، الذين عرفوا الحق وعرفوا التوحيد وعرفوا بطلان الشرك، لكن مع هذا لَمْ يقوموا بالدعوة إِلَى اللَّه والأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك والإنكار على المشركين، لَمْ يقوموا بذلك، هؤلاء مثل أبِي طالب؛ لأنهم ما بذلوا الخير لِهذا الدين، ولا دعوا إِلَى اللَّه ﷻ، ولا بينوا للناس، بل كتموا العلم الذي عندهم وسكتوا عن الشرك وعاشوا مع المُشركين.

[٣١] الهجرة فِي اللغة: مأخوذة من الهجر وهو الترك، قال تعالَى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[المدثر: ٥] .

أي: اتركه، فالهجر هو الترك، ومنه هجر أهل المَعاصي، وهجر المُشركين -يعني: تركهم وعدم محبتهم- قال ﷺ: «**المُهاجرُ مَنْ هَجَرَ ما نَهى اللَّه عنه**»[١] أي: ترك ما نهى اللَّه عنه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٤٨١)، والنسائي فِي الكبرى (٨٧٠١)، وابن حبان (٢٣٠)، وأحمد (٦٥١٥).

أما الهِجرة فِي الشرع: فهي الانتقال من بلد الشرك إِلَى بلد الإسلام لأجل الدين، هذه هي الهِجرة الشرعية، والهِجرة فيها فضل عظيم، وهي عديلة الإيمَان والجهاد فِي سبيل اللَّه، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ﴾ [الأنفال: ٧٢] فهذا مِمَّا يدل على عِظَم الهِجرة.

والهجرة باقيةٌ إِلَى أن تقوم الساعة، فالذي لا يقدر على إظهار دينه فِي بلاد المُشركين يَجب عليه أن يُهاجر إِلَى بلد يقدر فيه على إظهاره، فإن لَمْ يُهاجر وهو يقدر على الهِجرة، فإن اللَّه ﷻ أنزل فيه القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]. هذا وعيد شديد مع أنَّهم مسلمون، لكن لَمَّا تركوا الهِجرة بعذر مَحبة الأموال والأولاد والوطن، وقدَّموا مَحبة هذه الأشياء على الهِجرة فاللَّه -جل وعلا- توعَّدهم بِهذا الوعيد.

وسبب نزول الآية أنه لَمَّا كانت غزوة بدر كان مع المُشركين أناس من المُسلمين بقوا فِي مكة ولَم يهاجروا شحًّا بوطنهم وبلادهم وأموالِهم وأولادهم، وهم يقدرون على الهِجرة، فلما خرج المُشركون إِلَى بدر خرجوا بِهم معهم بغير اختيارهم، وألزموهم بالخروج معهم، ثُمَّ لَمَّا دارت المعركة قُتل أناس منهم وهم فِي صف الكفار، ولَم يعلم المُسلمون بِهم، فلما علم المُسلمون بِهم ندموا وقالوا: قتلنا إخواننا. فأنزل اللَّه هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ﴾.

يعني: ما الوطن الذي أنتم فيه، أي وطن؟

ما قالوا: كيف حالكم فِي الإيمَان؟ أو ما يقينكم؟ ما سألوهم عن هذا، وإنَّما سألوهم عن المَكان، ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [النساء: ٩٧].

يعني: أجبرونا على الخروج بسبب ضعفنا ولا نقدر أن نَمتنع ﴿قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ﴾ كان لكم مندوحة عن هذا، لو هاجرتُم مثلما هاجر إخوانكم لسلمتم من هذه الواقعة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ﴾ هذا وعيد ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ [النساء: ٩٧-٩٨] الذين لا يقدرون على الهجرة، وبقوا فِي بلاد الشرك

ولكن مرادنا الآن مسألة من مسائلها ، وهي أن من أصحاب رسول اللَّه ﷺ من لَمْ يهاجر من غير شك فِي الدين وتزيين دين المُشركين ، ولكن مَحبة للأهل والمَال والوطن ، فلما خرجوا إِلَى بدر خرجوا مع المُشركين كارهين ، فقتل بعضهم بالرمي ، والرامي لا يعرفه .

فلما سمع الصحابة أن من القتلى فلانًا وفلانًا شق عليهم وقالوا : قتلنا إخواننا . فأنزل اللَّه تعالَى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ . . . إِلَى قوله : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٧-١٠٠].

فمن تأمل قصتهم وتأمل قول الصحابة : قتلنا إخواننا ، علم أنه لو بلغهم عنهم كلام فِي الدين أو كلام فِي تزيين دين المُشركين لَمْ يقولوا : قتلنا إخواننا [٣٢].

لأنَّهم ما يقدرون على الهجرة ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٧-١٠٠].

هذا فِي شأن هؤلاء ، وهذه قصة عجيبة وعظيمة : أن هؤلاء مع إسلامهم وصدقهم فِي الإسلام ، لَمَّا تركوا الهِجرة من غير عذر حصل عليهم هذا الوعيد وهذا التوبيخ من المَلائكة لَمَّا جاءت تقبض أرواحهم ، فدل على أنه لا يَجوز للمُوحد المسلم أن يتساهل بِهذا الأمر وأن يكون مع المشركين ولو من غير مَحبة لَهم ، لكن مَحبة لِماله أو ولده أو بيته أو غير ذلك ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ [التوبة: ٢٤] يعني : انتظروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ هذا وعيد شديد ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] فلا يَجوز تقديم مَحبة الأموال والأولاد على طاعة اللَّه ﷻ ، وعلى الهِجرة والجِهاد فِي سبيل اللَّه ﷻ ، والكثيرُ من الناس يقرءون هذه الآية ولا يتدبرونها .

[٣٢] فالصحابةُ ما قالوا : (إخواننا) إلا لأنهم مستقيمون على الدين ، ما ذُكر عنهم أنَّهم مالوا مع المشركين أو مدحوا المُشركين ، بل يبغضون دين المُشركين

فإن اللَّه تعالَى قد بيَّن لَهم وهم بِمكة قبل الهِجرة أن ذلك كفرٌ بعد الإيمان بقوله تعالَى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]. وأبلغ من هذا ما تقدم من كلام اللَّه تعالَى فيهم، فإن المَلائكة تقول: ﴿فِيمَ كُنتُمۡ﴾ ولَم يقولوا: كيف تصديقكم؟ ﴿قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النساء: ٩٧] [٣٣].

ولَم يقولوا: كذبتم. مثل ما يقول اللَّه والمَلائكة للمجاهد الذي يقول: جاهدتُ فِي سبيلك حَتَّى قُتلت، فيقول اللَّه: كذبت، وتقول المَلائكة: كذبت، بل قاتلت ليقال: جريء، وكذلك يقولون للعالم والمتصدق: كذبت، بل تعلمت ليقال: عالِم، وتصدقت ليقال: جواد[1] [٣٤].

وأما هؤلاء فلم يُكذبوهم بل أجابوهم بقولِهم: ﴿قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ ويزيد ذلك إيضاحًا للعارف والجاهل الآية الَّتِي بعدها، وهي قوله تعالَى: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ٩٨] [٣٥].

وكانوا على التوحيد، وكانوا مخلصين للَّه وليس فيهم نفاق، لكن تركوا شيئًا واحدًا وهو الهِجرة من غير عذر. فلامهم اللَّه على ذلك.

[٣٣] فالمَلائكة ما سألوهم عن إيمانهم وعقيدتهم؛ لأنَّهم يعرفون أنَّهم على عقيدة صحيحة وعلى إيمَان صادق، لكن سألوهم عن المكان الذي هم فيه، حيث لا يَجوز لَهم أن يبقوا فيه وهم يقدرون على الهِجرة منه.

[٣٤] المَلائكة لَمْ تقل: كذبتم لستم مسلمين ولستم مؤمنين، بل قالوا: فيم كنتم؟ سألوهم عن المكان الذي هم موجودون فيه، موجودون حيث خرجوا مع المشركين ولو كانوا مكرهين؛ لأنَّهم هم السبب فِي تسلط الكفار عليهم، ولا يَجوز مرافقتهم والخروج معهم حبًّا للمال وللأهل، ومداراة لكي يُبقوا على أموالِهم.

[٣٥] يعني: لا يعذر إلا من ترك الهِجرة عاجزًا عنها، فإنه معذور، قال

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥)، والترمذي (٢٣٨٣)، والنسائي (٦/ ٢٣).

فهذا أوضح جدًّا أن هؤلاء خرجوا من الوعيد، فلم يبق شبهة، لكن لِمن طلب العلم، بِخلاف من لَمْ يطلبه، بل قال اللَّه فيهم: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] [٣٦].

ومن فهم هذا المَوضع والذي قبله فهم كلام الحَسن البصري، قال: ليس الإيمان بالتحلِّي ولا بالتمنِّي ولكن ما وَقَرَ فِي القلوب وصدقته الأعمال[٣٧].

وذلك أن اللَّه تعالَى يقول: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: ١٠] [٣٨].

تعالَى: ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ للخروج ﴿وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلًا﴾ إليه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ﴾ [النساء: ٩٨-٩٩] هذا وعد من اللَّه بالعفو عنهم.

[٣٦] نعم، اختلاط المسلمين مع الكفار من غير عذر أمر لا يَجوز، بل لابد أن تتميز بلاد المسلمين عن بلاد الكفار، ولا يُخالط المسلم المشرك، بل قال ﷺ: «**لا تتراءى ناراهما**»(١) أي: يَبعد عنه مهما أمكنه ذلك.

[٣٧] فالإيمَان هو ما (صدقته الأعمال) ومنها الهِجرة؛ لأنها من الأعمال، وهذا فيه رد على المُرجئة الذين يقولون: إنه يكفي الإيمَان بالقلب، أو بالقلب واللسان. فلا يكفي الاعتقاد والنطق بل لابد من العمل.

[٣٨] قوله ﴿إِلَيۡهِ﴾ أي: إلَى اللَّه ﷻ، ﴿يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ من الذكر وقراءة القرآن والتسبيح والتهليل، وكل كلام طيب فإنه يصعد إلَى اللَّه -جل وعلا-، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، كل هذا من الكَلم الطيب، والكلام الطيب مع الناس ومع الأقارب ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنًا﴾ [البقرة: ٨٣] ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوۡلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]. كل هذا من الكلم الطيب، يصعد إلَى اللَّه، لكن لا يصعد بنفسه، بل لابد من العمل ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: ١٠] وفِي

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٦٠٤) و(١٦٠٥).

المَوضع السادس: قصة الردَّة بعد موت النَّبِي ﷺ، فمن سمعها لا يبقى فِي قلبه مثقال ذرة من شبهة الشياطين الذين يسمون العلماء، وهي قولُهم هذا هو الشرك، لكن يقولون: لا إله إلا اللَّه، ومن قالَها لا يكفر بشيء[٣٩].

هذا رد على المُرجئة أيضًا.

[٣٩] يقول علماء الضلال: عبادة القبور والذبح لَها والنذر لَها ليس من الشِّرك، ما دام أنه يقول: لا إله إلا اللَّه، فهذه الأمور لا تضره. هذا تناقض.

كيف يقول: لا إله إلا اللَّه ويدعو غير اللَّه؟ إذن ما معنى لا إله إلا اللَّه؟، لا إله إلا اللَّه ليست مُجرد قول يقال باللسان، بل لا بد أن يكون قولًا ومعه عمل؛ لأن لا إله إلا اللَّه كلمة عظيمة لَها معنى ولَها مقتضى، ومقتضاها: أن يُخلص المَرْءُ العبادة للَّه ﷻ، وأن يترك عبادة غير اللَّه، فالذي يقولها ولَم يترك عبادة غير اللَّه لا تنفعه كلمة لا إله إلا اللَّه، كما يقولون، وربَّما يستدلون بالمُتشابه من النصوص، مثل قوله ﷺ فِي حديث البطاقة الَّتِي فيها: لا إله إلا اللَّه، وأنها تثقل بالسيئات، وأن صاحبها يدخل الجَنة(١)، هذا حديث عن الرسول ﷺ، لكن يُرد إِلَى الأحاديث الأخرى الَّتِي تقيده، لا يؤخذ طرف ويُترك طرف كما قال اللَّه فِي أهل الزيغ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧]. فالراسخون يردون المُتشابه إِلَى المُحكم.

والأحاديث الَّتِي ظاهرها: أن لا إله إلا اللَّه تكفي من قالَها، تُرد إِلَى الأحاديث الَّتِي فيها أن لا إله إلا اللَّه لا بد لَها من قيود، مثل قوله ﷺ: «**مَنْ قال: لا إله إلا اللَّه وكفر بِمَا يُعبد من دون اللَّه**»(٢). والذي يدعو أصحاب القبور لَم يكفر بِما يُعبد من دون اللَّه. حتى لو لَم يذبح للقبور ولَم ينذر لَها.

بل قال: إن هذا ليس بشرك. هذا لا تنفعه لا إله إلا اللَّه؛ لأنه صحح الشرك وأقره، فهذا ما فهم معنى لا إله إلا اللَّه. ولِهذا يقول (الشياطين المُسمون بالعلماء)

---

(١) حديث البطاقة: أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠).
(٢) أخرجه مسلم (٢٢).

وأعظم من ذلك وأكبر: تَصريحهم بأن البوادي ليس معهم من الإسلام شَعرة ولكن يقولون: لا إله إلا اللَّه [٤٠]، وهم بهذه اللفظة أهل إسلام [٤١].

الذين يأخذون المُتشابه ويستدلون به، ويقولون: من قال: لا إله إلا اللَّه، لو فعل ما فعل من الشرك هو من أهل الجنة. والرسول ﷺ يقول: **«من قال: لا إله إلا اللَّه وكفر بِمَا يُعبد من دون اللَّه»** ويقول: **«فإن اللَّه حرم على النار من قال: لا إله إلا اللَّه يبتغي بذلك وجه اللَّه»**(١).

ويقول اللَّه ﷻ: **«يا ابن آدم، لو أتيتني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تُشرك بي شيئًا، لأتيتك بقرابها مغفرة»**(٢) قيَّد ذلك بالسلامة من الشرك. وهذه الأحاديث يُرد بعضها إِلَى بعض؛ لأنها كلها كلام الرسول ﷺ، والآيات تُرد بعضها إِلَى بعض لأنها كلها كلام اللَّه، وبعضها يُفسر بعضًا ويقيد بعضًا ويوضح بعضًا.

أما أن نأخذ طرفًا ونترك طرفًا آخر فهذه طريقة أهل الزَّيغ. وإن قال: أنا أستدل بكلام الرسول.

فنقول له: كذبتَ، أنت لَمْ تستدل بكلام الرسول، أنت تستدل بالمُتشابه منه، ولَم ترده إِلَى المُحكم.

[٤٠] البوادي: هم جمع بادية وهم الأعراب الرحل، يقول: هؤلاء الضلال «البوادي» ما معهم من الإسلام شعرة، لا يصلون ولا يصومون ولا يعرفون الإسلام، لكن ما داموا يقولون: «لا إله إلا اللَّه» فهذا يكفيهم.

[٤١] فالضُّلَّالُ يقولون: يكفي أنهم يقولون: لا إله إلا اللَّه، فمجرد قولها يدخلهم فِي الإسلام.

يقولون هذا وهم معترفون أنهم ما معهم من الإسلام شعرة، لا يصلون ولا يصومون ولا يعملون شيئًا من الأعمال الصالِحة، فقط هم يقولون: لا إله

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٤) و(٦٨٦)، ومسلم (٣٣) من حديث عتبان بن مالك.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠) من حديث أنس.

وحرَّمَ الإسلامُ مالَهم ودمَهم مع إقرارهم بأنهم تركوا الإسلام كله [٤٢]. ومع علمهم بإنكارهم البعث، واستهزائهم بِمن أقر به [٤٣].

إلا اللَّه. يا سبحان اللَّه! لا إله إلا اللَّه ليست مُجرد كلمة، لو كان هذا هو الإسلام صار كلُّ الناس مسلمين. الرسول ﷺ لَمَّا قال لَهم: «**قولوا كلمةً تَدينُ لكم بها العرب، وتؤدي لكم بها العجم الجزية**» قالوا: خُذ وأبيك ألف كلمة، ما هي؟ قال: «**قولوا: لا إله إلا اللَّه**» قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (١) [ص: ٥].

عرفوا أنَّهم لو قالوا: لا إله إلا اللَّه، تركوا عبادة الأصنام، وهم لا يريدون ذلك. هم يَحسبونها كلمة فقط أي كلمة، فلما قال لَهم: «قولوا: لا إله إلا اللَّه» وهم عرب فُصحاء يعرفون معنى هذه الكلمة، وأنها تلزمهم بترك عبادة الأصنام، قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥-٣٦].

[٤٢]يقول علماء الضلال: حرم الإسلام دمهم ومالهم -يعنون: البوادي التي ليس عندها من الإسلام شعرة- لأن الرسول ﷺ يقول: «**أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا اللَّه، فإذا قالوها عصموا منِّي دماءهم وأموالَهم**» (٢).

لكنهم لا يَجيئون بآخر الحَديث: «**إلا بِحقها**» أي: لابد من العمل؛ لأن حقها العمل.

[٤٣]ويقولون: إذا قال: لا إله إلا اللَّه وهو يُنكر البعث، يصير مسلمًا! فهؤلاء مسلمون ما دام أنَّهم يقولون: لا إله إلا اللَّه ولو أنكروا البعث.

ما هذا التناقض والعياذ باللَّه؟! والذي يقول هذا ليس من العوام، إنهم علماء،

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٤٥)، وابن كثير في البداية والنهاية (٤/ ٣٠٨) من حديث ابن عباس.

(٢)أخرجه البخاري (٢٩٤٦)، ومسلم (٢٠)، ومالك في المُوطأ (١/ ٢٦٩)، وأبو داود (١٥٥٦)، والترمذي (٢٦١٠)، والنسائي (٥/ ١٤) من حديث أبي هريرة.

واستهزائهم وتفضيلهم دين آبائهم المَخالف لدين النَّبِي ﷺ. ومع هذا كله يصرح هؤلاء الشياطين المَردة الجَهلة أن البدو أسلموا ولو جرى منهم ذلك كله؛ لأنَّهم يقولون: لا إله إلا اللَّه. ولازم قولهم أن اليهود أسلموا لأنَّهم يقولونها [٤٤] وأيضًا كُفر هؤلاء أغلظ من كفر اليهود بأضعاف مضاعفة، أعني: البوادي المُتَّصفين بِمَا ذكرنا.

والذي يُبين ذلك من قصة الردة أن المُرتدين افترقوا فِي ردتهم، فمنهم من كذب النَّبِي ﷺ ورجعوا إِلَى عبادة الأوثان وقالوا: لو كان نبيًّا ما مات [٤٥]. ومنهم من ثبت على الشهادتين ولكن أقر بنبوة مُسَيلمة [٤٦].

علماء فِي الفقه والنحو والصرف، لكن فِي العقيدة ما عندهم ولا حبة خردل من العلم الصحيح، عقيدتهم عقيدة المُتكلمين، ولا يدرسون التوحيد من كتاب اللَّه ومن سنة رسول اللَّه ﷺ، وإنَّما يدرسون قواعد المنطق، وعلم الكلام، وعقائد المتكلمين الذين يقولون: يكفي أنك تقر بأن اللَّه هو الخالق الرازق المُحيي المُميت، فقط هذا هو التوحيد عندهم.

[٤٤]اليهود يقولون: لا إله إلا اللَّه، لكن لَمَّا لَمْ يعملوا بِهَا صاروا أغلظ الأمم كفرًا والعياذ باللَّه، ومثلهم من اعتقد هذه العقيدة.

[٤٥] المُرتدون لا شك فِي كفرهم، ولَم يَحصل عند الصحابة خلاف فِي كُفرهم، وهم صنفان:

الصنف الأول: الذين يقولون: (لو كان نبيًّا ما مات) وكونه مات هذا دليل على أنه غير نبِي؛ فارتدوا عن الإسلام؛ لأنَّهم كفروا برسالة مُحَمَّد ﷺ.

[٤٦] الصنف الثاني: من أقر بالشهادتين وأن مُحمدًا رسول اللَّه، لكن أقر بنبوة مسيلمة، قال: إن مسيلمة نبي. فهؤلاء لا تنفعهم شهادة أن لا إله إلا اللَّه، وأن مُحمدًا رسول اللَّه، إذا أقروا بنبوة مسيلمة الكذاب فليسوا مسلمين، وهذا بالإجماع؛ لأنَّهم جَحدوا ختم النبوة بِمحمد ﷺ، حيث يقول -جل وعلا-: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وصدقوا المُتنبئ الكاذب.

ظنًّا أن النَّبِي ﷺ أشركه فِي النبوة[٤٧]؛ لأن مسيلمة أقام شهود زور شهدوا له بذلك[٤٨]، فصدقهم كثير من الناس. ومع هذا أجمع العلماء أنَّهم مرتدون ولو جهلوا ذلك[٤٩]. ومن شك فِي ردتهم فهو كافر[٥٠].

فإذا عرفت أن العلماء أجمعوا أن الذين كذبوا ورجعوا إِلَى عبادة الأوثان وشتموا رسول اللَّه ﷺ، هم ومن أقر بنبوة مُسيلمة فِي حال واحدة ولو ثبت على الإسلام كله[٥١].

ومنهم من أقر بالشهادتين وصدق طُلَيحة فِي دعواه النبوة[٥٢].

---

[٤٧] لأن مسيلمة الكذاب يقول: إن الرسول أشركني فِي النبوة، وصدقوه فِي هذه الكلمة.

[٤٨] وشهد له بعض الشهود أن الرسول أشركه فِي الأمر، شهادة زور والعياذ باللَّه، وكذبوا صريح القرآن بِختم النبوة بِمحمد، وقوله ﷺ: «**أنا خاتم النَّبيين لا نبي بعدي**»[١].

[٤٩] الذي يقول: إنه يُبعث بعد الرسول نبي يكون كافرًا بالإجماع.

[٥٠] أنه لم يُكفِّر المُشركين وقال: يُمكن أن يكونوا صادقين، وما جزم أنهم على الباطل، بل قال: أنا لا أدري، أنا لا أكفِّر الناس.

نقول: لا... لابد أن تعرف الحق من الباطل، لابد أن تعرف الكفر من الإيمَان وتُميز المسلم من الكافر، لابد من هذا، وإلا ما معنى الإسلام؟!

[٥١] أي: من لَم يكفِّر المُشركين فهو مثل من يقر بنبوة مسيلمة الكذاب ولو كان يؤدي الإسلام كله، إذا قال: إن مسيلمة صادق، صار مرتدًّا عن دين الإسلام. وهذا بالإجماع.

[٥٢] طُليحة مِمن ادعى النبوة، وصدقه قومه وقاتلوا الصحابة معه، ثم إن اللَّه

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٠) و(٢٩٨٩)، وأبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢١٧٦)، وأحمد (٢٢٣٩٥) من حديث ثوبان.

ومنهم من صدق العَنْسي صاحب صنعاء [٥٣]. وكل هؤلاء أجمع العلماء أنَّهم سواء، ومنهم من كذب النَّبِي ﷺ ورجع إِلَى عبادة الأوثان على حال واحدة، ومنهم أنواع أخر [٥٤].

آخرهم الفجاءة السُّلمي، لَمَّا وفد على أبِي بكر وذكر له أنه يريد قتال المُرتدين، وطلب من أبِي بكر أن يَمده، فأعطاه سلاحًا ورواحل، فاستعرض السلمي المسلم والكافر يأخذ أموالَهم، فجهز أبو بكر جيشًا لقتاله، فلما أحس بالجيش قال لأميرهم: أنت أمير أبِي بكر وأنا أميره، فلم أكفر. فقال: إن كنت صادقًا فألقِ السلاح. فألقاه، فبعث به إِلَى أبِي بكر فأمر بتحريقه بالنار وهو حي.

فإذا كان هذا حكم الصحابة فِي هذا الرجل مع إقراره بأركان الإسلام الخَمسة، فما ظنك بِمن لَمْ يُقر من الإسلام بكلمة واحدة إلا أن يقول: لا إله إلا اللَّه بلسانه مع تصريْحه بتكذيب معناها، وتصريْحه بالبراءة من دين مُحَمَّد ﷺ، ومن كتاب اللَّه تعالَى؟

ويقولون: هذا دين الحضر وديننا دين آبائنا، ثُمَّ يفتون هؤلاء المَرَدة الجهال أن هؤلاء مسلمون ولو صرحوا بذلك كله، إذا قالوا: لا إله إلا اللَّه. سبحانك هذا بهتان عظيم [٥٥].

منَّ على طليحة وعاد إِلَى الإسلام، وتاب إلى اللَّه ﷻ، وقُتل فِي حروب الفرس مع المسلمين.

[٥٣]الأسود العنسي، فِي اليمن. قتله عبد اللَّه بن فيروز الديلمي فِي آخر حياة النبي ﷺ، وأما مسيلمة فإنه قاتله الصحابة فِي حرب اليمامة بقيادة خالد بن الوليد حتى قتلوه.

[٥٤]فالمرتدون أنواع ومن صدَّق أحدًا منهم، فهو كافر، وإن كان يشهد أن لا إله إلا اللَّه، فلا تنفعه لا إله إلا اللَّه بِمجرد النطق، وأشد كفرًا من هؤلاء من يقول: لا إله إلا اللَّه، ثم يعبد الأولياء والصالِحين.

[٥٥]الذين يقولون: إن الإسلام دين الحضر، أما نَحن فعلى دين آبائنا ما نَحن

وما أحسن ما قاله واحد من البوادي لَمَّا قدم علينا وسمع شيئًا من الإسلام، قال: أشهد أننا كفار -يعني هو وجميع البوادي- وأشهد أن المُطوع الذي يسمينا أهل الإسلام أنه كافر[٥٦].

تَم والحَمد للَّه رب العالَمين، وصلى اللَّه على مُحَمَّد وآله وصحبه وسلم[٥٧].

على دين الحضر. ويقول علماء الضلال: هؤلاء مسلمون؛ لأنَّهم يقولون: لا إله إلا اللَّه، وهم يتبرءون من دين مُحَمَّد ويقولون: هذا دين الحضر.

[٥٦] هذا أعرابي جاء لدرس الشيخ، ولَمَّا عرف الإسلام معرفة صحيحة شهد على نفسه قبل أن يعرف الإسلام وعلى جماعته أنَّهم كفار، وشهد أن المُطوع -يعني: العالم الذي يقول: إنكم مسلمون- أنه كافر؛ لأنه حكم لِهؤلاء الكفار بالإسلام وما أكثر أشباهه.

[٥٧] غفر اللَّه له وجزاه اللَّه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، لقد بيَّن ووضَّح رَحِمَهُ اللَّهُ.

* * *

الأسئلة

* سؤال: فضيلة الشيخ، ما هي الأمور الَّتِي ينبغي أن يُركز عليها طالب العلم، هل يبدأ بكتب العقيدة؟

الجواب: يبدأ بالأسهل فالأسهل، يبدأ بالمُختصرات ويقرؤها على المشايخ، ثُمَّ يترقى إِلَى الكتب الَّتِي هي أوسع منها، وهكذا. لا يذهب للكتب المطولة من أول الأمر، وإنَّما يترقى إليها شيئًا فشيئًا، يتدرج إليها شيئًا فشيئًا.

* سؤال: ما رأيكم فِي قول من قال: إن من أتى بالشرك والكفر لا يُكفَّر إلا بعد معرفته بالأمر كله؟

الجواب: إذا كان مثله يَجهل؛ لأنه فِي بلد منقطع ما بلغه شيء، فإنه يُعذر، أما إذا كان فِي بلاد المسلمين ويسمع القرآن ويسمع الأحاديث ويسمع كلام أهل العلم، فهذا لا يُعذر بالجهل؛ لأنه قامت عليه الحجة.

* سؤال: ما حكم السفر إِلَى بلاد إسلامية لا يؤمر فيها بالمعروف ولا يُنهى عن المنكر، وتباع فيها الخمور والأغاني، وفيها التبرج والاختلاط، بغرض النزهة والسياحة؟

الجواب: البلد غير المُلتزم، والَّتِي فيها الفواحش والشرور علانية، لا يَجوز للإنسان أن يسافر إليها؛ لأنه يتأثر بِمَا فيها من الشر، ويصيبه ما أصاب أهلها.

* سؤال: هل يَجوز رواية الحَديث الضعيف مع عدم بيان حاله لأن الناس لا يفهمون؟

الجواب: الحَديث الضعيف ذكر العلماء له ضوابط:

أولًا: ألَّا يُنسب إِلَى الرسول ﷺ على طريق الجزم، إنَّمَا يقال: يُروى عن رسول اللَّه، ورد عن رسول اللَّه كذا، ولا يقال: قال رسول اللَّه ﷺ كذا.

ثانيًا: ألَّا يُبنى عليه حكم مستقل، وإنَّما الأحكام تُبنى على الأدلة الصحيحة،

فلا يُبنى عليه حكم مستقل من تَحليل أو تَحريم.

ثالثًا: أن يكون ذكره بِمجال الوعظ والتذكير فقط، يُذكر على سبيل الوعظ والتذكير فقط؛ لأن الوعظ والتذكير مطلوبان.

وشرط رابع أيضًا: وهو ألَّا يكون ضعيفًا شديد الضعف.

* سؤال: هل هناك هجرة فِي عصرنا هذا، وإذا كان فلابد من مسكن ومأكل ولا يُمكن أن يَحصل هذا.....

الجواب: الهجرة باقية، يقول الرسول ﷺ: «**لا تنقطع الهِجرة حَتَّى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حَتَّى تَخرج الشمس من مغربها**»[1] الهِجرة باقية، فإذا كان لا يقيم دينه فِي مكان، فإنه يذهب إِلَى المكان الذي يتمكن فيه من إقامة دينه مع المسلمين، وإذا قُدر أنه ما يقدر على أنه يذهب لبلاد المسلمين، يذهب إِلَى البلاد الَّتِي يتمكن فيها من إقامة دينه ولو كان البلد بلد كفر؛ لأن بعض الشر أهون من بعض. والصحابة هاجروا إِلَى الحبشة وهم نصارى؛ لأنَّهم يقدرون على إقامة دينهم هناك، ويسلمون من أذى المُشركين. واللَّه -جل وعلا- يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]. وإذا كان هناك بلاد فيها أقلية إسلامية أو مسلمون كثيرون، فإنه يذهب ويصير معهم ولو كانوا فِي بلاد كفار، إذا لَمْ يتمكن من بلاد المسلمين، فإنه يُخفف الشر مهما أمكن.

* سؤال: فضيلة الشيخ، بعض الناس عندما يبنِي بيتًا جديدًا يذبح عند عتبة الباب تبركًا وردًّا للعين، وهو يَجهل أن هذا من الذبح لغير اللَّه الذي هو الشرك، فهل هذا يكفر؟

الجواب: هذا يؤمر بالتوبة، يقال له: هذا شرك، عليك التوبة إِلَى اللَّه، لأن من فعل الشرك فهو مشرك.

* سؤال: فضيلة الشيخ هذه امرأة تسأل وتقول: إن الطبيب أخبرها أن الحَمل فِي المستقبل سوف يؤثر على وظائف الكبد، وسوف يؤثر على عظامها، وأخبرها

(١) أخرجه أحمد (١٦٧١)، والبزار (١٠٥٤) من حديث عبد الرحمن بن عوف.

أنَّها تَمتنع عن الحمل ولو فِي وقت ..... فهل يَجوز لَها ذلك؟

الجواب: إذا قرر طبيبان ثقتان أن الحمل فيه خطر عليها، فإنها تعمل ما يَمنع الحمل، لقوله ﷺ: «**لا ضَرَرَ ولا ضِرار**»[١] ولقوله تعالَى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[البقرة: ٩٥] فالمهم ثبوت هذا.

* سؤال: هل يَجوز الخروج للجهاد دون موافقة الوالدين؟

الجواب: لا يَجوز الخروج للجهاد إلا برضا أبيك وأمك؛ لأن النَّبِي ﷺ جاءه رجل يريد أن يُجاهد، فقال له: «**أَحَيٌّ والداك؟**» قال: نعم، قال: «**ففيهما فجاهد**»[٢] فلابد من رضا الوالدين.

* سؤال: هل يُعذر بعض الكفار الآن بالجهل لعدم وصول الإسلام إليهم، وخاصة إذا ولد مولود لأبوين كافرين ولَم يعرف شيئًا عن الإسلام؟

الجواب: الإسلام انتشر الآن وبلغ المشارق والمغارب، خصوصًا بعد تطور وسائل الإعلام، وصار العالَم الآن كالبلد الصغير، انتشر الإسلام بوسائل الإعلام، القرآن أصبح يُتلى بأعلى الأصوات فِي جميع القارات، فِي الأول الإسلام بلغ بالجهاد فِي المشارق والمغارب، فلما انقطع الجهاد فِي هذا الزمان وفر اللَّه وسائل الإعلام هذه، لتقوم الحجة على الخلق؛ لئلا يقول أحد: واللَّه أنا ما دريت ولا سمعت شيئًا.

* سؤال: يقول النَّبِي ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فِي النار إلا واحدة....»[٣] الحَديث، السؤال: كيف نوفق بين هذا الحَديث وبين وجود العديد من الفرق يتعدى الثلاث والسبعين فرقة؟

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨٦٥)، والبيهقي (٦/ ٦٩)، وابن ماجه (٢٣٤١)، والدارقطني (٤/ ٢٢٨)، والطبراني (١١٨٠٦) من حديث ابن عباس، وله شواهد عن عدد من الصحابة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٤) و(٥٩٧٢)، ومسلم (٢٥٤٩).

(٣) أخرجه أحمد (١٢٢٠٨)، وابن ماجه (٣٩٩٣)، وابن أبِي عاصم فِي السنة (٦٤)، وأبو يعلى (٤١٢٧) من حديث أنس.

الجواب: هذه أصول الفرق، ثُمَّ إنها تشعبت وتفرقت فرقًا كثيرة، لكن أصولها ثلاث وسبعون فرقة كما أخبر النَّبِي ﷺ.

* سؤال: كيف يكون الجهل باللَّه سببًا للشرك باللَّه؟

الجواب: الجهل باللَّه سبب لكل شر من الشرك وغيره، فلابد من معرفة اللَّه ﷻ بأسمائه وصفاته، ومعرفة حقه علينا، وما أوجبه علينا وما حرمه علينا، لابد من معرفة هذا معرفة تامة.

* سؤال: هل يؤخذ من تعبد النَّبِي ﷺ فِي الغار العزلة فِي هذا الزمن الذي كثر فيه الشرك، وقل الإيمان وطلبُ العلم والتطفل على العلماء، وهل توصون بِهذا؟

الجواب: العلماء قسموا العزلة إِلَى قسمين:

القسم الأول: الإنسان الذي يُخالط الناس من أجل الدعوة إِلَى اللَّه ومن أجل التعلم، هذا لا تَجوز له العزلة، بل يَجب عليه أن يعلم الخير وأن يدعو إِلَى اللَّه وأن يُخالط الناس من أجل التأثير عليهم ونصيحتهم، فلا يَجوز له العزلة.

القسم الثاني: الذي ليس له تأثير ولا له فائدة، إذا خالط الناس بل هو يتضرر، فهذا العزلة خير له؛ لأن اختلاطه بالناس لا يفيده ولا يفيد الناس أيضًا.

* سؤال: ما رأيكم فيمن يصف مؤلفات الإمام المجدد مُحَمَّد بن عبد الوهاب فِي الفقه والعقيدة ويقول: هي فيها تكرار؟

الجواب: هذا بين أمرين: إما أنه جاهل لَمْ يكن درسها ولا يدري عنها، والواجب عليه قبل أن يَحكم على الشيء أن يدرسه أولًا ويعرفه، ولا يَحكم عليه وهو يَجهل.

الأمر الثاني: أن يكون عنده ضلال، وهذه الكتب تنكر عليه ضلاله، وهذا الظاهر أنه مريض وهو يكره الدواء، لكن نسأل اللَّه له الهِداية، ونوصيه بأنه يقرأ هذه الكتب بتمعن ويسأل عما أشكل عليه....

والحَمد للَّه رب العالَمين.

(٣)

الرسالة الثالثة

تفسير كلمة التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم

سُئل الشيخ مُحَمَّد بن عبد الوهاب -رحِمه اللَّه تعالَى- عن معنى (لا إله إلا اللَّه)، فأجاب بقوله: اعلم رحمك اللَّه تعالى أن هذه الكلمة هي الفارقة بين الكفر والإسلام [١].

---

[١] بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمد للَّه والصلاة والسلام على رسول اللَّه وعلى آله وأصحابه، وبعد:

كلمة (لا إله إلا اللَّه) كلمة عظيمة خفيفة على اللسان وهي عظيمة فِي المِيزان؛ لأنها فِي الحَقيقة هي مضمون الإسلام، ولكن هذه الكلمة ليست مُجرد لفظ بل لَها معنى ولَها مقتضى، ولَها أركان ولَها شروط لابد من معرفتها، ولو كان القصد مُجرد التلفظ بِهَا صار كُل من يقولها مسلمًا؛ لأنه سهل أن يقول: (لا إله إلا اللَّه) ويصير مسلمًا ولو لَمْ يعمل شيئًا، فهذه كلمة عظيمة ولكن لَها معنى، ولَها مقتضى، ولَها أركان، ولَها شروط لابد من تَحقيقها، ولِهذا فإنها لا تنفع إلا مع وجود هذه المَذكورات.

وهذه الكلمة لَها أسماء، منها أنَّها كلمة الإخلاص؛ لأنها تنفي الشرك باللَّه ﷻ، وتُثبتُ العبادة للَّه ﷻ، لذلك سميت كلمة الإخلاص، أي: إخلاص التوحيد، وإخلاص العبادة، وتَجنب الشرك باللَّه ﷻ.

وتسمى كلمةَ التقوى، كما قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦]، وكلمة التقوى، هي: (لا إله إلا اللَّه) لأنها تقي من قالَها مُخلصًا للَّه ﷻ تقيه من النار؛ ولأنها تقتضي

أعمال البر؛ لأن التقوى هي أعمال البر والطاعات، هذه الكلمة تقتضي كل أعمال البر والطاعة، فهي كلمة التقوى.

وأيضًا هي العروة الوثقى، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

(يكفر بالطاغوت، ويؤمن باللَّه) هذا هو معنى (لا إله إلا اللَّه)، أنه يكفر بالطاغوت هذا هو معنى (لا إله)، ويؤمن باللَّه هذا هو معنى (إلا اللَّه) فمعنى يكفر بالطاغوت ويؤمن باللَّه هو مقتضى (لا إله إلا اللَّه) ولذلك سميت العروة الوثقى.

وأيضًا هي كما قال الشيخ: الفارقة بين الكفر والإسلام، فمن قالَها عالِمًا بِمعناها، عاملًا بِمقتضاها صار مسلمًا، ومن أبى أن يقولها، أو قالها ولكن لَمْ يعلم معناها، أو قالها ولَم يعمل بِمقتضاها، لَمْ يكن مسلمًا حَتَّى يعرف معناها ويعمل بِمقتضاها ظاهرًا وباطنًا.

هذه أسماء لـ(لا إله إلا اللَّه): كلمة الإخلاص، كلمة التقوى، العروة الوثقى، الكلمة الفاصلة بين الكفر والإسلام؛ لأن كثيرًا من الناس لا يهتمون بِمقتضى هذه الكلمة، مع أنَّهم يُكثرون من النطق بِهَا وذكر اللَّه بِهَا كالصوفية، فلهم أوراد صباحية ومسائية فيها (لا إله إلا اللَّه) آلاف المرات، ولكنهم يدعون غير اللَّه، فهي لا تفيدهم شيئًا؛ لأنَّهم لَمْ يعملوا بِمقتضاها، فهم يقولونها، ويقرءونها فِي أورادهم ويكررونها، ولكن يدعون المَوتى، ويستغيثون بالمقبورين، ويطيعون مشايخ الطرق الذين يشرِّعون لَهم عبادات لَمْ يشرعها اللَّه ولا رسوله، فلا يتلقون التشريع عن الرسول ﷺ، وإنَّما يتلقونه عن مشايخهم، فهؤلاء يكثرون النطق بـ (لا إله إلا اللَّه) صباحًا ومساءً ولا يُغني عنهم نطقهم بِهَا شيئًا، ولا يفيدهم شيئًا.

ومن الصوفية من لا ينطق بِهَا كاملة، وهؤلاء بزعمهم أنَّهم صاروا خواص الخواص، لا يقولون: لا إله إلا اللَّه، بل يقولون: اللَّه اللَّه، هذا ذكرهم، يرددون: اللَّه اللَّه اللَّه، مع أنه لابد أن تأتي بِجملة مفيدة، أما اللَّه اللَّه، فهو اسم مُجرد فهو لا يفيد شيئًا، وبعضهم لا يقول لفظ الجلالة بل يقول: هو هو هو، ضمير

وهي كلمة التقوى، وهي العروة الوثقى، وهي الَّتِي جعلها إبراهيم عليه السلام باقية فِي عقبه لعلهم يرجعون [٢] .

غائب، وهذا لا يفيد شيئًا، لأنه تلاعب بهذه الكلمة، فيجب التنبه لِهذه الأمور؛ لأن الشيطان لَمَّا علم أن هذه الكلمة هي كلمة الإسلام، وكان عند الناس رغبة فِي النطق بِهَا والذكر بِهَا، صرفهم عنها بهذه الحيل، وأتى لَهم بهذه الوساوس، وقال لَهم: قولوا: اللَّه اللَّه، أو قولوا: هو هو، وبعضهم لا يتلفظ لا باللَّه ولا بهو، وإنَّما يقولها بقلبه فقط، كل هذا تلاعب من الشيطان، فيجب التنبه لِهذا.

ومن الناس من يُغفِله الشيطان عن قول: (لا إله إلا اللَّه)، فلا يقولها إلا نادرًا، ولا يذكر اللَّه بِهَا إلا قليلًا ولا يكررها مع أنَّها ثقيلة فِي الميزان، كما جاء فِي (كتاب التوحيد) أنَّها لو وضعت فِي كفة، ووضعت السموات ومن فيها غير اللَّه والأرض ومن فيها فِي كفة لَمالت بهن لا إله إلا اللَّه، فهي تثقل بِمن فِي السموات ومن فيها غير اللَّه والأرض وبِمن فيها، فهي كلمة عظيمة، ولكن قلَّ من يتنبه لَها ويستحضرها، ويعوِّد لسانه على النطق بِهَا وتكرارها، إلا من وفقه اللَّه تبارك وتعالى.

[٢] وهذه الكلمة (لا إله إلا اللَّه) هي الَّتِي عناها إبراهيم عليه السلام فِي قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧] هذا هو معنى (لا إله إلا اللَّه)، ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ﴾ هذا معنى النفي (لا إله)، ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ هذا معنى الإثبات (إلا اللَّه) ﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي: إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- جعل هذه الكلمة ﴿كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ﴾ فِي ذريته، فلا يزال فيهم من يقول: (لا إله إلا اللَّه) لَمْ يتركوها كلهم، ولَم يشركوا كلهم، بل فيهم من قالها واستقام عليها، ولو كان عددًا قليلًا أو أفرادًا، فلما بُعث مُحَمَّد صلى الله عليه وسلم، بُعث بهذه الكلمة، قال صلى الله عليه وسلم: «**أُمرت أن أقاتل الناس حَتَّى يقولوا: لا إله إلا اللَّه؛ فإذا قالوها عصموا منِّي دماءهم وأموالهم إلا بِحقها وحسابهم على اللَّه**»(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٦)، ومسلم (٢٠)، ومالك فِي الْموطأ (١/ ٢٦٩)، وأبو داود (١٥٥٦)، والترمذي (٢٦١٠)، والنسائي (٥/ ١٤) من حديث أبِي هريرة.

وليس المُراد قولها باللسان مع الجَهل بِمعناها [٣].

فالرسول بُعث بـ (لا إله إلا اللَّه) وهي الكلمة التي جعلها جده إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- باقية فِي عقبه، وكان مُحمد ﷺ من عقب إبراهيم، وبعثه اللَّه بها يدعو الناس إليها ويُقاتلهم عليها، فهي كلمة عظيمة، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: يرجعون إليها، وببعثة مُحمد ﷺ رجع إليها الكثير من ذرية إبراهيم، فالرسول ﷺ بُعث بهذه الكلمة والدعوة إليها وتَحقيقها والعمل بها، بل إن كل الرسل بعثوا بها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

هذا معنى (لا إله إلا اللَّه) ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ هذا معنى النفي والإثبات ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ الأنبياء والرسل ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢].

كل الرسل بعثوا بـ (لا إله إلا اللَّه)، ولكن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- جعلها كلمة باقية فِي عقبه إِلَى أن تقوم الساعة، ولا يزال فِي ذرية إبراهيم من يتوارث هذه الكلمة علمًا وعملًا وتَحقيقًا، وإن أعرض عنها الأكثرون.

[٣] ليس المَقصود قول: (لا إله إلا اللَّه) باللسان فقط من غير فهم لِمعناها، لابد أن تتعلم ما معنى (لا إله إلا اللَّه) أما إذا قلتها وأنت لا تعرف معناها، فإنك لا تعتقد ما دلت عليه، فكيف تعتقد شيئًا تَجهله، فلابد أن تعرف معناها حَتَّى تعتقده، تعتقد بقلبك ما يلفظ به لسانك، فلازم أن تتعلم معنى (لا إله إلا اللَّه)، أما مُجرد نطق اللسان من غير فهم لِمعناها فهذا لا يفيد شيئًا.

أيضًا لا يكفي الاعتقاد بالقلب ونطق اللسان، بل لابد من العمل بِمقتضاها، وذلك بإخلاص العبادة للَّه، وترك عبادة مَن سواه ﷻ، (فلا إله إلا اللَّه) كلمة نطق وعلم وعمل، ليست كلمة لفظ فقط.

أما المُرجئة فهم يقولون: يكفي التلفظ بـ (لا إله إلا اللَّه)، أو يكفي التلفظ بِهَا مع اعتقاد معناها، والعمل ليس بلازم، من قالها ولو لَمْ يعمل شيئًا من لوازمها هو

من أهل الجَنة، ولو لَمْ يصلِّ، ولَم يزكِّ، ولَم يَحج، ولَم يَصُم، ولو فعل الفواحش والكبائر والزنا والسرقة وشرب الخمر، وفعل ما يريد من المَعاصي، وترك الطاعات كلها؛ لأنه تكفيه (لا إله إلا اللَّه) عندهم، هذا مذهب المُرجئة، الذين يُخرجون العمل من حقيقة الإيمان، ويعتبرون العمل إن جاء فبها ونعمت، وإن لَمْ يَجِئ، فإنها تكفي (لا إله إلا اللَّه) عندهم، ويستدلون بأحاديث تفيد أن من قال: لا إله إلا اللَّه، دخل الجنة، ولكن الرسول ﷺ ما اقتصر على هذه الأحاديث، فالرسول ﷺ له أحاديث أخرى تقيد هذه الأحاديث، ولابد أن تَجمع بين كلام الرسول ﷺ بعضه إلَى بعض، لا أن تأخذ منه طرفًا وتترك طرفًا؛ لأن كلام الرسول ﷺ يفسر بعضه بعضًا، ويبين بعضه بعضًا، أما الذي يأخذ طرفًا ويترك طرفًا فإنه من أهل الزيغ الذين يتبعون ﴿مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧] الرسول ﷺ قال: «**من قال: لا إله إلا اللَّه وكفر بِمَا عُبد من دون اللَّه**»(١).

وهذا حديث صحيح، فلماذا غفلتم عنه؟ وقال ﷺ: «**فإن اللَّه حرم على النار من قال: لا إله إلا اللَّه، يبتغي بذلك وجه اللَّه**»(٢).

أما الذي يقول: لا إله إلا اللَّه، ولا يكفر بِما يُعبد من دون اللَّه، ويدعو الأولياء والصالِحين، فإن هذا لا تنفعه (لا إله إلا اللَّه) لأن كلام الرسول ﷺ يُفسر بعضه بعضًا، ويقيد بعضه بعضًا، فلا تأخذ بعضه وتترك بعضه، واللَّه ﷻ يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: ٧] يأخذون الذي يصلح لَهم، ويتركون الذي لا يصلح لَهم.

ويقولون: استدللنا بالقرآن، نقول: ما استدللتم بالقرآن، القرآن إن قال كذا فقد قال كذا، فلماذا تأخذون بعضًا وتتركون بعضًا ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧]، المُحكم والمُتشابه، فيردون المتشابه إلَى المُحكم،

(١) أخرجه مسلم (٢٢) من حديث طارق بن أشيَم.
(٢) أخرجه البخاري (٤٢٤) و(٦٨٦)، ومسلم (٣٣) من حديث عتبان بن مالك.

فإن المُنافقين يقولونها وهم تَحت الكفار ﴿فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] [٤].

ويفسرونه به ويقيدونه به، ويفصّلونه، أما إنهم يأخذون المُتشابه ويتركون المُحكم، فهذه طريقة أهل الزيغ، فالذين يأخذون بِحديث أن «**من قال: لا إله إلا اللَّه دخل الجنة**»(١)، ويقتصرون على هذا، ولا يوردون الأحاديث الواضحة الَّتِي فيها القيود، وفيها التفصيل، فهؤلاء أهل زيغ.

فيجب على طالب العلم أن يعرف هذه القاعدة العظيمة؛ لأنها هي جماع الدين وهي أساس المِلة، ليس المَقصود أنك تأخذ آية أو حديثًا وتترك غيره، بل المقصود أنك تأخذ القرآن كله، وتأخذ السنة كلها، وكذلك كلام أهل العلم، العالم إذا قال كلامًا لا تأخذه وحده حَتَّى ترده إِلَى كلامه الكامل، وتتبع كلامه فِي مؤلفاته؛ لأنه يقيد بعضه بعضًا؛ لأنَّهم على سنن كتاب اللَّه وسنة رسوله، فترد المُطلق إِلَى المُقيد من كلامهم، فطالب العلم يَجب عليه أن يأخذ هذه القاعدة معه دائمًا، ويَحذر من طريقة أهل الزيغ الذين يأخذون الذي يصلح لَهم، ويتركون الذي لا يصلح لَهم من الكتاب، ومن السنة، ومن كلام أهل العلم، ويبترون النُّقول، ويتركون باقي الكلام، أو يتركون الكلام الثاني الذي يوضحه، ويأخذون الكلام المشتبه ويتركون الكلام البين، كثير من الذين يدَّعون العلم غفلوا عن هذا الشيء، إما عن قصد التضليل، وإما عن جهل، فيجب معرفة هذه الأمور، وأن تكون أصولًا وقواعد عند طالب العلم.

[٤] المُنافقون الذين هم ﴿فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] هم الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر؛ لأنه لَمَّا هاجر النَّبِي ﷺ إِلَى المَدينة وصار حوله المهاجرون والأنصار وقوي الإسلام، وانتصر الدين فِي بدر، تلك الواقعة العظيمة الَّتِي طار خبرها فِي المشارق والمغارب؛ لأن النَّبِي انتصر على صناديد قريش،

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٣٢٤)، والبيهقي فِي الأسماء والصفات (٣٠٣)، والطبراني فِي مسند الشاميين (٢٤٤٩)، والبزار فِي مسنده (٢٨٥٤) عن حذيفة رضي الله عنه.

مع كونهم يصلون ويتصدقون [٥].

ولكن المراد قولها مع معرفتها بالقلب، ومَحبتها ومَحبة أهلها وبغض من خالفها ومعاداته [٦].

وقريش كانت تاج العرب، وكان الناس ينظرون إليها، فلما انتصر عليها ﷺ فِي بدر، وقتل رءوسها، عند ذلك قال المُنافقون: نَحن وقعنا فِي المَدينة بين المُهاجرين والأنصار ومعهم الرسول، وماذا نعمل؟ لجئوا إِلَى حيلة، وهي أنَّهم يُظهرون الإسلام من أجل أن يعيشوا مع المسلمين ويُحافظوا على دمائهم وأموالِهم، والرسول ﷺ ليس له إلا الظاهر، لا يدري عن القلوب إلا اللَّه ﷻ، فمن أظهر الإسلام قبلناه منه حَتَّى يظهر منه ما يُخالف ظاهره.

وقالوا: (لا إله إلا اللَّه) وشهدوا للرسول بالرسالة ظاهرًا كما قال اللَّه تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ [المنافقون: ١-٢].

جُنَّة: يعنِي سترة يستترون بِهَا، فالمُنافقون دخلوا فِي الإسلام -لَمَّا رأوا قوة المسلمين- ظاهرًا، وبقوا على الكفر باطنًا -والعياذ باللَّه-، ولذلك جعلهم اللَّه فِي الدرك الأسفل من النار تَحت المُشركين، عبدة الأوثان، تَحت المَلاحدة، لعظيم جُرمهم وخداعهم ومكرهم ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

فالمُنافق يقول: لا إله إلا اللَّه، وهو فِي الدرك الأسفل من النار، فكيف تقولون: إن (لا إله إلا اللَّه) يكفي مُجرد التلفظ بِهَا، وهؤلاء المُنافقون فِي الدرك الأسفل من النار، وهم يقولون: (لا إله إلا اللَّه)؟! فدل أن مُجرد النطق بِهَا لا يكفي إلا باعتقاد القلب وعمل الجوارح.

[٥] المُنافقون يصلون ويتصدقون ويَخرجون للجهاد مع الرسول ﷺ فِي الظاهر، ولكنهم منافقون فِي قلوبهم، وهم يقولون: (لا إله إلا اللَّه) ولَم تنفعهم.

[٦] المُراد من (لا إله إلا اللَّه): قولها باللسان مع اعتقاد القلب بِهَا، والعمل

كما قال النَّبِي ﷺ: «**من قال: لا إله إلا اللَّه، مُخلصًا**»، وفِي رواية: «**خالصًا من قلبه**»، وفي رواية: «**صادقًا من قلبه**»، وفي حديث آخر: «**من قال: لا إله إلا اللَّه، وكفر بِما يُعبدُ من دون اللَّه**» [٧].

إلَى غير ذلك من الأحاديث الدالة على جهالة أكثر الناس بهذه الشهادة [٨].

بِمقتضاها، وموالاة أهلها ومعاداة من خالفها، وهذا هو الحُب فِي اللَّه، والبغض فِي اللَّه، هذه كلها من مقتضى (لا إله إلا اللَّه) ولِهذا قالوا: (لا إله إلا اللَّه) لَها سبعة شروط، نَظمها بعض العلماء بقوله:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع مَحبة وانقياد والقبول لَها

زاد الشيخ سعد بن عتيق رَحِمَهُ اللَّهُ شرطًا ثامنًا فقال:

وزيد ثامنها الكفران منك بِمَا سوى الإله من الأشياء قد أُلها

وركنا (لا إله إلا اللَّه) هما النفي والإثبات، فلا يكفي النفي، ولا يكفي الإثبات، بل لا بد من الاثنين.

[٧] «**من قال: لا إله إلا اللَّه مُخلصًا**» هذا قيد، لَم يقتصر على قوله: «**من قال لا إله إلا اللَّه**» بل قال: «**مُخلصًا من قلبه**»(١)، لا يكفي أنه يقول: (لا إله إلا اللَّه) حتى يكون ذلك خالصًا من قلبه؛ لئلا يكون من المُنافقين الذين يقولونها بألسنتهم ولكن لا يقولونها بقلوبهم.

و«**من قال: لا إله إلا اللَّه، وكفر بِمَا عُبد من دون اللَّه**»(٢) هذا قيد عظيم وهو قوله: «**وكفر بِمَا عُبد من دون اللَّه**» لأن كثيرًا يقولون: (لا إله إلا اللَّه) ولا يتركون عبادة القبور، ودعاء الأموات، والاستغاثة بِهم، وطلب الحاجات من غير اللَّه، هؤلاء لا تنفعهم (لا إله إلا اللَّه)؛ لأنَّهم لَمْ يكفروا بِمَا يُعبد من دون اللَّه.

[٨] أكثر الناس يَجهلون هذه الشهادة يَحسبونها مُجرد لفظ يُقال باللسان،

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٥٩٧)، والطحاوي فِي شرح مشكل الآثار (٤٠٠٣) من حديث أبِي موسى الأشعري.

(٢) تقدم تَخريجُه فِي الصفحة (٧٩).

فاعلم أن هذه الكلمة نفي وإثبات [٩]. نفي الإلهية عما سوى الله ﷻ من

وكثير من العلماء لا يفهمون معنى (لا إله إلا الله) وهم علماء فِي الفقه، علماء فِي النحو، علماء فِي الحَديث، ولكن أكثرهم ليس له عناية بالتوحيد، أو يتعلم عقيدة الأشاعرة وعلماء الكلام، الَّتِي تقتصر على توحيد الربوبية.

ويقولون: (لا إله إلا اللَّه) ويفسرونها: لا خالق إلا اللَّه، لا يقدر على الاختراع إلا اللَّه، هذا تفسيرهم لَها، فهم لا يتعدَّون توحيد الربوبية، ويفسرون (لا إله إلا اللَّه) بِمَا لا يزيد عن توحيد الربوبية، ولا يتعرضون لتوحيد الألوهية الذي هو مطلوب لـ(لا إله إلا اللَّه).

اقرءوا عقائد المتكلمين تَجدون أنَّهم يركزون على إثبات وجود اللَّه، كأن اللَّه فيه شك، والاعتراف بأنه هو الخالق الرازق المُحيي المُميت ... إلَى آخره، ولا يذكرون العبادة، ولا يذكرون الألوهية أبدًا، هذا لا يزيد على دين المُشركين الذين قال اللَّه فيهم: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [يونس: ٣١]. يثبتون الرب ولكن يعبدون غيره، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [يونس: ١٨].

ما يقولون: إنهم يَخلقون ويرزقون، ولكن يقولون: إنهم شفعاء وسطاء لنا عند اللَّه، فالأمر خطير جدًّا، فهناك لبسٌ كثير فِي هذا الأمر، وضَلَّ كثير من الناس بِهذا اللبس، الذي يُخلص التوحيد ويبين معنى (لا إله إلا اللَّه) يقولون: هذا يُكفر المسلمين، نَحن نبرأ إلَى اللَّه من الذي يكفر المسلمين، نَحن ما نكفر إلا من كفره اللَّه ورسوله، فالذي لا يحقق (لا إله إلا اللَّه) قد كفره اللَّه ورسوله.

[٩] هذه الكلمة لَها ركنان: هما نفي وإثبات، فلا يكفي النفي، ولا يكفي الإثبات، بل لابد من الاثنين مقترنين.

المرسلين حَتَّى مُحَمَّد ﷺ، ومن المَلائكة حَتَّى جبريل، فضلًا عن غيرهما من الأنبياء والصالِحين، وإثباتها للَّه ﷻ [١٠] .

إذا فهمت ذلك فتأمل الألوهية الَّتِي أثبتها اللَّه تعالَى لنفسه، ونفاها عن مُحَمَّد ﷺ وجبريل وغيرهما أن يكون لَهم منها مثقال حبة من خردل[١١] .

كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

ما قال: (يكفر بالطاغوت) فقط، بل قال: (ويؤمن باللَّه)، ولا قال: من (يؤمن باللَّه) ولَم يذكر الكفر بالطاغوت، لابد من الاثنين.

[١٠] (نفي الإلهية عن كل ما يُعبد من دون اللَّه) من المَخلوقات، ولو كان من أصلح الصالِحين، فأصلح البشر هو مُحَمَّد ﷺ، وأصلح المَلائكة هو جبريل، ومع هذا لو أن أحدًا يعبد جبريل أو يعبد مُحمدًا، فإنه يكون مشركًا خالدًا فِي النار؛ لأن اللَّه لا يرضى أن يُشرَك معه أحد، لا من المَلائكة، ولا من الأنبياء، ولا من الصالِحين، ولا من الأشجار والأحجار، ولِهذا يقول: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] (أحدًا) هذا عام، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦]. (شيئًا) أيّ شيء، هذا نفي عام، والمَنفي نكرة، والنكرة فِي سياق النفي تعم كل شيء.

[١١] الألوهية معناها العبادة، ومن هنا غلط كثيرون فِي تفسير (لا إله إلا اللَّه) وفسروها بغير تفسيرها ومن ذلك:

١- تفسير أهل وحدة الوجود لكلمة التوحيد:

فأهل وحدة الوجود -ابن عربي وأتباعه-، يقولون: (لا إله إلا اللَّه) لا معبود إلا اللَّه، أو لا إله موجود إلا اللَّه، معنى هذا أن كل المَعبودات كلها هي اللَّه؛ لأن عندهم أن الوجود لا ينقسم بين خالق ومَخلوق، هو كله هو اللَّه، هذا معنى أنَّهم أهل وحدة الوجود؛ يَجعلون الوجود يتحد ولا ينقسم، كله هو اللَّه، مهما عبد الإنسان من شيء فإنه قد عبد اللَّه، الذي عبد البقر، والذي عبد الصنم، والذي عبد الحجر، والذي عبد البشر، والذي عبد المَلائكة، كلهم يعبدون اللَّه؛ لأن اللَّه هو

الوجود المُطلق.

والذي يقول: إن الوجود ينقسم إِلَى قسمين إِلَى خالق ومَخلوق، يقولون عنه: إن هذا مشرك، فلا يكون موحدًا عندهم إلا من قال: إن الوجود شيء واحد هو اللَّه، فمهما عبدت من هذا الكون من أشجار أو أحجار أو أصنام أو طواغيت فإنك تعبد اللَّه؛ لأن هذا هو اللَّه، وبِهذه المُناسبة فإنه يغلط بعض العوام، يقول: ولا معبود سواك، ولكن لو قال: لا معبود بِحق سواك، وهذا يوافق قول أهل وحدة الوجود فلو زاد كلمة (بحق) صح؛ لأن ما سواه معبود بالباطل قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[الحج: ٦٢].

٢- تفسير علماء الكلام لكلمة التوحيد:

علماء الكلام يقولون: (لا إله إلا اللَّه): لا قادر على الاختراع والخلق والتدبير والإيجاد إلا اللَّه.

وهذا غير صحيح، هذا يوافق دين المُشركين، فالمُشركون يقولون: لا يقدر على الخلق إلا اللَّه، لا يُحيي إلا اللَّه، لا يُميت إلا اللَّه، لا يرزق إلا اللَّه، وهذا توحيد الربوبية.

٣- تفسير لا إله إلا اللَّه عند الجَهمية والمُعتزلة، ومن سار على نهجهم هو نفي الأسماء والصفات؛ لأن من أثبت الأسماء والصفات عندهم يكون مشركًا، والتوحيد عندهم هو نفي الأسماء والصفات.

٤- تفسير الحزبيين والإخوانيين اليوم:

يقولون: (لا إله إلا اللَّه) أي: لا حاكمية إلا للَّه، والحاكمية كما يسمونها جزء من معنى لا إله إلا اللَّه؛ لأن معناها شامل لكل أنواع العبادات.

فنقول لَهم: وأين بقية العبادات، أين الركوع والسجود والذبح والنذر، وبقية العبادات؟!

فاعلم أن هذه الألوهية هي الَّتي تسميها العامة فِي زماننا: السر والولاية [١٢].

والإله معناه الولي الذي فيه السر، وهو الذي يسمونه الفقير والشيخ [١٣].

وتسمية العامة: السيد وأشباه هذا [١٤].

وذلك أنَّهم يظنون أن اللَّه جعل لِخواص الخلق عنده منزلة يرضى أن يلتجئ الإنسان إليهم، ويرجوهم ويستغيث بِهم، ويَجعلهم واسطة بينه وبين اللَّه [١٥].

هل العبادة هي الحاكمية فقط إذا كان معناها عندكم الحاكمية فقط؟

وأين ما تنفيه من أنواع الشرك؟ يا سبحان اللَّه! ينبغي التنبه لِهذه الأمور؛ لأن هذه كلمة عظيمةٌ، هي المُنجية من النار لِمن حققها، وكل الدين ينبني عليها من أوله إلَى آخره، ودعوة الرسل والكتب المُنزلة كلها مبنية على هذه الكلمة.

٥- تفسير أهل السنة والجَماعة:

أن (لا إله إلا اللَّه) معناها: لا معبود بِحق إلا اللَّه، لأن المَعبودات كثيرة. ولكن المَعبود بِحق هو اللَّه وحده، وما سواه فعبادته باطلة كما قال اللَّه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

[١٢]أي: يعتقدونها فِي الأولياء، ويقولون: إن هذا الولي فيه سر وفيه ولاية، فيتقربون إليه بالذبح والنذر، والدعاء والاستغاثة؛ لأنه فيه سر وفيه ولاية.

[١٣]الصوفية يسمون العابد: الشيخ، يعني شيخ الطريقة الذي يأخذون عنه دينهم؛ والذي يأخذ عن شيخ الطريقة، يسمونه: المُريد، ويكون مع شيخه كالميت بين يدي الغاسل، ليس له أن يعترض بشيء.

[١٤]وهم يسمون شيخهم: السيد، ويسمونه: الشيخ، فلابد أن تبايعه وتسلم له أمرك، فلا تعترض ولا تُخالف فِي شيء، وإلا فإنك لا تكون مريدًا معه.

[١٥] يقولون: إن اللَّه جعل من الخلق خواصَّ يَجوز الالتجاء إليهم، ودعاؤهم والاستغاثة بِهم على أنَّهم شفعاء عنده ويقربون إليه، هذا الذي هم عليه،

فالذين يزعم أهل الشرك فِي زماننا أنَّهم وسائطهم هم الذين يسميهم الأولون الآلهة، والواسطة هو الإله [١٦]. فقول الرجل: (لا إله إلا اللَّه) إبطال للوسائط [١٧].

وإذا أردت أن تعرف هذا معرفة تامة فذلك بأمرين:

الأول: أن تعرف أن الكفار الذين قاتلهم رسول اللَّه ﷺ وقتلهم وأباح أموالَهم واستحل نساءهم كانوا مقرِّين للَّه سبحانه بتوحيد الربوبية، وهو أنه لا يَخلق ولا يرزق ولا يُحيي ولا يُميت ولا يدبر الأمور إلا اللَّه وحده، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ

لا يقولون: إنهم شركاء للَّه.

بل يقولون: شفعاء عنده ويقربون إليه؛ لأن اللَّه اختارهم لصلاحهم وتقواهم، فصاروا وسائط بين العباد وبين اللَّه -تعالى اللَّه عما يقولون- ولذلك يتقربون إليهم بالعبادات أحياءً وأمواتًا.

ويقولون: إن المُتقرب إليهم مثل المتقرب إِلَى اللَّه، من يتقرب للشيخ يتقرب للَّه ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] لعب الشيطان بِهم إِلَى هذا الحَد.

[١٦] المُشركون الأولون يعبدونهم ويسمونهم آلهة، ولذلك لَمَّا قال لَهم رسول اللَّه ﷺ: «قولوا: **لا إله إلا اللَّه**» قالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ إلَى قول: ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٥-٦]، سموها آلهة ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]. الأولون سموهم آلهة، والمُتأخرون الذين يدعون الإسلام سموهم وسائط وشفعاء فقط، ولَم يسموهم آلهة، والمَعنى واحد وإن اختلف اللفظ؛ لأن العبرة بالحقائق، وليست العبرة بالألفاظ والمصطلحات.

[١٧] (لا إله إلا اللَّه) تبطل كل ما يُعبد من دون اللَّه سواءً سُمِّي واسطة أو شفيعًا، أو سُمي آلهة، فلا إله إلا اللَّه تبطل كل ما يُعبد من دون اللَّه بأي اسم سمي.

ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١] [١٨].

وهذه مسألة عظيمة جليلة مهمة، وهي أن تعرف أن الكفار الذين قاتلهم رسول اللَّه ﷺ شاهدون بِهذا كله ومقرُّون به، ومع هذا لَمْ يُدخلهم ذلك فِي الإسلام، ولَم يُحَرِّم دماءهم ولا أموالَهم، وكانوا أيضًا يتصدقون ويَحجون ويعتمرون ويتعبدون ويتركون أشياء من المُحرمات خوفًا من اللَّه ﷻ[١٩].

ولكن الأمر الثاني هو الذي كَفَّرهم وأحلَّ دماءهم وأموالَهم، وهو أنهم لَمْ يشهدوا للَّه بتوحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية [٢٠].

وهو ألَّا يُدعى ولا يُرجى إلا اللَّه وحده لا شريك له [٢١].

---

[١٨] عباد القبور الآن يقولون: ما دام أنه اعترف أن اللَّه هو الخالق الرازق المحيي المُميت المُدبر، فإنه مسلم، إذن ما معنى (لا إله إلا اللَّه)؟! ليس لها معنى عندهم؛ لأن المُشركين يقولون هذا الذي يقوله هؤلاء.

[١٩] هي مسألة عظيمة ومهمة جدًّا، وقلَّ من يعتني بها؛ لأن هؤلاء يقولون: من أقر بتوحيد الربوبية صار مسلمًا.

وكان المُشركون فِي الجاهلية يقرون بتوحيد الربوبية، وعندهم عبادات كالصدقة والحج، فهم يَحجون ويعتمرون ويقولون: لا يَخلق ولا يرزق ولا يُحيي ولا يُميت إلا اللَّه، يعترفون بتوحيد الربوبية، ويتعبدون ببعض العبادات، ولكن لَمَّا كانوا لا يُخلصون العبادة للَّه وَحْدَه، بل يعبدون اللَّه ويعبدون معه غيره صاروا مشركين.

[٢٠] لأن هذا هو المَطلوب وهو توحيد الألوهية، أي: إفراد اللَّه بالعبادة، وليس المطلوب إفراد اللَّه بتوحيد الربوبية فقط، لابد من الأمرين، لابد من توحيد الربوبية، وهو مستلزم لتوحيد الألوهية، ولابد من توحيد الألوهية، وهو متضمن لتوحيد الربوبية، لا ينفك بعضهما عن بعض.

[٢١] أي: وتوحيد الألوهية يتضمن جميع العبادات، فلا يُصرف لغير اللَّه ﷻ منها شيء؛ لأنه هو المُستحق لِهَا، فمن صرف منها شيئًا لغير اللَّه، فإنه مشرك ولو

ولا يُستغاث بغيره ولا يُذبح لغيره، ولا يُنذر لغيره، لا لِملَكٍ مقرَّب ولا نبِي مرسل، فمن استغاث بغيره فقد كفر، ومن ذبح لغيره فقد كفر، ومن نذر لغيره فقد كفر، وأشباه ذلك [٢٢].

وتَمام هذا: أن تعرف أن المُشركين الذين قاتلهم رسول اللَّه ﷺ، كانوا يَدعون الصالِحين مثل المَلائكة وعيسى وأمه وعزير، وغيرهم من الأولياء، فكفروا بِهذا مع إقرارهم بأن اللَّه سبحانه هو الخَالق الرازق المُدبر [٢٣].

إذا عرفت هذا عرفت معنى (لا إله إلا اللَّه) وعرفت أن من نَخَّى نبيًّا أو ملكًا أو ندبه أو استغاث به فقد خرج من الإسلام، وهذا هو الكفر الذي قاتلهم عليه

كان يقول: لا إله إلا اللَّه، بل لو كان يعبد اللَّه بأنواع من العبادات، ما دام لَم يُخلص للَّه فيها كلها، فليس بِمسلم.

[٢٢] أي: من فَعَل ذلك فإنه يكفر ولو كان يقول: لا إله إلا اللَّه؛ لأنه لَم يُحققها فهو متناقض، كيف يقول: (لا إله إلا اللَّه) ويذبح لغيره؟! كيف يقول: (لا إله إلا اللَّه) ويستغيث بغير اللَّه من الأموات والغائبين والجن والشياطين؟!! كيف يقول: (لا إله إلا اللَّه) وينذر لغير اللَّه؟!! هذا تناقض.

[٢٣] المُشركون الأولون ليسوا كلهم يعبدون الأصنام، فهم متفرقون فِي عبادتهم، فمنهم من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد المَلائكة، ومنهم من يعبد الأنبياء، ومنهم من يعبد الصالِحين، والرسول ﷺ قاتلهم كلهم ولَم يفرق بينهم، ولَم يقل: ما أقاتل إلا الذي يعبد الأصنام، ويترك الذين يعبدون عُزيرًا ويعبدون المَسيح، ويعبدون الصالِحين، ما فرق بينهم الرسول ﷺ.

وهؤلاء القبوريون اليوم يقولون: الشرك عبادة الأصنام، وعبادة الأولياء تقرُّب إلَى اللَّه وتوسل إلَى اللَّه، ليست بشرك؛ لأن الشرك عبادة الأصنام فقط، يا سبحان اللَّه! الرسول قاتل الجَميع: الذين يعبدون الأصنام، والذين يعبدون المَلائكة، والذين يعبدون المَسيح، والذين يعبدون عُزيرًا، والذين يعبدون الأولياء والصالِحين، لَمْ يفرق بينهم؛ لأنه ليس بينهم فرق فِي الحقيقة.

رسول اللَّه ﷺ.

فإن قال قائل من المُشركين: نَحن نعرف أن اللَّه هو الخالق الرازق المُدبر، لكن هؤلاء الصالِحون مقربون، ونَحن ندعوهم وننذر لَهم وندخل عليهم ونستغيث بِهم، ونريد بذلك الوجاهة والشفاعة، وإلا فنحن نفهم أن اللَّه هو الخالق الرازق المُدبر، فقل: كلامك هذا مذهب أبِي جهل وأمثاله [٢٤].

فإنهم يدعون عيسى وعزيرًا والمَلائكة والأولياء، يريدون بذلك كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] [٢٥].

فإذا تأملت هذا تأملًا جيدًا، وعرفت أن الكفار يشهدون للَّه بتوحيد الربوبية، وهو تفرُّده بالخلق والرزق والتدبير، وهم ينخون عيسى والمَلائكة والأولياء يقصدون أنَّهم يقربوهم إلَى اللَّه زلفى، ويشفعون لَهم عنده، وعرفت أن من الكفار -خصوصًا النصارى منهم- من يعبد اللَّه الليل والنهار، ويزهد فِي الدنيا ويتصدق

---

[٢٤] الشيخ يُخاطب العلماء والعوام، ومعنى «نخاه» فِي العامية، أي: استنجد به.

يقال لِمن ينفي أن دعاء الصالِحين شرك، ويقول: المُراد به التوسل بِهم إلَى اللَّه، يقال له: كلامك هذا هو مذهب أبِي جهل وأبِي لهب وأمثالهم؛ لأنَّهم يقولون: لا يَخلق ولا يرزق ولا يُحيي ولا يدبر إلا اللَّه، ونَحن نتخذ هذه الآلهة لتقرِّبنا إلَى اللَّه زلفى، كما قال اللَّه عنهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

[٢٥] المُشركون الأولون يريدون مِمَّن يعبدونهم مع اللَّه التوسط لَهم فقط.

لا يقولون: إنهم يَخلقون ويرزقون، وإنَّما يقولون: إن هؤلاء شفعاء لنا عند اللَّه، يقولون: إن هذا تعظيم للَّه.

بِمَا دخل عليه منها، معتزلًا فِي صومعة عن الناس[٢٦] . وهو مع هذا كافر عدو للَّه مُخلَّد فِي النار بسبب اعتقاده فِي عيسى أو غيره من الأولياء، يدعوه أو يذبح له أو ينذر له، تبين لك كيف صفة الإسلام الذي دعا إليه نبيك مُحَمَّدﷺ، وتبين لك أن كثيرًا من الناس عنه بِمعزل، وتبين لك معنى قولهﷺ : «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ**»[١] [٢٧] .

فاللَّه اللَّه يا إخواني، تَمسكوا بأصل دينكم، وأوله وآخره، وأُسُّه ورأسه شهادة أن لا إله إلا اللَّه، واعرفوا معناها، وأحبوها وأحبوا أهلها، واجعلوهم إخوانكم ولو كانوا بعيدين، واكفروا بالطواغيت، وعادوهم وأبغضوهم، وأبغضوا من أحبهم أو جادل عنهم، أو لَمْ يكفرهم، أو قال: ما عليَّ منهم، أو قال: ما كلفني

---

[٢٦] الرهبان من النصارى يتعبدون الليل والنهار ويبكون، ولكن يقولون: المَسيح ابن اللَّه، أو إن اللَّه هو المَسيح بن مريم، أو ثالث ثلاثة، وهم يبكون ويتعبدون، ولا ينفعهم هذا؛ لأنَّهم ما أخلصوا العبادة للَّهﷻ، فمثلهم عبَّاد القبور اليوم.

[٢٧] الإسلام الصحيح غريب اليوم، أما الإسلام المُدَّعى، فالمسلمون اليوم يزيدون على المليار، ولكن الإسلام الصحيح غريب، إذ لو كان هذا المِليار إسلامهم صحيحًا لَمْ يقف أمامهم أحد من العالَم!! فاليهود الذين هم إخوان القردة والخنازير الذين ضُربت عليهم الذلة والمَسكنة، الآن هم مسيطرون على بلاد المسلمين، والمسلمون الذين كانوا مع النَّبِيﷺ فِي بدر كان عددهم ثلثمائة وبضعة عشر، وماذا صنعوا؟ فالصحابة بالنسبة لأهل الأرض كم هم؟ ومع هذا هم فتحوا الأمصار، وأسقطوا كسرى وقيصر، وسادوا العالَم كله؛ لأنَّهم مسلمون الإسلام الصحيح، ما هو إسلام ادِّعائي.

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٦٩٠)، وابن وضاح القرطبي فِي «البدع والنهي عنها»: (٦٥) بإسناد ضعيف، وله شاهد من حديث سعد بن أبي وقاص عند أحمد (١٦٠٤) يتقوى به.

اللَّه بِهم، فقد كذب هذا على اللَّه وافترى، فقد كلفه اللَّه تعالى بِهم، وافترض عليه الكفر بهم والبراءة منهم، ولو كانوا إخوانهم وأولادهم.

فاللَّه اللَّه يا إخواني، تَمسكوا بذلك لعلكم تلقون ربكم وأنتم لا تشركون به شيئًا، اللَّهم توفنا مسلمين وألحقنا بالصالِحين.

ولنختم الكلام بآية ذكرها اللَّه تعالى فِي كتابه تُبين لك أن كفر المشركين من أهل زماننا أعظم من كفر الذين قاتلهم رسول اللَّه ﷺ [٢٨].

قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، فقد ذكر اللَّه عن الكفار أنَّهم إذا مسهم الضر تركوا السادة والمشايخ فلم يدعوا أحدًا منهم، ولَم يستغيثوا به، بل يُخلصون للَّه وحده لا شريك له، ويستغيثون به وحده، فإذا جاء الرخاء أشركوا.

وأنت ترى المُشركين من أهل زماننا، ولعل بعضهم يدَّعي أنه من أهل العلم، وفيه زهد واجتهاد وعبادة، إذا مسه الضر قام يستغيث بغير اللَّه مثل: معروف أو عبد القادر الجيلاني، وأجل من هؤلاء مثل زيد بن الخَطاب والزبير، وأجل من هؤلاء مثل رسول اللَّه ﷺ، فاللَّه المُستعان، وأعظم من ذلك وأطم أنَّهم يستغيثون بالطواغيت والكفرة والمَردة مثل شمسان وإدريس ويُقال له: الأشقر، ويوسف وأمثالهم، واللَّه ﷻ أعلم.

---

[٢٨] كفر أهل زماننا أعظم من كفر المُشركين الأولين، أعظم من كفر أبِي جهل وأبِي لهب! لأن المُشركين الأولين يشركون فِي الرخاء ويُخلصون فِي الشدة؛ لأنَّهم يعلمون أنه لا يُخلِّص من الشدة إلا اللَّه، أما مشركو زماننا فهم فِي الشدة أكثر شركًا منهم فِي الرخاء، إذا وقعوا فِي الشدة يُنادون معبوداتهم، كلٌّ ينادي معبوده ليخلصه من الغرق فِي البحر، يُخلصه من كذا، كلما زاد الخطر زاد الشرك عندهم، فهم أشد من المُشركين الأولين والعياذ باللَّه.

والحَمد للَّه أولًا وآخرًا، وصلى اللَّه وسلم على نبينا مُحَمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين . . . آمين [٢٩].

---

[٢٩] (معروف)هو معروف الكرخي من الأولياء المَعروفين فِي العراق، يعبده القبوريون، و(عبد القادر الجيلاني) إمام من أئمة الحنابلة القدماء، فهو إمام جليل، ولكن لَمَّا مات اعتقدوا أنه ينفع ويضر، فبنوا على قبره، والصوفية اتَّخذوه إمامًا للمتصوفة أصحاب طريقة يسمونهم القادرية، وهو بريءٌ منهم رَحِمَهُ اللَّهُ، فهو معروف بالصلاح والاستقامة والعلم والتقى، كان من أكابر أصحاب مذهب الإمام أحمد، وله فيه مؤلف معروف اسمه: الغنية.

(وزيد بن الخَطاب)صحابي جليل، وهو أخو عمر بن الخَطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وقُتل فِي اليمامة وقبر فيها وكان عليه قبة، فلما جاء الشيخ مُحَمَّد رَحِمَهُ اللَّهُ هدم هذه القبة ولَم تقم إِلَى الآن -والحَمد للَّه- ولن تقوم -إن شاء اللَّه-.

(والزبير بن العوام) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَواريُّ رسول اللَّه ﷺ، وهؤلاء الأولياء والصحابة يعبدهم القبوريون، ولكنهم لَمْ يكتفوا بعبادتهم، بل عبدوا الطواغيتَ والكفرة والمَردَةَ من السَّحرة والكَهَنة، والإباحيين والحلوليين، الذين يقولون: من ترك الأوامر والنواهي فهو مقرب من اللَّه، وليس بِحاجة للأوامر والنواهي، وإنَّما هي للعوام فقط، أما هو فوصل إِلَى اللَّه ولا يَحتاج إِلَى شيء.

(وشمسان وإدريس ويوسف)هؤلاء طواغيت كانوا فِي الرياض قبل ظهور دعوة الشيخ، فلما جاء الشيخ وقام بالجهاد فِي سبيل اللَّه، واستولى المسلمون على الرياض أزالوا هذه الوثنيات منها ومن غيرها، والحَمد للَّه.

الأسئلة

* سؤال: فضيلة الشيخ، ما صحة قول: لا معبود بِحق فِي الوجود إلا اللَّه؟

الجواب: يكفي: لا معبود بِحق، عن قوله: فِي الوجود.

* سؤال: فضيلة الشيخ، نسمع كثيرًا ما يسمى بالإعجاز العلمي فِي القرآن فهل يَجوز إلحاقُه بِمعجزات القرآن، وتنزيل آيات القرآن على تلك المسائل؟

الجواب: نَحن تكلمنا على هذا أكثر من مرة ونبهنا عليه، قلنا: لا يَجوز تفسير كلام اللَّه ﷻ إلا بأصول التفسير المعروفة: بأن يُفسَّر القرآن بالقرآن، ويُفسَّر بالسنة، ويُفسر بتفسير الصحابة، وتفسير التابعين، ولا يُزاد على هذا، فلا يُفسر بالنظريات الحَديثة؛ لأنها تُخطئ وتصيب، وهي كلام بشر وعمل بشر، فلا نَجعلها تفسيرًا لكلام اللَّه ﷻ، ولا نقول: هذا هو مراد اللَّه بهذه الآية، هذا قول على اللَّه بلا علمٍ، تعالَى اللَّه عن ذلك.

وكم من نظرية كانت مسلَّمة فِي يوم، وبعد مدة يسيرة صارت خاطئة وكاذبة، وجاءت نظرية غيرها ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٨٥]. فلا يَجوز أن نفسِّر القرآن بهذه الأشياء، ولا أن نقول: هذا من الإعجاز العلمي.

* سؤال: فضيلة الشيخ، من يُخطِّئ الرسول ﷺ هل يكفر أم يُنظر فِي أمره؟

الجواب: من يُخطئ الرسول ﷺ، فهو كافر؛ لأنه جاحد لنبوته.

* سؤال: من يُحب زوجته الكتابية، هل هذا مُخالف للولاء والبراء؟

الجواب: اللَّه -جل وعلا- يقول: ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾[المائدة: ٥١] أي: لا تُحبوهم وتوالوهم وتناصروهم، وأما الزواج منهم فهو تعامل دنيوي، ليس هو تعاملًا دينيًّا، مثل ما تبيع معهم وتشتري، والمَحبة بين الزوجين مَحبة طبيعية ما هي مَحبة دينية، هو لا يُحبها لأجل دينها، ولكنه يُحبها من أجل الزوجية.

* سؤال: فضيلة الشيخ، ما أسباب تعلق هؤلاء الناس بالقبور والأضرحة وطلب الإعانات وشفاء المَرضى، ما السبب فِي ذلك يا شيخ؟

الجواب: السبب فِي هذا:

أولًا: التقليد الأعمى؛ لأنَّهم يَجدون من يفعلون هذه الأفعال، فيقلدونهم.

وثانيًا: سكوت العلماء عن النهي عن ذلك، وهذا كتمان للعلم، وتقصير فِي الدعوة إِلَى اللَّه ﷻ، وهم مسئولون عن ذلك.

ثالثًا: دعاة السوء، ودعاة الضلال الذين يروجون هذه الشِّركيات والبدعيات، ويُحسِّنونها للناس فِي كلامهم ومؤلفاتهم. فمجموع هذه الأمور يَحصل به هذا الخلل العظيم فِي العقيدة.

* سؤال: ما حكم الاحتفال بالمولد النبوي؟ نرجو التوضيح، والإجابة الصحيحة حول ذلك.

الجواب: هذه المسألة تكلم فيها العلماء قديمًا وحديثًا، ونهوا عنها وحذروا منها؛ لأنها بدعة، فالاحتفال بِمناسبة المولد النبوي بدعة ما أنزل اللَّه بِهَا من سلطان؛ لأنه ليس فِي كتاب اللَّه، ولا فِي سنة رسول اللَّه ﷺ، ولا فِي عمل القرون المُفضَّلة دليل على الاحتفال بالمولد النبوي، وما كان كذلك فهو بدعة، وإِنَّما حدث الاحتفال بالمولد النبوي بعد القرون المُفضلة، بعد المِائة الرابعة من الهِجرة لَمَّا انتهت القرون الَّتِي أثنى عليها رسول اللَّه ﷺ، وأخبر أنَّها يأتي بعدها أناس يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، ومن ذلك أنَّهم أحدثوا هذه البدعة فِي دين اللَّه ﷻ.

* سؤال: ما حكم الصلاة فِي مسجد دخل فِي بنائه أموال مأخوذة من أناس بغير طيبة أنفسهم، وما هو الحل لِهذه المُشكلة مأجورين؟

الجواب: لا يَجوز بناء المَساجد بالمَال الحرام، ولا يَجوز استخدام المَال الحرام للمسلمين لا أكلًا، ولا شربًا، ولا لباسًا، ولا سكنى، ومن باب أولى المَساجد الَّتِي هي بيوت اللَّه، فإن اللَّه ﷻ طيب ولا يقبل إلا طيبًا، والمَال

المَغصوب حرام، لقوله ﷺ: «**لا يَحل مال امرئ مسلم إلا بطيبة من نفسه**»[(١)] ، وفِي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. وإذا بُني مسجد من المَال المَغصوب، فإن الحل فِي ذلك -فِي نظري- أن ينظر مقدار المَال المَغصوب فيُرد على صاحبه.

* سؤال: هل يَجوز الاستشهاد بالأحاديث الضعيفة؟

الجواب: الأحاديث الضعيفة تَختلف إذا كانت ضعيفة شديدة الضعف، فإنها لا يُستشهد بها، أما إذا كان ضعفها ليس شديدًا، أو كان لَها ما يشهد لَها من الأحاديث الأخرى، فإنها يُستشهد بها فِي فضائل الأعمال، ولا يؤسس بها أحكام شرعية، وإنَّما يُستشهد بها فِي الترغيب والترهيب وفضائل الأعمال.

***

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٧٢)، والدارقطني (٣/ ٢٦)، والبيهقي فِي السنن الكبرى (٦/ ١٠٠) من حديث أبِي حَرَّة الرقاشي عن عمه.

نموذج من ضرب الأمثلة
على بطلان الشرك من القرآن الكريم

من كلام الشارح في بعض دروسه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمد للَّه رب العالَمين، وصلَّى اللَّه وسلم على نبينا مُحَمَّد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧].

ضرب اللَّه -جل وعلا- مثلًا للموحِّد والمُشرك، فقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩] المُشرك له عدة آلهة، يعبد أصنامًا كثيرة ولا يدري ماذا يُرضي منها، مثل المَملوك الذي له أسياد كثيرون يَملكونه، كل واحد يريده على ما يوافق هواه، وكل واحد له رغبة تُخالف رغبة الآخر، فيُصبح هذا المَملوك المِسكين مزعزعًا بين هؤلاء الشركاء، لا يدري من يُرضي منهم.

وأما المُوحد فهو مثل الذي يَملكه رجل واحد يعرف مطلوبه ويعرف هواه، فهو فِي راحة معه، ليس هو معه فِي نزاع ولا فِي شقاق ولا فِي تعب، هو رجل مَملوك لرجل واحد.

كذلك المُوحد هو عبد لرب واحد، وهو اللَّه تعالى، يقوم بطاعته ويَجتنب

معصيته ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ يعني: خالصًا لرجل، يَملكه رجل واحد، هل المَملوك الذي يَملكه عدة شركاء مثل المَملوك الذي يَملكه رجل واحد؟! لا . . . هذا مَثلٌ للمشرك. . . .

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ الاستفهام للإنكار، لا يستوي هذا وهذا، وهذا أيضًا مَثلٌ ضَرَبه اللَّه للشرك والتوحيد.

وضرب اللَّه مثلًا للشرك وبطلانه فِي قوله تعالَى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. المُوحد فِي رفعة مكانته وسمو منزلته مثل الذي فِي السماء مرتفع المَكانة سامي المَكانة عند اللَّه ﷻ، وأما المُشرك فإنه مَثلُه مَثَل الذي يسقط من العلو، لَمَّا أشرك باللَّه سقط من الارتفاع الذي فيه أهل التوحيد، والسموّ الذي فيه أهل التوحيد، والمَكانة المُرتفعة العالية الَّتِي فيها أهل التوحيد، المُشرك لَمَّا أشرك باللَّه سقط من مرتفَع بعيد الارتفاع.

ماذا تكون حاله فِي حالة السقوط والعياذ باللَّه؟ إما أن تعترضه جوارح الطير فتمزق لَحمه وتأكله فِي الهواء، وإما أن يسلم من الجوارح لكن الريح تَحمله وترمي به فِي مكان بعيد عن الأنس، وتلقيه فِي مكان خالٍ موحش ما فيه شراب ولا فيه شيء.

كذلك المُشرك هو عرضة لِهذه الأشياء، وهذه الأهواء، وهذه المَناهج، وهذه المَذاهب الَّتِي تقطعه وتشتِّته وتهلكه فِي النهاية.

فهذا مَثلٌ للمؤمن ومَثَل للموحد، المُؤمن فِي علوٍّ وارتفاع وسمو عند اللَّه -جل وعلا- لتوحيده وإخلاصه، والمُشرك ساقط من العلو ساقط من التوحيد، مُعرَّض لكل هلاك ولكل ضلال، وهذه حال المُشركين والعياذ باللَّه، معرَّضين لكل بلاء ولكل هلاك ولكل هوى ولكل شيطان يتنازعهم كل بلاء، هل يستوي هذا وهذا؟!

ثُمَّ فِي آخر السورة ضرب اللَّه مثلًا لبطلان الشرك فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣] جميع الأصنام وجميع المعبودات من دون اللَّه، كلُّها لا تستطيع أن تَخلق الذباب، فكيف

تُعبد من دون اللَّه، وهي لا تستطيع أن تَخلق الذباب الذي هو أصغر شيء وأحقر شيء؟! ما طُلب منهم أن يَخلقوا بلدًا أو يَخلقوا جبلًا أو يَخلقوا إبلًا أو بقرًا أو آدميين، بل ذباب، أقل شيء!! هذا تعجيز من اللَّه -جل وعلا- لآلِهة المُشركين، فإذا كانت لا تستطيع أن تَخلق الذباب فكيف تُعبد مع الخالق الذي هو خالق كل شيء ﷻ؟ اللَّه خالق كل شيء، الخلَّاق العليم الذي لا يعجزه شيء، كيف يُقاس هذا بِهذا؟

فهذا مثل واضح لبطلان الشرك، وأنه لا مستند له، ولا أصل له ولا فرع، ﴿لَن يَخۡلُقُواْ﴾ ولاحظوا كلمة (لن يَخلقوا) هذا للمستقبل إلَى يوم القيامة، فالتعجيز مستمر إلَى يوم القيامة، أيُّ مشرك يدعو غير اللَّه يقال له: هل الذي تعبده يَخلق ذبابة؟

كل هذه الَّتِي يعبدون من المَعبودات والأصنام والتماثيل والأولياء والصالِحين والقبور والأشجار والأحجار، كلُّهم موجَّه إليهم هذا المَثل.

فما دام أنَّهم لا يقدرون على خلق الذباب فكيف يصلحون للعبادة؟!

﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ﴾ [النحل: ٢٠-٢١]، ﴿أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [فاطر: ٤٠].

ما يستطيع المُشركون أن يقولوا: إن معبوداتهم خلقت ولو ذبابة، ولا يستطيعون هذا فِي المُستقبل، حَتَّى فِي زمان تقدم الصناعة الآن وتفنن الصناعة، ما يستطيع صنَّاع العالَم ومهرة العالَم وأطباء العالم أن يَخلقوا ذبابًا، يصنعون طيارة، يركِّبون بعضها فِي بعض، طائرة تَحمل الركاب، هذه صناعة مُمكنة يتعلمها الإنسان ويعرفها، واللَّه هو الذي سخرها لنا، وهو الذي ألهمنا أن نستعملها وأن نستخدمها رحمة بنا، يُمكن أن يصنع البشر طيارة ويصنعوا باخرة، لكن الخَلق لا يَخلق ذبابة! لأن هذا من خصائص اللَّه ﷻ.

فالعبادة إنَّمَا يستحقها الخالق ﷻ: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]. ثُمَّ قال: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا﴾ الذباب الذي هو أضعف شيء لو يأخذ من هذا الصنم الذي يُعبد، لو يأخذ منه شيئًا مِمَّا يوضع عليه من الطيب أو من

الذهب؛ لأنَّهم يضعون على هذه المَعبودات أشياء من الحُلي ومن الذهب ومن الطيب والبخور، لو جاء الذباب وأخذ مِمَّا عليها شيئًا يسيرًا، هل تستطيع هذه الأصنام أن تسترد ما أخذه الذباب؟ لا تستطيع أن تنتصر لنفسها من الذباب: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾ الذي هو المشرك ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ الذي هو المَعبود من دون اللَّه ﷻ، ذباب أعجَز الجَميع. فهذا من أعظم الأمثلة على بطلان الشرك باللَّه ﷻ.

يُمكن أن يقولوا: نَحن ما نقول: إن معبوداتنا تَخلق مع اللَّه، اللَّه هو الخالق وحده ونَحن نعترف بذلك، هو الخالق الرازق المُحيي المُميت المُدبر، نَحن نعتقد هذا، لكن هؤلاء عباد صالِحون ونريد منهم أن يشفعوا لنا عند اللَّه، نتخذهم وسائل، فنحن نعبدهم من أجل أن يقربونا إِلَى اللَّه زلفى، وإلا نَحن نعلم أنَّهم ما يَخلقون ولا يرزقون، لكن لأنَّهم عباد صالِحون لَهم منزلة عند اللَّه نريد منهم أن يقربونا ويشفعوا لنا إِلَى اللَّه، أن يتوسطوا لنا عند اللَّه. ويذبَحون لَهم وينذرون لَهم ويطوفون بقبورهم ويعكفون عندها، ويصرفون لَهم العبادات، وهم يعترفون أنَّهم ما يَخلقون ولا يرزقون ولا يدبرون من الأمر شيئًا، وإنَّما يريدون منهم الوساطة عند اللَّه ﷻ.

اللَّه ﷻ أبطل هذا بالمثل: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨] فإذا كنتم لا ترضون أن يشارككم أحد عبيدكم، فكيف ترضون للَّه أن يشاركه عبدٌ من عبيده؟ فكيف تصفون اللَّه بِمَا تُنَزِّهون منه أنفسكم؟!!

وكانوا يقولون فِي تلبيتهم: (لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تَملكه وما ملك) فضرب اللَّه لَهم هذا المثل.

وباللَّه التوفيق، وصلى اللَّه وسلم على نبينا مُحَمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

(٤)

الرسالة الرابعة

بعض فوائد سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بعض فوائد من سورة الفاتحة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. [١].

---

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمد للَّه رب العالَمين، وصلى اللَّه وسلم على نبينا مُحَمَّد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

هذه الرسالة تَختص ببيان فوائد سورة الفاتِحة، هذه السورة العظيمة، سُميت بالفاتِحة؛ لأنها افتُتح بِهَا المُصحف الشريف، فهي أول سورة فيه، وتسمى بالسبع المثاني؛ لأنها سبع آيات، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾[الحجر: ٨٧] فهي السبع المَثاني.

وقيل: سُميت بالمَثاني؛ لأنها تُكرر قراءتُها فِي كل ركعة، وتُسمى أم القرآن؛ لأن أم الشيء: الأصل الذي يرجع إليه الشيء، القرآن يرجع فِي معانيه إِلَى ما تضمنته هذه السورة، وتُسمى بالصلاة؛ لقول النَّبِيِّ ﷺ فِي الحَديث الذي يرويه عن ربه، أن اللَّه -جل وعلا- يقول: **«قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين»** يعنِي: الفاتِحة **«فإذا قال:** ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، **قال اللَّه: حمدني عبدي، فإذا قال:** ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، **قال اللَّه: أثنى عليَّ عبدي، وإذا قال:** ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، **قال اللَّه: مَجدني عبدي، فإذا قال:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، **قال: هذا بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل»**[١].

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥) من حديث أبِي هريرة.

وسورة الفاتِحة سبع آيات، ثلاث آيات ونصف منها لله، ثناء على الله ﷻ، وثلاث ونصف منها للعبد، من قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إلى آخر السورة.

فهذا معنى قوله -جل وعلا-: **«قسمت الصلاة»** يعني سورة الفاتِحة **«بيني وبين عبدي نصفين»**.

وتسمى بالكافية، وتسمى بالرقية؛ لأن النفر من الصحابة الذين نزلوا على حي من أحياء العرب استضافوهم فلم يضيفوهم، فلُدغ كبيرهم، فجاءوا يطلبون من الصحابة الرقية.

فقال أحد الصحابة: إننا نرقي ولكن أبيتم أن تضيفونا، فلا نرقي إلا بِجُعلٍ -يعني: بأجرة- فشرطوا لَهم قطيعًا من الغنم، فقرأ عليه سورة الفاتِحة، فقام كأنَّما بُعث من عقال.

فلما قدموا على النَّبِي ﷺ أخبروه بِمَا حصل، فقال: **«وما أدراك أنَّها رقية»**[١]، فتسمى بالرقية.

وهي سورة عظيمة، يدل على عظمتها أن الله جعل قراءتها ركنًا من أركان الصلاة، وأنها تُكرر فِي كل ركعة، فهذا يدل على عظمة هذه السورة.

وهي تتضمن معانيَ جليلةً، ففيها أنواع التوحيد الثلاثة فِي أولها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذا فيه توحيد الربوبية ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ هذا فيه توحيد الأسماء والصفات ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هذا فيه توحيد العبودية، فتضمنت إذن أنواع التوحيد الثلاثة.

وتضمنت نوعي الدعاء؛ لأن الدعاء على قسمين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

دعاء العبادة: هو الثناء على الله -جل وعلا- وذكر الله ﷻ.

ودعاء المسألة: وهو طلب الحوائج من الله -جل وعلا- فهذا موجود فيها

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧٦) و(٥٠٠٧) و(٥٧٣٦) و(٥٧٤٩)، ومسلم (٥٧٣٣) من حديث أبي سعيد الخدري.

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ كله طلب ودعاء، ولذلك يُستحب بعد الفراغ من قراءتها أن يقول: (آمين) أي: اللَّهم استجب، والتأمين إنَّمَا يكون على دعاء، وسورة الفاتِحة دعاء كلها، دعاء عبادة ودعاء مسألة.

وفيها إثبات الرسالات، وذلك لأن مقتضى قوله: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ والرب هو الذي يُصلح عباده ويربيهم، ومقتضى تربيتهم أن يرسل إليهم الرسل لِهدايتهم وتربيتهم، وهذا من مقتضى الربوبية، ومن مقتضى الهِداية ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ لا يُمكن الاهتداء إلَى الصراط المستقيم إلا بالرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ففيها إثبات الرسالات.

وفيها الرد على جميع الطوائف المُنحرفة، ففيها الرد على المَلاحدة الذين يُعطِّلون الكون من خالقه، فيها الرد عليهم بإثبات أن هذا الكون له رب خلقه وهو ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

والرب معناه: الخالق المربي لِجميع الخلق بالنعم، والمُصلح والمالك، كل هذه تدخل فِي معاني الرب ﷻ، ففيها الرد على المَلاحدة المُعطلة.

وفيها الرد على المُشركين الذين يعبدون غير اللَّه ﷻ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ حيث إن فيها إخلاص العبادة للَّه، ففيها الرد على المشركين الذين يعبدون مع اللَّه غيره.

وفيها الرد على طوائف هذه الأمة الَّتِي اشتطَّت عن طريق الحَق، كالجهمية والمُعتزلة والأشاعرة الذين ضلوا فِي باب القضاء والقدر، والرد على نفاة الصفات، المُعطِّلة الذين عطلوا الأسماء والصفات من جهمية ومعتزلة وأشاعرة وماتُريدية وغيرهم، كل من نفى الصفات أو نفى شيئًا منها، فهذه السورة ترد عليهم.

وفيها إثبات البعث ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ ويوم الدين: هو يوم الحساب؛ لأن الدين هنا معناه: الحِساب، ويوم الدين هو يوم القيامة، سمي يوم الدين؛ لأن اللَّه يُحاسب عباده ويُجازيهم على أعمالِهم.

وفيها الرد على اليهود وهم المَغضوب عليهم، ومن سار على نهجهم من كل

هذه الآيات الثلاث تضمنت ثلاث مسائل [٢]:

الآية الأولى: فيها المَحبة؛ لأن اللَّه مُنعِم، والمُنعِم يُحَب على قدر إنعامه [٣].

عالِم لا يعمل بعلمه.

وفيها الرد على النصارى الذين يعبدون اللَّه على غير هدى.

ففيها الرد على كل مبتدع يعبد اللَّه بغير دليل من النصارى وغيرهم؛ لأن الضال: هو الذي يعبد اللَّه على غير هدى.

فالنصارى والمبتدعة والخُرافيون كلهم يدخلون تَحت الضالين؛ لأنَّهم يعبدون اللَّه بالبدع والمُحدثات والخرافات الَّتِي ما أنزل اللَّه بِهَا من سلطان.

كما أن فيها الرد على علماء الضلال الذين يُحرفون الكلم عن مواضعه، ويعملون بأهوائهم، ويُحرفون النصوص ويؤولونها على غير مراد اللَّه ﷻ لتتوافق على أهوائهم، وفِي مقدمة هؤلاء اليهود وكل من سار على نهجهم.

كما أن فِي مقدمة المبتدعة النصارى، ولِهذا يقول بعض السلف: من ضل من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن ضل من عبَّادنا ففيه شبه من النصارى.

فالواقع أن هذه سورة عظيمة، وسيتكلم الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ عن فوائدها المُهمة.

[٢] الثلاث آيات الَّتِي تلاها فِي أول الرسالة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ تضمنت ثلاث مسائل.

[٣] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ الحَمد للَّه على ماذا؟ على نعمه، فهو يُحمد ﷻ لذاته ولأسمائه وصفاته ولأفعاله، فهو المُنعم على عباده، فكل منعم فهو يُحمد على قدر ما أنعم، وهذا يقتضي أن يُحَب؛ لأن النفوس جُبلت على حب من أحسن إليها، واللَّه -جل وعلا- هو المُحسن وهو المُنعم وهو المُتفضل على عباده، فتحبه القلوب على نعمه وعلى فضله وإحسانه مَحبة لا يعادلُها مَحبة.

ولذلك كانت المَحبة أعظم أنواع العبادة، فالحَمد للَّه رب العالمين تتضمن المَحبة. وسيذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أن المَحبة على أربعة أنواع:

والمَحبة تنقسم إِلَى أربعة أنواع: مَحبة شركية: وهم الذين قال اللَّه فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ إِلَى قوله: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧]. [٤].

مَحبة شركية: وهي مَحبة الأصنام والأوثان وكل ما يُعبد من دون اللَّه ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]. لأن مَحبتهم مَحبة توحيد وإخلاص.

النوع الثاني: مَحبة مُحرمة، وهي مَحبة ما يبغضه اللَّه ﷻ من المَمنوعات والمَنهيات والمُحرمات، ومن ذلك مَحبة المُشركين ومَحبة الكفار.

والنوع الثالث: مَحبة طبيعية، وهي مَحبة الإنسان لأولاده ولأبويه ولزوجته ولأصدقائه، هذه مَحبة طبيعية لا يؤاخذ عليها الإنسان.

النوع الرابع: مَحبة واجبة، وهي مَحبة أولياء اللَّه، وهي المَحبة فِي اللَّه والموالاة للَّه ﷻ. كل هذا داخل فِي قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

[٤] ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ أي: شُبهاء ونظراء للَّه ﷻ، فكل ما عُبد من دون اللَّه فقد اتُّخذ ندًّا للَّه وشبيهًا للَّه ﷻ وعديلًا للَّه ﷻ، والمُشركون يُحبون معبوداتهم مَحبة شديدة، ولذلك يَموتون دونها ويُقتلون دونها، ولو كانوا لا يُحبونها ما قاتلوا دونها، لكن يتمسكون بِهَا ويُحبونها، لأنها أُشربت فِي قلوبهم والعياذ باللَّه. ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

لأن المُشركين يُحبون اللَّه مَحبة مشتركة بينه وبين غيره، وأما مَحبة المُؤمنين للَّه فهي مَحبة خالصة، ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

يقول -جل وعلا-: لو يعلمون ما سيئولون إليه يوم القيامة مع من عبدوهم لكان لَهم حال آخر؛ لأنَّهم فِي يوم القيامة، يتبرأ المتبوعون من الأتباع،

المَحبة الثانية: حب الباطل وأهله، وبغض الحَق وأهله، وهذه صفة المُنافقين [٥].

ويكذبونهم ويقولون: نَحن ما أمرناكم بعبادتنا، ولا علمنا أنكم تعبدوننا ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] والأسباب هي المَحبة -كما يقول ابن عباس- المَحبة الَّتِي كانت فِي الدنيا بينهم وبين معبوداتهم انقطعت، بعد أن كانوا يتحابون فِي الدنيا صاروا يتلاعنون فِي الآخرة ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

أما الذين عبدوا اللَّه وأخلصوا له العبادة؛ فإن اللَّه -جل وعلا- يتولاهم فِي الآخرة ويكرمهم ويدخلهم الجَنة.

هذا مآل المُومنين فِي الآخرة، وذاك مآل المُشركين فِي الآخرة، وإن كانوا فِي الدنيا يتمسكون بعبادة تلك المَعبودات، ويقاتلون دونها ويستميتون ويُزهقون أنفسهم دفاعًا عنها، فإنها يوم القيامة ستنقلب هذه المودة وهذه الصلة، تنقلب عداوة وقطيعة والعياذ باللَّه ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] ما يبقى إلا المودة بين المتقين؛ لأنها مؤسسة على أساس صحيح، تبقى فِي الدنيا والآخرة، أما المودة الَّتِي بين الكفار والمشركين فإنها تنقطع وتنقلب إِلَى عداوة.

[٥] النوع الثاني: مَحبة الباطل وأهله، وبغض الحق وأهله، هذه صفة المُنافقين، فإنهم يُحبون الباطل ويكرهون الحَق، يُحبون الكفار ويبغضون المُؤمنين.

والنفاق: هو إظهار الإسلام وإبطان الكفر. وعلامة المُنافقين: أنَّهم يُحبون أهل الباطل ويبغضون أهل الحَق، فإذا رأيت من يبغض أهل الحق خصوصًا صحابة رسول اللَّه ﷺ، ويُبغض علماء الأمة وأئمة المسلمين، فاعلم أنه منافق، وإن كان يُظهر الإسلام، ويشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن مُحمدًا رسول اللَّه فِي الظاهر، لكنه فِي الباطن ملحد كافر يتستر بالإسلام وبالشهادتين، وإلا فهو كافر فِي الدرك الأسفل من النار.

المَحبة الثالثة: طبيعية،وهي مَحبة المَال والولد، إذا لَمْ تشغل عن طاعة اللَّه ولَم تُعِن على مَحارم اللَّه فهي مباحة [٦].

والمَحبة الرابعة: حب أهل التوحيد وبغض أهل الشرك، وهي أوثق عرى الإيمَان، وأعظم ما يَعبُد به العبد ربه [٧].

الآية الثانية: فيها الرجاء [٨].

والآية الثالثة: فيها الخوف [٩].

---

[٦] الثالثة: مَحبة طبيعية،أي: مطبوع عليها الإنسان ومفطور عليها، يُحب الإنسان أقاربه، يُحب أولاده، يُحب أصدقاءه، يُحب من أحسن إليه، هذه مَحبة طبيعية لا يؤاخذ عليها الإنسان إلا إذا قدمها على مَحبة اللَّه ورسوله، فإنه حينئذٍ يأثم ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤]. فإذا قدَّم مَحبة هذه الأشياء على ما يُحبه اللَّه ورسوله، فإنه متوعَّد بِهذا الوعيد.

[٧] المَحبة الرابعة: مَحبة أولياء اللَّه وبُغض أعداء اللَّه،فهذه هي المُوالاة فِي اللَّه والمُعاداة فِي اللَّه، فيحب أهل التوحيد ويبغض أهل الشرك، هذا أوثق عرى الإيمان، وهذا هو الحُب فِي اللَّه والبغض فِي اللَّه، هذا هو الولاء والبراء. وهذا من أصعب الأمور على الإنسان، فإن كان يُحب أهل التوحيد ويواليهم، ويبغض أهل الشرك ويعاديهم، فهذه علامة الإيمَان الراسخ.

[٨] الآية الثانية من سورة الفاتِحة وهي: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فيها الرجاء، رجاء رحمة اللَّه ﷻ؛ لأنه إذا كان رحمنَ رحيمًا، فإنه تُرجى رحمته ﷻ.

[٩] وهي قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فيها التخويف من هذا اليوم، والإدانة يوم القيامة بالأعمال السيئة، ففيها الخوف.

فالآية الأولَى فيها مَحبة اللَّه ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ والثانية ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فيها الرجاء، رجاء رحمة اللَّه، والثالثة فيها الخوف من عقاب اللَّه

﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، فإذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة: المَحبة والرجاء والخوف فهي أساس العبادة.

أما من أخذ بواحدة منها فقط فإنه يكون ضالًا، فمن عبد اللَّه بالمَحبة فقط ولا يَخاف ولا يرجو، فهذه طريقة الصوفية الذين يقولون: لا نعبد اللَّه خوفًا من ناره ولا طمعًا فِي جنته، وإنَّما نعبده لأننا نُحبه.

وهذا ضلال والعياذ باللَّه؛ لأن الرسل والمَلائكة أفضل الخلق، يَخافون اللَّه ويرجونه ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠] الرسل يَخافونه ويرجونه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: ٥٧] هؤلاء كما جاء فِي التفسير أنَّهم العزير وعيسى وأمه الذين كان يعبدهم المُشركون، هم عباد يرجون رحمة اللَّه ويَخافون عذابه، فكيف يُعبدون مع اللَّه؟!!

ومن عبد اللَّه بالرجاء فقط فهو من المُرجئة الذين يعتمدون على الرجاء ولا يَخافون من الذنوب والمَعاصي.

يقولون: الإيمان تصديق فِي القلب، أو التصديق بالقلب مع النطق باللسان.

ويقولون: الأعمال إنَّمَا هي مكمّلات، وهذا ضلال -والعياذ باللَّه-؛ لأن الإيمان قول وعمل واعتقاد، لا يكفي واحد من هذه الأمور، لا بد منها جميعًا، ليس قولًا فقط، ولا عملًا فقط، ولا اعتقادًا فقط، بل لا بد من هذه الأمور الثلاثة حَتَّى يتحقق الإيمان، ومن عَبَدَ اللَّه بالخوف فقط، فهو على طريقة الخوارج الذين يعبدون اللَّه بالخوف، فيأخذون بنصوص الوعيد فقط، ويتركون نصوص الوعد والمغفرة والرحمة.

فهذه طوائف الغُلاة: الصوفية والمرجئة والخوارج.

أما طريق الحق فهو الجمع بين هذه الأمور: المَحبة والخوف والرجاء.

هذا هو الإيمَان، وهذه طريقة المؤمنين، وهذا هو التوحيد. وهذا ما جمعته

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: أعبدك يا رب بِمَا مضى، بهذه الثلاث: بِمحبتك، ورجائك، وخوفك [١٠].

فهذه الثلاث أركان العبادة، وصرفها لغير اللَّه شرك [١١].

وفِي هذه الثلاث الرد على من تعلق بواحدة منهن كمن تعلق بالمَحبة وحدها [١٢].

أو تعلق بالرجاء وحده [١٣] أو تعلق بالخوف وحده [١٤]، فمن صرف منها شيئًا لغير اللَّه فهو مشرك.

وفيها من الفوائد: الرد على الطوائف الثلاث الَّتِي كل طائفة تتعلق بواحدة منها. كمن عبد اللَّه تعالى بالمَحبة وحدها.

وكذلك من عبد اللَّه بالرجاء وحده كالمرجئة [١٥]، وكذلك من عبد اللَّه

هذه الثلاث ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه فيها المَحبة ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هذه فيها الرجاء ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ هذه فيها الخوف.

[١٠] ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ نعبده بهذه الثلاثة: المَحبة والخوف والرجاء؛ لأنها لا تتحقق العبادة إلا بِهَا؛ أي: بِمجموع الثلاثة.

[١١] أي: من أحب غير اللَّه فهو مشرك، من رجا غير اللَّه فهو مشرك، من خاف من غير اللَّه فهو مشرك.

[١٢] وهم الصوفية.

[١٣] وهم المُرجئة.

[١٤] وهم الخوارج والوعيدية، يسمَّون الوعيدية؛ لأنَّهم أخذوا نصوص الوعيد فقط.

[١٥] والمُرجئة سُموا مرجئة؛ لأنهم أرجئوا الأعمال، أي: أخروها عن مسمى الإيمَان؛ لأن الإرجاء معناه التأخير ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١، والشعراء: ٣٦] يعني: أخِّر شأنه وانظر فيه، فالإرجاء معناه التأخير، سموا مرجئة؛ لأنَّهم

بالخوف وحده كالخوارج [١٦].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيها توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيها توحيد الألوهية، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيها توحيد الربوبية [١٧].

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ فيها الرد على المبتدعين [١٨].

أخروا الأعمال عن حقيقة الإيمان، وأخرجوها من حقيقة الإيمان.

[١٦] الخوارج هم الذين خرجوا على ولاة المسلمين وكَفَّروهم، وهم يعتمدون على نصوص الوعيد، ويكفِّرون بالكبائر الَّتِي دون الشرك، ويقولون: من مات عليها فهو مُخلَّد فِي النار.

[١٧] ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيها توحيد الألوهية: وهو إفراد اللَّه بأفعال العباد الَّتِي شرعها لَهم؛ لأن الألوهية معناها العبادة، والعبادة من أفعال العباد ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيها توحيد الربوبية؛ لأن الإعانة من أفعال الرب سبحانه، وتوحيد الربوبية هو توحيد اللَّه بأفعاله.

[١٨] ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾: الهداية على نوعين: هداية دلالة وإرشاد، ودلالة توفيق وتسديد.

ودلالة الهداية والإرشاد هذه حاصلة لِجميع الخلق المُؤمنين والكفار والمُشركين؛ لأن اللَّه دلهم وأرشدهم إِلَى طريق الحق، لكن الكفار لَمْ يقبلوا، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾[فصلت: ١٧].

هديناهم: يعني: بينا لَهم، فاللَّه هدى جميع الخلق هداية البيان والإرشاد.

النوع الثاني: هداية التوفيق وقبول الحق، وهذه خاصة بالمُؤمنين، فأنت تسأل اللَّه نوعي الهداية.

والمُستقيم: يعني: المُعتدل، وصراط اللَّه مستقيم، يعني: معتدل، بِخلاف طرق الضلال، فإنها ملتوية ومنحرفة ومتعرجة تُضيع من سار عليها، أما صراط اللَّه فهو واضح معتدل، من سار عليه أفضى به إِلَى الجنة ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا

وأما الآيتان الأخيرتان ففيهما من الفوائد ذكر أحوال الناس.

قسمهم اللَّه تعالى ثلاثة أصناف: منعَم عليه، ومغضوب عليه، وضال [١٩].

فالمغضوب عليهم: أهل علم ليس معهم عمل [٢٠].

والضالون: أهل عبادة ليس معها علم [٢١].

وإذا كان سبب النزول فِي اليهود والنصارى، فهي لكل من اتصف بذلك [٢٢].

الثالث: من اتصف بالعلم والعمل وهم المُنعَم عليهم [٢٣].

﴿فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. فأنت تسأل اللَّه أن يهديك هذا الصراط.

[١٩] الناس إما منعَم عليهم، وإما مغضوب عليهم، وإما ضالون، فالمُنعَم عليهم هم الذين أخذوا العلم والعمل، والمَغضوب عليهم هم الذين أخذوا العلم وتركوا العمل، والضالون هم الذين أخذوا العمل وتركوا العلم.

أنت تسأل اللَّه أن يَجعلك مع المنعم عليهم، وأن يُجنبك طريق المَغضوب عليهم وطريق الضالين. وهذه سورة عظيمة؛ ولذلك فرضها اللَّه عليك فِي كل ركعة لماذا؟ لأجل ما فيها من هذه الأسرار.

[٢٠] وهم اليهود ومن سار معهم فِي هذا المِضمار من هذه الأمة، الذين تعلموا ولَم يعملوا بعلمهم.

[٢١] منهم الصوفية المبتدعة والمُخرِّفون، كلهم يدخلون فِي الضالين؛ لأنَّهم يشتغلون بالعبادة ويتركون العلم، يقولون: العلم يشغلك عن العمل.

[٢٢] إن كان سبب نزول: ﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ فِي اليهود، و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ فِي النصارى، فالعبرة بعموم اللفظ لا بِخصوص السبب.

ولِهذا يقول بعض السلف: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبَّادنا ففيه شبه من النصارى.

[٢٣] قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]. هؤلاء هم المُنعم

وفيها من الفوائد: التبرؤ من الحول والقوة؛ لأنه مُنْعَمٌ عليه [٢٤].

وكذلك فيها معرفة اللَّه على التمام ونفي النقائص عنه -تبارك وتعالى- [٢٥].

وفيها معرفة الإنسان ربَّه، ومعرفة نفسه [٢٦].

فإنه إذا كان رب فلابد من مربوب [٢٧]، وإذا كان هنا راحم فلابد من

عليهم، فإذا أردت أن تكون معهم فاجمع بين العلم النافع والعمل الصالح.

[٢٤] وذلك فِي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وفِي قوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وقوله: ﴿اهْدِنَا﴾ لأن هذا فضل من اللَّه ليس بِحولك ولا بقوتك، توفيقك للعلم النافع، وتوفيقك للعمل بالعلم هذا من اللَّه، لو شاء ربك لكنت مع المَغضوب عليهم أو من الضالين، فالذي أنعم عليك وأخرجك من الطائفتين، وجعلك مع الأنبياء والصديقين والشهداء، هو اللَّه -جل وعلا- هذا ليس بِحولك ولا بقوتك وإنَّما بفضل اللَّه ﷻ.

فأنت تُعلق قلبك باللَّه، وتتبرأ من الحول والقوة إلا باللَّه ﷻ. يقول ابن القيم:

لو شاء ربك كنت أيضًا مثلهم ... فالقلب بين أصابع الرحمن

[٢٥] هذه السورة، إذا تأملتها وتدبرتها عرفت اللَّه ﷻ على التمام، بأسمائه وصفاته ونعمه عليك، فيزيدك هذا إيمانًا ويقينًا.

[٢٦] ومعرفة نفسك أنك ضعيف، وأنك مُحتاج إِلَى اللَّه ﷻ، ولِهذا تقرأ هذه السورة وتكررها فِي كل ركعة لأنك بِحاجة إليها؛ لأن فيها هذا الدعاء العظيم الذي إذا تقبَّله اللَّه منك سعدت فِي الدنيا والآخرة، وإذا غفلت عنه ولَم تستعمله، فإنه لا ينفعك بشيء.

فهذا مِمَّا يؤكد على العبد أن يَتدبَّر القرآن؛ خصوصًا هذه السورة العظيمة، يقول ابن القيم:

تَدَبَّر القرآن إن رُمْتَ الهدى ... فالعلم تَحت تدبر القرآن

[٢٧] ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يدل على أنه لابد من رب خالق ومن مَخلوق مربوب، مَخلوق لرب العالمين.

مرحوم[٢٨]، وإذا كان هنا مالك فلابد من مَملوك[٢٩]، وإذا كان هنا عبد فلابد من معبود[٣٠]، وإذا كان هنا هادٍ فلابد من مهدي[٣١]، وإذا كان هنا مُنعِم فلابد من مُنعَم عليه[٣٢]، وإذا كان هنا مغضوب عليه فلابد من غاضب[٣٣]، وإذا كان هنا ضال فلابد من مُضل.

فهذه السورة تضمنت الألوهية والربوبية، ونفي النقائص عن اللَّه ﷻ [٣٤]، وتضمنت معرفة العبادة وأركانها[٣٥]. واللَّه أعلم[٣٦].

---

[٢٨] ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ إذا كان هناك راحم فلابد من مرحوم، وهو المَخلوق، الراحم هو اللَّه، والمَرحوم هو المَخلوق.

[٢٩] ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ إذا كان هنا مالك فلابد من مَملوك، وهم العباد وجميع المَخلوقات.

[٣٠] إذا كان هنا عبد، لابد أن يكون هناك معبود، وهو اللَّه تبارك وتعالى.

[٣١] ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ﴾ إذا كان هناك هاد وهو اللَّه، فهناك مهدي وهو العبد.

[٣٢] ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ هذا فيه أن هناك مُنْعِمًا، فلابد أن يكون هناك مُنْعَم عليه، وهم جميع العباد.

[٣٣] ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ وهم اليهود، ومن سار بركابهم مِمَّن تعلموا ولَم يعملوا، لابد أن يكون هناك غاضب وهو اللَّه تبارك وتعالى، والغضب من صفاته، فهو يغضب، ويسخط ويَمقت، والمَغضوب عليه والمَمقوت والمَسخوط عليه هو المَخلوق العاصي المُخالف لأوامر اللَّه تبارك وتعالى.

[٣٤] كما سبق أن فيها أنواع التوحيد الثلاثة الَّتِي هي توحيد: الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات. ونفي النقائص والعيوب عن اللَّه تبارك وتعالى، وهذا هو التوحيد.

[٣٥] وفيها المَحبة مع التذلل والرجاء والخَوف، فهذه أركان العبادة.

[٣٦] وصلى اللَّه وسلم على نبينا مُحَمَّد.

وجزاه اللَّه خيرًا على ما بيَّن ووضَّح.

الأسئلة

* سؤال: أحسن اللَّه إليكم فضيلة الشيخ، هذا سائل يقول: نقرأ ونسمع عن مرجئة الفقهاء، فأرجو توضيح ذلك؟

الجواب: مرجئة الفقهاء، أو مرجئة أهل السنة: هم الحنفية؛ لأن عندهم أن الإيمَان قول باللسان واعتقاد بالقلب، وأما العمل فيقولون: إنه لا يدخل فِي حقيقة الإيمَان، لكنه شرط أو مُكمِّل للإيمان، ولذلك سموا بالمُرجئة؛ لأنَّهم أخروا العمل عن مسمى الإيمان، وسُموا بِمرجئة الفقهاء، أو مرجئة أهل السنة. ولا شك أن هذا خطأ، المُهم أنَّهم أخف أنواع المُرجئة.

فالمُرجئة على أربعة أنواع:

شر الأنواع وأقبحها الجهمية الذين يقولون: الإيمَان مُجرد المَعرفة فِي القلب ولو لَمْ يُصدق. هذا شر الإرجاء.

الثاني: من يقول: الإيمَان هو الاعتقاد بالقلب فقط دون النطق باللسان، وهذا قول الأشاعرة.

الثالث: الذين يقولون: الإيمَان هو النطق باللسان ولو لَمْ يعتقد بالقلب، وهذا قول الكَرَّامية.

النوع الرابع: الذين يقولون: الإيمان هو الاعتقاد بالقلب والنطق باللسان، وهؤلاء هم الحنفية.

* سؤال: هل من الكفر موالاة الكفار؟

الجواب: موالاة الكفار مُحرمة وباطلة، وإذا أحب ما هم عليه من الكفر صار كافرًا.

* سؤال: أثابكم اللَّه، سائل يقول: قول المُؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الثلاثة أصول: إنه يَجب على كل مسلم ومسلمة تعلّم هذه المَسائل الثلاث. هل هذه الثلاث مسائل هي

الحد الواجب تعلمه فِي العقيدة؟

الجواب: هذه من أهم مسائل العقيدة.

* سؤال: أثابكم اللَّه، البعض مِمَّن يشاهد المُباريات يتأخر عن صلاة الجَماعة، وذلك حَتَّى لا يفوتهم شيء من المُباراة، فهل هذا يقدح فِي توحيدهم ومَحبتهم للَّه؟

الجواب: نعم، هذا ينقص توحيدهم؛ لأَنَّهم قدموا مَحبة المُباراة على طاعة اللَّه ﷻ قدموا مَحبة المُباراة ومشاهدتها على ما يُحبه اللَّه. ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ [التوبة: ٤].

* سؤال: هل التداوي بالرقية وغيرها من وسائل التداوي فيه نقص فِي الإيمَان؟

الجواب: التداوي بالأدوية المُباحة سبب من الأسباب الَّتِي يباح تعاطيها، مع الاعتماد والتوكل على اللَّه ﷻ، فلا يترك الأسباب ويأخذ التوكل فقط، ولا يأخذ الأسباب ويترك التوكل، بل يَجمع بينهما، هذا طريق أهل الإيمَان الجَمع بين فعل الأسباب النافعة مع التوكل على اللَّه ﷻ، والعلاج سبب مباح.

* سؤال: بيِّن لنا كيف يكون الجَمع بين مَحبة الوالد لأولاده ومَحبته للَّه تعالى؟

الجواب: نعم، إذا تعارضت مَحبتهم مع مَحبة اللَّه، وقدِّمت مَحبتهم على مَحبة اللَّه، فهذا هو الذي فيه الوعيد، فإذا تركت صلاة الجَماعة لأجل طاعة أولادك أو أحد من الخلق فقد قدمت مَحبتهم، أو تركت الجهاد فِي سبيل اللَّه وهو متعين عليك، أو تركت الهِجرة من أجل الطمع فِي الوطن أو فِي الولد أو فِي المسكن، فهذا من تقديم مَحبة هذه الأشياء على مَحبة اللَّه.

والحَمد للَّه رب العالَمين.

* * *

(٥)

الرسالة الخامسة

نواقض الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمام مُحمَّد بن عبد الوهاب -رحِمه اللَّه تعالَى-:

اعلم أن نواقض الإسلام عشرة نواقض [١]:

---

[١] بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمد للَّه رب العالَمين، وصلى اللَّه وسلم على نبينا مُحَمَّد، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (اعلم) يعنِي: تعلم وافهم، وهذه الكلمة يؤتى بِهَا للأهمية، والتنبيه على أهمية ما بعدها.

(أن نواقض الإسلام عشرة) النواقض: جمع ناقض، وهي المُبطلات، مثل نواقض الوضوء، أي: مبطلاته، تسمى بالنواقض، وتسمى بأسباب الردة أو أنواع الردة، ومعرفتها مهمة جدًّا للمسلم من أجل أن يتجنبها ويَحذر منها؛ لأن المُسلم إذا لَمْ يعرفها فإنه يُخشى أن يقع فِي شيء منها، وهي من الخُطورة والأهمية بِمكان؛ لأنها نواقض الإسلام ومبطلاته، ومعرفة أسباب الردة عن الإسلام مهمة جدًّا.

والردة عن الإسلام: معناها الرجوع عن الإسلام، مِنْ: ارتد، إذا رجع، قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١]. وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧] وهذا تَحذير شديد من اللَّه للمؤمنين، ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ﴾ أيها المُؤمنون ﴿عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ ولَم يتب قبل الموت ويرجع إلَى الإسلام، فقد ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي: بطلت ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ يرجع عن دينه، ففي هذه الآيات التحذير من الردة والوعيدُ عليها.

وأما الأحاديث:

فقد قال ﷺ: «**لا يَحلُّ دمُ امرئٍ مسلمٍ إلا بإحدى ثلاث: الثيبُ الزاني، والنفسُ بالنفس، والتاركُ لدينه -هذا هو الشاهدُ- المُفارق للجماعة**»[1]، وقال ﷺ: «**مَن بدَّلَ دينَه فاقتلوه**»[2]، فإن كان المُرتدون جماعة لَهم شوكة فإنهم يُقاتلون كما قاتل أبو بكر الصديق رضي الله عنه المُرتدين، حَتَّى أخضعهم للإسلام، وقُتل من قُتل منهم على ردته، وتاب من تاب منهم، فقاتلهم رضي الله عنه مُحققًا بذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾[المائدة: ٥٤].

قال العلماء: هذه الآية نزلت فِي أبِي بكر الصديق وأصحابه الذين قاتلوا المُرتدين؛ لأنه يُخبر تعالى عن المُستقبل ﴿مَن يَرْتَدَّ﴾ هذا فِي المُستقبل، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ﴾ جاء اللَّه بأبِي بكر الصديق وصحابة رسول اللَّه ﷺ فقاتلوا المُرتدين.

وإن كان المُرتد شخصًا واحدًا فإنه يؤخذ ويُستتاب، فإن تاب وإلا قتل، وليس هو مثل الكافر الأصلي؛ لأن المُرتد عرف الحق، ودخل فِي دين اللَّه باختياره وطوعه، واعترف أن الإسلام هو الحَق، فإذا ارتد فهذا تلاعب منه بالدين؛ لأنه عرف الحق ودخل فيه، فإذا ارتد فإنه يُقتل حماية للعقيدة، وهذا من حفظ الضروريات الخمس أولُها الدين، فلا يُترك الدين ألعوبة لِمن يسلِم ثُمَّ يرتد، بل

(١) أخرجه البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦) من حديث عبد اللَّه بن مسعود.
(٢) أخرجه البخاري (٤/ ٧٥)، وأبو داود (٢/ ٤٤٠)، والترمذي (٦/ ٢٤٣)، وأحمد (١/ ٢٨٢).

يُقتل حماية للعقيدة من التلاعب، ومن المُرتدين من يُقتل بدون استتابة، وهو من تغلظت ردته، فإنه يُقتل ولا يُستتاب حماية للدين، وحماية لأول الضروريات الخمس الَّتِي جاء الإسلام بِحفظها.

ودراسة هذه النواقض مهمة جدًّا، والعلماء صنفوا فيها مصنفات، وجعلوا لَها مكانًا خاصًّا فِي كتب الفقه، وهو (حكم المُرتد)، فِي كل كتاب من كتب الفقه يَجعلون كتابًا يسمونه (كتاب حكم المرتد) أو (باب حكم المُرتد) فِي المُطولات وفِي المُختصرات.

قالوا: والمُرتد هو الذي يكفر بعد إسلامه، إما لاعتقاد بقلبه، أو شك يَحصل له فِي أمور الدين، أو فعلٍ: كأن يَسجد لغير اللَّه، أو يذبح لغير اللَّه، أو ينذر لغير اللَّه، هذا فِعْلٌ مَنْ فَعَلَه فقد ارتد، أو قول: بأن يتكلم بسبِّ اللَّه تعالى أو سب الرسول ﷺ، أو سب دين الإسلام: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦] فالردة تكون بالقول، وتكون بالفعل، وتكون بالاعتقاد، وتكون بالشك فِي شيء من أمور الدين، كمن شك فِي وجوب الصلاة، أو شك فِي وجوب الزكاة، أو شك فِي التوحيد، فإنه يكفَّر، والشك: هو التردد بين أمرين.

وأنواع الردة كثيرة، والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر فِي هذه الرسالة أهمها وأعظمها، وإلا فالنواقض كثيرة، وستجدونها فِي كتب الفقه فِي باب حكم المُرتد، وللشيخ عبد اللَّه ابن مُحَمَّد -رحمهم اللَّه- رسالة اسمها (الكلمات النافعة فِي المُكفرات الواقعة) وهي مطبوعة فِي (الدرر السنية) وغيرها؛ والآن لَمَّا فشا الجهل واشتدت غربة الدين، ظهر ناس من الذين يتسمون بالعلم، ويقولون: لا تكفِّروا الناس، يكفي اسم الإسلام، يكفي أنه يقول: أنا مسلم، ولو فعل ما فعل، لو ذبح لغير اللَّه، لو سب اللَّه ورسوله، لو فعل ما فعل ما دام أنه يقول: أنا مسلم فلا تكفره، وعلى هذا يدخل فِي التسمي بالإسلام الباطنية والقرامطة، ويدخل فيه القبوريون، ويدخل فيه الروافض، ويدخل فيه القاديانية، ويدخل فيه كل من يدعي الإسلام.

الأول: الشرك فِي عبادة اللَّه تعالَى [٢].

يقولون: لا تكفروا أحدًا، ولو فعل ما فعل، أو اعتقد ما اعتقد، لا تفرقوا بين المسلمين، سبحان اللَّه!! نَحن لا نفرق بين المسلمين، ولكن هؤلاء ليسوا مسلمين؛ لأنَّهم لَمَّا ارتكبوا نواقض الإسلام خرجوا من الإسلام.

فكلمة لا تفرقوا بين المسلمين، كلمة حق والمراد بِهَا باطل، لأن الصحابة ﭫ لَمَّا ارتد من ارتد من العرب بعد وفاة النَّبِي ﷺ قاتلوهم، ما قالوا: لا تفرقوا بين المسلمين؛ لأنَّهم ليسوا مسلمين ما داموا على الردة، وهذا أشد من أنك تَحكم لكافر بالإسلام، وسيأتيكم أن من الردة: من لَمْ يكفر الكافر، أو شك فِي كفره، فهذه المَسألة وهي من لَمْ يكفِّر الكافر أو شك فِي كفره فهو كافر مثله، وهؤلاء يقولون: لا تكفِّروا أحدًا ولو فعل ما فعل، ما دام أنه يقول: لا إله إلا اللَّه، أنتم واجهوا المَلاحدة واتركوا هؤلاء الذين يدَّعون الإسلام.

نقول لَهم: هؤلاء أخطر من الملاحدة؛ لأن الملاحدة ما ادَّعوا الإسلام ولا ادعوا أن الذي هم عليه إسلام، أما هؤلاء فيخدعون الناس ويدعون أن الكفر هو الإسلام، فهؤلاء أشد من المَلاحدة، فالردة أشد من الإلْحاد -والعياذ باللَّه-، فيجب أن نعرف موقفنا من هذه الأمور ونُميزها ونتبينها؛ لأننا الآن فِي تعمية، فهناك ناس يؤلفون ويكتبون وينتقدون ويحاضرون، ويقولون: لا تكفروا المسلمين.

ونقول: نَحن نكفر من خرج عن الإسلام، أما المسلم فلا يَجوز تكفيره.

[٢] أعظم أنواع الردة: الشرك فِي عبادة اللَّه، بأن يعبد مع اللَّه غيره، كأن يذبح لغير اللَّه، أو ينذر لغير اللَّه، أو يَسجد لغير اللَّه، أو يستغيث بغير اللَّه فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه، هذا أعظم أنواع الردة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾[المائدة: ٧٢] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾[النساء: ٤٨]. ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾[النساء: ١١٦].

فالشرك هو أخطر أنواع الردة، وهو أن يعبد غير اللَّه بأي نوع من أنواع

العبادات: بالدعاء، بالذبح، بالنذر، بالاستغاثة، بالاستعانة فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه ﷻ، يدعو المَوتى، يستغيث بالقبور، يستنجد بالأموات، هذا هو أخطر أنواع الردة وأعظمها، وهذا عليه كثير مِمَّن يدَّعون الإسلام، يبنون الأضرحة ويطوفون بِهَا، ويذبَحون لَها، وينذرون لَها، ويتقربون إليها؛ يقولون: لأنها تقربهم إِلَى اللَّه، هم يتقربون لَها، وهي بزعمهم تقربهم إِلَى اللَّه ﷻ، لِماذا لَمْ يتقربوا إِلَى اللَّه من الأصل ويتركوا هذه المَتاهات؟ ليتقربوا إِلَى اللَّه فإنه قريب مُجيب، لِماذا تتقربون للمخلوقين وتقولون: المَخلوقون يقربوننا إِلَى اللَّه، هل اللَّه ﷻ بعيد، هل اللَّه أغلق أبوابه، هل اللَّه لا يعلم ولا يسمع خلقه، ولا يرى ما يفعلون؟!

اللَّه -جل وعلا- قريب مُجيب ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة: ١٨٦]. ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر: ٦٠]. إنه قريب مُجيب، لماذا تذهب وتدعو غير اللَّه؟! وتقول: هذا يقربني إِلَى اللَّه ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر: ٣]. يعني: كأن اللَّه لا يعلم ولا يدري، هكذا زين شياطين الجن والإنس لِهؤلاء وهم يدَّعون الإسلام ويشهدون أن لا إله إلا اللَّه، ويصلون ويصومون، ولكن يَخلطون أعمالَهم بالشرك الأكبر، فيخرجون من دين الإسلام، وهم يصلون ويصومون ويَحجون، والذي يراهم يظن أنَّهم مسلمون.

فينبغي معرفة هذا، فالشرك باللَّه ﷻ هو أخطر الذنوب، وأعظم الذنوب، ومع خطره وشره وقع فيه كثير مِمَّن يدعون الإسلام، ولا يسمونه: باسم الشرك، يسمونه: التوسل، أو يسمونه طلب الشفاعة، أو يسمونه بأسماء غير الشرك، ولكن الأسماء لا تغيِّر الحقائق، الشرك هو الشرك، وهذا أخطر الأنواع، وأكثر الأنواع وقوعًا مع أنه ظاهر فِي كتاب اللَّه، وفِي سنة رسول اللَّه ظاهر، المُناداة والتحذير منه والتوعد عليه، ظاهر لا تَخلو سورة من القرآن من التحذير من الشرك، ومع هذا يقرءون القرآن ولا يتجنبون الشرك.

وربَّما يأتي واحد ويقول: هؤلاء جهَّال معذورون بالجهل، فنقول: إِلَى متى الجهل، والقرآن يُتلى وهم يَحفظون القرآن ويقرءونه، لقد قامت عليهم الحجة

قال اللّه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ١١٦] [٣].

وقال تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢] [٤].

ببلوغ القرآن ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ١٩]. كل من بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجة ولا عذر له.

[٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]. هذا يدل على أن الشرك هو أعظم الذنوب بِحيث إن اللّه لا يغفر لصاحبه إلا إذا تاب منه، ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء: ٤٨]. ما دون الشرك: كالزنا وشرب الخمر والسرقة وأكل الربا، هذه كلها دون الشرك، وهي داخلة تَحت المَشيئة، وأصحابها أصحاب كبائر وهم فُساق، ولكنهم لَمْ يقعوا فِي الشرك، وإنَّما وقعوا فِي الكبائر، فهي تنقص إيمانهم، ويُحكم عليهم بالفسق، ولو ماتوا ولَم يتوبوا، فإنهم تَحت المَشيئة إن شاء اللّه غفر لَهم بِمَا معهم من التوحيد، وإن شاء عذبهم بذنوبِهم، ثُمَّ مآلهم إلَى الجنة بالتوحيد الذي معهم، هذا مآل أصحاب الكبائر الَّتِي دون الشرك.

وقوله: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ دلَّ على أن جميع الذنوب كلها دون الشرك، وأن الشرك هو أعظمها وأخطرها، فدل على خطورة الشرك، وأنه أعظم الذنوب.

[٤] هذه عاقبته فِي الآخرة، أنه حرم عليه الجنة، يعني: منعه من دخولِها منعًا باتًّا مطلقًا، لا مطمع له فيها، أين يذهب، إذا لَمْ يكن من أهل الجنة فأين يذهب، يصير عَدَمًا؟ لا، مأواه النار خالدًا مُخلدًا فيها.

﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة ٧٢]. يعني: المُشركين؛ لأن الشرك ظلم وهو أعظم الظلم، ما لَهم من أنصار: ما أحد يستطيع أن يُخرجهم من النار، أو يشفع لَهم عند اللّه، كما يُشفع لأصحاب الكبائر ويَخرجون من النار بالشفاعة، هؤلاء لا تنفعهم شفاعة الشافعين، ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ المُشركين، ﴿مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾، المُشرك لا تُقبل فيه شفاعة -والعياذ باللّه- ﴿وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ﴾ مأواه

ومنه: الذبح لغير اللَّه كمن يذبح للجن أو للقبر [٥].

الثاني: من جعل بينه وبين اللَّه وسائط يدعوهم ويسألهم ويتوكل عليهم؛ كفر إجْمَاعًا[٦].

يعني: مقره، وبئست المَأوى، ليس له مأوى غيرها أبد الآباد، فَذَنْبٌ هذا خطره وهذه عاقبته، هل يَجوز تَجاهلة وعدم معرفته وعدم التحذير منه؟! ويُقال: اتركوا الناس، اتركوا القبوريين، وعُبَّاد الأضرحة، واتركوا كل من عنده ردة اتركوه، ما دام أنه يدَّعي الإسلام فهو مسلم، وواجهوا المَلاحدة.

نقول: هؤلاء أشد من المَلاحدة وأخطر من المَلاحدة.

[٥] الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر هذا المَثال لأنه واقع، ويتساهل الناس فيه، ويذبَحون لغير اللَّه، يذبَحون للجن اتقاءً لشرهم، ويذبَحون لَهم من أجل العلاج والشفاء، يتساهل الناس فِي هذا، وهو كثير الوقوع مع أنه شرك أكبر يُخرج من الملة، وما هو سهل، يقول له الشيطان: اذبح خروفًا، اذبح دجاجة، هذا سهل، ولكن لا ينظر إِلَى الشرك، فالذي ذبح ذبابًا، دخل النار، ليس النظر إِلَى المَذبوح، وإنَّما النظر إِلَى العقيدة، النظر إِلَى نية القلب، النظر إِلَى عدم المبالاة بالشرك، ليس النظر إِلَى قيمة المذبوح، فالذي ذبح ذبابًا دخل النار، الناس يتساهلون فِي هذا، من أجل أن يقضي حاجته، أو يُعلمِه الشيء الغائب، أو يُخبره عن المَال المَفقود، أو غير ذلك من الأمور الَّتِي يسأله عنها، فيخرج من دينه -والعياذ باللَّه-، ويرتد فِي شيء يظنه أنه سهل، فالأمر خطير جدًّا.

[٦] هذا نوع من الناقض الأول: وهو الذي يَجعل بينه وبين اللَّه وسائط، ولكن الشيخ أفرده وجعله نوعًا مستقلًّا لكثرة وقوعه؛ لأن هذا يقع مِمَّن يدَّعون الإسلام، وهذا كثير عند القبوريين، يتقربون إِلَى الولي ليشفع لَهم عند اللَّه، أو يوصل حوائجهم إِلَى اللَّه، -بزعمهم- هذا اتِّخاذ الوسائل من دون اللَّه ﷻ، يذبح لَهم وينذر لَهم، ويستغيث بِهم.

ويقول: هذا ليس بشرك، هذا إنَّمَا هو توسط، طلب واسطة وشفاعة توصلني

الثالث: من لَم يُكفِّر المُشركين، أو شك فِي كفرهم، أو صحح مذهبهم؛ كفر [٧].

إلَى اللَّه، هذا رجل صالح له مكانة عند اللَّه، فأنا أتقرب إليه من أجل أن يقربني إلَى اللَّه، هذه حجته، وهي حجة المُشركين الأولين ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

يقولون: ما جعلناهم شركاء للَّه، ولكن جعلناهم وسائط يقربوننا، واللَّه سماه شركًا ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]. فسماه شركًا، مع أنَّهم يسمونه تشفُّعًا، وهذا هو الواقع، أن كثيرًا مِمَّن يدعون الإسلام وما يفعلونه مع القبور الآن، يتخذونها وسائط بينهم وبين اللَّه، فهذه المَسألة خفيت على كثير حَتَّى من طلبة العلم، وهناك علماء يدافعون عن هؤلاء. ويقولون: هذا ليس بشرك، الشرك عبادة الأصنام، وهؤلاء ما يعبدون أصنامًا، يا سبحان اللَّه!!، عبادة الأصنام نوع من أنواع الشرك، الشرك هو عبادة غير اللَّه سواءٌ، كان صنمًا أو شجرًا أو حجرًا أو قبرًا أو وليًّا، أو ملكًا من المَلائكة، أو وليًّا من الأولياء، أو صالِحًا من الصالِحين، هذا هو الشرك، وليس الشرك عبادة الأصنام فقط.

[٧] وهذه المَسألة خطيرة جدًّا، يقع فيها كثير من المنتسبين للإسلام، من لَمْ يكفِّر المُشركين، يقول: أنا والحَمد للَّه ما عندي شرك، ولا أشركت باللَّه، ولكن الناس لا أكفرهم.

نقول له: أنت ما عرفت الدين، يَجب أن تكفر من كفره اللَّه، ومن أشرك باللَّه ﷻ، وتتبرأ منه كما تبرأ إبراهيم من أبيه وقومه وقال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧].

(أو صحح مذهبهم) وهذه أشد، إذا صحح مذهبهم، أو قال فِي الذي يعملونه نظر، هذا إنَّمَا هو اتِّخاذ وسائل، أو يقول: هؤلاء جهال وقعوا فِي هذا الأمر عن جهل ويدافع عنهم، فهذا أشد كفرًا منهم؛ لأنه صحح الكفر، وصحح الشرك، أو شك.

الرابع: من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، كالذي يفضل حكم الطواغيت على حكمه؛ فهو كافر [٨].

فنقول له: كونك مسلمًا وتابعًا للرسول ﷺ، والرسول جاء بتكفير المُشركين وقتالهم واستباحة أموالِهم ودمائهم، وقال: «**أمرت أن أقاتل الناس ليقولوا: لا إله إلا اللَّه**»(١)، «**بُعثت بالسيف حتى يُعبد اللَّه**»(٢)، ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ فتنة: يعني: شرك، ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

[٨] من أنواع الردة: الحُكم بغير ما أنزل اللَّه، إذا اعتقد أن هذا أمر مباح، وأنه يَجوز أن يَحكم بالشريعة، ويَجوِّز أن يَحكم بالقوانين ويقول: المَقصود حل النزاعات، وهذا يَحصل بالقوانين، ويَحصل بالشريعة، فالأمر متساو.

نقول: سبحان اللَّه!! تَجعل حكم الطاغوت مثل حكم اللَّه!! تَحكيم شرع اللَّه هذا عبادة للَّه ﷻ، ليس القصد منه فقط حل النزاع، القصد منه العبادة بتحكيم شرع اللَّه ﷻ، وتَحكيم غيره شرك، شرك فِي الطاعة وشرك فِي الحكم أما ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ إِلَى قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]. فسماه شركًا، فالذي يسوي بين حكم اللَّه وحكم الطاغوت، والطاغوت المُراد به: كل حكم غير حكم اللَّه، سواءٌ عوائد البادية أو أنظمة الكفار، أو قوانين الفرنس أو الإنْجليز، أو عادات القبائل، كل هذا طاغوت، وكذا تَحكيم الكهان.

فالذي يقول: إنهما سواء؛ كافر، وأشد منه من يقول: إن الحُكم بغير ما أنزل اللَّه أحسن من الحُكم بِمَا أنزل اللَّه، هذا أشد.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٤٦)، ومسلم (٢٠)، ومالك فِي المُوطأ (١/ ٢٦٩)، وأبو داود (١٥٥٦)، والترمذي (٢٦١٠)، والنسائي (٥/ ١٤) من حديث أبِي هريرة.

(٢) أخرجه أحمد (٥١١٥)، وابن أبِي شيبة (٥/ ٣١٣)، والبيهقي فِي شعب الإيمان (١١٩٩)، وابن حجر فِي تغليق التعليق (٣/ ٤٤٥).

الخَامس: من أبغض شيئًا مِما جاء به الرسول ﷺ ولو عمل به؛ كفر [٩].

السادس: من استهزأ بشيء من دين الرسول أو ثواب اللَّه أو عقابه؛ كفر [١٠].

فالذي يقول: الناس ما يصلح لَهم اليوم إلا هذه الأنظمة، ما يصلح لَهم الشرع، الشرع ما يطابق لِهذا الزمان، ولا يساير الحضارة، ما يصلح إلا تَحكيم القوانين، ومسايرة العالَم، تكون مَحاكمنا مثل مَحاكم العالَم، هذا أحسن من حكم اللَّه، هذا أشد كفرًا من الذي يقول: إن حكم اللَّه وحكم غيره متساويان.

أما إذا حكم بغير ما أنزل اللَّه لِهوى فِي نفسه، أو جهل بِمَا أنزل اللَّه، وهو يعتقد أن حكم اللَّه هو الحق، وهو الواجب، فهذا فَعَلَ كبيرة من كبائر الذنوب وذلك كفر دون كفر.

[٩] الخامس من نواقض الإسلام: من أبغض شيئًا مِمَّا جاء به الرسول ﷺ، فبغض ما جاء به الرسول ردة، ولو عمل به، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩]، الكراهة هي البغض؛ هذا ردة ولو عمل به، فإنه يكفر، بغضه فِي القلب كفر، ولو كان يعمل به فِي الظاهر، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

[١٠] السادس من أنواع الردة: الاستهزاء بِمَا أنزل اللَّه، أو بشيء مِمَّا جاء به الرسول، ولو كان من السنن والمُستحبات، كالسواك وقص الشارب وأخذ شعر الإبط وتقليم الأظافر، إذا استهزأ به صار كافرًا، الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦] فالذي يستهزئ بشيء مِمَّا جاء به الرسول فرضًا أو واجبًا أو سنةً فإنه يكون مرتدًا عن دين الإسلام.

ما بالكم بالذي يقول: إعفاء اللحية وحَفُّ الشارب وأخذ الآباط وغسل البراجم هذه قشور، هذا هو الاستهزاء بدين اللَّه ﷻ، إذا قالوا هذا الشيء ولو كانوا هم يعملونه فإنهم يرتدون عن الدين؛ لأن هذا تنقُّص لِما جاء به الرسول ﷺ، فالواجب تعظيم سنة الرسول ﷺ، واحترامها، وحتى لو أن الإنسان وقع فِي شيء

والدليل قوله تعالَى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[التوبة: ٦٥-٦٦] [١١].

السابع: السحر: ومنه الصرف والعطف، فمن فعله أو رضي به؛ كفر.

من المُخالفة لهوى فِي نفسه فإنه يحترم سنة الرسول ﷺ، يحترم السنن، ويَحترم الأحاديث، ولا يقول: هذه قشور.

[١١] سبب نزول الآية: أن جماعة كانوا مع الرسول ﷺ فِي غزوة تبوك، وهم مسلمون، ثُمَّ فِي مَجلس صاروا يقولون: ما رأينا مثل قُرائنا هؤلاء، أكذب ألسنة، وأرغب بطونًا، وأجبن عند اللقاء، يعنون رسول اللَّه ﷺ وأصحابه، وكان معهم شاب من الصحابة فاغتاظ من هذا الكلام، وذهب يبلغ الرسول ﷺ بِمَا قاله القوم، فوجد الوحي قد سبق، فجاء القوم يعتذرون لما علموا أن الرسول اطلع على ما دار فِي مَجلسهم وقام: واحد منهم وتعلق بنسعة ناقة النَّبِي ﷺ وهو راكب، وقال: يا رسول اللَّه، إننا نتحدث حديث الركب، نقطع به عنا السفر، ما قصدنا الاستهزاء، وإنَّما قصدنا المَزح، والرسول ﷺ لا يلتفت إليه، وإنَّما يقرأ عليه هذه الآية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ لاحظ قوله: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ فدل على أنَّهم قبل هذه المَقالة كانوا مؤمنين، فلما قالوها ارتدوا عن الإسلام.

وهم يقولون: هذا مزح، لأن أمور الدين لا يُمزح فيها، فقد كفَّرهم اللَّه بعد إيمانهم، نسأل اللَّه العافية.

فهذا دليل على أن من سب اللَّه أو رسوله أو كتابه أو شيئًا من القرآن أو شيئًا من سنة الرسول ﷺ، أنه يرتد عن الإسلام وإن كان يَمزح، وأين الذين يقولون: إنه لا يرتد إلا إذا نوى من قلبه؟ فلو سب اللَّه والرسول أو القرآن، ما نَحكم عليه إلا إذا كان اعتقده، ما نَحكم عليهم بِمجرد التكلم أو التلفظ أو الفعل، من أين أتوا بِهذا الكلام وهذا القيد؟ اللَّه حكم عليهم بالردة وهم يقولون: ﴿كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾،

والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] [١٢].

هم مؤمنون بالله ورسوله، موحدون، ولكن لَمَّا قالوا هذه المَقالة الله -جل وعلا- قال: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ ولَم يقل: إن كنتم تعتقدون هذا، نسأل الله العافية، فيجب أن الأمور تنزل منازلها ولا نتدخل فيها بزيادات أو نقص أو تقييدات من عند أنفسنا، الله ما سأل عن عقيدتهم، ما ذكر أنهم يعتقدون، بل حكم عليهم بالردة بعد الإيمَان ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ رتب هذا على القول، رتب هذا على الاستهزاء، ولَم يقيده بهذه القيود، الإنسان إذا تكلم بكلمة الكفر وهو غير مُكرَه يُحكم عليه بالردة، أما إن كان مكرهًا فهذا لا يرتد.

[١٢] النوع السابع من أنواع الردة: السحر، والسحر عمل يعمله الساحر، وهو على نوعين: سحر حقيقي، وسحر تَخييلي.

النوع الأول: سحر حقيقي: هو عبارة عن عُقد ينفث فيها الساحر، ورقى وكلام يُتَمْتم به، ويستعين بالشياطين فِي كلامه، وعزائم يعلقونها، وكتابات طلاسم يكتبونها بأسماء الشياطين، هذا هو السحر الحقيقي، هذا يؤثر فِي المَسحور، إما بقتله وإما بإمراضه وإما بالإخلال بعقله.

والنوع الثاني: تَخييلي: بأن يعمل أشياء يُخيل إِلَى الناس أنَّها صحيحة، وهي غير صحيحة، يُخيل للناس أنه يقلب الحجر إِلَى حيوان، أو أنه يقتل شخصًا ويُحييه، يقطع رأسه ثُمَّ يرده، أو أنه يَجر السيارة بشعره أو بأسنانه، أو أن السيارة تَمشي عليه ولا تضره، أو أنه يدخل فِي النار، أو يأكل النار، أو يطعن نفسه بالحديد، يطعَن عينه بأسياخ الحَديد، أو يأكل الزجاج، كل هذه من أنواع الشعوذة، وهي لا حقيقة لَها، مثل سحر سحرة فرعون، قال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]. وقال تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف: ١١٦]. هذا سحر تَخييلي، وهذا يسمونه القمرة، الَّتِي يعملها الساحر على أعين الناس، ثُمَّ إذا انتهت القمرة، عادت الأشياء إِلَى حقيقتها، والسحر كفر، والدليل

الثامن: مظاهرة المُشركين ومعاونتهم على المُسلمين [١٣].

والدليل قوله تعالَى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١] [١٤].

التاسع: من اعتقد أن بعض الناس يسعه الخروج عن شريعة مُحمَّد ﷺ كما

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]. السحر تعلُّمه وتعليمه كفر باللَّه ﷻ، وهو نوع من أنواع الردة، فالساحر مرتد، إذا كان مؤمنًا ثُمَّ سحر فإنه يرتد عن دين الإسلام، ويُقتل ولا يُستتاب، عند بعض العلماء؛ لأنه حَتَّى ولو تاب فِي الظاهر فهو يُخادع الناس، ولا يزول علم السحر من قلبه ولو تاب.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] اللَّه -جل وعلا- أنزل ملَكين من السماء يعلمان السحر، ابتلاءً للناس، وامتحانًا للناس، فإذا جاءهم من يريد تعلم السحر نصحاه، وقالا له: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ يعني: لا تتعلم السحر فدل على أن تعلم السحر كفر.

[١٣] الثامن من أنواع الردة: مظاهرة المُشركين على المسلمين، أي: معاونتهم، فالمُظاهرة معناها المُعاونة، بأن تُعين الكفار، على قتال المسلمين وأذية المسلمين.

وكذلك من أحب الكفار فإنه يكفر، وهذا هو التولِّي ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] يتولاهم بالمُناصرة والمُظاهرة، أو يتولاهم بالمَحبة، فإنه يكفر؛ لأنه أحب الكفر وأحب الكفار فيكفر بذلك، إذا أحبهم معناه: أنه لَمْ ينكر الكفر، ومن لَمْ ينكر الكفر فهو كافر.

[١٤] أول الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾[المائدة: ٥١]. أي: لا تتولوهم لا بِمظاهرة ولا بِمحبة ولا بِمعاونة ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ يعني: من المسلمين ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي: يكون من اليهود والنصارى، وهذا دليل على ردته، ثُمَّ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فسماهم ظالِمين.

وسع الخَضر الخُروج عن شريعة موسى عليه السلام ؛ فهو كافر[١٥] .

---

[١٥] التاسع : من أجاز لأحد أن يَخرج عن شريعة مُحمَّد ﷺ ؛ لأن اللَّه بعث مُحمدًا ﷺ إلَى الناس كافة ، وأوجب طاعته على العالَمين ، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: ١٠٧] ، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾[سبأ: ٢٨] . ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾[الأعراف: ١٥٨] ، فمن لَمْ يستجب للرسول ويتبع هذا الرسول فهو كافر ، سواءٌ أكان يهوديًّا أو نصرانيًّا أو مجوسيًّا ، أو أي ملة كان؛ لأنه ببعثته أوجب اللَّه طاعته واتباعه ، ومن كان على دين اليهودية والنصرانية فإنه قد نُسخ ببعثته ﷺ ، فلا يسع أحدًا أن يَخرج عن طاعته .

أما خروج الخضر عن طاعة موسى ، فلأن موسى لَمْ يرسَل إلَى الخضر ؛ لأن رسالة موسى خاصة ببني إسرائيل ، ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ﴾[الصف: ٥] فرسالة موسى عليه السلام لبني إسرائيل ، ما هي عامة لِجميع الناس ، فلذلك الخضر كان على عبادة للَّه ، واختلف العلماء فِي الخضر : هل هو نبي أو رجل صالح؟ على قولين :

القول الأول : أنه نبي ؛ لأنه عمل أشياء لا تكون إلا معجزات ، مثل خرقه للسفينة ، ومثل ذبحه الولد ، ومثل إقامته الجدار الذي يريد أن ينقض ، هذه أمور معجزة لأنها مبنية على أشياء مغيبة ، والمُعجزات لا تكون إلا لنبِي ، وأصل قصة موسى مع الخضر ، أن موسى -عليه الصلاة والسلام- خطب فِي بنِي إسرائيل ، فسألوه : هل هناك أعلم منه ، فقال : لا ، فأوحى اللَّه إليه أن هناك عبدًا فِي أرض كذا وكذا عنده من العلم ما ليس عندك ، فذهب موسى -عليه الصلاة والسلام- إلَى هذا الرجل يطلب ذلك العلم ، قال تعالى : ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾ سافر ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا﴾ إلَى آخره ، ﴿فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ۝٦٥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾[الكهف: ٦٠- ٦٦] . إلَى آخر القصة الَّتِي ذكرها اللَّه فِي سورة (الكهف) هذا أصل القصة ، فالخضر ما هو من أمة موسى ؛ لأن موسى

العاشر: الإعراض عن دين اللَّه تعالَى لا يتعلمه ولا يعمل به [١٦].

لَمْ يُبعث إِلَى الناس كافة، فلذلك وسعه الخروج، أما مُحَمَّد ﷺ فإنه مبعوث إِلَى الناس كافة، فلا يسع أحدًا الخروج عن شريعته، وهذا فيه رد على الصوفية الذين يزعمون أنَّهم يَصِلون إِلَى حالة ليسوا بِحاجة إِلَى اتباع الرسل، وأنهم يأخذون عن اللَّه مباشرة، ولا يأخذون عن الرسول.

ويقولون: إنِ الرسل إنَّمَا هم للعوام، أما الخواص فلا يَحتاجون إِلَى الرسل؛ لأنَّهم يعرفون اللَّه ويصلون إِلَى اللَّه، ويأخذون عن اللَّه مباشرة، هذا ما عليه غلاة الصوفية، أنهم يصلون إِلَى حالة يستغنون عن الرسول ﷺ، ويَخرجون عن شريعته، ولذلك لا يصلُّون ولا يصومون ولا يَحجون، ولا يعملون بِمَا جاء به الرسول؛ لأنَّهم خواص يقولون: ما نَحن بِحاجة إِلَى الرسول، نَحن وصلنا إِلَى اللَّه . . . نسأل اللَّه العافية، هذا قصد الشيخ من ذكر هذه المَسألة، هذا رد على الصوفية الذين يزعمون أنَّهم يسعهم الخروج عن شريعة مُحَمَّد ﷺ؛ لأنَّهم ليسوا بِحاجة إليه.

[١٦] العاشر -وهو الأخير-: الإعراض عن دين اللَّه، لا يهتم بالدين، لا يتعلم، ولو تعلم لا يعمل، يُعرض عن العلم أولًا، ثُمَّ يعرض عن العمل، نسأل اللَّه العافية، وحتى لو عمل وهو على غير علم فعمله ضلال، فلابد أن يتعلم أولًا ثُمَّ يعمل، أما من أخذ العلم وترك العمل فهذا من المَغضوب عليهم، ومن أخذ العمل وترك العلم فهذا ضال، وهذا ما نستعيذ منه فِي كل ركعة ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦-٧]. فمن أعرض عن دين اللَّه لا يتعلمه ولا يعمل به، فإنه يكون مرتدًا عن دين الإسلام، واللَّه -جل وعلا- يقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]، أعرض عن ذكري: لَمْ يتعلمه ولَم يعمل به، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]. أعرض عنها بعدما ذُكِّر بِهَا.

وهناك إنسان لا يتعلم من باب الكسل، هذا لا يكفَّر ولكنه يُلام على كسله، أما إذا كان ترك طلب العلم عدم رغبة فِي العلم، هذا هو الإعراض والعياذ باللَّه، هذا

والدليل قوله تعالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢] [١٧].

ولا فرق فِي جَميع هذه النواقض بين الهَازل والجَاد والخَائف إلا المُكره، وكلها من أعظم ما يكون خطرًا، ومن أكثر ما يكون وقوعًا فينبغي للمسلم أن يَحذرها ويَخاف منها على نفسه، نعوذ باللَّه من موجبات غضبه وأليم عقابه [١٨].

هو الذي يكفر، ولكن إن كان المرء يرغب العلم ويُحب العلم ولكنه عنده كسل، لأن طلب العلم صعب يتطلب صبرًا، ويتطلب تَحملًا، ويتطلب جلوسًا، وهو كسلان، فهذا يُلام على كسله وعلى تفريطه، ولكنه لا يصل إلَى حد الكفر.

[١٧] الإعراض الذي يدل على عدم الرغبة فِي العلم أو كراهية العلم، هذا هو الكفر والعياذ باللَّه.

[١٨] لا فرق فِي هذه النواقض العشرة بين الجاد: الذي يقصد ما يقول أو يفعل، والهَازل: وهو الذي لا يقصد، وإنَّما يفعل هذا من باب المزح واللعب، وفِي هذا رد على المُرجئة الذين يقولون: لا يكفر حَتَّى يعتقد بقلبه، لا فرق بين الجَاد والهَازل، أو الخائف الذي يفعل هذه الأشياء دفعًا للخوف، فالواجب عليه أن يصبر.

(إلا المكره) إذا أُكره أن يقول كلمة فيها كفر، ولَم يُمكنه التخلص من الظلم إلا بِهَا، فرخص له اللَّه فِي ذلك ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]. بِهذا الشرط، ويكون قصده دفع الإكراه فقط، إلا أن قلبه لا يعتقد بِمَا يتلفظ به.

كما حصل لعمار بن ياسر الذي سبب نزول الآية فيه رضي الله عنه، لَمَّا أخذه الكفار وعذبوه حَتَّى يقول فِي مُحَمَّد ﷺ، أي: يسب الرسول ﷺ، فوافقهم وسبَّ الرسول، وجاء نادمًا إلَى الرسول ﷺ خائفًا مِمَّا حصل له، فقال له النَّبِي ﷺ: **«كيف تَجد قلبك»** قال: مطمئنًا بالإيمان، قال: **«فإن عادوا فعد»**(١)، وأنزل اللَّه تعالَى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فِي المُصنف (١/ ٣٦٠)، وابن سعد (٣/ ٢٤٩)، والطبري فِي التفسير (١٤/ ٣٧٤)، والحاكم (٢/ ٣٥٧)، والبيهقي فِي دلائل النبوة (٨/ ٢٠٨)، وابن عساكر فِي تاريخ دمشق (٤٣/ ٣٧٣)، وأورده السيوطي فِي الدر المَنثور (٤/ ١٣٢).

وصلى اللّٰه على خير خلقه مُحَمَّد وآله وصحبه وسلم.

وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦] ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ﴾ [آل عمران: ٢٨].

(نعوذ باللّٰه من موجبات غضبه، وأليم عقابه) آمين.

❊ ❊ ❊

الأسئلة

* سؤال: ما هو الفرق بين الكافرين والمُشركين؟

الجواب: بينهما عموم وخصوص، الشرك أعم من الكفر، فكل مشرك كافر، وليس كل كافر مشركًا، فالمشرك يعبد اللَّه ويعبد غيره، وأما الكافر فإنه يَجحد وجود اللَّه -جل وعلا- ولا يعترف باللَّه ﷻ، ولا يعترف بدين من الأديان، هذا هو الكافر الجاحد، أما المشرك فهو يعترف ويعتقد، ولكن يعبد اللَّه ويعبد غيره، فهو مشرك كافر، فكل مشرك فإنه كافر، وليس كل كافر يكون مشركًا؛ لأن الكافر قد يكون ملحدًا جاحدًا.

* سؤال: أحسن اللَّه إليكم، يقول: أشكل علينا قول المُؤلف: (الإعراض عن دين اللَّه تعالى لا يتعلمه ولا يعمل به) هل يدخل فيه العوام اليوم الذين لا يفقهون العلم الشرعي، ولا يرغبون به، ولكنهم تعلموا من طفولتهم التوحيد وعملوا به؟

الجواب: لا يدخل هؤلاء لأنَّهم عاجزون عن التعلم أو متكاسلون عن التعلم، هم مسلمون وهم مؤمنون ويعبدون اللَّه، ما هم مثل المُعرض، المُعرض الذي ما له رغبة فِي العلم ولا له رغبة فِي الدين، هذا هو المُعرض.

* سؤال: فضيلة الشيخ، حاطب بن أبِي بلتعة عاون المشركين والكفرة ولَم يكفره النَّبِي ﷺ، فهل كل من عاون الكفار من المسلمين يكفر؟

الجواب: حاطب بن أبِي بلتعة رضي الله عنه له من السوابق ما كفَّر اللَّه به عنه؛ لأنه من أصحاب بدر، وقد قال النَّبِي ﷺ: **«إن اللَّه اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»** وهو مؤمن صادق الإيمَان، ولكنه فعل ما فعل لأنه تأول لنفسه، وظن أن هذا ما يضر المسلمين، ولذلك الرسول ﷺ لَم يُكفِّره؛ لأنه صحابي جليل حصل منه خطأ عن تأويل، وله سابقة كفرت عنه ما حصل.

* سؤال: أثابكم اللَّه، يقول: هل الفطرة حجة على من كفر؟

الجواب: الحجة بإرسال الرسل، أما الفطرة وحدها فلا تكفي حجة، لو كانت

الفطرة حجة ما أرسل اللَّه الرسل ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] لا تعرف الواجبات والمُحرمات والمَكروهات، هذا ما يبينه إلا الرسل، ولكن الفطرة تربة صالِحة للخير، ولكنها لا تكفي، لو عاش الإنسان عليها ولَم يتعلم ولَم يعمل شيئًا، فإنها لا تكفي.

* سؤال: أثابكم اللَّه، إذا مد الكفار يدهم ليصافحوا، هل أعرض؟

الجواب: إذا سلموا عليك ومدوا أيديهم إليك فصافحهم، ما فيه بأس، أما أنك تبدؤهم بالسلام وبالمصافحة فهذا لا يَجوز.

* سؤال: من قال بالذهاب إلَى العرافين فِي مُحاولة البحث عن المفقود من الأموال مثلًا، وهو يعتقد أنه لا يَجوز الذهاب إليهم فِي شفاء من مرض؟

الجواب: لا يَجوز هذا، لأن **«من أتى عرافًا، لن تُقبل له صلاة أربعين يومًا»** [(١)]، **«من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقة بِمَا يقول فقد كفر بِمَا أُنزل على مُحمد»** [(٢)] ولَمَّا سئل عن الكهان، قال ﷺ: **«لا تأتهم»** [(٣)] فلا يَجوز الذهاب إليهم حتى ولو لَم يصدقهم.

* سؤال: أثابكم اللَّه، من أنكر حديثًا أو حكمًا من الأحكام بدعوى أن هذا حديث آحاد، هل يكفر بذلك؟

الجواب: لا يكفر بذلك إذا كان متأولًا؛ لأن أكثر هؤلاء مقلدون لِمن قبلهم، ومتأولون، فلا يكفَّرون، ولكن يُخطَّئون ويُضللون.

* سؤال: أحسن اللَّه إليكم، يقوم بعض الإخوة بفرض غرامة مالية على من قال على زميله بكلمة نابية أو غيرها، ثُمَّ تُجمع هذه الغرامات بعد فترة، ويقيمون بِهَا عشاءً أو غداءً، وإذا كان الخطأ كبيرًا فرضوا على المخطئ ذبيحة وأصلحوا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٠)، وأحمد (١٦٦٣٨)، والبيهقي فِي السنن (٨/ ١٣٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥)، والنسائي فِي الكبرى (٩٠١٧)، وأحمد (٩٢٩٠) و(١٠١٦٧)، وابن أبِي شيبة (٤/ ٢٥٢)، والدارمي (١١٣٦)، والبيهقي فِي السنن (٧/ ١٩٨).

(٣) أخرجه مسلم (٥٣٧)، والنسائي (٣/ ١٤)، وأحمد (٢٣٧٦٢)، والطيالسي (١١٥٠)، وابن خزيمة (٨٥٩)، وابن حبان (٢٢٤٧)، والبيهقي فِي السنن (٢/ ٢٤٩).

بين المُتخاصمين، فما حكم هذا؟

الجواب: هذا لا يَجوز، لأنه لا يَحل مال امرئ مسلم إلا بطيبة من نفسه، أما أنه يُفرض عليه ويُلزم به، فهذا حرام.

* سؤال: ما حكم التعظيم للاعب كرة مُحترف كافر، ويثني عليه عندما يتسبب فِي نصر الفريق؟

الجواب: ما أثنى على كفره وإنَّما أثنى على لعبه ومهارته فِي لعبه، فعلى كل حال هذا خطر ويأثم عليه، ولكن ما يصل إلَى حد الكفر، الكفر لو أنه مدحه على كفره، وعلى ضلاله، أو شركه فإنه يكون كافرًا، أما على لعب الكرة أو المَهارة فِي صناعة، فهذا فيه تعظيم للكافر وفيه إثم ولكن ما يصل إلَى حد الكفر.

* سؤال: أثابكم اللَّه، ما القول فيمن يقول: لا يكفر المعين إلا إذا استوفى الشروط وانتفت الموانع؟

الجواب: من صدر منه الكفر قولًا أو فعلًا أو اعتقادًا أو شكًّا فإنه يُحكم بكفره، أما ما فِي قلبه هذا لا يعلمه إلا اللَّه، نَحن ما وُكلنا بالقلوب، إنَّمَا نَحن موكلون بالظاهر، فمَن أظهر الكفر حكمنا عليه بالكفر، وعاملناه معاملة الكافر.

* سؤال: ما حكم مشاهدة أفعال السحرة، ولو لَمْ يعتقد فيما يفعله؟

الجواب: هذا رضي بالمنكر.

* سؤال: أثابكم اللَّه، شخص يلجأ إليه الناس قبل حفر الآبار، ويدَّعي أنه يرى المَاء، ويقوم الناس بتصديقه!!

الجواب: هو ما يدعي أنه يرى المَاء، ولكن يدعي أنه يعرف التربة وأنواع الشجر الَّتِي فِي الأرض، علامات يستدلون بِهَا، هذا لا بأس؛ لأنه يستدل بأشياء ظاهرة، وهي نوع التربة نوع الشجر الذي ينبت فِي الأرض بِحكم خبرتهم بهذه الأمور.

* * *

(٦)

الرسالة السادسة

الجامع لعبادة الله وحده

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمد للَّه رب العالَمين، وصلى اللَّه وسلم وبارك على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين:

قال الشيخ الإمام مُحَمَّد بن عبد الوهاب -رحِمه اللَّه تعالَى-:

فإن قيل: فما الجامع لعبادة اللَّه وحده؟

قلت: طاعته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه [١].

---

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمد للَّه رب العالَمين، وصلى اللَّه وسلم على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

فإن اللَّه ﷻ خلق الجن والإنس لعبادته، كما قال تعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. بل إنه سبحانه خلق الملائكة أيضًا لعبادته، كما قال تعالَى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠]، والعبادة مأخوذة من التعبد وهو التذلل.

يقال: طريق مُعبَّد، إذا ذللته الأقدام، هذا من ناحية اللغة.

وأما فِي الشرع: فعرَّفها العلماء تعاريف كثيرة.

التعريف الأول: أنَّها غاية الحب مع غاية الذل.

كما قال الإمام ابن القيم -رحِمه اللَّه تعالَى- فِي النونية:

وعبادة الرحمن غاية حبه ... مع ذل عابده هما قطبان

وعليهما فلك العبادة دائر ... ما دار حَتَّى قامت القطبان

ومداره بالأمر أمر رسوله ... لا بالهوى والنفس والشيطان

فإن قيل: فما أنواع العبادة الَّتِي لا تصلح إلا للَّه تعالَى؟ [٢].

فلابد من الجمع بين الأمرين: غاية الحُب مع غاية الذل، فمن أحب شيئًا ولَم يذل له، لَمْ يكن ذلك عبادة له.

كما يُحب الإنسان زوجته، ويُحب أولاده، لكنه لا يذل لَهم، فحب الزوج لزوجته وحبه لأولاده، وحب الولد لأبويه وأقاربه، لا يسمى عبادة، لأنه ليس معه ذل.

وكذلك من ذل لشيء ولَم يُحبه فليس ذلك عبادة له، كمن ذل لِجبار من الجَبابرة، أو لظالِم من الظلمة، لكنه لا يُحبه، فهذا ليس بعبادة، إنَّمَا العبادة ما جمعت بين الأمرين: غاية الحُب مع غاية الذل، وهذا لا يكون إلا للَّه ﷻ، ولابد أن تدور عليهما أفلاك العبادة بِجميع أنواعها، ولِهذا قال:

وعليهما فلك العبادة دائر ما دار حَتَّى قامت القطبان

يعني: على الأصلين: الحب والذل.

فإنسان يقتصر على الحُب والذل من غير أن يفعل ما أمر اللَّه به، وأن يترك ما نهى اللَّه عنه، لا يُعتبر عابدًا للَّه، فغاية الحُب مع غاية الذل يقتضيان امتثال أوامر اللَّه ﷻ واجتناب نواهيه، وبِهذا تتحقق العبادة.

وعرفها شيخ الإسلام ابن تيمية بتعريف شامل دقيق، فقال: العبادة: اسم جامع لكل ما يُحبه اللَّه ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، كل ذلك عبادة، وله رسالة فِي هذا جيدة، اسمها «العبودية»، ذكر فيها هذا التعريف، وذكر أنواع العبادة الَّتِي أمر اللَّه تعالَى بِهَا فِي كتابه، أو أمر بِهَا رسوله ﷺ فِي سنته.

والشيخ هنا يقول: (فإن قيل) يعنِي: لو سئلتَ (ما الجامع لعبادة اللَّه؟) أي: ما هو التعريف الجَامع لعبادة اللَّه باختصار، فإنك تقول: (طاعته بامتثال أوامره واجتناب نواهيه).

[٢] العبادة أنواع كثيرة كما قال شيخ الإسلام: العبادة اسم جامع لكل ما يُحبه اللَّه ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فتكون ظاهرة على

قلتَ: من أنواعها الدعاء [٣].

الجوارح: كالصلاة والصيام والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصلة الأرحام وغير ذلك، وهذه عبادات ظاهرة، والعبادات الباطنة تكون في القلوب: من الخوف والخشية والرغبة والرهبة والمَحبة والتوكل والإنابة هذه كلها عبادات قلبية لا يعلمها إلا الله ﷻ، ومنها ما هو على اللسان مثل: ذكر الله، والتسبيح والتهليل والتحميد، والدعوة إلَى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع.

[٣] أنواع العبادة كثيرة أعظمها: الدعاء، قال الله ﷻ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

أمر الله بدعائه وسمى ذلك عبادة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أي: عن دعائي، وقال النَّبِي ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»(١).

فالدعاء هو أعظم أنواع العبادة، فمن دعا غير الله من المَوتَى والمَقبورين والجن والشياطين، فقد أشرك بالله الشرك الأكبر، قال تعالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]. مُخلصين له فِي الدعاء، فسمى الدعاء دينًا، كما سماه فِي الآية الأخرى عبادة، إذن فالدعاء دين، والدعاء عبادة لله ﷻ، وهذا مِما يدل على عظم الدعاء، وأنه لا يَجوز أن يدعو غير الله ﷻ، فإنه هو القادر على كل شيء، وهو الذي إذا دعوته فإنه يقدر على إجابتك ويقدر على إعطائك ما تريد، أما غير الله فإنه عاجز.

كما قال تعالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٣]. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٣٥٢)، والترمذي (٢٣٧٢)، وابن حبان (٨٩٠).

والاستعانة [٤].

لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥]. ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾. لأنَّهم أموات أو جمادات لا تسمع الدعاء ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟﴾ [فاطر: ١٤] ما يقدرون على الإجابة؛ لأنَّهم فقراء لا يَملكون شيئًا، ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢] فكيف يدعون مع اللَّه ﷻ؟! بل كيف يُترك دعاء اللَّه ويُصرف الدعاء لغير اللَّه من هؤلاء الأموات، والأشجار والأحجار والغائبين؟! أين عقول بني آدم؟! تدعو أناسًا لا يسمعون، ولو أنَّهم سمعوا لَمْ يقدروا على الإجابة؛ لأنَّهم لا يَملكون شيئًا؟!

[٤] الاستعانة: طلب العون على أمر من الأمور، وطلب العون على قسمين:

القسم الأول: أن تطلب العون مِمَّن يقدر على إعانتك، وهذا يَجوز أن تستعين بالمَخلوق فيما يقدر عليه، واللَّه -جل وعلا- يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]. فالتعاون بين الناس فيما يقدرون عليه وينفعهم أمر طيب، إذا كان الإنسان حيًّا حاضرًا قادرًا على أن يعينك فهذا لا بأس به، كأن تطلب من يساعدك بالمَال، أو يعينك على حمل شيء، أو يعينك على بناء حائط، أو يعينك على حصاد زرع، وهذه أمور يقدر عليها الناس، لا بأس بالاستعانة بالمَخلوقين فيها، ولا يُعدُّ هذا شركًا «واللَّه فِي عون العبد ما كان العبد فِي عون أخيه»(١).

النوع الثاني: الاستعانة بغير اللَّه فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه، كالاستعانة فِي حصول الرزق، أو الاستعانة بِحصول الولد والذرية، أو الاستعانة فِي شفاء المَرضى، أو غير ذلك، فهذا لا يطلب إلا من اللَّه، قال تعالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: لا نعبد سواك؛ لأن تقديم المَعمول يفيد الحصر، ثُمَّ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وأحمد (٧٢٢٧)، وأبو داود (٤٩٤٦)، والترمذي (١٤٢٥) وابن ماجه (٢٢٥) من حديث أبي هريرة.

والاستغاثة [٥].

وذبح القربان [٦].

قال: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الاستعانة نوع من أنواع العبادة وهي طلب العون من اللَّه تعالَى، وعطفها عليها من باب عطف الخاص على العام اهتمامًا به، فالاستعانة باللَّه ﷻ فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه ﷻ: كشفاء المَرضى وإنزال المطر، وإيجاد الرزق، وغير ذلك من الأمور الَّتِي لا يقدر عليها إلا اللَّه، فهذه لا تطلب إلا من اللَّه، لا تُطلب من الأموات، ولا من القبور، ولا من الأضرحة، ولا من الأصنام، ولا من الأحجار والأشجار، فمن طلبها من غير اللَّه فإنه يكون مشركًا الشرك الأكبر المُخرج من الملة.

[٥] الاستغاثة: نوع من الاستعانة لكنها أخص، فالاستعانة عامة والاستغاثة خاصة؛ لأنها لا تكون إلا فِي أمور الشدة، ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

هذا فِي وقعة بدر لَمَّا اشتد الأمر بالمسلمين، استغاثوا بربهم، لكنها أخص من الاستعانة لأنها لا تكون إلا فِي حال الشدة، فيجب إخلاص الاستغاثة للَّه ﷻ، ولا يَجوز الاستغاثة بالأموات، كثير مِمَّن يدَّعون الإسلام، إذا وقعوا فِي شدة يستغيثون بأمواتهم وأوليائهم، ويصرخون بأسمائهم فِي البر والبحر، وهذا من غلظة شركهم، فصاروا أغلظ شركًا من الأولين؛ لأن المشركين الأولين يشركون فِي حالة الرخاء، لكنهم فِي حال الشدة يُخلصون الدعاء والاستغاثة للَّه ﷻ؛ لأنَّهم يعلمون أنه لا ينقذ من الشدائد إلا اللَّه ﷻ، أما مشركو هذا الزمان فإنهم على العكس، إذا وقعوا فِي شدة استغاثوا بغير اللَّه، ونادوا بأسماء معبوداتهم كما هو معلوم عنهم.

[٦] الذبح على قسمين:

القسم الأول: الذبح لأكل اللحم، هذا مباح وليس هو عبادة، وإنَّما هو ذبح للأكل، فهو مباح، إلا أنه لابد أن يذكر عليه اسم اللَّه عند الذبح، ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١].

والنذر [٧] .

النوع الثاني: الذبح على وجه التقرب للَّه -جل وعلا-، فهذا نوع من أنواع العبادة، كذبح الأضاحي، وذبح الهدي، وذبح العقيقة للمولود، هذه ذبائح عبادة لا يَجوز التقرب بِهَا إلا للَّه ﷻ، فمن ذبح لغير اللَّه على وجه التقرب فإنه يكون مشركًا الشرك الأكبر، قال تعالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]. النسك: الذبح وقرنه مع الصلاة.

وقال ﷻ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]. قرن النحر مع الصلاة، فكما أنه لا تَجوز الصلاة لغير اللَّه، فكذلك الذبح والنحر على وجه التقرب لا يكون إلا للَّه، فمن ذبح يتقرب إِلَى ميت أو إِلَى قبر أو إِلَى ضريح كما عليه عباد القبور اليوم، فإنه يكون مشركًا الشرك الأكبر.

وفِي الحَديث عن علي ﷺ قال رسول اللَّه ﷺ: **«لعن اللَّه من ذبح لغير اللَّه، لعن اللَّه من لعن والديه، لعن اللَّه من آوى مُحدثًا، لعن اللَّه من غيَّر منار الأرض»**[1].

فمن هذه الأمور المَلعون من فعلها: الذبح لغير اللَّه، من ذبح لغير اللَّه كأن يذبح للقبور يتقرب إليهم ليقضوا له حوائجه، أو يذبح للجن من أجل ألَّا يضروه، كما يفعله بعض الناس إذا نزل منزلًا جديدًا يذبح للجن من أجل أنَّهم لا يضرونه فِي هذا المَنزل، يذبح عند الباب ويرش من دمه على الجدران، يتقرب إِلَى الجن، أو إذا أقام مشروعًا من المشاريع كالمصانع يذبح عند أول حركة الآليات لأجل أن المصانع تسلم، وكذلك إذا قدم ملك من الملوك أو رئيس من الرؤساء يذبَحون عند وصوله، والسلام عليه تعظيمًا له، ذبح تَحية، أما لو كانوا يذبَحون له وليمة، فلا بأس، هذا من المُباحات، لكن يذبَحون تعظيمًا له، إذا نزل من الطائرة أو نزل من السيارة يذبَحون تَحت السيارة وتَحت الطائرة، تعظيمًا لِهذا الوافد، هذا من الشرك؛ لأنه من باب التحية والتعظيم.

[٧] النذر: هو التزام عبادة لَمْ يلزم بِهَا الشرع، وهو نوع من أنواع العبادة، قال

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٧٨)، وأحمد (٨٥٥).

والخوف [٨].

والرجاء [٩].

تعالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]. فأثنى عليهم أنَّهم يوفون بالنذر، وقال تعالَى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠]. قرنه مع النفقة والصدقة، والنفقةُ والصدقة عبادة، فيكون النذر عبادة، قال سبحانه: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]. قرنه مع الطواف، والطواف عبادة للَّه ﷻ، فالوفاء بالنذر عبادة، هذا فِي نذر الطاعة، إذا نذر أن يتصدق، إذا نذر أن يصلي، إذا نذر أن يصوم، إذا نذر أن يَحج، إذا نذر أن يعتمر، قال ﷺ: **«من نذر أن يطيع اللَّه فليطعه»**(١)، أما نذر المَعصية فإنه يَحرم الوفاء به، قال ﷺ: **«ومن نذر أن يعصي اللَّه فلا يعصه»**.

ومِنْ نذر المَعصية: النذرُ للقبور، فمن نذر لقبر أو نذر لِميت فإنه يكون مشركًا شركًا أكبر؛ لأنه صرف نوعًا من أنواع العبادة لغير اللَّه ﷻ.

[٨] الخَوف من أعمال القلوب، فهو عبادة قلبية، والمراد خوف العبادة، وهو الخوف الذي يكون معه تعظيم ومحبة للمخوف، يُحبه ويَخافه، هذا خوف العبادة ويسمى خوف السر، وهو لا يَجوز إلا للَّه ﷻ، فالذي يَخاف من مَخلوق خوف العبادة فإنه أشرك، وإذا عمل له نوعًا من أنواع العبادة لأنه يَخافه، مثل الذي يَخاف من الجن فيذبح لَهم، أو الذي يَخاف من الميت فيذبح له، هذا خوف عبادة، فإنه يكون مشركًا الشرك الأكبر، أما الخوف الطبيعي كأن تَخاف من العدو، وتَخاف من السباع، وتَخاف من الثعابين، فهذا خوف طبيعي، ليس هو بعبادة.

[٩] من أنواع العبادة: الرجاء: وهو تأميل الخير فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه، فلا يَجوز أن ترجو غير اللَّه فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه، أما الرجاء فِي الأمور العادية، كأن ترجو من شخص أن يعطيك مالًا أو يساعدك فيما يقدر عليه، فهذا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦)، وأحمد (٢٤٠٧٥) من حديث عائشة.

والتوكل [١٠].

والإنابة [١١].

والمَحبة [١٢].

ليس من العبادة.

تقول: يا أخي، أرجوك أن تعطيني كذا وكذا، مِمَّا يقدر عليه، لكن لا ترجُو مَخلوقًا فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه، كالذين يرجون الأموات والغائبين والجن، هذا رجاء العبادة فلا يَجوز، وهو شرك أكبر.

[١٠] من أنواع العبادة: التوكل: وهو تفويض الأمور إلَى اللَّه ﷻ والاعتماد عليه، قال اللَّه تعالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. وقال: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]. قرنه مع العبادة، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ هذا حصر؛ لأن تقديم الجَار والمَجرور على الفعل يفيد الحصر، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: لا على غيره ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: لا على غيره، فالتوكل عبادة لا يَجوز إلا للَّه.

أما التوكيل فيما يقدر عليه المَخلوق، كأن توكل أحدًا يشتري لك حاجة، وتوكل أحدًا يعمل لك عملًا، هذا جائز، الرسول ﷺ وكَّل من يشتري له، وكان يوكل العمال ينوبون عنه فِي بعض الأمور، قال تعالَى عن أصحاب الكهف أنَّهم قالوا: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩]. هذا توكيل، فالتوكيل جائز، أما التوكل فإنه يكون خاصًا باللَّه ﷻ.

[١١] والإنابة: الرجوع، والإنابة والتوبة بِمعنى واحد، قال تعالَى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤].

[١٢] المَحبة: لَها مقام عظيم فِي العبادة، وهي مَحبة اللَّه ﷻ؛ لأن المَحبة على قسمين:

والخَشية[١٣].

والرغبة[١٤]. والرهبة[١٥]. والتأله[١٦].

مَحبة عبادة: وهي الَّتي يكون معها ذل وخضوع للمحبوب، وهذه لا تكون إلا للَّه سُبحانه وتعالى؛ لأنها مَحبة عبادة.

أما النوع الثاني: وهو المَحبة الطبيعية كأن تُحب المَال، وتُحب زوجتك، وتُحب أولادك، وتُحب والديك، وتُحب من أحسن إليك، هذه مَحبة طبيعية لا تعد من العبادة؛ لأنها ليس معها ذل، وليس معها خضوع، وإنَّما هي مودة مُجردة، إلا إذا قدم مَحبة هذه الأشياء على مَحبة اللَّه تعالَى فإنه يكون عليه وعيد شديد، كما قال تعالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾[التوبة: ٢٤].

فاللَّه لا يقدَّم على مَحبته مَحبة شيء من الأموال والأولاد والبلاد وغير ذلك، فإن تعارضت مَحبة اللَّه مع مَحبة غيره من الأموال والأولاد فإنه يقدم مَحبة اللَّه.

[١٣] الخَشية: هي نوع من الخوف، قال اللَّه تعالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾[البقرة: ١٥٠]. فلا تقدم خشية المَخلوق على خشية اللَّه، قال تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾[الأحزاب: ٣٩].

[١٤] فالرغبة تكون إلَى اللَّه -جل وعلا- وهي الطمع فيما عنده، قال تعالَى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾[التوبة: ٥٩] وهي الرغبة فيما عند اللَّه، والتعلق باللَّه عز وجل، فإذا رغب فيما عند اللَّه حمله ذلك على طاعة اللَّه، وتقديم رضا اللَّه سُبحانه وتعالى.

[١٥] والرهبة كذلك هي نوع من الخوف، قال تعالَى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾[البقرة: ٤٠]. يَجب أن ترهب اللَّه وتَخاف من اللَّه وتَخشى اللَّه، ولا ترهب المَخلوقين رهبة تَجعلهم فِي منزلة اللَّه أو يساوون اللَّه عز وجل، لا ترهب منهم فتتركَ طاعة اللَّه من أجلهم.

[١٦] التأله: التعبد، ويطلق التأله ويراد به المَحبة من الوله، وهو المَحبة، هذا حق للَّه سُبحانه وتعالى، فالألوهية حق للَّه -جل وعلا-، لا يَجوز أن يُتخذ معه إلهٌ آخر يؤله

والركوع والسجود[١٧].

والخُشوع[١٨].

والتذلل[١٩] والتعظيم الذي هو من خصائص الإلهية[٢٠].

ويُحب ويعبد مع الله ﷻ، فالألوهية حق لله، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤]. يعني: يألهه ويعبده ويُحبه أهل السماء وأهل الأرض.

[١٧] الركوع عبادة لا يكون إلا لله، لا يركع الإنسان لأحد، ولا يَخضع لأحد ولا ينحني لأحد تعظيمًا له، فالانحناء على وجه الذل والتعظيم لمن انحنَى له ركوع لغير الله ﷻ، ولا يَسجد إلا لله، لا يسجد للصنم، ولا للقبر ولا للضريح، ولا لعظيم من العظماء، لا يَجوز السجود إلا لله ﷻ، كان الفرس والروم يعظمون ملوكهم فيسجدون لَهم، ولَمَّا رآهم معاذ بن جبل ﵁ وقدم على النَّبِي ﷺ أراد أن يسجد له، فمنعه -عليه الصلاة والسلام- من ذلك وقال: **«لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها»**[(١)]. فالسجود لا يكون إلا لله ﷻ.

[١٨] الخشوع من أعمال القلوب، والخشوع هو الرقة التي تكون فِي القلب، وهذا لا يكون إلا الله ﷻ، فلا تَخشع لِمخلوق وإنَّما تَخشع للخالق تعظيمًا له ﷻ، ترق له وتفتقر إليه، وتبكي من خوفه وخشيته ﷻ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧].

[١٩] التذلل هو الخضوع، وهو -كما سبق- ركن من أركان العبادة، فالعبادة تدور على الحُب والذل، والخَوف والرجاء، فلا يكون الذل إلا لله ﷻ لا تذل لِمخلوق مثلك.

[٢٠] وهو التعظيم الذي يكون معه خضوع للمعظَّم، وصرف شيء من أنواع

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٩٨٦)، وابن أبِي شيبة (٤/ ٣٠٥) من حديث معاذ.

ودليل الدعاء: [٢١] قوله تعالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] [٢٢].

وقوله تعالَى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤] [٢٣].

ودليل الاستعانة: قوله تعالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] [٢٤].

العبادة لِهذا المعظم، وصرف هذا النوع من التعظيم لغير اللَّه شرك باللَّه ﷻ.

[٢١] لَمَّا ذكر أهم أنواع العبادة أراد أن يستدل لكل نوع من هذه الأنواع؛ لأن الكلام بدون دليل لا يُقبل؛ لاسيما الكلام فِي هذا الأمر العظيم المهم وهو الكلام فِي العبادات؛ لأن العبادات توقيفية، لا يُفعل منها شيء إلا بدليل.

[٢٢] هكذا يَجب أن تكون المساجد للَّه ﷻ، لا تُبنى للرياء والسمعة، أو تُبنى على الأضرحة والقبور، وإنَّما تبنى لعبادة اللَّه وحده لا شريك له، فهي بيوت اللَّه، ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]. هذا مَحل الشاهد، حيث نهى أن يُدعَى معه غيره.

[٢٣] أي: هو الذي يدعى حقًّا، وأما غيره من الأصنام والأحجار والقبور والأضرحة فدعاؤها باطل؛ لأنها لا تسمع ولا تقدر على إجابة من دعاها، ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾. لو جئت إِلَى ماء فِي قعر بئر وليس معك دلو ولا حبل، وجعلت تشير إِلَى المَاء ليرتفع إِلَى فمك فإنه لا يصل إليك، وهذا مثل مَن يدعو غير اللَّه ﷻ، فإن حصول نفعه له من المُستحيل كاستحالة وصول المَاء إِلَى من يبسط يده إلى المَاء ليرتفع إِلَى فمه دون أن يكون معه سبب يرفعه.

[٢٤] الدليل على أن الاستعانة نوع من أنواع العبادة هذه الآية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. فقدمَ المَعمول فِي ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على العامل وهو ﴿نَسْتَعِينُ﴾ وهذا يفيد الحصر، أي: لا نستعين بغيرك فِي الأمور الَّتِي لا يقدر عليها إلا أنت، لا نستعين بصنم ولا بوثن ولا بقبر ولا بِحجر ولا بشجر.

ودليل الاستغاثة: قوله تعالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] [٢٥].

ودليل الذبح: قوله تعالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] [٢٦].

ودليل النذر: قوله تعالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧] [٢٧].

---

[٢٥] يُذكِّر اللَّه المؤمنين بِمَا حصل لَهم فِي بدر، حين اشتد بِهم الأمر فاستغاثوا به فأغاثهم، قال تعالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] فأغاثهم اللَّه ﷻ بالملائكة تثبتهم وتعينهم على القتال، وتوقع الرعب فِي قلوب الأعداء ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢]. فالملائكة نزلت فِي ساحة القتال فِي بدر مع المؤمنين تثبتهم وتقوي قلوبهم، وتطمئنهم وتوقع الرعب فِي قلوب أعدائهم، وتعين المُؤمنين على القتال، فالذين يقتلون الكفار هم المُؤمنون، لكن الملائكة تُمدهم وتعينهم وتقويهم وتثبتهم.

[٢٦] قرن النسك وهو الذبح مع الصلاة، والصلاة عبادة، فالنسك عبادة ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] ما أحيا عليه وما أموت عليه كله للَّه ﷻ ثُمَّ قال: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ نفى الشرك فِي الذبح وفِي الصلاة، ونفى الشرك فِي الحياة والموت، ثُمَّ قال: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ أي: يقول الرسول ﷺ: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ أي: أمرني اللَّه ﷻ ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام ١٦٣]. أي: أول المُنقادين المُمتثلين لِهذا الأمر.

[٢٧] فدل على أن النذر عبادة يَجب إخلاصها للَّه، فمن نذر لغير اللَّه كالموتى والقبور والأضرحة فهو مشرك، وهذا يقع كثيرًا من الذين ينذرون للقبور وينذرون للأموات يتقربون إليهم بذلك، وهذا نذر معصية ونذر شرك، لا يَجوز الوفاء به، أما من نذر للَّه فإنه يَجب عليه الوفاء لأنه عبادة.

ودليل الخوف: قوله تعالَى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] [٢٨].

ودليل الرجاء: قوله تعالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] [٢٩].

ودليل التوكل: قوله تعالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] [٣٠].

---

[٢٨] لَمَّا توعد المُشركون رسول اللَّه ﷺ وأصحابه بعد وقعة أحد وقالوا: إنا سنرجع إليكم ونستأصلكم، فالمؤمنون ما زادوا على أن قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. يعني: نَحن نعتمد على اللَّه ولا يهمنا تهديدكم أو وعيدكم، فنحن نعتمد على اللَّه ﷻ، ثُمَّ قال -جل وعلا-: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ هذا التخويف إنَّمَا هو من الشيطان، ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ يعني: يُخوفكم بأوليائه ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هذا هو مَحل الشاهد، دل على أن الخوف نوع من أنوع العبادة يَجب أن يفرد اللَّه به.

[٢٩] قال المُفسرون: معناها -واللَّه أعلم-: يرجو أن يرى ربه ﷻ يوم القيامة فِي الجنة، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠] فجعل الرجاء من العبادة وأمر ألَّا يشرك به معه غيره.

[٣٠] التوكل من أعظم أنواع العبادة، قال تعالَى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. فمن توكل على اللَّه كفاه، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. يعني: كافيه، ومن يتوكل على مَخلوق فإن اللَّه يَكِلُه إلَى ذلك المَخلوق الضعيف.

وفِي هذه الآية الَّتِي ساقها المُصنف جعل اللَّه التوكل شرطًا فِي صحة الإيمان. فمن لَمْ يتوكل على اللَّه فليس بِمؤمن.

ودليل الإنابة: قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤] [٣١].

ودليل المَحبة: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥] [٣٢].

ودليل الخَشية: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ [المائدة: ٤٤] [٣٣].

ودليل الرغبة والرهبة: قوله تعالى ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠] [٣٤].

ودليل التأله: قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] [٣٥].

---

[٣١] الإنابة: الرجوع، وأنيبوا: يعني: ارجعوا إليه بالطاعة وترك المَعصية، فالإنابة نوع من أنواع العبادة.

[٣٢] ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥] لأنَّهم أحبوا اللَّه وحده، ولَم يُحبوا معه غيره، أما المُشركون فإنهم أحبوا مع اللَّه غيره؛ ولذلك صاروا مشركين.

[٣٣] فدل على أن الخشية نوع من أنواع العبادة، وأن من خشي غير اللَّه فترك ما أوجبه اللَّه عليه فقد أشرك به.

[٣٤] لَمَّا ذكر اللَّه فِي سورة الأنبياء مواقف الأنبياء فِي العبادة ومواقفهم عند الابتلاء والامتحان، قال: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا﴾ أي: طمعًا فيما عند اللَّه، ﴿وَرَهَبٗاۖ﴾ [الأنبياء: ٩٠] أي: خوفًا من عقابه، فدل على أن الرغبة والرهبة نوعان من أنواع العبادة يَجب إخلاصهما للَّه، قال تعالَى: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [التوبة: ٥٩]. قدم الجار والمَجرور ليفيد الحصر؛ أي: لا نرغب إلَى غيره ﷻ.

وفِي الآية رد على الصوفية الذين يقولون: لا نعبده خوفًا من ناره ولا طمعًا فِي جنته، وإنَّما نعبده لأننا نُحبه وهذا مُخالف لِما عليه الأنبياء.

[٣٥] إلَهكم: يعني: معبودكم المستحق للعبادة، إله واحد وهو اللَّه ﷻ لا يستحق العبادة غيره ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ

ودليل الركوع والسجود: قوله تعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧] [٣٦].

ودليل الخشوع: قوله تعالَى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ١٩٩] [٣٧] ونَحوها، فمن صرف شيئًا من هذه الأنواع لغير اللَّه تعالَى فقد أشرك باللَّه غيره [٣٨].

ٱلْبَـٰطِلُ﴾ [الحج ٦٢]. وكل من عبد غير اللَّه فقد اتَّخذه إلَهًا، لكنه إله باطل، والإله الحق هو اللَّه ﷻ، فالألوهية حق للَّه ﷻ لا يَجوز أن نتأله لغيره.

[٣٦] حيث أمر اللَّه بالركوع والسجود، والركوع هو الخضوع بالرأس والانْحناء، والسجود: وضع الجبهة على الأرض على وجه التعظيم، هذا لا يكون إلا للَّه ﷻ، لا يَجوز لأحد أن يركع لأحد، ولا أن يسجد لأحد، فإن ركع لغير اللَّه أو سجد لغير اللَّه فهو مشرك.

[٣٧] الخشوع هو الانْخفاض وعدم الترفع، وهو نوع من أنواع العبادة، وهذه فيها الثناء على مؤمني أهل الكتاب المتَّصفين بهذه الصفة، فهم لا يَخشعون لغيره ﷻ.

[٣٨] لأن هذه كلها من أنواع العبادة، فمن صرف منها نوعًا فإنه يكون مشركًا باللَّه فِي عبادته الشرك الأكبر الذي لا يُغفر إلا بالتوبة، وكثير من الناس يدَّعون الإسلام ويصرفون أنواعًا كثيرة من هذه الأنواع لغير اللَّه ﷻ، نسأل اللَّه العافية، ويعتبرون هذا ليس من العبادة وإنَّما هؤلاء شفعاء ووسائط تقربهم إلَى اللَّه، يزين لَهم شياطين الجن والإنس هذا العمل، ويسمون الشرك بغير اسمه، يسمونه طلبًا للشفاعة، يسمونه توسلًا إلَى اللَّه ﷻ، إلَى غير ذلك من الأسماء الَّتِي أضلوا بِهَا كثيرًا من الرعاع، لاسيما وأنهم يرغِّبون بأنه مَن فَعَل هذا حصل له كذا، وأن من لَمْ يفعله يحصل عليه كذا، ويرهبونهم، فالناس الذين ليس فيهم إيمان قوي يتأثرون بِهذا الوعيد أو بهذه الوعود والترهيبات، فيمارسون هذه الأنواع إما خوفًا وإما

فإن قيل: فما أجلُّ أمرٍ أمَرَ اللَّه به؟

قيل: توحيده بالعبادة، وقد تقدم بيانه، وأعظم نهي نهى اللَّه عنه الشرك به، وهو أن يدعو مع اللَّه غيره، أو يقصده بغير ذلك من أنواع العبادة[٣٩] .

رجاء، تأثرًا بِمَا يسمعون وما يقرءون من الدعاية لعبادة غير اللَّه ﷻ ، ولا يسمونها شركًا بل يقولون إنها من صميم التوحيد، والذي ينكرها يصفونه بأنه خارجي، وهو الذي لا يعرف قدر الصالحين.

ولا يتأملون القرآن والسنة؛ لأن اللَّه أعمى بصائرهم فلم يلتفتوا إِلَى دلائل القرآن والسنة، وإِنَّما يلتفتون إِلَى أقوال شيوخهم ومعظِّميهم ويقولون: هم أعلم منا بالقرآن، وأعلم منا بالسنة، هذا من ناحية.

والناحية الثانية: أنهم يقولون إن من قال لا إله إلا اللَّه فإنه مسلم مؤمن ولو عمل ما عمل من الأمور، لو يدعو الأموات ويستغيث بِهم ويذبح لَهم، ما دام أنه يقول: لا إله إلا اللَّه فهو مسلم.

وهو إنَّمَا يقول: لا إله إلا اللَّه لفظًا ويناقضها معنًى، وهذا لا يفيده شيئًا، هو قالها بلسانه لكن خالفها باعتقاده وخالفها بأفعاله، فلا تفيده لا إله إلا اللَّه شيئًا لأنه أبطلها وناقضها.

[٣٩] أعظم ما أمر اللَّه به التوحيد، وأعظم ما نهى اللَّه عنه الشرك، فالتوحيد هو أعظم المَأمورات، والشرك أعظم المَنهيات أعظم من شرب الخمر، وأعظم من قتل النفس بغير حق.

والتوحيد هو أعظم ما أمر اللَّه به، أعظم من الصلاة وأعظم من الزكاة، وأعظم من جميع أنواع العبادة، ولذلك أول ما بدأ به الرسول بالدعوة إِلَى التوحيد، شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن مُحمدًا رسول اللَّه، فإذا نطق بالشهادتين فإنك تأمره بالصلاة، وتأمره بالزكاة، وتأمره بالحَج، أما ما دام أنه لَمْ ينطق بالشهادتين لا تقل له: صَلِّ؛ لأنه لو صلى فلا فائدة فِي ذلك، ولا تقبل صلاته، ولِهذا قال النَّبِي ﷺ لِمعاذ: **«إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا اللَّه**

فمن صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير اللَّه تعالَى فقد اتَّخذه ربًّا وإلَهًا، وأشرك مع اللَّه غيره، أو يقصده بغير ذلك من أنواع العبادة، وقد تقدم من الآيات ما يدل على أن هذا هو الشرك الذي نهى اللَّه عنه، وأنكره على المُشركين، وقد قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]. وقال تعالَى: ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] [٤٠]. واللَّه أعلم.

وصلى اللَّه على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وأن مُحمدًا رسول اللَّه، فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن اللَّه افترض عليهم خمس صلوات فِي اليوم والليلة، فإن هم أجابوك لذلك فأعلمهم أن اللَّه افترض عليهم صدقة» [١]. يعني: الزكاة، فلم يأمرهم بالصلاة ولا بالزكاة قبل أن يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه وأن مُحمدًا رسول اللَّه، فأعظم ما أمر اللَّه به التوحيد؛ لأنه الأصل والأساس والقاعدة لِهذا الدين.

[٤٠] هذا واضح، وهذا يدل على أن الشرك هو أعظم الذنوب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٨]. فإذا كان الشرك لا يقبل المَغفرة وغيره يقبل المغفرة، فهذا دليل على أن الشرك هو أعظم الذنوب، الزنا والسرقة وشرب الخمر وأكل الربا هذه قابلة للمغفرة فهي تَحت المشيئة، إن شاء اللَّه غفر لأصحابها، وإن شاء عذبهم، ولكن لا يُخلدون فِي النار، وإنما يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يَخرجون من النار؛ لأنَّهم من أهل التوحيد وأهل الإيمان، أما الشرك فإنه لا يغفر، وصاحبه لا يَخرج من النار أبدًا، ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]. ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢].

وصلى اللَّه على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).

(٧)

الرسالة السابعة

معنى الطاغوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخ الإمام مُحمَّد بن عبد الوهاب -رحِمه اللَّه تعالَى- :

اعلم -رحمك اللَّه تعالَى- أن أول ما فرض اللَّه على ابن آدم: الكفر بالطاغوت والإيمَان باللَّه [١].

---

[١] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمد للَّه رب العالَمين، وصلى اللَّه وسلم على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه، أما بعد:

يشير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إلَى قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ ليس معناه أن الكفار يُتركون ولا يُقاتلون ولا يدعون إلَى الإسلام كما يقوله الآن المُغرضون والكفار والجهال من المسلمين بحُجَّةِ حرية الأديان، وحرية العقيدة، هذا كذب على اللَّه -جل وعلا- ليس هذا هو مراد اللَّه -جل وعلا-، اللَّه -جل وعلا- خلق الخلق لعبادته لا لعبادة غيره كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٧]، فلو كان الناس يُتركون كفارًا يعبدون ما شاءوا، فما كان لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ ما كان لَها فائدة، ولَمَا كان للجهاد فِي سبيل اللَّه فائدة، ولَمَا كان للدعوة للَّه فائدة، كيف تدعونهم وهم أحرار فيما يعتقدون وفيما يعبدون؟! اتركوهم على مقتضى هذا الكلام الباطل، فليعبدوا ما يختارون.

فلو كان كما يقولون: إن الناس أحرار فِي عبادتهم، وفِي اعتقاداتهم ولا يُعترض على أحد، لبطلت كل هذه الأمور، ولَمَا صار هناك فائدة للدعوة إلَى اللَّه، والجهاد فِي سبيل اللَّه، بل لَمَا كان هناك فائدة لِخلق الجَنة والنار، فما دام

....

الكفار أحرارًا لِماذا يدخلون النار ويعذبون فيها أبد الآباد وهم آخذون بالحرية كما يقول هؤلاء، فهذا كلام باطل.

إذن ما معنى ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]؟ لأنَّهم يرددون هذه الآية، يقولون: الناس أحرار فِي عقائدهم؛ لأن اللَّه يقول: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ نقول لَهم: كذبتم على اللَّه، ليس هذا هو مراد اللَّه -جل وعلا-، بقوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ بل فيها أقوال للمفسرين:

القول الأول: منهم من يقول: إن هذه كانت فِي أول الأمر، ثُمَّ نُسخت بآيات الجهاد، ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾.

القول الثاني: أن قوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ خاص بأهل الكتاب، من اليهود والنصارى، فهؤلاء إذا دفعوا الجزية وخضعوا لِحكم الإسلام، فإنهم لا يُكرهون على الدخول فِي الإسلام، بل يُتركون بشرط أن يدفعوا الجزية وهم صاغرون، وبشرط أن يَخضعوا لِحكم الإسلام؛ لأنَّهم على علم، وعندهم علم بالدين والرسل، ما هم مثل الوثنيين، أُعطوا الفرصة ليراجعوا ما عندهم، ويتأملوا فِي القرآن، ويتأملوا فيما عندهم، فيجدوا أن القرآن يتوافق تمامًا مع التوراة والإنْجيل السالِمَيْن من التحريف، الباقيين على أصلهما كما أنزل اللَّه ﷻ، فلا خلاف بين الكتب السماوية أنَّها كلَّها من عند اللَّه -جل وعلا- فِي أمور العقائد، أما أمور المُعاملات والحلال والحَرام فهي تختلف بِحسب الشرائع، وبحسب حكمة اللَّه -جل وعلا-، فِي كل وقت بحسبه.

ولكن العقائد ليس بين الكتب السماوية فيها اختلاف أبدًا، أنه لا يُعبد إلا اللَّه -جل وعلا-، وأن عبادة غيره باطلة، أجمعت الكتب السماوية، وأجمعت الرسل، وأجمع المسلمون من قديم الخَليقة إِلَى آخر الخَليقة على أن العبادة لا تكون إلا للَّه، وأن من عبد غير اللَّه فإنه يُدعى إِلَى عبادة اللَّه، فإن أصر فإنه يُقاتل دفعًا لكفره وشره، ولئلا ينتشر الكفر فِي الأرض، ويَحتج به المُخالف، فلو كان الناس أحرارًا ولا اختلاف فِي الدين كما يقولون ما احتاج الناس إِلَى بعث الرسل،

ولا إِلَى إنزال الكتب، وإنَّما الناس أحرار ولا أحد يُدعى، ولا أحد يُقاتل، ولا أحد تفرض عليه الجِزية والخُضوع للإسلام، فهم أحرار كما تقولون.

القول الثالث: أن قوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦] خاص باليهود والنصارى.

قيل: إنهم أسلم منهم ناس فأرادوا أن يكرهوا أولادهم على الدخول فِي الإسلام، فاللَّه أنزل هذه الآية، فِي أنَّهم لا يكرهون، وأما قولهم: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ أنه مَحمول على الاختيار والحُرية، فهذا أمر باطل لا دليل عليه من القرآن، بل أدلة الشرع كلها تَردُّ على هذا.

وقوله: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] سبق لنا أن قلنا: إن هذه الآية هي معنى (لا إله إلا اللَّه)، الذي يكفر بالطاغوت: هذا معنى (لا إله)، ويؤمن باللَّه: هذا معنى (إلا اللَّه) ففيها معنى النفي والإثبات اللذين فِي (لا إله إلا اللَّه).

والطاغوت: لفظ عام مأخوذ من الطغيان، وهو مُجاوزة الحَد، والطواغيت أنواع: فأعظم الطواغيت من يُعبد من دون اللَّه ﷻ وهو راضٍ بذلك.

يقول ابن القيم: الطواغيت كثيرون ورءوسهم خمسة:

١- إبليس لعنه اللَّه.

٢- ومن عُبد وهو راضٍ.

٣- ومن دعا الناس إِلَى عبادة نفسه.

٤- ومن ادعى علم الغيب.

٥- ومن حكم بغير ما أنزل اللَّه.

هذه رءوس الطواغيت:

الأول: إبليس، وهو أول الطواغيت.

الثاني: (من عُبد وهو راضٍ بذلك)، أما من عُبد وهو غير راضٍ بذلك فهذا

لا يُسمى طاغوتًا، فالمَلائكة عُبدوا من دون اللَّه، لكن لَمْ يرضوا بذلك ولا أمروا به، والمَسيح بن مريم -عليه الصلاة والسلام- رسول اللَّه عُبد من دون اللَّه وهو ينهى عن ذلك فِي حياته، ويتبرأ من أصحابه، فلا يُعد طاغوتًا.

وإنَّما الطاغوت الذي أمرهم بعبادته وهو الشيطان، وكذلك الأولياء والصالِحون الذين ماتوا على صلاحهم وعلى ولايتهم للَّه، وعلى عملهم الصالح، ولكن عُبدوا بعدما ماتوا، هؤلاء لا يُقال لَهم طواغيت، وإنَّما الطاغوت هو الذي أمرهم بذلك وهو الشيطان.

الثالث: (من دعا الناس إِلَى عبادة نفسه)؛ لأن بعض الطواغيت يأمر الناس بأن يعبدوه.

ويقول لَهم: إنه يستطيع أن ينفعهم وأن يضرهم، ويحقق لَهم مطالبهم، كما عليه اليوم طواغيت الصوفية ومشايخ الصوفية، الذين يزعمون أنَّهم يُحققون لِمن عبدهم مطالبهم، وأنهم يتصلون باللَّه مباشرة، ويأخذون عن اللَّه مباشرة، وبعضهم يوصي يقول: إذا مت لا يَمنعكم من دعائي والاستغاثة بي ذراع من التراب، هلموا إِلَى قبري واطلبوا منِّي وأنا أغيثكم ... وأنا وأنا، هذا دعا الناس إِلَى عبادة نفسه، فهو طاغوت.

الرابع: (من ادعى علم الغيب)، وهو الكاهن، الطواغيت كُهان كما يقول بعض السلف: كانت تنزل عليهم الشياطين، وفِي كل حي من أحياء العرب منهم واحد، فالكُهان طواغيت، لِماذا؟ لأنَّهم يدَّعون علم الغيب الذي اختص اللَّه تعالى به، ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

فقد يطلعه اللَّه على بعض المُغيبات لِمصلحة الدعوة إِلَى اللَّه ﷻ، وتكون معجزة له، ودليلًا على صدقه لِمصلحة الناس، وإلا فالغيب لا يعلمه إلا اللَّه ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، والرسول الذي علم شيئًا من الغيب لَم يعلمه أصلًا، وإنَّما علمه بإطلاع اللَّه له عليه، فلا يعلم الغيب إلا اللَّه ﷻ: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ

....

﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾.

أما الكهان والشياطين، فهؤلاء كذبة، ولكن يَحصلون على شيء من الغيب بواسطة استراق السمع.

والخَامس -وهو الأخير-: (من حكم بغير ما أنزل اللَّه)، ومنهم الحُكام الذين يسنُّون القوانين، ويلغون الشريعة ويَجعلون القوانين مَحلها، هؤلاء طواغيت، الذي يَحكم بغير ما أنزل اللَّه هذا طاغوت بنص القرآن ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ [النساء: ٦٠] فمن حكم بغير ما أنزل اللَّه متعمدًا ذلك فإنه يكون طاغوتًا.

أما من حكم بغير ما أنزل اللَّه مُجتهدًا، يتحرى الحق ولكنه أخطأ، فهذا ليس طاغوتًا، فالفقهاء إذا اجتهدوا فِي المَسائل الفقهية وأخطئوا لا يعدُّون طواغيت؛ لأنَّهم لَمْ يتعمدوا هذا، هم يبحثون عن الحق، ولكن لَمْ يصلوا إليه، فهم معذورون قال ﷺ: «**إذا اجتهد الحَاكم فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر واحد**» لأنه لَم يتعمد مُخالفة الشرع، وإنَّما أخطأ باجتهاده، ولا يَجوز اتباعه على الخطأ، لا يَجوز أن نأخذ الاجتهاد الذي نرى أنه خالف الدليل، ولكن هو فِي نفسه معذور وليس طاغوتًا، بل له أجر إذا كان من أهل العلم، أما إذا اجتهد وهو ليس عنده مؤهلات الاجتهاد، فهذا على كل حال مُخطئ، فلا يَجوز له أن يَجتهد وهو لا يُحسن ذلك، ولكن هذا فِي المُجتهدين الذين عندهم مؤهلات الاجتهاد إذا أخطئوا كالأئمة الأربعة وأقرانهم من أهل العلم الذين توفرت فيهم شروط الاجتهاد، فإنهم ليسوا معصومين.

إنَّما الطاغوت الذي تعمد مُخالفة الشرع، وتعمد الحُكم بغير ما أنزل اللَّه، يَجلب القوانين والمَحاكم القانونية يَجعلها مَحل الشريعة، هذا لا شك أنه طاغوت، ليس طاغوتًا عاديًّا بل من رءوس الطواغيت الخَمسة.

فما دام أن اللَّه -جل وعلا- فرض عليك الكفر بالطاغوت، فلا يَجوز لك أن تبقى جاهلًا وما تدري ما هو الطاغوت، لابد أن تعرف ما هو الطاغوت؟ وما هي أنواعه؟ حتى تتجنبه، حتى تَحذر منه.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] [٢].

أما أن تقرأ القرآن بأوامره ونواهيه، وفيه ذكر التوحيد والشرك، ولا تعرف كيف تفرق بينهما، هذا لا يَجوز للمسلم، لابد له أن يتعلم هذه الأشياء، ويكون على بصيرة منها فِي نفسه، ويتجنبها ويَحذر منها من أجل أن يعرف الحق، من أجل أن يعمل به هو، ويدعو الناس إليه، ويبينه لَهم، فالأمر مهم جدًّا.

يَجب الكفر بكل هؤلاء، فمن لَم يكفر بهم أو لَم يكفر ببعضهم، وصحح شيئًا من الطواغيت، فصحح الكهانة، وصحح الحكم بغير ما أنزل اللَّه، وقال: الوقت تغير والزمان يَختلف، ولا يسع الناس اليوم الحكم بالشريعة ولابد أن نُساير الدول، ونُساير العالَم، هذا لَمْ يكفر بالطاغوت، وإن كان يقول: (لا إله إلا اللَّه)، وإن كان يصلي ويصوم ويَحج.

ما دام أنه يقول: الحكم بِمَا أنزل اللَّه لا يُناسب هذا الوقت، يتعارض مع الحضارة الحَديثة، ومع سياسة الدول، فعلينا أن نسايرهم فِي هذه الأمور، والشرع إنَّمَا يكون فِي المَساجد، وأما الحكم بين الناس والحكم السياسي فهذا لابد فيه من مُسايرة الدول، ولا ينفرد عنها، هذا ولو كان يصلي ويصوم ويَحج ويقول: (لا إله إلا اللَّه) عدد الأنفاس فهو كافر؛ لأنه لَمْ يكفر بالطاغوت، واللَّه قدم الكفر بالطاغوت على الإيمَان باللَّه؛ لأن الإيمان باللَّه لا يصح إلا بعد الكفر بالطاغوت.

[٢] هذا الدليل على أن من عُبد من دون اللَّه وهو راضٍ أو دعا إلَى عبادة نفسه أو حكم بغير ما أنزل اللَّه فهو من الطواغيت، الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، هذه الآية مثل قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، فهو لَمْ يقتصر على قوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، بل قال: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾؛ لأن عبادة اللَّه لا تصح إلا مع اجتناب الطاغوت، فمن يعبد اللَّه ليلًا ونهارًا، ولكنه لَمْ يَجتنب الطاغوت، فعبادته باطلة، كالذي يصلي ويصوم ويَحج ويتصدق ويتبرع وينفق، ولكنه يستغيث

فأما صفة الكفر بالطاغوت: فهو أن تعتقد بطلان عبادة غير اللَّه، وتتركها وتبغضها وتكفِّر أهلها وتعاديهم [٣].

وأما معنى الإيمَان باللَّه: فهو أن تعتقد أن اللَّه هو الإله المَعبود وحده دون ما سواه [٤].

بالأموات، ويدعو الأموات من دون اللَّه، هذا لَمْ يكفر بالطاغوت.

جميع الرسل على هذا، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ هذا عام لِجميع الرسل، أنَّهم جاءوا بالأمر بعبادة اللَّه واجتناب الطاغوت، فلابد من الأمرين، وهذا هو معنى: (لا إله إلا اللَّه)، ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا معنى الإثبات، ﴿وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ هو معنى النفي فِي (لا إله إلا اللَّه).

[٣] هذا معنى ﴿وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ لابد من هذه الأمور: أن تعرف أولًا ما هو الطاغوت، ثُمَّ تَجتنبه، ولا يكفي أنك تَجتنبه، بل لابد أن تعادي أهله وتبغضهم؛ لأنَّهم أعداء اللَّه، واللَّه -جل وعلا- يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]، فلابد من هذه الأمور.

أولًا: أن تعرف الطاغوت ما هو؛ لأنك إذا لَمْ تعرفه فلا يُمكن أنك تتجنبه، كيف تتجنب شيئًا مَجهولًا؟!

ثانيًا: إذا عرفته سَهُل عليك اجتنابه.

ثالثًا: إذا اجتنبته فلابد أن تعاديه، وأن تبغضه وتبغض أتباعه وتعاديهم فِي اللَّه ﷻ.

[٤] هذا معنى الإيمَان باللَّه: أن تعتقد بقلبك أن اللَّه هو المُستحق للعبادة دون ما سواه، وأن كل ما عُبد من دون اللَّه فهو باطل، سواءٌ كان من المَلائكة أو من الأنبياء أو من الصالِحين، أو من الأحجار والأشجار والأوثان، لابد أن تكفر بِهذا كله، هذا معنى الإيمَان باللَّه، أن تعتقد بقلبك أنه لا يستحق العبادة إلا اللَّه، وأن ما عُبد من دونه فهو باطل، هذا لازم هذه العقيدة.

وتُخلص جميع أنواع العبادة كلها للَّه، وتنفيها عن كل معبود سواه[٥].

ما يكفي أنك تقول هذا بلسانك بدون أن تعتقد بقلبك، ولا يكفي أنك تعمل هذا بجوارحك، فأنت تصلي وتصوم وتقول: أنا لا أعبد إلا اللَّه.

ولكن يقول: ما أدري عن عبادة هؤلاء الذين يعبدون القبور ويعبدون الأضرحة، ما أقدر أن أقول إنهم على باطل، وهم يصومون ويصلون ويقولون: (لا إله إلا اللَّه).

نقول: أنت ما فهمت معنى (لا إله إلا اللَّه) ولا فهمت معنى الإيمَان باللَّه والكفر بالطاغوت، وإلا لو فهمت حق الفهم لعرفت أن الإيمَان باللَّه لا يصح إلا بالكفر بالطاغوت ظاهرًا وباطنًا، ظاهرًا باللسان وباطنًا بالاعتقاد.

[٥] هذا معنى الإيمَان باللَّه: أن تصرف العبادات كلها للَّه، لا تصرف منها شيئًا لغير اللَّه، كالذي يصوم ويصلي ويزكي، ولكن يدعو غير اللَّه، ويستغيث بغير اللَّه، يذبح لغير اللَّه، هذا عبد اللَّه فِي شيء، وعبد غيره فِي شيء، فهو مشرك، لا بد أن تكون جميع العبادات كلها للَّه، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] لا بد أن تكون العبادات كلها للَّه، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

أما الذي يعبد اللَّه ببعض العبادات، ويعبد غيره بأنواع أخرى من العبادات، فهذا لَمْ يؤمن باللَّه، كالذين يصومون ويصلون ويَحجون وينطقون بالشهادتين، ولكن يدعون غير اللَّه، يدعون الأموات، ويذبَحون للأموات، وينذرون للأموات، ويطوفون بالقبور، هؤلاء لَمْ يعبدوا اللَّه، بل هم مشركون؛ لأنه لا يَجتمع عبادة اللَّه وعبادة غيره أبدًا، اللَّه -جل وعلا- يقول: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**» وفِي رواية «**فهو للذي أشرك وأنا منه بريء**» اللَّه لا يرضى أن يُشرك معه أحد فِي أي نوع من أنواع العبادات، بل يَجب أن تكون العبادات كلها للَّه ﷻ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]. فلا يكون الدين بعضه للَّه وبعضه للأصنام أو للقبور، أو لفلان أو لعلان، الدين كله للَّه.

وتُحب أهل الإخلاص وتواليهم، وتبغض أهل الشرك وتعاديهم [٦].

وهذه ملة إبراهيم الَّتِي سفه نفسه من رغب عنها [٧].

---

[٦] هذا من لازم التوحيد: من وَحَّد اللَّه وكفر بالطاغوت فلابد أن يوالي، أي: يُحب، ويناصر أولياء اللَّه ﷻ، وهم أهل التوحيد، ويعادي ويبغض أهل الشرك؛ لأن اللَّه يبغضهم، فأنت تبغض من يبغضهم اللَّه، أما الذي يقول: أنا ما عليَّ إلا نفسي، ولا أعادي الناس وأبغض الناس وأكفر الناس.

نقول له: أنت ما كفرت بالطاغوت، الكفر بالطاغوت من لازمه معاداة أعداء اللَّه وبغض أعداء اللَّه ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ فتربصوا: يعني انتظروا ما يَحل بكم ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] سماهم فاسقين خارجين عن طاعة اللَّه ﷻ.

فلابد من المُوالاة فِي اللَّه والمُعاداة فِي اللَّه، فالذي عنده الناس سواء؛ لَمْ يكفر بالطاغوت، إنَّمَا يكفر بالطاغوت من والى فِي اللَّه وعادى فِي اللَّه، وأحب فِي اللَّه وأبغض فِي اللَّه ﷿.

[٧] اللَّه -جل وعلا- بعث نبيه مُحمدًا ﷺ بِملة إبراهيم، الَّتِي هي إفراد اللَّه بالعبادة وترك ما سواه، والبغض فِي اللَّه، والحُب فِي اللَّه، ملة إبراهيم عليه السلام كما قال اللَّه تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]. هذه ملة إبراهيم: معاداة أعداء اللَّه، والبراءة منهم ومن دينهم، فمن لَمْ يتبرأ منهم فإنه ليس على ملة إبراهيم، بل إن إبراهيم تبرأ من أبيه، ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]. هذه ملة إبراهيم: الحُب فِي اللَّه، والكره فِي اللَّه.

وهذه هي الأسوة الَّتِي أخبر اللَّه بِهَا فِي قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] [٨].

والطاغوت عام، فكل ما عُبد من دون اللَّه ورضي بالعبادة من معبود أو متبوع أو مطاع فِي غير طاعة اللَّه ورسوله فهو طاغوت[٩].

---

[٨] الأسوة: معناها القدوة، وأول السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ إِلَى قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الممتحنة: ١-٤] هذا هو التوحيد، وهذه هي عبادة اللَّه، وهذا هو الكفر بالطاغوت، ما يكفي أنك تقول: أنا أكفر بالطاغوت، ولكن لا تنفذ هذا فِي أفعالك ولا تعتقده بقلبك، فهذا لا يكفي.

[٩] (فكل ما عُبد من دون اللَّه) ورضي بالعبادة، فإنه يُسمى طاغوتًا من الطغيان، وهو الخُروج عن الحَد.

فالمعبود من الأصنام والأوثان والأشخاص إذا رضي بذلك أو المَتبوع فِي غير طاعة اللَّه، الذين يتبعون الكفار ويتبعون أهل الضلال، هؤلاء لَمْ يكفروا بالطاغوت؛ لأن الواجب أن يتبعوا رسول اللَّه ﷺ، فالذي يتبع أحدًا غير رسول اللَّه ﷺ فإنه لَمْ يكفر بالطاغوت؛ لأن اللَّه أوجب علينا اتباع الرسول ﷺ، ولا نتبع غيره -عليه الصلاة والسلام-.

فالذين يُحرِّمون الحَلال، ويُحللون الحَرام هؤلاء يَجب أن نعصيهم ولا نطيعهم، ما نطيع إلا بطاعة اللَّه ﷻ، ولِهذا يقول النَّبِي ﷺ: «**لا طاعة لِمخلوق فِي معصية الخالق**» فلا يَجوز لنا أن نطيع مَخلوقًا إلا فِي طاعة اللَّه، إذا كان مطيعًا للَّه أطعناه، فإذا أمرنا بِمعصية اللَّه فإننا نعصيه ولا نوافقه.

والطواغيت كثيرة ورءوسهم خمسة [١٠]:

الأول: الشيطان الداعي إِلَى عبادة غير اللَّه، والدليل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠] [١١].

الثاني: الحاكم الجائر المغير لأحكام اللَّه تعالى [١٢].

---

[١٠] الطواغيت كثيرة: فكل من خرج عن طاعة اللَّه فهو طاغوت، وهذا لا حصر له، ولكن رءوس الطواغيت هم هؤلاء الخَمسة.

[١١] (الأول: الشيطان) لأن أصل الطواغيت هو الشيطان، ومثله طواغيت الإنس، شياطين الإنس الذين يُحسِّنون للناس عبادة غير اللَّه، ويسمونها بأسماء خادعة، يسوغون للناس الذبح لغير اللَّه، والنذر لغير اللَّه، والاستغاثة بغير اللَّه، ودعاء المَوتى، يسوغون هذا، ويسمونه بأسماء يَخدعون الناس بها، هؤلاء طواغيت.

وعبادة الشيطان تكون بطاعته، فمن أطاعه فقد عبده، على اختلاف أنواع هذه العبادة، منها ما يصل إِلَى حد الكفر والشرك، ومنها ما هو دونها بِحسب طاعة الشيطان، فكل المَعاصي طاعة للشيطان وأشدها الشرك، ويساعده شياطين الإنس من علماء الضلال الذين يدعون الناس إِلَى عبادة غير اللَّه ﷻ، ويسمونها بغير الشرك، يسمونها توسلًا، أو يسمونها المَحبة للصالحين، أو بغير ذلك من أنواع الأسماء الخداعة، فهؤلاء من أعوان الشيطان، اللَّه أخبر أن الجن لَهم شياطين، وأن الإنس لَهم شياطين، ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]. يساعدون على إضلال بنِي آدم، هذا هو النوع الأول من الطواغيت: الشيطان، ومن سار فِي ركاب الشيطان، حَتَّى ولو قال الإنسان: أنا ما أعبد الشيطان.

نقول: إذا أطعته، وانقدت له فقد عبدته، شئت أم أبيت، الذي لا يعبد الشيطان هو الذي يُخالفه ويعصيه، هذا هو الذي لا يعبد الشيطان، لكن قد تكون عبادة الشيطان تصل إِلَى الكفر المُخرج من الملة، وتكون دون ذلك، ولكنها كلها طاعة للشيطان.

[١٢] الثاني: من حكم بغير ما أنزل اللَّه، هذا يعم كل من حكم بغير ما أنزل اللَّه بين الناس فِي الخصومات والمُنازعات، حكم بينهم بالقانون أو بعوائد البدو

والدليل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِۦ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠] [١٣].

والسلوم الَّتِي عليها البدو والقبائل، وأعرض عن كتاب اللَّه، هذا هو الطاغوت، يَحكمون بغير ما أنزل اللَّه، ويدَّعون أن هذا من الإصلاح والتوفيق بين الناس، هذا كذب، الإصلاح لا يكون إلا بكتاب اللَّه، والتوفيق بين الناس والمُؤمنين لا يكون إلا بكتاب اللَّه ﷻ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٢-٦٤] لو أنَّهم تابوا إِلَى اللَّه، (وجاءوك) هذا فِي حياة النَّبِي ﷺ.

أما بعد موته فلا يُذهب إِلَى قبره، الإنسان إذا أذنب يتوب إِلَى اللَّه ويستغفر فِي أي مكان، واللَّه غفور رحيم، ولا يَحتاج أن يذهب إِلَى قبر الرسول كما يقول المُخرفون الآن، إن هذا يدل على أن المُذنب يذهب عند القبر ويطلب من الرسول المُسامحة ويستغفر عند القبر، هذا كذب، الرسول ما أمر أن يُستغفر عند قبره، ولا الصحابة كانوا يذهبون إِلَى قبر الرسول ليستغفروا، كانوا يتوبون إِلَى اللَّه فِي أي مكان، لا يَحتاج إِلَى أنك تذهب إِلَى قبره، ولكن هذا فِي حياة الرسول؛ لأنَّهم أساءوا فِي حق الرسول، حيث انصرفوا عن التحاكم إليه، فهذه إساءة فِي حق الرسول ﷺ، فهم يذهبون ويعتذرون عند الرسول بعد التوبة إِلَى اللَّه ﷻ، فكان هذا فيه مُخالفة للَّه، ومُخالفة للرسول، فالمُخالفة فِي حق اللَّه لَها الاستغفار، والمُخالفة فِي حق الرسول يذهبون إليه ويطلبون منه المسامَحة والعفو عنهم؛ لأنَّهم أخطئوا فِي حقه ﷺ.

[١٣] هذا الدليل على أن من حكم بغير ما أنزل اللَّه فهو طاغوت فِي قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠].

الثالث: الذي حكم بغير ما أنزل اللَّه، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] [١٤].

الرابع: الذي يدعي علم الغيب من دون اللَّه.

والدليل قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦] [١٥].

فالطاغوت قيل: هو الشيطان، وقيل: هو كعب بن الأشرف اليهودي، وقيل أنَّهم الكهان؛ لأن العرب عندهم لكل قبيلة كاهن يَحكم بينهم.

[١٤] فالآية حكمت عليه بالكفر، وهذا إذا تعمد الحكم بغير ما أنزل اللَّه، وجعل المَحاكم تَحكم بغير ما أنزل اللَّه بقوانين وضعية، وألغى الشريعة وقصرها على الأحوال الشخصية فقط، وأما المُنازعات بين الناس والخُصومات فيحكم فيها القانون، هذا كافر.

ويستثنى من ذلك:

أولًا: من حكم بغير ما أنزل اللَّه بسبب اجتهاد وأخطأ فِي اجتهاده، وهو أهل لاجتهاده فهذا مأجور ومغفور له خَطَؤُه.

الثاني: مَن حكم بغير ما أنزل اللَّه وهو يعلم أنه مُخالف، ولكن حكم به لِهوى فِي نفسه أو لطمع فِي مال أو رشوة، وهو يعتقد أنه يَجب الحُكم بِمَا أنزل اللَّه، يعتقد هذا ويعتقد أنه مُخالف فهو مذنب وعاصٍ، صاحب كبيرة.

[١٥] هؤلاء هم الكهان فهم طواغيت، ولا يَجوز التحاكم إليهم، ولا يَجوز الذهاب إليهم وسؤالُهم؛ لأن بعض الناس يذهب إليهم إذا ضاع له شيء، ويسألُهم عن الذي ضاع له، ويسألهم من الذي سحره، أو يسألهم عن أهله إذا كانوا غائبين، ما حالتهم، أو عن أمواله الضائعة، فهذا يكفر إذا صدقهم، لقوله ﷺ: «من أتى كاهنًا فصدقه بِمَا يقول فقد كفر بِمَا أنزل على مُحَمَّد» وإن كان لَم يصدقهم فإنه لا تقبل له صلاة أربعين يومًا، فمجرد ذهابه إليهم معصية كبيرة، لا تُقبل له صلاة أربعين يومًا عقوبة له على ذهابه إليهم.

﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٧] [١٦].

وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] [١٧].

الخَامس: الذي يُعبد من دون اللَّه وهو راضٍ بالعبادة.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩] [١٨].

---

[١٦] ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٧] سواءٌ كان رسولًا من المَلائكة أو من البشر، فإن اللَّه قد يطلعه على شيء من الغيب لِمصالح العباد، وليكون معجزة للرسول، ويكون مع الرسول رصد من المَلائكة.

[١٧] عنده -جل وعلا- علم الغيب الخاص والعام، الخاص: مفاتح الغيب، هذه لا يعلمها أحد لا ملَك مقرب ولا نبي مرسل، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ﴾ [لقمان: ٣٤]. هذا لا يدري عنه أحد إلا اللَّه -جل وعلا-، هذا فِي الغيب، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ﴾ هذا العلم العام.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] هذا علم اللَّه الشامل لكل شيء، ومع علمه بكل شيء كتب هذه الأشياء فِي اللوح المَحفوظ، علمها أولًا، وأحاط بِهَا، ثُمَّ كتبها فِي اللوح المَحفوظ.

[١٨] بِهذا القيد (وهو راضٍ بالعبادة)، أما الذي يُعبد من دون اللَّه وهو غير راضٍ فهذا لا يُسمى طاغوتًا، يَخرج بذلك المَلائكة والأنبياء والصالِحون، أولياء اللَّه الصالِحون لا يدخلون فِي الطواغيت؛ لأنَّهم لَمْ يرضوا بِهَا، بل كانوا ينهون عنها فِي حياتهم، وإنَّما حصل هذا بعد موتهم وغيبتهم عن الناس.

واعلم أن الإنسان لا يصير مؤمنًا بالله إلا بالكفر بالطاغوت.

والدليل قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٥٦]. الرشد: دين مُحَمَّد ﷺ، والغي: دين أبي جهل، والعروة الوثقى: شهادة أن لا إله إلا الله، وهي متضمنة للنفي والإثبات، تنفي جميع أنواع العبادة عن غير الله تعالى، وتثبت جميع أنواع العبادة كلها لله وحده لا شريك له [١٩].

---

[١٩] والعروة الوثقى هي لا إله إلا الله، تسمى العروة الوثقى، وتسمى كلمة التقوى، وتسمى كلمة الإخلاص.

﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ ما هو الرشد؟ هو دين مُحَمَّد -عليه الصلاة والسلام-، ودين كل الأنبياء، هذا هو الرشد، والغي: دين أبي جهل، ودين جميع الكفار، ولكن ذكر شهادة أن لا إله إلا الله (هي المُتضمنة للنفي والإثبات) النفي في قوله: (لا إله)، والإثبات في قوله: (إلا الله).

(تنفي جميع أنواع العبادات عن غير الله تعالى، وتثبت جميع أنواع العبادة في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له) هذا معنى شهادة أن لا إله إلا الله، أنَّها تنفي العبادة عما سوى الله، وتثبتها لله ﷻ؛ لأنها حق لله، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فالعبادة حق لله، ليس لأحد فيها استحقاق، ليس من حق أحد أن يَعبد غير الله -جل وعلا-.

وصلى الله على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

❊ ❊ ❊

الأسئلة

* سؤال: أثابكم اللَّه، ما حكم من لديه قابلية لِما يُسمى معاديل فِي الأمم المُتحدة؟

الجواب: الحَمد للَّه، اللَّه أغنى المسلمين بالشرع، والمَحاكم موجودة وللَّه الحَمد، ففي كل مقاطعة، وفِي كل مُحافظة، بل فِي كل مدينة من المُدن مَحكمة شرعية، فالواجب التحاكم إلَى شرع اللَّه ﷻ، وترك التحاكم إلَى أعراف القبائل وعادات القبائل سواءٌ يسمونها معاديل أو غير معاديل ما يَجوز هذا.

والإصلاح بينهم بالعدل مع تراضيهم من غير إكراه، ومن غير إجبار إذا رضي الطرفان بالصلح، فالنبي ﷺ يقول: «الصلح جائز بين المسلمين» الصلح عن تراضٍ وفيه عدل: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]. إذا كان الصلح عادلًا ما فيه هوى مع أحد وفيه تراضٍ بين الطرفين لا بأس بذلك، أما إنهم يلزمون بهذه الأحكام الجاهلية، يُلزمون بها ويتحاكمون إليها هذا هو الطاغوت.

* سؤال: أثابكم اللَّه، هل يَجب بغض أهل الكبائر وإن كانوا من الأقارب؟

الجواب: قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]. هل هناك أقرب من الأب؟ ومن الأب والابن، إذا كان عدوًا للَّه تبرأ منه، ولو كان أباك.

* سؤال: أثابكم اللَّه، هل قول البعض: الحَمد للَّه الذي لا يُحمد على مكروه سواه، صحيح؟

الجواب: لا أعرف لِهذا أصلًا، ولكن يقول: الحَمد للَّه على كل حال، أما لا يُحمد على مكروه سواه، أنا ما أعلم لِهذا أصلًا، وإن كان جاريًا على ألسنة بعض الناس.

* سؤال: من هم الصوفية؟ وهل هم موجودون الآن؟

الجواب: أصل الصوفية العُباد الذين اجتهدوا فِي العبادة والزهد، فأصلهم الزهاد الذين يَجتهدون فِي العبادة والزهد والتخلي عن الدنيا، هذا فِي أول الأمر، وكانوا فِي أول الأمر على استقامة، ولكن عملهم هذا وانقطاعهم الانقطاع الشديد هذا ليس بِمحمود، من البداية ليس بِمحمود من كل وجه، ولكن ما كان عندهم شرك، ولا كان عندهم غلو، ولكن فيما بعد تطور التصوف إِلَى أن دخله الشرك، ودخله الكفر، وصاروا يعتقدون أن العارف باللَّه، الذي عرف اللَّه أنه وصل إِلَى اللَّه، وليس بِحاجة إِلَى اتباع الرسول ﷺ، وأنه يأخذ عن اللَّه مباشرة، ويأمرهم وينهاهم ويطيعونه.

ويقولون: المريد مع شيخه مثل الميت مع غاسله، لا يعترض عليه بشيء، يَقبل منه أي شيء يأمره به، تطور التصوف إِلَى هذا الحَد، وهذا بلا شك أنه كفر والعياذ باللَّه، بل تطور إِلَى القول بوحدة الوجود، بأن الكون كله هو اللَّه، وأنه ليس فيه انقسام وأن الذي يقول: الكون فِيه خالق ومَخلوق مشرك، والتوحيد معناه أنك تعتقد أن الكون كله هو اللَّه، وأن كل من عبد شيئًا، فهو قد عبد اللَّه، الذين يعبدون الأصنام، والذين يعبدون الأشجار والأحجار كلهم يعبدون اللَّه؛ لأنَّهم يعبدون شيئًا من هذا الكون، هذا تطور إليه منهج التصوف والعياذ باللَّه عند ابن عربي والحَلاج والتلمساني وابن سبعين وغيرهم من طغاتهم، وصل بِهم الحَد إِلَى هذا الكفر الشنيع.

والصوفية الآن أغلب عباداتهم بدع ما فيها شيء مشروع، يتمشون على البدع، وما يأمرهم به ساداتهم، فإنهم يفعلونه، لا يقولون: الواجب أننا نتبع الرسول ﷺ، يقولون: الرسول للعوام، أما نَحن نتبع الخواص.

ومنهم من يقول: إنه إذا وصل إِلَى حد من المَعرفة فليس عليه تكاليف، لا عليه صلاة ولا صوم ولا حج؛ لأنه وصل ولا يَحرم عليه شيء، لا يَحرم عليه زنا، ولا لواط، لأنه زال عنه التكليف، وقد وصل إِلَى اللَّه، فهل بعد هذا الكفر كفر والعياذ باللَّه؟! هذا منتهى الكفر، وأن مشايخهم يتصرفون فِي الكون، مشايخ الطرق يتصرفون فِي الكون، يُحيون ويُميتون ويعطون ويَمنعون، هذا التصوف وهذا ما آل إليه.

وهكذا الضلال يبدأ أول شيء بِهذا الشكل وبنية حسنة، ثُمَّ يتطور إِلَى أن يَخرج

إِلَى النهاية القبيحة، فزهدهم لَمَّا كان مُخالفًا لطريقة الرسولﷺ تطور إِلَى هذا الحد، أما الذين تَمسكوا بِمَا جاء به الرسولﷺ فِي عباداتهم، الحَمد للَّه ما تغير منهم شيء، ولا حصل منهم مُخالفة؛ لأنَّهم يسيرون على الطريق الصحيح، أما الذي يسير على البدع والمُحدثات، هذه نهايته والعياذ باللَّه.

* سؤال: أثابكم اللَّه، وما هو الفرق بين من غَيَّر حكم اللَّه والذي يَحكم بغير ما أنزل اللَّه؟

الجواب: **كله سواء، ولكن هذا من باب التشنيع عليه؛ لأنه إذا حكم بغير ما أنزل اللَّه فقد غَيَّر حكم اللَّه، وإذا حكم بغير ما أنزل اللَّه فهو جائر؛ لأن العدل فِي حكم اللَّه، والجور فِي غير حكم اللَّه تعالى.**

* سؤال: أثابكم اللَّه، إذا اهتم المسلم بالأركان والأذكار وابتعد عن الفواحش ووسائل الشرك، ولكن ابتلي بالتهاون بالنظر إِلَى المُحرمات وسماع الأغاني؟

الجواب: **هذه كبائر، النظر إِلَى ما حرم اللَّه واستماع ما حرم اللَّه يُعد من الكبائر فعليه التوبة إِلَى اللَّه، ولكن ما يُخرجه ذلك من الدين، ولكن يعتبر عاصيًا وصاحب كبيرة، ولكن إذا تاب إِلَى اللَّه تاب اللَّه عليه.**

* سؤال: سؤال من عبد اللَّه من اليمن، يقول: إن التمائم والتولة شرك، هذا الحَديث، ما هي التمائم وما هي التولة، جزاكم اللَّه خيرًا؟

الجواب: **قالﷺ: «إن الرُّقى والتمائم والتولة شرك» والرقى: المراد بها رقى الجاهلية التي فيها دعاء لغير اللَّه عز وجل، واستغاثة بالجن والشياطين وغير ذلك، هذه شرك مُحرمة؛ لأن فيها دعاء لغير اللَّه، أما الرقى التي من القرآن، أو من الأدعية الشرعية فهذه لا بأس بها.**

والتمائم: ما يُعلق، التمائم كل ما يُعلق على الأبدان أو على المَحلات أو على السيارات لاتقاء العين بزعمهم، فيعلقونها على أبدانهم أو على مُمتلكاتهم يتقون بِهَا العين بزعمهم، فهذا منهي عنه؛ لأنه شرك كما قالﷺ: **«إن الرُّقى والتمائم والتولة شرك»** لأن فيه اعتمادًا على غير اللَّه سبحانه وتعالى فِي رفع البلاء أو دفعه، فهو شرك كما سماه النبيﷺ.

والتولة: شيء يصنعونه يزعمون أنه يُحبب المرأة إلى زوجها أو الزوج إلى امرأته، وهذا من عمل السحرة، كما قال ﷻ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا﴾ لا يعني من السحرة ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾[البقرة: ١٠٢] . هذه هي التولة.

❊ ❊ ❊

(٨)

الرسالة الثامنة

القواعد الأربع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أسأل اللَّه الكريم رب العرش العظيم أن يتولاك فِي الدنيا والآخرة، وأن يَجعلك مباركًا أينما كنت، وأن يَجعلك مِمَّن إذا أُعطي شكر، وإذا ابتُلي صبر، وإذا أذنب استغفر، فإن هؤلاء الثلاث عنوان السعادة[١].

---

[١] هذه «القواعد الأربع» الَّتِي ألّفها شيخُ الإسلام مُحَمَّد بن عبد الوهَّاب رَحِمَهُ اللَّهُ وهي رسالة مستقلَّة، ولكنها تُطبع مع «ثلاثة الأصول» من أجل الحاجة إليها لتكون فِي متناوَل أيدي طلبة العلم.

و(القواعد) جمع قاعدة، والقاعدة هي: الأصل الذي يتفرَّع عنه مسائلُ كثيرة أو فروعٌ كثيرة.

ومضمون هذه القواعد الأربع التي ذكرها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: معرفة التوحيد ومعرفة الشرك.

وما هي القاعدة فِي التوحيد؟ وما هي القاعدة فِي الشرك؟ لأنَّ كثيرًا من الناس يتخبَّطون فِي هذين الأمرين، يتخبَّطون فِي معنى التوحيد ما هو؟ ويتخبَّطون فِي معنى الشرك، كلٌّ يفسِّرهما على حسَب هواه.

ولكن الواجب: أنَّنا نرجع فِي تقعيدنا إِلَى الكتاب والسنَّة، ليكون هذا التقعيد تقعيدًا صحيحًا سليمًا مأخوذًا من كتاب اللَّه وسُنَّة رسوله ﷺ، لاسيَّما فِي هذين الأمرين العظيمين: التوحيد والشرك.

والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمْ يذكر هذه القواعد من عنده أو مِنْ فكره كما يفعل ذلك كثيرٌ من المتخبِّطين، وإنَّما أخذ هذه القواعد من كتاب اللَّه ومن سنَّة رسول اللَّه ﷺ وسيرته.

فإذا عرفت هذه القواعد وفهمتها سهُل عليك بعد ذلك معرفة التوحيد الذي بعث اللَّه به رسله وأنزل به كتبه، ومعرفة الشرك الذي حذَّر اللَّه منه وبيَّن خطره وضرره فِي الدنيا والآخرة.

وهذا أمرٌ مهمٌّ جدًّا، وهو ألزم عليك من معرفة أحكام الصلاة والزكاة والعبادات وسائر الأمور الدينيَّة، لأن هذا هو الأمر الأوَّلي والأساس، لأنَّ الصلاة والزكاة والحج وغيرها من العبادات لا تصحُّ إذا لَمْ تُبنَ على أصل العقيدة الصحيحة، وهي التوحيد الخالص للَّه ﷻ.

وقد قدَّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ لِهذه القواعد الأربع بِمقدِّمة عظيمة فيها الدعاء لطلبة العلم، والتنبيه على ما سيقوله، حيث قال: «**أسأل اللَّه العظيم ربُّ العرش الكريم أن يتولَّاك فِي الدنيا والآخرة، وأن يَجعلك مبارَكًا أينما كنت، وأن يَجعلك مِمَّن إذا أُعطي شكر، وإذا ابتُلي صبر، وإذا أذنب استغفر، فإنّ هذه الثلاث هي عنوان السعادة**».

هذه مقدَّمة عظيمة، فيها دعاءٌ من الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لكلِّ طالبِ علم يتعلَّم عقيدته يريد بذلك الحق، ويريد بذلك تَجنُّب الضلال والشرك، فإنه حَرِيٌّ بأن يتولاه اللَّه فِي الدنيا والآخرة.

وإذا تولَّاه اللَّه فِي الدنيا والآخرة فإنه لا سبيل إِلَى المكاره أن تصل إليه، لا فِي دينه ولا فِي دنياه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فإذا تولَّاك اللَّه أخرجك من الظُّلمات - ظلمات الشرك والكفر والشُّكوك والإلْحَاد- إِلَى نور الإيمَان والعلم النافع والعمل الصالح، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [مُحَمَّد: ١١].

فإذا تولَّاك اللَّه برعايته وبتوفيقه وهدايته فِي الدنيا وفِي الآخرة؛ فإنَّك تسعد سعادة لا شقاء بعدها أبدًا، فِي الدنيا يتولَّاك بالهداية والتوفيق والسير على المنهج السليم، وفِي الآخرة يتولَّاك بأن يُدخلك جنَّته خالدًا مُخلَّدًا فيها لا خوف ولا مرض ولا شقاء ولا كبَر ولا مكارِه، هذه وَلاية اللَّه لعبده المؤمن فِي الدنيا والآخرة.

قال: (وأن يَجعلك مبارَكًا أينما كنت) إذا جعلك اللَّه مباركًا أينما كنت فهذا هو غاية المَطالب، يَجعل اللَّه البركة فِي عمرك، ويَجعل البركة فِي رزقك، ويَجعل البركة فِي علمك، ويَجعل البركة فِي عملك، ويَجعل البركة فِي ذريَّتك، أينما كنت

تصاحبك البركة، أينما توجَّهت، وهذا خيرٌ عظيم، وفضلٌ من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قال: (وأن يَجعلك مِمَّن إذا أُعطيَ شكر) خلاف الذي إذا أُعطي كفر النعمة وبَطِرها، فإنَّ كثيرًا من الناس إذا أُعطوا النعمة كفَروها وأنكروها، وصرفوها فِي غير طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، فصارت سببًا لشقاوتهم، أمَّا مَن يشكُر فإنَّ الله يزيده: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

والله -جل وعلا- يزيد الشَّاكرين من فضلهِ وإحسانه، فإذا أردت المزيد من النعم فاشكر الله عَزَّ وَجَلَّ، وإذا أردت زوال النعم فاكفُرها.

قال: (وإذا ابتُلي صبر) الله -جل وعلا- يبتلي العباد، يبتليهم بالمصائب، يبتليهم بالمكاره، يبتليهم بالأعداء من الكفَّار والمُنافقين، فيحتاجون إلى الصبر وعدم اليأس وعدم القنوط من رحمة الله، ويَثبُتون على دينهم، ولا يتزحزحون مع الفِتَن، أو يستسلمون للفتن، بل يَثبُتون على دينهم، ويصبرون على ما يقاسون من الأتعاب فِي سبيلها، بِخلاف الذي إذا ابتُلي جزع وتسخَّط وقنِط من رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ فهذا يُزاد ابتلاءً إلى ابتلاء ومصائب إلى مصائب، قال ﷺ: «**إنَّ الله إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فعليه السخط**»[(١)].

«**وأعظم الناس بلاءً: الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل**»[(٢)]، ابتُلي الرسل، وابتُلي الصدِّيقون، وابتُلي الشهداء، وابتُلي عباد الله المُؤمنون، لكنهم صبروا، أما

---

(١) أخرجه الترمذي فِي الزهد، باب ما جاء فِي الصبر على البلاء (٤/ ٦٠١)، وابن ماجه فِي الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم (٤٠٣١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
وقال الترمذي: «هذا حديثٌ غريبٌ».
وأخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨) من حديث مَحمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) قطعةٌ من حديث أخرجه الترمذي فِي الزهد، باب ما جاء فِي الصبر على البلاء (٤/ ٦٠١-٦٠٢)، وابن ماجه فِي الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم (٤٠٢٣)، وأحمد (١/ ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥)، والدارمي (٢/ ٣٢٠)، وابن حبّان فِي صحيحه (٧/ ١٣١- الإحسان)، والحاكم (١/ ٤١)، والبيهقي (٣/ ٣٧٢).
وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

اعلم -أرشدك اللَّه لطاعته- :
أن الحَنيفية ملة إبراهيم أن تعبد اللَّه مُخلصًا له الدين .

المُنافق فقد قال اللَّه فيه : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ﴾ يعني : طرف ﴿فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

فالدنيا ليست دائمًا نعيمًا وترَفًا ومَلذّاتٍ وسُرورًا ونصرًا، ليست دائمًا هكذا، اللَّه يداوِلُها بين العباد، الصحابة أفضل الأمة ماذا جرى عليهم من الابتلاء والامتحان؟، قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فلْيُوَطِّنِ العبدُ نفسه أنه إذا ابتُلي فإنّ هذا ليس خاصًّا به، فهذا سبق لأولياء اللَّه، فيوطِّن نفسه ويصبِر وينتظر الفرج من اللَّه تعالى، والعاقبة للمتَّقين.

قال: (وإذا أذنب استغفر) أمَّا الذي إذا أذنب لا يستغفر ويستزيد من الذنوب فهذا شقي -والعياذ باللَّه-، لكن العبد المُؤمن كلَّما صدر منه ذنب بادر بالتوبة ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ [النساء: ١٧]، والجَهالة ليس معناها عدم العلم، لأن الجاهل لا يؤاخَذ، لكن الجَهالة هنا هي ضدُّ الحِلْم، فكلُّ مَنْ عصى اللَّه فهو جاهل بِمعنى ناقص الحِلْم، وناقص العقليَّة، وناقص الإنسانيَّة، وقد يكون عالِمًا لكنه جاهل من ناحية أخرى، من ناحية أنه ليس عنده حِلم ولا ثبات فِي الأمور: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ يعنِي: كلَّما أذنبوا استغفروا، ما هناك أحد معصوم من الذنوب، ولكن الحَمد للَّه أنَّ اللَّه فتح باب التوبة، فعلى العبد إذا أذنب أن يُبادِر بالتوبة، لكن إذا لَم يتب ولَم يستغفر فهذه علامةُ الشقاء.

وقد يقنط من رحمة اللَّه ويأتيه الشيطان ويقول له: ليس لك توبة.

هذه الأمور الثلاث: إذا أُعطي شكر، وإذا ابْتُلي صبر، وإذا أذنب استغفر هي عنوان السعادة، مَنْ وُفِّق لَها نال السعادة، ومن حُرِم منها -أو من بعضها- فإنَّه شقيٌّ.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] [٢].

---

[٢] (اعلم أرشدك اللَّه) هذا دعاء من الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهكذا ينبغي للمعلم أن يدعو للمتعلم.

وطاعة اللَّه معناها: امتثال أوامره واجتناب نواهيه.

(أن الحَنيفيَّة ملة إبراهيم) اللَّه -جل وعلا- أمر نبيِّنا باتِّباع ملَّة إبراهيم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

الحَنيفيَّة: ملة الحَنيف وهو إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، والحَنيف هو: المقبل على اللَّه المُعرض عمَّا سواه، هذا هو الحَنيف: المُقبل على اللَّه بقلبه وأعماله ونيَّاته ومقاصِده كلِّها للَّه، المُعرِض عمَّا سواه، واللَّه أمرنا باتِّباع ملَّة إبراهيم: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾ [الحج: ٧٨].

وملة إبراهيم: (أن تعبد اللَّه وحده مخلصًا له الدين) هذه الحَنيفيَّة، ما قال: (أن تعبد اللَّه) فقط، بل قال: «مُخلصًا له الدين» يعني: وتَجتنب الشرك، لأنّ العبادة إذا خالطها الشرك بطلت، فلا تكون عبادة إلَّا إذا كانت سالِمةً من الشرك الأكبر والأصغر.

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥] جمع: حنيف، وهو: المُخلص للَّه عَزَّوَجَلَّ.

وهذه العبادة أمر اللَّه بها جميع الخَلْق (كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦])، ومعنى يعبدون: يُفْرِدوني بالعبادة، فالحكمة من خلق الخلق: أنهم يعبدون اللَّه عَزَّوَجَلَّ مخلصين له الدين، منهم من امتثل ومنهم من لَم يَمتثل، لكن الحكمة من خلقهم هي هذه، فالذي يعبُد غيرَ اللَّه مُخالِف للحكمة من خلق الخلق، ومُخالف للأمر والشرع.

وإبراهيم هو: أبو الأنبياء الذين جاءوا من بعده، فكلُّهم من ذريّته، ولِهذا قال -جل وعلا-: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فكلهم من بني إسرائيل -حفيد إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ-، إلا مُحمدًا ﷺ فإنه من ذرِّية إسماعيل، فكلٌّ

فإذا عرفت أن اللَّه خلقك لعبادته؛ فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد.

كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة.

فإذا دخل الشرك فِي العبادة فسدت، كالحَدث إذا دخل فِي الطهارة[٣].

الأنبياء من أبناء إبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، تكريمًا له.

وجعله اللَّه إمامًا للناس -يعني: قدوة- ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]. يعني: قدوة ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠] يعني: إمامًا يُقتدى به.

وبذلك أمر اللَّه جميع الخَلق، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فإبراهيم دعا الناس إِلَى عبادة اللَّه ﷻ كغيره من النبيِّين، كلُّ الأنبياء دعوا الناس إِلَى عبادة اللَّه وترْك عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وأما الشرائع الَّتِي هي الأوامر والنواهي والحلال والحرام فهذه تَختلف باختلاف الأمم حسب الحاجات، يشرع اللَّه شريعة ثُمَّ ينسخها بشريعة أخرى إِلَى أنْ جاءت شريعة الإسلام فنسخت جميع الشرائع وبقِيَتْ هي إِلَى أنْ تقوم السَّاعة، أما أصل دين الأنبياء -وهو التوحيد- فهو لَمْ يُنسخ ولن يُنسخ، دينهم واحد وهو دين الإسلام بِمعنى: الإخلاص للَّه بالتوحيد.

أما الشرائع فقد تَختلف، تُنسخ، لكن التوحيد والعقيدة من آدم إِلَى آخر الأنبياء كلهم يدعون إِلَى التوحيد وإلى عبادة اللَّه.

وعبادة اللَّه: طاعته فِي كلِّ وقت بِمَا أمر به من الشرائع، فإذا نسخت صار العمل بالناسخ هو العبادة، والعمل بالمنسوخ ليس عبادة للَّه.

[٣] (فإذا عرفتَ أن اللَّه خلقك لعبادته) يعني: إذا عرفت من هذه الآية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وأنت من الإنس، داخلٌ فِي هذه الآية، وعرفت أن اللَّه ما خلقك عبثًا، أو خلقك لتأكل وتشرب فقط، تعيش فِي هذه الدنيا وتَسْرَحْ وتَمْرَحْ، لَم يَخلقك لِهذا، خلقك اللَّه لعبادته، وإنَّما سخَّر لك هذه

المَوجودات من أجل أن تستعين بها على عبادته، لأنَّك لا تستطيع أن تعيش إلا بهذه الأشياء، ولا تتوصَّل إلى عبادة اللَّه إلا بهذه الأشياء، سخَّرها اللَّه لك لأجل أنْ تعبده، ليس من أجل أن تفرح بها وتسرح وتَمْرَحْ وتفسُق وتفجُر تأكل وتشرب ما اشتهيت، هذا شأن البهائم، أمَّا الآدميُّون فاللَّه -جل وعلا- خلقهم لغايةٍ عظيمة وحكمة عظيمة وهي العبادة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٧]، اللَّه ما خلقك لتكتسب له، أن تَحترف وتَجمع له مالًا، كما يفعل بنو آدم بعضهم لبعض يَجعلون عُمَّالًا يَجمعون لَهم المَكاسب، لا، اللَّه غني عن هذا، واللَّه غني عن العالَمين، ولِهذا قال: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٧] اللَّه -جل وعلا- يُطعِم ولا يُطعَم، غنيٌّ عن الطعام، وغني -جل وعلا- بذاته، وليس هو فِي حاجة إلى عبادتك، لو كفرت ما نقصتَ ملك اللَّه، ولكن أنت الذي بِحاجة إليه، أنت الذي بِحاجة إلَى العبادة، فمن رحمته: أنه أمرك بعبادته من أجل مصلحتك، لأنَّك إذا عبدته فإنه ﷻ يُكرِمُك بالجزاء والثواب، فالعبادة سببٌ لإكرام اللَّه لك فِي الدنيا والآخرة، فمن الذي يستفيد من العبادة؟ المستفيد من العبادة هو العابِد نفسه، أما اللَّه -جل وعلا- فإنَّه غنيٌّ عن خلقه.

قال: (فاعلم: أن العبادة لا تسمَّى عبادة إلَّا مع التوحيد، كما أنَّ الصلاة لا تسمّى صلاةً إلا مع الطهارة).

إذا عرفت أن اللَّه خلقك لعبادته فإن العبادة لا تكون صحيحة يرضاها اللَّه ﷻ إلا إذا توفَّر فيها شرطان، إذا اختلَّ شرطٌ من الشرطين بطلت:

الشرط الأوّل: أنْ تكون خالِصة لوجه اللَّه، ليس فيها شرك. فإنْ خالطها شركٌ بطلت، مثْل الطهارة إذا خالطها حدث بطلت، كذلك إذا عبدت اللَّه ثُمَّ أشركت به بطلت عبادتك. هذا الشرط الأوَّل.

الشرط الثاني: المُتابَعة للرسول ﷺ، فأيُّ عبادة لَمْ يأتِ بِهَا الرسول فإنّها باطلة ومرفوضة، لأنَّها بدعة وخُرافة، ولِهذا يقول ﷺ: «**مَنْ عمِل عملًا ليس**

فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخَالدين فِي النار عرفت أن أهم ما عليك معرفة ذلك، لعلَّ اللَّه أن يُخلصك من هذه الشبكة، وهي الشرك باللَّه.

الذي قال اللَّه تعالَى فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]. وذلك بِمعرفة أربع قواعد ذكرها اللَّه تعالَى فِي كتابه [٤]:

عليه أمرُنا فهو رَدٌّ»(١)، وفِي رواية: «مَنْ أحدَث فِي أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَدّ»(٢)، فلابدَّ أنْ تكون العبادة موافقة لِمَا جاء به الرسول ﷺ، لا باستحسانات الناس ونيَّاتهم ومقاصدهم ما دام أنَّها لَمْ يدل عليها دليل من الشرع فهي بدعة ولا تنفع صاحبها بل تضره لأنها معصية، وإنْ زعم أنه تقرب بِهَا إِلَى اللَّه ﷻ.

فلابد فِي العبادة من هذين الشرطين: الإخلاص، والمُتابعة للرسول ﷺ حَتَّى تكون عبادة صحيحة نافعة لصاحبها، فإنْ دخلها شركٌ بطلتْ، وإذا صارت مبتدَعة ليس عليها دليل فهي باطلة أيضًا، بدون هذين الشرطين لا فائدة من العبادة، لأنها على غير ما شرع اللَّه ﷻ، واللَّه لا يقبل إلا ما شَرع فِي كتابه أو على لسان رسوله ﷺ.

فلا هناك أحد من الخَلق يَجب اتباعه إلَّا الرسول ﷺ، أما ما عدا الرسول فإنه يُتْبَع ويُطاع إذا اتبع الرسول، أما إذا خالف الرّسول فلا طاعة، يقول اللَّه تعالَى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، وأولو الأمر هم: الأمراء والعلماء، فإذا أطاعوا اللَّه وجبتْ طاعتهم واتّباعهم، أما إذا خالفوا أمر اللَّه فإنها لا تَجوز طاعتهم ولا اتباعُهم فيما خالفوا فيه، لأنه ليس هناك أحدٌ يُطاع استقلالًا من الخَلق إلا رسول اللَّه ﷺ، وما عداه فإنَّه يُطاع ويُتّبَع إذا أطاع الرسول ﷺ واتبَع الرسول، هذه هي العبادة الصحيحة.

[٤] (فإذا عرفتَ أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل، وصار

---

(١) أخرجه مسلم رقم: (١٧١٨) فِي الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، من حديث عائشة ﵂.

(٢) أخرجه البخاري رقم: (٢٦٩٧) فِي الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، ومسلم رقم: (١٧١٨)، من حديث عائشة ﵂.

القاعدة الأولَى: أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول اللَّه ﷺ مقرون بأن اللَّه تعالى هو الخَالق المُدبر، وأن ذلك لَم يدخلهم فِي الإسلام، والدليل قوله تعالَى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١] [٥].

صاحبه من الخالدين فِي النار...) أي: ما دام أنك عرفتَ التوحيد وهو: إفراد اللَّه بالعبادة، يَجب أن تعرف ما هو الشرك، لأنّ الذي لا يعرف الشيء يقع فيه، فلابد أنك تعرف أنواع الشرك من أجل أن تتجنبها، لأن اللَّه حذَّر من الشرك وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، فهذا الشرك الذي هذا خطرُه، وهو أنه يَحْرِمُ من الجنَّة: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]، ويَحْرِمُ من المَغفرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾.

إذن؛ هذا خطرٌ عظيم، يَجب عليك أن تعرفه قبل أيّ خطر، لأن الشرك ضلّت فيه أفهام وعُقول؛ لنعرف ما هو الشرك من الكتاب والسنة، اللَّه ما حذر من شيء إلا وبيّنه، وما أمَر بشيء إلا ويُبينه للناس، فهو لن يُحرِّم الشرك ويتركه مجمَلًا، بل بينه فِي القرآن العظيم وبينه الرسول ﷺ فِي السنَّة، بيانًا شافيًا، فإذا أردنا أن نعرف ما هو الشرك نرجع إلَى الكتاب والسنة حَتَّى نعرف الشرك، ولا نرجع إلَى قول فلان. وهذا سيأتي.

[٥] القاعدة الأولى: أن تعرف أن الكفَّار الذين قاتلهم رسول اللَّه ﷺ كانوا مقرِّين بتوحيد الربوبيَّة، ومع ذلك إقرارهم بتوحيد الربوبية لَمْ يُدخلهم فِي الإسلام، ولَم يحرِّم دماءهم ولا أموالهم.

فدلّ على أنّ التوحيد ليس هو الإقرار بالربوبيَّة فقط، وأنّ الشرك ليس هو الشرك فِي الربوبيَّة فقط، بل ليس هناك أحدٌ أشرك فِي الربوبيَّة إلا شواذ من الخلق، وإلَّا فكل الأمم تُقِرّ بتوحيد الربوبية.

وتوحيد الربوبية هو: الإقرار بأنّ اللَّه هو الخالق الرازق المُحيي المُميت المُدبر، أو بعبارة أخصر: توحيد الربوبية هو: إفراد اللَّه تعالى بأفعاله ﷻ.

القاعدة الثانية: أنهم يقولون: ما دعوناهم وتوجهنا إليهم إلا لطلب القربة والشفاعة.

فدليل القربة: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا

فلا أحد من الخلق ادّعى أنّ هناك أحدًا يَخلُق مع اللّه تعالى، أو يرزق مع اللّه، أو يحيي أو يُميت، بل المُشركون مقرّون بأنّ اللّه هو الخالق الرازق المُحيي المُميت المُدبّر: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٦ - ٨٧]، اقرءوا الآيات من آخر سورة «المُؤمنون» تَجدون أنّ المُشركين كانوا مقرّين بتوحيد الربوبيّة، وكذلك فِي سورة يونس ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]، فهم مقرّون بِهذا.

فليس التوحيد هو الإقرار بتوحيد الربوبيّة كما يقول ذلك علماءُ الكلام والنظار فِي عقائدهم، فإنّهم يقرّرون بأنّ التوحيد هو الإقرار بأن اللّه هو الخالق الرازق المُحيي المُميت، فيقولون: «واحد فِي ذاته لا قسيم له، واحد فِي صفاته لا شبيه له، واحدٌ فِي أفعاله لا شريك له» وهذا هو توحيد الربوبيّة، ارجعوا إِلَى أيّ كتاب من كتب علماء الكلام تَجدوهم لا يَخرجون عن توحيد الربوبيّة، وهذا ليس هو التوحيد الذي بعث اللّه به الرسل، والإقرار بِهذا وحده لا ينفع صاحبه، لأنّ هذا أقرّ به المُشركون وصناديد الكَفَرة، ولَم يُخرجهم من الكفر، ولَم يُدخلهم فِي الإسلام، فهذا غلطٌ عظيم، فمن اعتقد هذا الاعتقاد ما زاد على اعتقاد أبِي جهل وأبِي لهب، فالذي عليه الآن بعض المثقّفين هو تقرير توحيد الربوبية فقط، ولا يتطرّقون إِلَى توحيد الألوهيّة، وهذا غلطٌ عظيم فِي مسمّى التوحيد.

وأما الشرك فيقولون: «هو أن تعتقد أنّ أحدًا يخلُق مع اللّه أو يرزق مع اللّه»، نقول: هذا ما قاله أبو جهل وأبو لَهب، ما قالوا: إن أحدًا يَخلُق مع اللّه، ويرزُق مع اللّه؛ بل هم مقرّون بأن اللّه هو الخالق الرازق المُحيي المُميت.

لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣] [٦].

---

[٦] القاعدة الثانية: أن المُشركين الذين سمَّاهم اللَّه مشركين وحكم عليهم بالخُلود فِي النار، لَمْ يشركوا فِي الربوبيَّة وإنَّما أشركوا فِي الألوهية، فهم لا يقولون إنّ آلهتهم تَخلق وترزُق مع اللَّه، وأنهم ينفعون أو يضرّون أو يدبّرون مع اللَّه، وإنَّما اتَّخذوهم شفعاء، كما قال اللَّه تعالى عنهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ هم معترفون بِهذا، إنهم لا ينفعون ولا يضرّون، وإنَّما اتّخذوهم شفعاء، يعني: وُسطاء عند اللَّه فِي قضاء حوائجهم، يذبَحون لَهم، وينذرون لَهم، لا لأنّهم يَخلقون أو يرزقون أو ينفعون أو يضرّون فِي اعتقادهم، وإنَّما لأنَّهم يتوسّطون لَهم عند اللَّه، ويشفعون عند اللَّه، هذه عقيدة المُشركين.

وأنت لَمَّا تناقش الآن قبوريًّا من القبوريّين يقول هذه المَقالة سواءً بسواء، يقول: أنا أدري أنّ هذا الوليّ أو هذا الرجل الصالح لا يضر ولا ينفع، ولكن هو رجلٌ صالح وأُريد منه الشفاعة لي عند اللَّه.

والشفاعة فيها حقّ وفيها باطل، الشفاعة الَّتِي هي حقّ وصحيحة هي ما توفّر فيها شرطان:

الشرط الأوّل: أن تكون بإذن اللَّه.

والشرط الثاني: أن يكون المشفوع فيه من أهل التوحيد، أي: من عُصاة المُوحدين.

فإنِ اختلّ شرطٌ من الشرطين فالشفاعة باطلة، قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وهم عُصاة المُوحّدين، أما الكفَّار والمُشركون فما تنفعهم شفاعة الشافعين: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

فهؤلاء سمعوا بالشفاعة ولا عرفوا معناها، وراحوا يطلبونها من هؤلاء بدون

ودليل الشفاعة: قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

والشفاعة شفاعتان: شفاعة منفية، وشفاعة مثبتة.

فالشفاعة المَنفية: ما كانت تطلب من غير اللَّه فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه، والدليل قوله تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] [٧].

والشفاعة المُثبتة هي: التي تُطلَب من اللَّه.

والشافع مكرم بالشفاعة، والمَشفوع له هو من رضي اللَّه قوله وعمله بعد الإذن، كما قال تعالَى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] [٨].

إذن اللَّه ﷻ، بل طلبوها لِمن هو مشركٌ باللَّه لا تنفعه شفاعة الشافعين، فهؤلاء يَجهلون معنى الشفاعة الحَقَّة والشفاعة الباطلة.

[٧] الشفاعة لَها شروط ولَها قُيود، ليست مطلَقة.

فالشفاعة شفاعتان: شفاعة نفاها اللَّه -جل وعلا-، وهي الشفاعة بغير إذنه سبحانه وتعالى، فلا يشفع أحد عند اللَّه إلَّا بإذنه، وأفضل الخلق وخاتم النبيين مُحَمَّد ﷺ إذا أراد أن يشفع لأهل المَوقف يوم القيامة يَخرّ ساجدًا بين يدي ربّه ويدعوه ويَحمدُه ويُثني عليه، ولا يزال ساجدًا حَتَّى يُقال له: «ارفع رأسك، وقل تُسْمَعْ، واشفع تُشفَّعْ»(١)، فلا يشفع إلا بعد الإذن.

[٨] والشفاعة المُثبتة: هي الَّتِي تكون لأهل التوحيد، فالمشرك لا تنفعه شفاعة، والذي يقدِّم القرابين للقبور والنذور للقبور هذا مشرك لا تنفعه الشفاعة.

وخلاصة القول: أن الشفاعة المَنفية هي الَّتِي تطلب بغير إذن اللَّه، أو تطلب لِمشرك.

---

(١) قطعةٌ من حديث طويل أخرجه البخاري رقم (٧٥١٠)، فِي التوحيد، باب كلام الربّ L يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، ومسلم رقم (١٩٣) فِي الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

والقاعدة الثالثة: أن النبي ﷺ ظهر على أناس متفرقين فِي عباداتِهم: منهم من يعبد المَلائكة؛ ومنهم من يعبد الأنبياء والصالِحين؛ ومنهم من يعبد الأحجار والأشجار؛ ومنهم من يعبد الشمس والقمر، وقاتلهم رسول اللَّه ﷺ ولَم يفرق بينهم [٩].

والشفاعة المُثبتة: هي الَّتِي تكون بعد إذن اللَّه، ولأهل التوحيد.

[٩] القاعدة الثالثة: أنَّ النَّبِي ﷺ بُعث إِلَى أُناسٍ من المُشركين، منهم مَنْ يعبُد المَلائكة، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأصنام والأحجار والأشجار، ومنهم من يعبد الأولياء والصالِحين.

وهذا من قبح الشرك أنّ أصحابه لا يَجتمعون على شيء واحد، بِخلاف المُوحّدين فإنّ معبودهم واحد ﷻ: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠].

فمن سلبيَّات الشرك وأباطيله: أنّ أهله متفرّقون فِي عباداتهم لا يَجمعهم ضابط، لأنّهم لا يسيرون على أصل، وإنَّما يسيرون على أهوائهم ودعايات المُضللين، فتكثُر تفرّقاتهم: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩]، فالذي يعبد اللَّه وحده مثل المَملوك الذي يُعبِّده شخص واحد يرتاح معه، يعرف مقاصده ويعرف مطالبه ويرتاح معه، لكن المشرك مثل الذي له عدَّة مالكين، ما يدري مَنْ يُرضي منهم، كلّ واحد له هوى، وكلّ واحد له طلب، وكل واحد له رغبة، كل واحد يريده أن يأتي عنده، ولِهذا قال سبحانه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾ يعني: يَملكه عدَّة أشخاص، لا يدري مَن يُرضي منهم، ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ مالكه شخص واحد، هذا يرتاح معه، هذا مَثَلٌ ضربه اللَّه للمشرك وللموحّد.

فالمشركون متفرّقون فِي عباداتهم، والنبِي ﷺ قاتلهم ولَم يفرِّق بينهم، قاتل الوثنيين، وقاتل اليهود والنصارى، وقاتل المَجوس، قاتل جميع المُشركين، وقاتل الذين يعبدون المَلائكة، والذين يعبدون الأولياء الصالِحين، لَمْ يفرِّق بينهم.

والدليل: قوله تعالَى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] [١٠].

فهذا فيه ردٌّ على الذين يقولون: الذين يعبد الصنم ليس مثل الذي يعبد رجلًا صالحًا ومَلَكًا من المَلائكة، لأنّ هؤلاء يعبدون أحجارًا وأشجارًا، ويعبدون جمادات، أما الذي يعبد رجلًا صالِحًا ووليًّا من أولياء اللَّه ليس مثل الذي يعبد الأصنام.

ويريدون بذلك أن الذي يعبد القبور الآن يَختلف حكمه عن الذي يعبد الأصنام، فلا يكفر، ولا يعتبر عمله هذا شركًا، ولا يَجوز قتاله.

فنقول: الرسول لَمْ يفرّق بينهم، بل اعتبرهم مشركين كلّهم، واستحلّ دماءهم وأموالَهم، ولَم يفرِّق بينهم، والذين يعبدون المَسيح، والمَسيح رسول اللَّه، ومع هذا قاتلهم، واليهود يعبدون عُزيرًا، وهو من أنبيائهم، أو من صالِحيهم، قاتلهم رسول اللَّه ﷺ، لَمْ يفرّق بينهم.

فالشرك لا تفريق فيه بين مَنْ يعبُد رجلًا صالِحًا أو يعبُد صنمًا أو حجرًا أو شجرًا، لأن الشرك هو: عبادة غير اللَّه كائنًا مَنْ كان، ولِهذا يقول: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، وكلمة ﴿شَيْـًٔا﴾ نكرة فِي سياق النهي تعمُّ كلَّ شيء، تعمّ كل مَنْ أُشرك مع اللَّه ﷻ من المَلائكة والرسل والصالِحين والأولياء، والأحجار والأشجار.

[١٠] قوله: (والدليل قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾) أي: الدليل على قتال المُشركين من غير تفريق بينهم حسب معبوداتهم؛ قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ﴾، وهذا عامّ لكل المُشركين، لَمْ يستثن أحدًا، ثُمَّ قال: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ والفتنة: الشرك، أي: لا يوجد شرك، وهذا عامّ، أي شرك، سواءً الشرك فِي الأولياء والصالِحين، أو بالأحجار، أو بالأشجار، أو بالشمس، أو بالقمر.

﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾: تكون العبادة كلها للَّه، ليس فيها شَرِكَةٌ لأحد كائنًا مَنْ كان، فلا فرق بين الشرك بالأولياء والصالِحين، أو بالأحجار أو بالأشجار، أو بالشياطين أو غيرهم.

ودليل الشمس والقمر: قوله تعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ [فصلت: ٣٧] [١١].

ودليل المَلائكة: قوله تعالَى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ﴾ [آل عمران: ٨٠] [١٢].

ودليل الأنبياء: قوله تعالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦] [١٣].

---

[١١] دلّ على أنّ هناك مَن يسجُد للشمس والقمر، ولِهذا نهى الرسول ﷺ عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها[١] سدًّا للذريعة، لأنّ هناك مَن يسجُد للشمس عند طلوعها ويسجد لَها عند غروبها، فنهينا أنْ نصليَ فِي هذين الوقتين، وإن كانت الصلاة للّه، لكن لَمَّا كان فِي الصلاة فِي هذا الوقت مشابهة لفعل المُشركين مُنِعَ من ذلك سدًّا للذريعة الَّتِي تُفضي إِلَى الشرك، والرسول ﷺ جاء بالنهي عن الشرك وسدّ ذرائعه المُفضية إليه[٢].

[١٢] قوله: (ودليل الملائكة... إلخ) دلّ على أنّ هناك مَنْ عَبد المَلائكة والنبيّين، وأن ذلك شرك.

وعبَّاد القبور اليوم يقولون: الذي يعبد المَلائكة والنبيّين والصالحين ليس بكافر.

[١٣] وقوله: (ودليل الأنبياء .... إلخ) هذا فيه دليل على أن عبادة الأنبياء شرك مثل عبادة الأصنام.

ففيه ردٌّ على من فرَّق فِي ذلك من عبَّاد القبور.

---

(١) كما فِي حديث عبد اللّه بن عمر ﭭ: أنّ رسول اللّه A قال: «لا يتحرّى أحدُكم، فيصلِّي عند طلوع الشمس، ولا عند غروبها».
أخرجه البخاري رقم (٥٨٥) فِي المَواقيت، باب لا يتحرّى الصلاة قبل غروب الشمس، ومسلم رقم (٨٢٨) فِي المَساجد، باب الأوقات التي نهي عن الصلاة فيها.

(٢) انظر: فتح المَجيد لشرح كتاب التوحيد (٢/ ٨٣٥-٨٣٩).

ودليل الصالِحين: قوله تعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧] الآية [١٤].

فهذا فيه ردّ على هؤلاء الذين يقولون: إن الشرك عبادة الأصنام، ولا يسوَّى عندهم بين مَن عبد الأصنام وبين مَن عبد وليًّا أو رجلًا صالحًا، وينكرون التسوية بين هؤلاء، ويزعمون أنّ الشرك مقصورٌ على عبادة الأصنام فقط، وهذا من المُغالَطة الواضحة من ناحيتين:

الناحية الأولى: أنّ اللَّه -جل وعلا- فِي القرآن أنكر على الجميع، وأمر بقتال الجميع.

الناحية الثانية: أنَّ النَّبِي ﷺ لَمْ يفرِّق بين عابِدِ صنمٍ وعابِد ملَك أو رجل صالح.

[١٤] (ودليل الصالحين) يعني: أنّ هناك مَن عبد الصالِحين من البشر: قوله تعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾.

قيل: نزلت هذه الآية فيمن يعبد المَسيح وأمّه وعُزيرًا، فأخبر سبحانه أنّ المَسيح وأمه مريم، وعُزيرًا كلهم عبادٌ للّه، يتقرّبون إِلَى اللّه ويرجون رحمته ويَخافون عذابه، فهم عبادٌ مُحتاجون إِلَى اللَّه مفتقرون إليه يدعونه ويتوسّلون إليه بالطّاعة ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾، يعني: القُرب منه -سبحانه- بطاعته وعبادته، فدلّ على أنَّهم لا يصلُحون للعبادة لأنّهم بشرٌ مُحتاجون، فقراء، يدعون اللَّه، ويرجون رحمته، ويَخافون عذابه، ومَن كان كذلك لا يصلُح أن يُعبد مع اللَّه عز وجل.

والقول الثاني: أنَّها نزلت فِي أُناسٍ من المُشركين كانوا يعبدون نفرًا من الجن، فأسلم الجن ولَم يعلم هؤلاء الذين يعبدونهم بإسلامهم، وصاروا يتقرّبون إِلَى اللَّه بالطاعة والضَّراعة ويرجون رحمته ويَخافون عذابه، فهم عبادٌ مُحتاجون فقراء لا يصلُحون للعبادة.

وأيًّا كان المُراد بالآية الكريمة؛ فإنّها تدلّ على أنه لا يَجوز عبادة الصالِحين،

سواءً كانوا من الأنبياء والصدِّيقين، أو من الأولياء والصالِحين، فلا تَجوز عبادتهم، لأنّ الكُل عبادٌ للّه فقراء إليه، فكيف يُعبدون مع اللّه -جل وعلا-؟!

والوسيلة معناها: الطاعة والقُرب، فهي فِي اللغة: الشيء الذي يوصِّل إلَى المَقصود. فالذي يوصِّل إلَى رضا اللّه وجنته هو الوسيلة إلَى اللّه، هذه هي الوسيلة المَشروعة فِي قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾[المائدة: ٣٥].

أما المُحرِّفون المخرِّفون فيقولون: الوسيلة: أنْ تَجعل بينك وبين اللّه واسطة من الأولياء والصالِحين والأموات، تَجعلهم واسطة بينك وبين اللّه ليقرِّبوك إلَى اللّه ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر: ٣]، فمعنى الوسيلة عند هؤلاء المخرّفين: أن تَجعل بينك وبين اللّه واسطة تُعرِّف اللّه بك وتنقُل له حاجاتك وتُخبره عنك، كأنّ اللّه -جل وعلا- لا يعلم، أو كأن اللّه -جل وعلا- بَخيل لا يعطي إلَّا بعدما يلحّ عليه بالوسائط -تعالى اللّه عمَّا يقولون-.

ولهذا يُشبِّهون على النَّاس ويقولون: اللّه -جل وعلا- يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ فدلّ على أنّ اتّخاذ الوسائط من الخَلق إلَى اللّه أمرٌ مشروع؛ لأنّ اللّه أثنى على أهله، وفِي الآية الأخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ﴾[المائدة: ٣٥].

قالوا: إن اللّه أمرنا أن نتّخذ الوسيلة إليه، والوسيلة معناها: الواسطة، هكذا يُحرّفون الكَلِم عن مواضعه، فالوسيلة المَشروعة فِي القرآن وفِي السنة هي: الطاعة الَّتِي تقرِّب إلَى اللّه، والتوسُّل إليه بأسمائه وصفاته ﷻ. هذه هي الوسيلة المَشروعة.

أما التوسُّل بالمخلوقين إلَى اللّه فهو وسيلةٌ مَمنوعة، ووسيلة شركيَّة، وهي الَّتِي اتَّخذها المُشركون من قبل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾[يونس: ١٨]، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر: ٣]، هذا هو شرك الأوّلين والآخرين سواء بسواء، وإنْ سمّوه وسيلة فهو الشرك بعينه، وليس هو الوسيلة الَّتِي شرعها اللّه ﷻ،

ودليل الأحجار والأشجار: قوله تعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩-٢٠] [١٥].

لأنّ اللَّه لَمْ يَجعل الشرك وسيلة إليه أبدًا، وإنَّما الشرك مُبْعِدٌ عن اللَّه ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]. فكيف يُجعل الشرك وسيلة إِلَى اللَّه؟!! تعالى اللَّه عمَّا يقولون.

الشَّاهد من الآية: أنّ فيها دليلًا على أنّ هناك من المُشركين مَن يعبد الصالحين، لأنّ اللَّه بيّن ذلك، وبيّن أن هؤلاء الذين تعبدونهم هم عبادٌ فقراء ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ يعني: يتقرّبون إليه بالطَّاعة ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ يتسابقون إِلَى اللَّه -جل وعلا- بالعبادة لفقرهم إِلَى اللَّه وحاجتهم ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ ومَن كان كذلك فإنّه لا يصلُح أن يكون إلَهًا يُدعى ويُعبد مع اللَّه ﷻ.

[١٥] قوله: (ودليل الأحجار والأشجار.... إلخ) فِي هذه الآية دليل أنّ هناك مَن يعبد الأحجار والأشجار من المُشركين.

فقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ هذا استفهام إنكار، أي: أخبروني، من باب استفهام الإنكار والتوبيخ.

﴿ٱللَّٰتَ﴾ -بتخفيف التاء-: اسمُ صنمٍ فِي الطائف، وهو عبارة عن صخرة منقوشة، عليها بيتٌ مبني، وعليه ستائر، يضاهي الكعبة، وحوله ساحة، وعنده سَدَنَة، كانوا يعبدونها من دون اللَّه ﷻ، وهي لثقيف وما والاهم من القبائل، يفاخِرون بِهَا.

وقُرئ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّاتَّ﴾ -بتشديد التاء- اسم فاعل من (لَتَّ يلُتُّ)، وهو: رجلٌ صالح كان يلُتُّ السَّويق ويُطعمه للحُجَّاج، فلمَّا مات بنوا على قبره بيتًا، وأرْخوا عليه الستائر، فصاروا يعبدونه من دون اللَّه ﷻ، هذا هو اللَّات.

﴿وَٱلْعُزَّىٰ﴾: شجرات من السَّلَم فِي وادي نَخلة بين مكّة والطائف، حَوْلَها بناء وستائر، وعندها سَدَنة، وفيها شياطين يكلّمون الناس، ويظنّ الجهّال أنّ هذا التي يكلّمهم هو نفس هذه الشجرات أو هذا البيت الذي بنوه مع أنّ التي تكلّمهم هي

الشياطين لتضلّهم عن سبيل اللَّه، وكان هذا الصنم لقريش وأهل مكَّة ومَن حولَهم.

﴿وَمَنَوٰةَ﴾: صخرة كبيرة فِي مكان يقع قريبًا من جبل قُديد، بين مكَّة والمَدينة، وكانت لِخُزاعة والأوس والخَزْرج، وكانوا يُحرمون من عندها بالحج، ويعبدونها من دون اللَّه.

فهذه الأصنام الثلاثة هي أكبر أصنام العرب.

قال اللَّه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ﴾ هل أغنتكم شيئًا؟، هل نفعتكم؟ هل نصرتكم؟ هل كانت تَخلق وترزق وتُحيي وتُميت؟ ماذا وجدتم فيها؟ هذا من باب الإنكار وتنبيه العقول إِلَى أنْ ترجع إِلَى رشدها، فهذه إِنَّمَا هي صخرات وشجرات ليس فيها نفع ولا ضر، مَخلوقة.

ولَمَّا جاء اللَّه بالإسلام وفتح رسول اللَّه ﷺ مكَّة المُشرّفة أرسل المغيرة بن شُعبة وأبا سفيان بن حرْب إِلَى (اللّات) فِي الطائف فهدماها بأمر رسول اللَّه ﷺ، وأرسل خالد بن الوليد إِلَى العزّى فهدمها وقطع الأشجار وقتل الجنيَّة الَّتِي كانت فيها تُخاطِب الناس وتضلّهم، ومَحاها عن آخرها -والحَمد للَّه-، وأرسل عليّ بن أبِي طالب إِلَى (مَناة) فهدمها ومَحاها[1]، وما أنقذت نفسها، فكيف تُنقذ أهلها وعُبَّادها ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أين ذهبت؟ هل نفعتكم؟ هل منعت نفسها من جنود اللَّه وجيوش المُوحِّدين؟

فهذا فيه دليل على أنّ هناك مَن يعبد الأشجار والأحجار، بل إنّ هذه الأصنام الثلاثة كانت هي أكبر أصنامهم، ومع هذا مَحاها اللَّه من الوُجود، وما دفعت عنها ولا نفعت أهلها فقد غزاهم رسول اللَّه ﷺ وقاتلهم ولَم تَمنعهم أصنامهم، فهذا فيه ما استدلّ له الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أنّ هناك مَن يعبد الأحجار والأشجار.

يا سبحان اللَّه بشر عقلاء يعبدون الأشجار والأحجار الجامدة الَّتِي ليس فيها

(١) انظر: زاد المعاد (٤/ ٤١٣-٤١٥).

وحديث أبي واقد الليثي ﵁ قال: «خرجنا مع النبي ﷺ إلَى حنين ونَحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لَهَا: ذات أنواط، فمررنا بسدرة؛ فقلنا: يا رسول اللَّه، اجعل لنا ذات أنواط كما لَهُم ذات أنواط . . .» الحَديث(١) [١٦].

عقول وليس فيها حركة ولا حياة، أين عقول البشر؟ تعالى اللَّه عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا.

[١٦] عن أبِي واقد الليثي ﵁ - وكان مِمَّن أسلم عام الفتح على المَشهور سنة ثمانٍ من الهجرة - .

يقال لَها: (ذاتُ أنواط)، والأنواط جمع نوط وهو: التعليق، أي: ذاتُ تعاليق، يعلِّقون بِهَا أسلحتهم للتبرّك بِهَا، فقال بعضُ الصحابة الذين أسلموا قريبًا ولَم يعرفوا التوحيد تَمامًا: «اجعل لنا ذاتَ أنواط كما لَهم ذاتُ أنواط» وهذه بليَّة التقليد والتشبُّه، وهي من أعظم البلايا، فعند ذلك تعجّب النبي ﷺ وقال: **«اللَّه أكبر! اللَّه أكبر!»**، وكان ﷺ إذا أعجبه شيء أو استنكر شيئًا فإنّه يكبِّر، أو يقول: **«سبحان اللَّه»** ويكرِّر ذلك.

«إنها السُّنَن» أي: الطُّرُق التي يسلُكها الناس ويقتدي بعضهم ببعض، فالسبب الذي حملكم على هذا هو اتّباع سنن الأولين والتشبُّه بالمُشركين.

«قلتم -والذي نفسي بيده- كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]». موسى ﵇ لَمَّا تَجاوز البحر ببني إسرائيل وأغرق اللَّه عدوّهم وهم فيه وهم ينظرون، مرُّوا على أُناسٍ يعكُفون على أصنام لَهم من المُشركين، فقال هؤلاء لِموسى ﵇: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أنكر عليهم وقال: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ يعني: باطل،

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٢١٨٠) في الفتن، باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم، وقال: «حديث حسن صحيح». وأخرجه أحمد (٥/ ٢١٨)، وابن أبي عاصم في السنة رقم (٧٦)، وابن حبان في صحيحه رقم (٦٧٠٢- الإحسان). وصححه ابن حجر في الإصابة (٤/ ٢١٦).

....

﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأنه شرك، ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٩- ١٤٠]، أنكر عليهم -عليه الصلاة والسلام- كما أنّ نبينا مُحمدًا ﷺ أنكر على هؤلاء، ولكن هؤلاء وهؤلاء لَمْ يشركوا، فبنو إسرائيل لَمَّا قالوا هذه المَقالة لَمْ يُشركوا لأنّهم لَمْ يفعلوا، وكذلك هؤلاء الصحابة لو اتّخذوا ذات أنواط لأشركوا، ولكنّ اللَّه حماهم، لَمَّا نهاهم نبيُّهم انتهوا، وقالوا هذه المَقالة عن جهل، ما قالوها عن تعمُّد، فلمَّا علِموا أنَّها شرك انتهوا ولَم ينفّذوا، ولو نفّذوا لأشركوا باللَّه ﷻ.

فالشَّاهد من الآية: أنّ هناك مَن يعبد الأشجار، لأنّ هؤلاء المُشركين اتّخذوا ذات أنواط، وحاول هؤلاء الصحابة الذين لَمْ يتمكّن العلم من قلوبهم حاولوا أن يتشبّهوا بِهم لو لا أنّ اللَّه حماهم برسوله ﷺ.

الشاهد: أنّ هناك مَن يتبرّك بالأشجار ويعكُف عندها، والعكوف معناه: البقاء عندها مدَّة تقرُّبًا إليها. فالعُكوف هو: البقاء فِي المَكان.

فدلّ هذا على مسائل عظيمة:

المَسألة الأولَى: خطر الجهل بالتوحيد، فإن مَنْ كان يَجهلُ التوحيد حَرِيٌّ أنْ يقع فِي الشرك وهو لا يدري، ومن هنا يَجب تعلُّم التوحيد، وتعلُّم ما يضادُّه من الشرك حَتَّى يكون الإنسان على بصيرة لئلا يُؤتى من جهله، لاسيّما إذا رأى من يفعل ذلك فيحسبُه حقًّا بسبب جهله، ففيه: خطرُ الجهل، لاسيّما فِي أمور العقيدة.

ثانيًا: فِي الحَديث خطرُ التشبُّه بالمُشركين، وأنّه قد يؤدِّي إلَى الشرك، قال ﷺ: «من تشبّه بقومٍ فهو منهم»(١)، فلا يَجوز التشبُّه بالمُشركين.

---

(١) أخرجه أبو داود رقم (٤٠٣١) فِي اللباس، باب فِي لبس الشهرة، وأحمد (٢/ ٥٠) من حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما.

قال شيخُ الإسلام ابن تيميّة: «هذا إسناد جيد». «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٣٦-٢٣٩).

وقال الحافظ العراقي فِي تَخريج الإحياء: (٢/ ٦٥): سنده صحيح.

وقال الحافظ ابن حجر فِي فتح الباري: (٦/ ٩٨): سندُه حسن.

القاعدة الرابعة: أن مشركي زماننا أغلظ شركًا من الأولين؛ لأن الأولين يشركون فِي الرخاء ويُخلصون فِي الشدة، ومشركو زماننا شركهم دائم فِي الرخاء والشدة، والدليل قوله تعالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] [١٧].

المَسألة الثالثة: أنّ التبرُّك بالأحجار والأشجار والأبنية شركٌ وإنْ سُمِّي بغير اسمه، لأنه طلب البركة من غير اللَّه من الأحجار والأشجار والقُبور والأضرحة، وهذا شرك وإن سمَّوه بغير اسم الشرك.

[١٧] القاعدة الرابعة -وهي الأخيرة-: أنّ مشركي زماننا أعظمُ شركًا من الأوّلين الذين بُعث إليهم رسول اللَّه ﷺ.

والسبب فِي ذلك واضح: أنّ اللَّه -جل وعلا- أخبر أن المُشركين الأولين يُخلصون للَّه إذا اشتدّ بِهم الأمر، فلا يدعون غير اللَّه ﷻ لعلمهم أنّه لا يُنقذ من الشدائد إلَّا اللَّه كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وفِي الآية الأخرى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾. يعني: مُخلصين له الدعاء، ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [لقمان: ٣٢]، وفِي الآية الأخرى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فالأوّلون يُشركون فِي الرخاء، يدعون الأصنام والأحجار والأشجار.

أمَّا إذا وقعوا فِي شدَّة وأشرفوا على الهَلاك فإنهم لا يدعون صنمًا ولا شجرًا ولا حجرًا ولا أي مَخلوق، وإنَّما يدعون اللَّه وحده ﷻ، فإذا كان لا يُخلِّص من الشدائد إلَّا اللَّه -جل وعلا- فكيف يُدعى غيرُه فِي الرخاء.

أما مشركو هذا الزمان -يعني: المُتأخرين- الذين حدث فيهم الشرك من هذه الأمَّة المُحمديَّة فإنّ شركهم دائمٌ فِي الرخاء والشدَّة، لا يُخلصون للَّه ولا فِي حالة الشدَّة، بل كلما اشتدّ بِهم الأمر اشتدّ شركهم ونداؤهم للحسن والحسين وعبد القادر والرِّفاعي وغير ذلك، هذا شيء معروف، ويُذكر عنهم العجائب فِي البحار،

أنَّهم إذا اشتدّ بِهم الأمر صاروا يهتفون بأسماء الأولياء والصالِحين ويستغيثون بِهم من دون اللَّه ﷻ، لأنّ دعاة الباطل والضلال يقولون لَهم: نَحن ننقذكم من البحار، فإذا أصابكم شيء اهتفوا بأسمائنا ونَحنُ ننقذكم.

كما يُروى هذا عن مشايخ الطُّرق الصوفية، واقرءوا -إنْ شئتم- «طبقات الشعراني» ففيها ما تقشعرّ منه الجلود مِما يسمّيه كرامات الأولياء، وأنهم يُنْقِذُون من البحار، وأنه يمدّ يده إلى البحر ويَحمل المَركب كله ويُخرجه إلَى البر ولا تَتَنَدَّى أكمامه، إلى غير ذلك من تُرَّهَاتهم وخُرافاتهم، فشركهم دائم فِي الرخاء والشدَّة، فهم أغلظ من المُشركين الأوّلين.

وأيضًا -كما قال الشيخ فِي «كشف الشبهات»-(١): من وجه آخر: (أنّ الأوّلين يعبدون أُناسًا صالِحين من المَلائكة والأنبياء والأولياء، أما هؤلاء فيعبدون أُناسًا من أفجر الناس، وهم يعترفون بذلك، فالذين يسمُّونهم الأقطاب والأغواث لا يصلُّون، ولا يصومون، ولا يتنزهّون عن الزنا واللواط والفاحشة، لأنهم بزعمهم ليس عليهم تكاليف، فليس عليهم حرام ولا حلال، إنَّما هذا للعوام فقط.

وهم يعترفون أنّ سادتهم لا يصلُّون ولا يصومون، وأنهم لا يتورَّعون عن فاحشة، ومع هذا يعبدونهم، بل يعبدون أُناسًا من أفجر الناس: كالحلَّاج، وابن عربي، والرّفاعي، والبدوي، وغيرهم).

وقد ساق الشيخ الدليل على أنّ المُشركين المُتأخِّرين أعظم وأغلظُ شركًا من الأوَّلين، لأنّ الأوَّلين يُخلصون فِي الشدَّة ويُشركون فِي الرخاء، فاستدل بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وصلى اللَّه وسلم على نبينا مُحَمَّد وآله وصحبه أجمعين.

❊ ❊ ❊

(١) انظر: كشف الشبهات (ص ١٦٩-١٧٠) ضمن مؤلَّفات الإمام المُجدّد/ قسم العقيدة.

فهارس الموضوعات

الرسالة الأولى: الأصول الستة

* * *

الرسالة الثانية: ستة مواضع من السيرة

* * *

الرسالة الثالثة: تفسير كلمة التوحيد

* * *

الرسالة الرابعة: بعض فوائد سورة الفاتحة

* * *

الرسالةالخامسة: نواقض الإسلام

* * *

الرسالة السادسة: الجامع لعبادة الله وحده

* * *

الرسالة السابعة: معنى الطاغوت

* * *

الرسالة الثامنة: القواعد الأربع

* * *